منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

دار الفكر - البصرة
DAR AL-FIKR BASRAH

أ.د. مصطفى عبد اللطيف جياووك

الحياة والموت
في الشعر الجاهلي




hamed khatab



الحياة والموت في الشعر الجاهلي

الدكتور
مصطفى عبد اللطيف جياووك


لسان العرب

بسم الله الرحمن الرحيم

كان التفكير في هذا البحث من ثمرة نقاش أداره استاذنا الدكتور محمد حسين حول لامية الأعشى التي يتحدث فيها عن القدر ، وكان ذلك في محاضراته التي ألقاها على طلبة السنة الاولى للماجستير في كلية الآداب بالاسكندرية ، وقد جعلت الحياة والموت في الشعر الجاهلي موضوعا لبحث تمهيدي تقدمت به اليه ، وكشف لي هذا البحث عن خصب الموضوع ووفرة مادته من الشعر الجاهلي ، وقد شجعني أستاذنا على أن أمضي في بحث الموضوع .. وساعدني في وضع خطته ، وكان من أكبر التشجيع أن يقبل الاشراف على اعداده .

والبحث يقع في ثلاث أبواب ، الباب الاول منها مخصص للعقائد الدينية في الجاهلية وما يتأثر بها من القيم الاجتماعية والخلقية .. وقد أخذت نفسي في دراسة العقائد الدينية - وهي موضوع الفصل الاول - بأن لا أقبل الا ما كان مؤسسا على نص موثوق بصحته كالقرآن الكريم والحديث الصحيح ثم لم أجد بأسا بعد هذا الاساس المتين في أن أقبل من الاخبار ما هو أقل ثقة لاكمال الفهم وتفصيل القول وحاولت ان اترك الحديث للنصوص وأن لا أتسع في الاستنتاج في غالب الفصل لما اعرفه من تداخل الموضوع بتاريخ الاسلام مما يجعل أبسط الاخطاء خطيرا .

وفي الفصل الثاني جعلت الكلام على أثر العقائد الدينية في القيم الاجتماعية والخلقية عاما ولم أنسب أكثر هذه الآثار الى دين بعينه الا حين يكون ذلك واضحا غير ملتبس ، وتجنبت بذلك ما وقع فيه غالب الباحثين من غير المسلمين من نسبة كل خير في عرب الجاهلية الى النصرانية أو اليهودية وهي عندهم عقائد أجنبية داخلة على العرب ، والدافع الى ذلك الغض من

العرب والطعن على الاسلام .. وقد رأيت ان ترك الحديث عاما يدفع ضرر العصبية ولا يضر البحث ، لانني أدرس هذه العقائد لاعرف المادة الميسرة للشاعر الجاهلي فلا أرفض الشعر أو أقبله نتيجة تصور خاطيء للمستوى الديني والعقلي للجاهلية ..

والباب الثاني من البحث مخصص لاستقراء أفكار الشعراء في الحياة والموت في أغراض الرثاء والحماسة والحكمة ، وهي الاغراض التي لاحظت وفرة مادة البحث فيها دون غيرها ، وقد جعلت لكل غرض منها فصلا خاصا به .. وهذا هو أصلح تقسيم استطعت أن أصل اليه مع انه ليس فاصلا ، فالتداخل بين الرثاء والحكمة ، وبين الرثاء والحماسة واضح . وقد تسبب ذلك في صعوبة تصنيف بعض النصوص ، وأدى الى تردد نصوص قليلة في فصول هذا الباب .

والدراسة الفنية تستقل بباب من فصلين أولهما دراسة لقصص الانسان التاريخي والواقعي وقصص الحيوان . وثانيهما دراسة للصور الفنية واللغة وتركيب القصيدة ، ومن أهم الصعوبات التي وجدتها في هذا الفصل ندرة السمات العامة ، وذلك راجع الى تباعد ما بين الاغراض التي جاء فيها الحديث عن الحياة والموت .

وقد اضطرني البحث الى الرجوع الى كتب التفسير كتفسير الطبري والقرطبي وابن كثير وكتب الحديث كالصحيحين ، وكتب السيرة والتراجم كالروض الانف وطبقات ابن سعد واسد الغابة والاصابة ، وكتب التاريخ مثل تاريخ الطبري وابن الاثير وابن كثير ، والى كتب الادب العامة مثل كتب الجاحظ والاغاني والكامل ، وكتب الطبقات والمجموعات الشعرية كالحماسات والمفضليات والاصمعيات والوحشيات ومنتهى الطلب المخطوط . ودواوين الشعراء .. واخترت من المصادر - حيث تيسر لي - ما كان محققا تحقيقاً علمياً لأفيد من الجهود المخلصة في اخراجه . وقد أفادتني البحوث

الحديثة ودلتني على الصواب غالبا وأرشدتني الى ما أجهل من مصـــــادر البحث دائماً . ومن ذلك تاريخ العرب قبل الاســـــلام للدكتور جواد علي وتاريخ العرب القديم الذي ترجمه عن جماعة من المؤلفين وأضاف اليه اضافة قيمة الدكتور فؤاد حسنين ، وغير ذلك كثير .

ولا يسعني الا أن أوجه عميق شكري وتقديري لكل الذين ساعدوني في اتمام هذا البحث والحمد لله أولا وأخيراً والصلاة والسلام على رسول الله وآله صحبه .



الباب الاول

العقائد الدينية في الجاهلية
واثرها في القيم الاجتماعية والخلقية



الفصل الأول

عقائد الجاهلية

١ - الشـــرك :

لا ندري على التحقيق كيف اصطلح مشركو العرب على تسمية دينهم ولا يمكن أن أتصور أن دينهم ظل عندهم بلا اسم علم عليه ، وانهم لم يفرقوا بينه وبين اليهودية والنصرانية وغيرهما . والغالب ان هذا الاسم طغى عليه ما أطلقه الاسلام من اسم الشرك[1] .

ويرى قسم من اللغويين - ومن أوضحهم في ذلك أبو عبيدة - ان العرب كانوا يسمّون دينهم بالحنيفية .. يقول أبو عبيدة : « الحنيف في الجاهلية من كان على دين ابراهيم ، ثم سمّي من اختتن وحج البيت حنيفا لما تناسخت السنون وبقي من يعبد الأوثان من العرب: قالوا نحن حنفاء على دين ابراهيم، ولم يتمسكوا منه الا بحج البيت والختان ، والحنيف اليوم المسلم »[2] . وجاء عنه في اللسان : « من كان على دين ابراهيم فهو حنيف عند العرب ، وكان عبدة الأوثان في الجاهلية يقولون نحن حنفاء على دين ابراهيم ، فلما جاء الاسلام سمّوا المسلم حنيفا »[3] .

---

(١) الحيوان ١/٣٣٢ . وصرح الجاحظ بأن الشرك محدث اسلامي .
(٢) مجاز القرآن ١/٥٨ .
(٣) لسان العرب مادة حنف .

وقال غير أبي عبيدة ان الحنيفية عند العرب حج البيت وبعض مسائل الفطرة[٤] وهي مما التزم به العرب وخاصة الاختتان ، وقد ذكر التزامهم به في المصادر الكلاسيكية الاجنبية[٥] .

قال الزجاجي : « وكان الحنيف في الجاهلية من كان يحج البيت ويغتسل من الجنابة ويغسل موتاه ويختتن ، ولما جاء الاسلام صار الحنيف المسلم »[٦] .

وقال الفرّاء : « الحنيف من سنته الاختتان » .

وقال الأخفش : « الحنيف المسلم ، وكان في الجاهلية يقال : من اختتن وحج البيت حنيف ، لأن العرب لم تتمسك في الجاهلية بشيء من دين ابراهيم غير الختان وحج البيت ، فلما جاء الاسلام تمادت الحنيفية ، فالحنيف المسلم »[٧] .

وجاء ما يؤيد ذلك عن أهل الكتاب الجاهليين ومنه قول بسطام بن قيس الشيباني لأخيه بجاد يحذره من أن يحاول انقاذه فيؤسر معه في يوم الغبيط : « ان كررت يا بجاد فأنا حنيف »[٨] . وهي عبارة يمكن ان تحمل على التهديد بالعودة الى الشرك .

---

(٤) مسائل الفطرة كما يروى عشرة : خمس في الراس وخمس في الجسد ومنها الاختتان وقص الشارب وفرق الشعر ونتف الابط ... الخ . انظر الجامع لاحكام القرآن ٩٨/٢ ، معاني القراء ٧٦/١ ، بلوغ الارب ٢٨٧/٢ .

(٥) تاريخ العرب قبل الاسلام ٢٨٧/٥ .

(٦) امالي الزجاجي ص ٢ .

(٧) اللسان مادة حنف .. ونقل اقوالا للجوهري والازهري مثل التي اثبتناها .

(٨) النقائض ٢١٤/١ ، الاصابة ٨٥/٥ . في ترجمة قائله عاصم بن خليفة الضبي .

وجاء في « اخبار فطاركة كرسي المشرق » فيما قبل الاسلام قوله عن الأسقف « بابوي » : « هذا الاب كان فهيماً فيلسوفاً كثير الفحص عن المذاهب وكان من قبل حنفياً مجوسياً » . وقوله ينقل جدالا بين برصوما وزينون حول طبيعة المسيح عليه السلام : « وبهذا وحده يتحل ويبطل ضلالة الحنفية وطغيانها وتعللات اليهودية وبهتاناتها » . وقوله : « لأن الحنفاء لبعدهم عن معرفته تمسكوا باسمه فقط وسمّوا أصنامهم آلهة وعبدوها وتغالوا في مدحها حتى اعتقدوا في الصور العديمة الحياة انها لا تموت »[٩] .

نرى من هذه المواضع أنه يقصد جماعة تستوعب المجوسية والوثنية ولونا من التوحيد الذي ينتقد القول بتعدد طبيعة المسيح عليه السلام . ولعله يقصد العرب عامة .

وقد ورد استعمال الحنيفية كمصطلح قومي يطلق على العرب عن ابن عباس ، فقد روى عنه ابن الكلبي قوله : « أول من ركب الخيل واتخذها اسماعيل بن ابراهيم وأول من تكلم بالعربية الحنيفية ... »[١٠] .

وجاء في دائرة المعارف الاسلامية ان المسعودي وبعض المحدثين يرون أن كلمة الحنيف دخلت العربية من أصل آرامي كنعاني . ويضيف كاتب المادة ان معناها في لغة الأصل المنافق أو الملحد أو الوثني أو الكافر . ولكن جواد علي يذكر ان هذا الاستعمال ليس قديما على وجه ثابت .. وانه قد يكون انتقل من المسلمين الى السريان[١١] وهذا أقرب الى الفهم .. فمن الطبيعي أن يعتبر النصارى المسلمين كافرين وأن يحمّلوا كلمة الحنيفية هذا المعنى الذي ليس في أصلها .. ومن البعيد ان ينقل العرب الكلمة ليدللوا بها على معنى يناقض دلالتها الاصلية تماماً .

---

(٩) اخبار فطاركة كرسي المشرق : ص ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٣ .

(١٠) انساب الخيل : ص ١٢ . ويذكر المحقق ان الكلمة وردت في كل اصول الكتاب التي نشره عنها .

(١١) تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/٥٦ .

والقرآن الكريم لا يترك لبسا في ان الحنيفية دين ابراهيم عليه السلام ، فقد نسبت اليه في سبعة مواضع[١٢] ، والقرآن الكريم يصرّح كذلك بأنها دين معيّن فيما « ملة ابراهيم حنيفا » في خمس من الآيات الكريمة المذكورة .. ويميزها عن اليهودية والنصرانية والشرك كما سيأتي.

ليس غريبا اذن أن ينظر المسلمون الى الحنيفية على انها دين ابراهيم وانها في الأصل دين توحيد خالص ورثه العرب عنه ، ثم طرأ عليهم الشرك من بعد . وقد فسر دخول الشرك على دين العرب تفسيرات من أهمها ان عمرو ابن لحي الخزاعي رأى الاصنام عند غير العرب فأعجبته فأمرهم بعبادتها . وقد ورد ذلك في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأكثم بن الجون الخزاعي وقد تخوّف من مشابهته لعمرو : « انك مؤمن وهو كافر ، انه كان أول من غير دين اسماعيل ، فنصب الاوثان وبحّر البحيرة وسيّب السوائب ووصل الوصيلة وحمى الحامي »[١٣] وهو حديث معروف[١٤] .

ويقول السهيلي مصوراً تاثير عمرو بن لحي في العرب : « وكان عمرو ابن لحي حين غلبت خزاعة على البيت ونفت جرهم عن مكة جعلته العرب ربا لا يبتدع لهم بدعة الا اتخذوها شرعة لأنه كان يطعم الناس ويكسو في الموسم ، فربما نحر في الموسم عشرة آلاف بدنة وكساعشرة آلاف حلةحتى انه اللات الذي يلت السويق للحجيج على صخرة معروفة تسمى صخرة اللات ويقال ان الذي يلت كان من ثقيف فلما مات قال لهم عمرو أنه لم

---

(١٢) البقرة : ١٣٥ ، آل عمران : ٦٧ ، ٩٥ ، النساء : ١٢٥ ، الانعام : ١٦١ ، النحل : ١٢ ، ١٢٣ .

(١٣) السيرة : الروض الانف ١/٦١ .

(١٤) انظر في ذلك تفسير الطبري « بولاق » ٧/٥٦ ، الاصنام ٨ ، ٥٥ الاشتقاق ص ٦٨) المحبر ص ٩٩ ، وانظر طرق الحديث في البداية والنهاية ٢/١٨٧ ، فتح ٦/٤٢٨ ولفظ الحديث في البخاري : « رايت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قصبة في النار وكان اول من سيب السوائب » .

بيت ولكنه دخل في الصخرة ثم أمرهم بعبادتها وأن يبنوا عليها بيتاً يسمى بيت اللات »[١٥] .

وللقدماء في سبب دخول الشرك على العرب آراء أخرى منها ان الاصنام في الاصل آباؤهم مثلوها ثم نسوا أصلها فعبدوها متدرجين من الاحترام الى التقديس ، ومنها انهم نقلوا من أحجار الحرم للتبرك بها ثم تدرجوا الى عبادة الحجر ، وكل ذلك لا يغير من انهم رأوا الشرك طارئاً على العرب بعد التوحيد[١٦] .

نظرة القدماء الى الحنيفية كما رأينا واضحة .. واتى اللبس في الحقيقة من انه ورد في الحديث والاخبار أسماء اشخاص معينين وصفوا بأنهم كانوا حنفاء في الجاهلية .. ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل وهو في الواقع أهمهم لأن أخباره وصلتنا في أحاديث صحيحة ميزته من اليهود والنصارى ونصت على حنيفيته[١٧] ، وأدى ذلك الى الظن بأن الحنيفية عقيدة اعتنقتها جماعة صغيرة يمكن احصاء أفرادها ، وليس الاسم الذي أطلق على دين الاكثرية الساحقة من العرب ، كذلك أدى الى ما جاء في أخبار بعض الحنفاء من انهم سألوا عن دين ابراهيم بعض أهل الكتاب ، ونسبة الاخبار لبعض الحنفاء الى النصرانية أحياناً ، أدى الى الظن بأن الحنيفية كانت غامضة في الذهن الجاهلي .

وتبنى النظرة الحديثة الى الحنفاء على هذا التصور ، وقد وصل المستشرقون فيها الى نتائج متنافرة غريبة ، من أهمها القول بأن الحنيفية شيعة نصرانية دخل على عقائدها بعض التعديل .

---

(١٥) الروض الانف ٦٢/١ .

(١٦) الروض الانف ٦٣/١ ، البخاري ٣/٨)٥ ، فتح الباري ، والحديث عن ابن عباس .

(١٧) البخاري : فتح الباري ١١٣/٧ . وانظر في اخبار من كان على دين من العرب ومنهم الاحناف : بلوغ الارب ٢/٢)٢ ، المعارف لابن قتيبة ص ٥٨ ، المحبر ص ١٧١ ، مروج الذهب ١/)٢٥ .

ومن انتهى الى ذلك سبرنغر وفلهوزن وبرسـال . ويرى فلهوزن خاصة ان الكلمة في الاصل تعني الراهب النصراني ، وكثيرة تعني جماعة من الزهاد النصارى يمتازون بالتقوى الشديدة وان لهذه الجماعة صلة بظهور الحنيفية عند العرب[18] .

ويرى بلاشير أن الحنيفية تشبه المانوية ولهـذا فهي تشبه المسيحية[19] .

ويرى دي غوى ان معنى الكلمة الكافر . ويظن مرجليوث ان معناها دائما المسلم[20] .

وانتهى كاتب المادة في دائرة المعارف الاسلامية الى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في استعماله للكلمة يتبع استعمالا مقررا وان الكلمة قبل عهده كانت تدل على القوم الذين رفضوا النصرانية واليهودية ـ وان تأثروا بالنصرانية ـ التماساً لدين أبسط وأدنى الى الفطرة . وان حقيقة الحنيفية لا يمكن كشفها بما نملك من أخبارها .

ويرى جواد علي ان الحنفاء كانوا أفراداً لا تجمعهم رابطة غير اتفاق بعض أفكارهم .. مثل رفض الاصنام والدعوة الى الاصلاح .. وانهم لم يكونوا طائفة معينة تسير على شرع ثابت[21] .

ومن الواضح من هذا العرض ان هذه الآراء كلها تذهب الى ان الحنيفية فرقة جاهلية صغيرة أو أفراد متفرقون لا يكونون جماعة ، وذلك على عكس رأي القدماء الذين يذهبون الى ان الحنيفية دين ابراهيم عليه السلام وان العرب ورثوه منه ثم خلطوه بالشرك .. وانهم احتفظوا بالتسمية علماً على شركهم ..

---

(18) تاريخ العرب قبل الاسلام ٦/٢٩١ ، النصرانية وادابها ١/١٢١ ، دائرة المعارف الاسلامية ٨/١٢٦ .

(19) تاريخ الادب العربي ص ٦٧ ـ ٦٨ .

(20) دائرة المعارف الاسلامية .

(21) تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/٥٩ .

وانا أكثر اقتناعاً برأي القدماء .. لأسباب أوجزها فيما يأتي :

وفي مقدمة ذلك ما يتضح من مراجعة المواضع التي جاءت فيها الكلمة في القرآن الكريم ويلاحظ فيها جميعاً التأكيد على ان الحنيفية الابراهيمية والاسلامية ليست مشركة :

يقول تعالى : « وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » . البقرة ١٣٥ .

« ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » . آل عمران ٦٧ .

« قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » . آل عمران ٩٥ .

« ومن أحسن دينا ممّن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله ابراهيم خليلا » . النساء ١٢٥ .

« إنّي وجّهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما انا من المشركين » . الانعام ٧٩ .

« قل إنّني هداني ربّي الى صراط مستقيم دينا قيّما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » . الانعام ١٦١ .

« وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين » . يونس ١٠٥ .

« إنّ إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين » . النحل ١٢٠ .

« ثمّ أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين» . النحل ١٢٣ .

« فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكنّ أكثر النـاس لا يعلمون ، منيبين إليـه واتقوه واقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين » ، الروم ٣٠ ،

« حنفاء لله غير مشركين به » ، الحج ٣١ ،

« وما أمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء » ، البينة ٥ ،

وقد صرحت الآيات الكريمة بنفي الشرك عنـد ذكر الحنيفية عدا آيتي النساء التي جاء فيها : اسلم وجهه لله ؛ والبينة التي جاء فيها : مخلصين له الدين ، ولو كانت الحنيفية معروفة بترك الاصنام عند العرب مشـتهرة بالتوحيد لما كان هناك مبرر لهذا النفي المؤكد لشبهة الشرك عن الحنيفيـة وتمييزها عنه ، وقد التفت الرازي الى ذلك فقال بعد ان روى عن ابن عباس والحسن ومجاهد ان الحنيفية هي الحج : « وثانيها ان الحنيف اسم لمن كان يدين بدين ابراهيم ، ومعلوم انه عليه السلام أتى بشرائع مخصوصة من حج البيت والختان وغيرها ، فمن دان بذلك فهو حنيف ، وكانت العرب تدين بذلك ثم كانت تشرك فقيل من أجل ذلك « حنيفا وما كان من المشـركين » ونظيره قوله : « حنفاء لله غير مشركين به » وقوله : « وما يؤمن أكثرهم بالله الاّ وهم مشركون »[٢٢] ، فهو هنا يرى ان نفي الشرك عن حنيفية ابراهيم والاسلام يراد به تفريقها عن حنيفية الجاهلية التي ذكر أخذها بالحج والختان مما شرع لابراهيم عليه السلام واضافتها الشرك .

وقد رأينا ابن عباس والحسن ومجاهدا يفسـرون الحنيفية بالحـج ، ونقل الطبري عن عبدالله بن القاسم قوله: «كان ناس من مضر يحجون البيت في الجاهلية يسـمّون حنفاء . » وروى مثل ذلك عن الحسن وعطية ومجاهـد والضحاك بن مزاحم وابن عباس[٢٣] ونحن نلمح في هـذا التفسـير مثل

---

(٢٢) تفسير الرازي ؛ ٤/٦٠ — ٦١ .

(٢٣) تفسير الطبري « المعارف » ٣/١٠٤ .

ما صرّح به الرازي . فاذا كان الحج هو الحنيفية فهو يجمع بين المسلمين والمشركين ثم انه ينفي التفرقة بينهم .

وقد رأينا ان الحنيفية نسبت الى ابراهيم وانها دينه وملته[٢٤] وابراهيم عليه الصلاة والسلام خطير المكان في دين الجاهلية . فقد جاء في الحديث الصحيح ان صورته وصورة ابنه اسماعيل عليهما السلام كانت في داخل الكعبة تمثلهما وهما يستقسمان بالأزلام وقال الرسول صلى الله عليه وسلم حين رآها : « قاتلهم الله أم والله قد علموا انهما لم يستقسما بها قط »[٢٥] . وفسر المسعودي وجود هذه الصور بالكعبة فقال : « وكان في حيطانها صور كثيرة بأنواع من الاصباغ عجيبة منها صورة ابراهيم الخليل في يده الازلام يستقسم بها ويقابلها بخبر الناس مقبضا والعاروب قائم على وفد الناس يفسم فيهم وبعد هذه الصورة صور كثير من أولادهم الى قصي بن كلاب وغيرهم في نحو ستين صورة مع كل واحدة من تلك الصور اله صاحبها وكيفية عبادته وما اشتهر من فعله »[٢٦] . ثم يذكر بعد ذلك انهم أعادوا الصور حين بنوا الكعبة الى حالها .

وصورة ابراهيم والازلام في يده بالكعبة توحي بأنهم تصوروه في صورة مشركة اعترض عليها النبي صلى الله عليه وسلم ومحاها . وكونها أول الصور كما يقول المسعودي يفسر بأن ابراهيم عندهم أصل من أصول دينهم ان لم يكن أصله الوحيد .

وعن ابراهيم عليه الصلاة والسلام باني الكعبة أخذ العرب مناسك الحج كلها . وظلوا يمارسونها على ما شابها من أوهام الشرك الى أن جاء الاسلام . وظلوا ينسبون بناء الكعبة اليه أيضا .

---

(٢٤) وانظر ايضا : مفردات الراغب ١/١٣٢ ، النهاية في غريب الحديث ١/٢٦٥ . الجامع لاحكام القرآن ٢/١٣٩ .

(٢٥) البخاري : فتح الباري ٣/٣٦٨ ، ٦/٣٩٦ ، ٨/١٣ .

(٢٦) مروج الذهب ٢/١٦٨ ، ١٧٠ ، وانظر حديث صورة ابراهيم في السيرة: الروض الانف ٢/٢٧٤ ، البداية والنهاية ٤/٣٠١ . تاريخ مكة ١/١١٠ــ١١١ .

جاء في الصحيح عن عمر رضي الله عنه : « قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام ابراهيم مصلّى » . وجاء : « لما طاف النبي صلى الله عليه وسلم قال له عمر هذا مقام أبينا قال نعم قال أفلا نتخذه مصلّى فانزل الله عز وجل : واتخذوا من مقام ابراهيم مصلّى .. »[٢٧] وعلى الخلاف في حقيقة المقام فقد رجحوا انه أثر رجل ابراهيم عليه السلام في الصخر عندما كان يبني الكعبة .. ويعتبر الرازي هذا القول قول المحققين[٢٨] ويروي ابن حجر عن أنس أنه رأى هذا الأثر . وعن قتادة انه اندلر لأنهم كانوا يمسحونه وانه رأى من شهد هذا الأثر[٢٩] .. وذهب بعض الرواة الى ان المقام هو الحج كله أو الحرم كله أو غير ذلك . ويبقى لنا من الآية الكريمة ومن الاخبار ان المقام مكان بعينه معروف النسبة الى ابراهيم ..

وجاء في الحديث عن يزيد بن شيبان الأزدي انه صلى الله عليه وسلم أرسل اليهم يقول : « انكم على ارث من ارث ابراهيم فكونوا على مشاعركم »[٣٠] .

ومما يدل كذلك على معرفة عرب الجاهلية بقصة ابراهيم وجود قرني الكبش الذي فدى به ابنه بالكعبة . فقد رآهما النبي عليه الصلاة والسلام معلقين بها يوم الفتح . وأمر سادن الكعبة بأن يخمرهما لانهما يلهيان المصلي[٣١] وقد بقيا بالكعبة حتى رآهما ابن عباس والشعبي[٣٢] ثم انهما

---

(٢٧) البخاري : فتح الباري ١٣٨/٨ ؛ تفسير ابن كثير ٢٠٨/١ .. ويذكر ابن كثير ان الحديث رواه البخاري ومسلم وابن عون والترمذي والنسائي وابن ماجه .

(٢٨) تفسير الرازي ٥٣/٤ . وانظر الاقوال في المقام في تفسير الطبري « المعارف » ١٩/٧ ـ ٢٨ ؛ الجامع لاحكام القرآن ١١٢/٢ .

(٢٩) فتح الباري ١٣٨/٨ .

(٣٠) اسد الغابة ١١٥/٥ ، ١٢٠ الاصابة ٣٤٤/٦ .

(٣١) مسند احمد ٦٨/٤ ، ٣٧٦/٥ . تاريخ مكة ١٥٦/١ ، ١٠٦ . تاريخ اليعقوبي ٤٦/٢ .

(٣٢) تفسير الطبري (بولاق) ٥٣/٢٣ ، البداية والنهاية ١٥٨/١ .

احترقا في حريق الكعبة أيام ابن الزبير[٣٣] . والمفسرون يختلفون في الذبيح من أبناء ابراهيم أهو اسماعيل أو اسحق عليهم السلام . فيذهب ابن كثير الى انه اسماعيل ويروى ان النبي صلى الله عليه وسلم سمي ابن الذبيحين وان مسلما من أصل يهودي ذكر لمعاوية ان الذبيح اسماعيل ولكن اليهود تصوا على اسحق حسداً للعرب . وينتهي الطبري الى ان الذبيح اسحق وان القرنين قد يكونان نقلا من الشام .. ولا يهمنا هنا غير قدم هذا الخلاف ومعرفة أهل الجاهلية بالفداء من قصص ابراهيم عليه الصلاة والسلام . وارتباط ذلك بالكعبة عندهم[٣٤] .

وانتسب قسم كبير من العرب الى اسماعيل وخاصة عرب الشمال . حتى ذكروا انه لا خلاف في انتساب العدنانيين اليه عليه السلام مع خلاف طويل في عدة الآباء بين عدنان واسماعيل يقول ابن كثير : « لا خلاف ان عدنان من سلالة اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام واختلفوا في عدة الآباء بينه وبين اسماعيل على أقوال كثيرة »[٣٥] . وزاد آخرون فجعلوا قحطان أيضاً من نسل اسماعيل عليه السلام . وفي صحيح البخاري باب باسم : « نسبة اليمن الى اسماعيل منهم أسلم »[٣٦] . وفيه أورد حديث سلمة : « قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوم يتناضلون بالسوق فقال ارموا بني اسماعيل ... » وروى البلاذري عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « العرب كلها بنو اسماعيل الا أربع قبائل ... » وروى هو والمبرد قوله عليه الصلاة والسلام : « اسماعيل أبو كل عربي في الأرض »[٣٧] .

---

(٣٣) اسد الغابة ١٦٣/٣ .
(٣٤) تفسير الطبري (بولاق) ٥٣/٢٣ — البداية والنهاية ١٥٨/١ .
(٣٥) البداية والنهاية ١٩٣/٢ . وانظر ايضا الروض الانف ٨/١ . الاشتقاق ص٥ ، ٤٣ . اسد الغابة ١٢/١ ، نهاية القلقشندي ص ٢٣ ، عقد الجمان ص ١٠٦ — ١٠٧ .
(٣٦) فتح الباري ٤١٩/٦ ، وانظر البداية والنهاية ١٥٦/٢ ، انساب الاشراف ٥/١ .
(٣٧) انساب الاشراف ٤/١ ، ٥ . نسب عدنان وقحطان ص ١٨ .

ولا يمكن ان تتصور هذا النسب الى اسماعيل عليه السلام اسلامياً متأخرا لأنه يرتقي الى عصر النبي صلى الله عليه وسلم .. وما قبله .. يقول امرؤ القيس(٣٨) :

الى عرق الثرى وشجت عروقي   وهذا الموت يسلبني شبابي

ويقول متمم بن نويرة(٣٩) :

فعددت آبائي الى عرق الثرى   فدعوتهم فعلمت أن لم يسمعوا

وعرق الثرى هو اسماعيل كما جاء في الحديث انه عليه الصلاة والسلام قال : « معد بن عدنان بن ادد بن زند «بالنون» بن اليرى بن اعراق الثرى » قالت أم سلمة : فزند هو الهميسع واليرى هو نبت واعراق الثرى هو اسماعيل لأنه ابن ابراهيم وابراهيم لم تأكله النار كما ان النار لا تأكل الثرى . وقد قال الدارقطني : « لا نعرف زندا الا في هذا الحديث »(٤٠) .

وكذلك فان النبي صلى الله عليه وسلم انتسب الى اسماعيل ولكنه هو أو أحد الصحابة انكر تحديد أسماء آباء العرب بين عدنان واسماعيل .. مما يدل على ان هذا النسب أقدم من عصر الاسلام(٤١) ..

ونسب العرب الى اسماعيل عليه السلام جملة من الاشياء ذات الدلالة : منها انه أول من نطق بالعربية وأول من ركب الخيل . وأول من رمى عن القوس العربية(٤٢) .

---

(٣٨) ديوان امرىء القيس رقم ١١ ص ٩٧ .

(٣٩) المفضليات رقم ٩ ص ٥٤ .

(٤٠) الروض الانف ١/٨ ، البداية والنهاية ٢/١٩٣ ، الطبقات الكبرى ١/١/٢٨ . تاريخ الطبري ٢/٢٧١ ، انساب الاشراف ١/٦ .

(٤١) راجع في ذلك الاشتقاق ص ٤ ، نسب عدنان وقحطان ص ١ ، البداية والنهاية ٢/١٩٤ ، الطبقات الكبرى ١/١/٢٨ . قلائد الجمان ص ٢٦ ، نهاية الارب للقلقشندي ص ٢٤ وكتاب نيكلسون ص ١٨ * الانكليزي * طبع لندن ١٩١٤ من المقدمة .

(٤٢) انساب الخيل ص ١١ ، الحيوان ٣/١٧٢ ، رسائل الجاحظ ١/٣١ ، ٢١٨ ، ٢/٢١ تاريخ اليعقوبي ١/١٨١ .

ويرد أحياناً تصريح بأن العرب كانت تدعي دين ابراهيم عليه السلام . روى الواحدي في الحوار الذي دار بين المسلمين والمشركين عند النجاشي : « فانكر ذلك المشركون وادعوا دين ابراهيم ... »[٤٣] وصح ان زيد بن عمرو بن نفيل قال لقريش : « يا معاشر قريش والله ما منكم على دين ابراهيم غيري »[٤٤] . ولو لم يكونوا يدعون دين ابراهيم لم يكن لقوله هذا معنى أو مبرر ..

نعود بعد ذلك الى الأفراد الذين نصّ أهل الاخبار على انهم كانوا من الحنفاء لنتساءل لماذا ذكروا هؤلاء خاصة اذا صح ما نذهب اليه من ان العرب جميعاً كانوا يزعمون انهم حنفاء ؟ . والحقيقة ان أهل الاخبار لم يقتصروا على الحنفاء في هذا الصنيع . فقد ذكروا أفرادا من النصارى مثل ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث ... وذكرهم لا يعني ان النصرانية انحصرت فيهم على نفس القياس يكون من غير المقصود حصر الحنيفية في الافراد الذين ذكروا انهم كانوا حنفاء .. وأغلب الظن ان ذكر هؤلاء النصارى والحنفاء يدل على الرضا عن دينهم بالمقياس الاسلامي .

ويلاحظ كذلك انهم في الغالب ممن يتصل بسبب بالسيرة وتاريخ الاسلام ... فاسعد ابو كرب كف عن افتتاح المدينة وكسا الكعبة حين علم انهما مهاجر الرسول صلى الله عليه وسلم ومبعثه . وورقة بن نوفل ممن آمن بالاسلام وطمأن النبي صلى الله عليه وسلم الى طهارة الوحي وصدقه .. وأمية بن أبي الصلت ممن كان يتوقع الرسالة القدسية . وأبو عامر الراهب ممن أصرّ على حرب الاسلام من الأوس والخزرج[٤٥] ..

وبعد .. فان تحقيق هذا الاسم سيمكننا من فهم كثير من العقائد والعبادات التي وجدت لدى حنفاء الجاهلية المشركين .. اذ ينبغي ان نضع في حسباننا ما انحدر مع هذا الاسم من أفكار وعبادات موروثة .

---

(٤٣) اسباب النزول ص ٦١ .

(٤٤) البخاري ، فتح الباري ١١٣/٧ ــ ١١٤ . الروض الانف ١٤٦/١ .

(٤٥) الروض الانف ١٤٥/١ ، ٢٢/١ . وانظر الهامش ١٧ ص ١٥ .

ولا نحتاج الى التدليل على معرفة المشركين بالله على نحو ما . فالقرآن الكريم لا يترك شكاً في ذلك .. أما الاصل في هذه العقيدة فقد ذهب المسلمون بحجة قوية من القرآن والحديث الى انها جاءتهم عن ابراهيم عقيدة موحدة ثم طرأ عليها الشرك .. واختلف المستشرقون في أصل هذه العقيدة ، ولكنهم يقررون انها عقيدة معروفة بين الساميين أو غالبهم[٤٦] .

واللفظة ــ بغض النظر عن التوحيد ــ وجدت عند العرب من أقدم عصورهم وفي مناطق سكناهم كلها .. يقول دتلف نلسن وهو يناقش الصيغ التي وردت بها اللفظة في النقوش والآثار العربية : « ان آله الوارد ذكره في النقوش الصفوية ذكر أيضاً في النقوش الثمودية التي عثر عليها « هوبر » عام ١٨٩١ ، وذلك ضمن أسماء أعلام وعلاوة على ذلك فقد كان مثل « ال » معروفاً في كل مجامع النقوش العربية القديمة فذلك الاله وذلك الاسم كانا اذن معروفين فيما قبل الاسلام ليس فقط في شمال بلاد العرب بل في كل الجزيرة العربية »[٤٧] ، ويقول بعد ان يناقش صيغ الاسم عند الساميين والعرب : « فهي نفس الكلمة المعروفة ومعناها الله ، وهذا « الله » لم يأت فقط مع محمد بل كان معبودا مقدساً في انحاء بلاد العرب منذ العصور القديمة ولو أن « اله » أو « آله » في عصر تعدد الآلهة لم يلعب دوراً هاماً الا انه كما هو ثابت الاله الرئيس عند الشعوب السامية منذ العصور التاريخية »[٤٨] وينسب جواد علي الى « بعض المستشرقين القول بأن الله تعالى هو اسم صنم كان بمكة أو انه اله أهل مكة[٤٩] .. وهو لا يقبل هذا الرأي لأن التوحيد كان معروفاً قبل الاسلام ووجد في اليمن في الأيام القريبة من الاسلام .

---

(٤٦) تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/٦٣ ، ٧٦ ، النصرانية وادابها ١/٨ .

(٤٧) التاريخ العربي القديم ٢١١ .

(٤٨) التاريخ العربي القديم ٢١٢ . ويذكر هنا ان الله لم ينظر اليه على انه اله قبلي ولم يتصور كانسان . وانما نظر اليه على انه رب العالمين دائما.

(٤٩) تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/٢٤ .

ويذهب دتلف نلسن الى ان الاصل في الله انه هو اله القمر في العقيدة العربية التي تؤمن بالقمر والشمس والزهرة كعائلة الهية تتكون من أب وأم وابن[٥٠] وهي العقيدة التي كشفت عنها الآثار العربية في جميع مواطن العرب منذ أقدم عصورهم التاريخية . والقمر ـ كبير هذه الاسرة ـ تحوّل في زعم دتلف نلسن الى الاله الاكبر ومن بعد ذلك أصبح الاله الوحيد في الاسلام . والنقوش التي كشف عنها التنقيب في الجزيرة العربية لا تربط بين « الله » وبين اله القمر .. ولكن نلسن استدل على دعواه من ثبوت كون اللات هي الشمس في النقوش . وكون العزى هي الزهرة . واستدل كذلك بما يروى عن عمرو بن لحي من انه أخبر العرب بأن الرب يشتو بالطائف عند اللات ويصيّف بالعزّى[٥١] . وأضاف حجة غريبة الى هذه الحجج فأدعى ان الحج يحمل صفات قمرية وان الاسلام طمس من عقيدة العرب ما له علاقة بالشمس فاختار التوقيت القمري واتخذ الهلال شعاراً في سبيله الى التوحيد المنحدر من الاصل القمري[٥٢] .

وهذه نظرية لا تثبت للنقد اذا عرضناها على ما أورده القرآن الكريم والحديث الصحيح عن عقائد الجاهلية .. فاللات والعزّى ومناة آلهة انثى كما هو واضح من سورة النجم وهي جميعا عندهم بنات الله : « ألكم الذكر وله الأنثى »[٥٣] . وهبل كان صنماً عادياً على اهتمامهم به فقد كان يدعى هبل خزيمة مما يجعله الها قبليا[٥٤] . وصح ان أبا سفيان نادى في أحد :

---

(٥٠) انظر تفاصيل هذه العقيدة في تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/١٢٠ وما بعدها .

(٥١) لم يذكر في الكتاب مرجع هذه الرواية .. وقد وجدتها في الروض الانف ١/١٤٨ . وتاريخ العرب قبل الاسلام ٥/٦٦ ، ١٠١ حيث يذكر للخبر مرجعا اخر .

(٥٢) التاريخ العربي القديم ٢١٥/٢١٦ .

(٥٣) النجم ٢١ . تفسير الطبري « بولاق » ٢٧/٢٤ .

(٥٤) الاصنام ص٢٧ ، انساب‌الاشراف ١/٢٧ ، الطبقات الكبرى ق٢/جـ١/ ص٢٩

اعل هبل ، فأجابه المسلمون بقولهم : الله أعلى وأجل[٥٥] ، فهو عنده اله آخر لا يرمز الى الاعتقاد بالله .. وود وهو اله القمر ذكر في القرآن الكريم على انه من الهة قوم نوح عليه السلام وذكرته الاخبار على انه اله الكلب بدومة الجندل[٥٦] . وقد ذكروا كذلك انهم كانوا يقدمون له اللبن مما لا يتفق مع كونه الاب واما بعل فاننا جاء فيما قصه القرآن الكريم عن الياس ولم يعرفه المفسرون معرفة يقينية مما يدل على ان عبادته في الجاهلية القريبة كانت منسية ، ثم انه تعالى يقول : « أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين » فهو اذا لا يرتبط مع الاعتقاد بالله ..[٥٧]

هذه ابرز الاصنام في الجاهلية ولا نستطيع هنا ان ندرسها كلها .. ويكفي ان نلاحظ انها كما ذكرت في المصادر الاسلامية لا يمكن ان تصنف الى عائلة معبودة .. وقد عددها ابن الكلبي مثلا تعدادا دون ان يذكر أية علاقة بينها ، بل ذهب الى ان بعضها اقدم من بعض .. وكذلك نلاحظ ان علاقة هذه الاصنام بالكواكب والفلك عامة غير ظاهرة لا في القرآن الكريم ولا في المصادر الاسلامية الاخرى .. وقد نص اهل الاخبار على عبادة تميم للشمس[٥٨] وعلى عبادة الشعرى[٥٩] والثريا[٦٠] والقمر[٦١] عند العرب

---

(٥٥) البخاري : فتح الباري ٧/٢٨٢ ، تفسير الطبري « بولاق » ٢٦/٢٨ ، الطبقات الكبرى حـ٢/ق١/ص٣٢ .

(٥٦) الاصنام ص ١٠ جمهرة انساب العرب ص ٩٢) : والاية الكريمة هي ٢٣ نوح .

(٥٧) الصافات ١٢٥ . وانظر الاقوال المختلفة في بعل في تفسير الطبري « بولاق » ٢٣/٥ وبعل كما يقول فلسن هو الذي يقابل ال عند العرب ويعني الرب ص ٢١٢ « ترجمت الكلمة الى العربية بلفظ السيد ولكننا رأينا السهيلي يذكر الكلمة بلفظ الرب . في الروض الانف ١/١٤٨ . »

(٥٨) المحبر ص ٣١٢ ، ٣١٦ .

(٥٩) تفسير الطبري « بولاق » ٢٧/٤٥ المحبر ١٢٩ .

(٦٠) الاشتقاق ص ٤١٦ . جاء اسم عبدالثريا في قبائل الاشعريين .

(٦١) بلوغ الارب ٢/٢٢٧ ــ ٢٢٦ . اورد ذكر الكواكب المعبودة ومنها القمر الذي عبدته كنانة .

ولكنهم لم يربطوا بين هذه الاجرام وبين اي من الاصنام . ونجد بدلا من ذلك افكارا وعقائد عن الملائكة والجن والبنوة لله تعالى والشفاعة عنده مما سنفصل القول فيه . والاشارة القرآنية الوحيدة الى هذه الثلاثية الفلكية الالهية هي التي وردت في تفكر ابراهيم عليه السلام ووقوفه بفكره عند الكوكب والقمر والشمس . وقد ذكر ابن كثير ان الكوكب هو الزهرة وان هذه الحكاية عن ابراهيم هي في الحقيقة موعظة منه لاهل حران[٦٢] . وهي رواية تتفق مع ما يذكره المؤرخون من ان الشمس اله ذكر عند الساميين في الشمال وفي الشرق . وهي الاب[٦٣] . ونحن نجد ابراهيم عليه السلام يتوقف بعد الكوكب ثم القمر عند الشمس قائلا « هذا ربّي هذا أكبر . » فالقرآن الكريم اذن يحكي العقيدة البابلية التي تتخذ الشمس الها اكبر . وهو شيء لا يتفق مع الاعتقاد باللات الهة الشمس عند العرب وهي مؤنثة .

اما ما يذكره نلسن من ان الاسلام محا ماله صلة بالشمس في سبيله الى التوحيد فلا يصح مع ارتباط الصلاة بحركة الشمس يوميا . ولعل الاسلام اختار التوقيت القمري لسهولة مراقبته وضبطه على ابسط الناس من البدو المنقطعين ومن سكان المدن البعيدة عن مركز الحكومات .. واعترف بأنني لم افهم اشارة نلسن الى الصفات القمرية في الحج .

نخلص من ذلك الى ان الاعتقاد بالله وجد في الجاهلية متحدرا من أصول قديمة تزيده رسوخا الديانتان اليهودية والنصرانية والنبوات بين العرب انفسهم . ومنها ما ذكره القرآن الكريم كصالح وهود وشعيب « ابن ذي مهدم »[٦٤] .. فليس صحيحا الا يؤخذ في الحساب ما ابقته هذه النبوات العربية في عقائد العرب ولا ان ينظر اليها على انها تاريخ منسي تماما . فان مرور

---

(٦٢) الانعام ٦ /٧٤ البداية والنهاية ١٤٣/١ .

(٦٣) تاريخ العرب قبل الاسلام ١٢١/٥ ــ ١٢٢ ، ٩١/٥ ــ ٩٥ التاريخ العربي القديم ص ٢١٧ .

(٦٤) الاشتقاق ص ٥٢٧ . ويروى عن ابن الكلبي انه من سحول التي ذكرها مع قبائل حمير .

النبي صلى الله عليه وسلم بالحجر في طريقه الى تبوك كشف لنا ان مساكن ثمود كانت شاخصة معروفة .. وقد جاء حديث الحجر في الصحيح وجاءت فيه تفاصيل دقيقة من القصة القرآنية فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم الجيش عن أن يستقي من غير بئر الناقة[٦٥] مما يدل على انها كانت مميزة عندهم .

ونهى ايضا عن دخول الحجر الا للعبرة : « لا تدخلوا على هؤلاء القوم الا باكين »[٦٦] فكأن قبورهم أو رممهم كانت مشاهدة يشار اليها . وهو ما يؤكده المسعودي فيقول : «وديارهم بفج الناقة وبيوتهم الى وقتنا هذا ابنية منحوتةفي‌الجبال ورممهم‌باقية وآثارهم بادية‌وذلك‌في‌طريق‌الحج‌لمن ورد‌من‌الشام بالقرب من وادي القرى وبيوتهم منحوتة في الصخر بابواب صغار ومساكنهم على قدر مساكن اهل عصرنا وهذا يدل على ان اجسامهم على قدر اجسامنا دون ما يخبر به القصاص من بعد أجسامهم وليس هؤلاء كعاد اذ كانت آثارهم ومواضع مساكنهم وبناياتهم بارض الشحر تدل على بعد اجسامهم »[٦٧] . فكأن ديار عاد كانت مشاهدة بالشحر على ايام المسعودي بحيث عقد هذه المقارنة .. والا فانه كان حريا ان يشك في حجم دور عاد لو جاءه خبرها عن القصاص .

ولا يعني هذا ان اهل الجاهلية كانوا يعون حقيقة نبوة صالح عليه السلام على مثال ما روى القرآن الكريم .. فلو صح ذلك لكانوا موحدين . ولكننا نهتم بما خلفته نبوة صالح في عقائدهم دون وعي تاريخي منهم . اما ما وعوه من القصة فهو المتعلق بالناقة .ولعلهم حملوها على‌محل النذور‌الجاهلية كالبحيرة والوصيلة والسائبة والحامي . ولعلهم اعتبروها كائنا الها معبودا كجمل طيء الاسود[٦٨] وسقب بكر الذي أكله ضرار بن الخطاب[٦٩]

---

(٦٥) البخاري : فتح الباري ٢٩٢/٦ ، مسلم : النووي ١١١/١٨ .

(٦٦) البخاري : فتح الباري ٢٠٢/٤ – ٢٠٣ .

(٦٧) مروج الذهب ٣٥٤/١ .

(٦٨) الروض الانف ٣٤٤/٢ .

(٦٩) جمهرة انساب العرب ص ١٧٩ .

وفي صورة الحيوان المحمي مثل كبش النعمان الذي ذبحه علباء بن أرقم[٧٠] وناقة الملك الغساني التي نحرها الحارث بن ظالم[٧١] ومثل هذا القصص خليق ان يكون مرتبطا في الذهن الجاهلي بقصة ثمود .

ويضاف الى النبوات العربية القرآنية خالد بن سنان العبسي الذي اطفأ نار الحرتين حين اوشكت ان تحوّل قومه الى المجوسية . وهو الذي قال فيه النبي عليه الصلاة والسلام : « نبي ضيعه قومه . » وهو نبي أهل الرس المذكور في القرآن الكريم[٧٢] او هو حنظلة بن صفوان ـ واسمه عربي واضح ـ في قول آخر .[٧٣] ويضاف الى ذلك مجلة لقمان التي كانت عند سويد بن الصامت رضي الله عنه وعرضها على النبي فاستحسنها عليه الصلاة والسلام .[٧٤]

وللاعتقاد بالله جوانب يحسن ان نقف عليها :

ومن ذلك ان القرآن الكريم يذكر انهم انبتوا الخلق لله . قال تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولنّ الله قل الحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون » لقمان ٢٥[٧٥] . « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ الله فأنىّ يؤفكون . » الزخرف ٨٧[٧٦] . « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ خلقهنّ العزيز العليم » ، الزخرف ٩ .

---

(٧٠) انظر القصيدة رقم ٥٥ من الاصمعيات التي يقولها علباء في الاعتذار من فعله ووصف الكبش .

(٧١) الاغاني ، دار الكتب ، ١١٨/١١ .

(٧٢) اخبار خالد بن سنان العبسي في الاصابة ١٥١/٢ ، الحيوان ٤/١٧٦ ، الاشتقاق ٢٧٨ ، مروج الذهب ٥٤/١ ، تاريخ ابن الاثير ٢١٩/١ ، صبح الاعشى ٤٠٩/١ ، بلوغ الارب ٢٧٨/٢ ، نهاية الارب ١١٣/١ .

(٧٣) بلوغ الارب ٧٩/٢ ، المحبر ص ٦ ، ١٣١ .

(٧٤) اسد الغابة ٢٤٩/٤ .

(٧٥) صحيح الطبري انها في المشركين : تفسير الطبري ، بولاق ، ٥١/٢١ .

(٧٦) تفسير الطبري ، بولاق ، ٦٣/٢٥ .

واستند القرآن الكريم في جدله مع المشركين في مسائل التوحيد والبعث الى هذه العقيدة جاء في تفسير القرطبي لقوله تعالى : « يا ايها الناس اعبدوا ربّكم الذي خلقكم . » انه تعالى خصّ خلقه لهم من بين صفاته لأن العرب كانت مقرّة بأن الله خالقها .[٧٧]

واثبتوا لله الرزق والاحياء والاماتة وملك الكون . يقول تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحيّ من الميّت ويخرج الميّت من الحيّ ومن يدبّر الامر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون . » يونس ٣١ .

« قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون . سيقولون لله قل افــلا تذكّرون . قل من ربّ السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل افلا تتقون . قل من بيده ملكوت كلّ شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون . سيقولون الله قل فأنى تسحرون » المؤمنون ٥٤ــ٩٥ .

وقد انتبه الطبري الى قرب هذه النظرة الى الالوهية من النظرة الكتابية المعترف بها في الاسلام ، فقال في نقاش رواية عن مجاهد توجه قوله تعالى : «فلا تجعلوا لله أندادا وانتم تعلمون . » الى انه موجه الى اهل الكتاب : « واحسب الذي دعا مجاهدا الى هذا التأويل واضافته ذلك الى انه خطاب لاهل التوراة والانجيل دون غيرهم الظن منه بالعرب انها لم تكن تعلم ان الله خالقها ورازقها . بجحودها وحدانية ربها واشراكها في عبــادته ما كانت تشرك فيها فقال جلّ ثناؤه : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » وقال : « قل من يرزقكم من السماء والارض .. الاية . » فالذي هو اولى بتأويل قوله وانتم تعلمون اذ كان ما كان عند العرب من العلم « بوحدانية الله » وانه مبدع الخلق وخالقهم ورازقهم نظير الذي كان من ذلك عند أهل الكتابين .. ولم يكن في الآية دلالة على ان الله جلّ ثناؤه عنى بقوله وانتم تعلمون أحد الحزبين بل مخرج الخطاب

---

(٧٧) الجامع لاحكام القرآن ١/٢٢٦ . البقرة ٢١ .

بذلك عام للناس كافة لانه تحدى الناس كافة بقوله : « يا ايها الناس اعبدوا ربكم ».[٧٨]

وجاء مثل هذا عن مجاهد في تأويل قوله تعالى : « وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون » » فنقل الطبري قوله : « ايمانهم قولهم الله خالقنا ورازقنا ، هذا (ايمان) ، مع (شرك عبادتهم) غيره » ».[٧٩]

فالحنفاء عرفوا « وحدانية الله » كما يقول الطبري في العقيدة دون العبادة وهو راي واضح في تفسير مجاهد ، وهو امر يحصر اهمية الاصنام والشركاء عندهم في العبادة خاصة ويمكننا من ان نفهم فكرة الشفاعة عندهم .

الواقع ان هذه الاصنام والشركاء من الملائكة والجن لم تعبد لقوة لها في ذاتها ، وانما هي مرحلة متوسطة بين آمال البشر ورغباتهم ومن يملك تحقيقها وهو الله ..

ومما حكاه القرآن الكريم في ذلك من اقاويلهم : قوله تعالى « ما نعبدهم الا ليقرّبونا الى الله زلفى » » الزمر ٣ ، « أم اتخذوا من دون الله شفعاء » الزمر ٤٣ ، « ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » » يونس ١٨ . وناقش القرآن الكريم الفكرة ورفضها وسخر بها ، قال تعالى : « ولـم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين » » الروم ١٣ . « وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء » » الانعام ٩٤ . « أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون » » الزمر ٤٣ .

ومن المحتمل عند جواد علي ان تكون فكرة الشفاعة عند مشركي العرب من مصدر يهودي او نصراني لوجودها في الدينين .[٨٠]

ويمكن تصنيف هؤلاء الشركاء الى ملائكة وجن واصنام .

---

(٧٨) تفسير الطبري «المعارف» ١/٣٧١ . البقرة ٥ : ٢٢

(٧٩) يوسف ١٠٦ . تفسير الطبري « بولاق » ١٣/٥٠ – ٥٢ .

(٨٠) تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/٦٥ .

اما الملائكة والجن فيقول فيهم تعالى : « ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة اهؤلاء اياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك انت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون . » ٤٠ – ٤١ .

ان الاية الكريمة تضع ايدينا على ان فكرة العتقاء عن الملائكة ليست هي الفكرة الاسلامية نفسها . صحيح انهم كانوا يعرفون الملائكة بهذا الاسم ولكن المسمى به كانوا هم الجن وانما يختلف الملائكة عن الجن بصفات سنحاول ان نتبينها فيما بعد .. وقد نبّه السهيلي الى ان الجاهلية لم تكن تعرف جبريل ولذلك سألت عنه السيدة خديجة (رضي الله عنها) أهل الكتاب عندما أوحي الى النبي عليه الصلاة والسلام .[٨١] .

والطبري ينقل عن أهل التاويل ان الملائكة هي الجن عندهم : « قال آخرون : قال كفار قريش الملائكة بنات الله وقالوا : الجنة هي الملائكة[٨٢] وذلك في تفسير قوله تعالى : « وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون . » الصافات ١٥٨ . ونقل الآلوسي عن ابن دريد : « وكان أهل الجاهلية يسمون الملائكة جنا لاستتارهم عن العيون »[٨٣] .

واهم ما تصوروه في الملائكة كونها اناثا وهي نظرة تخالف ما يعرف عند اليهود اذ الملائكة عندهم ذكور .. وان كانوا عرفوا بنوة الملائكة لله فسموهم: بنو الوهيم[٨٤] وفكرة بنوة الملائكة واضحة عندهم يصورها القرآن الكريم ولا نجد ضرورة للوقوف عندها .

---

(٨١) الروض الانف ١٥٦/١ .

(٨٢) تفسير الطبري « بولاق » ٦٦/٢٣ . تفسير القرطبي ٥٢/٧ في آية اخرى .

(٨٣) بلوغ الارب ٢٥١/٢ .

(٨٤) تاريخ العرب قبل الاسلام ٤١/٥ .

ومن أول ما يميز الملائكة عن باقي اصناف الجن الشرف والمحتد . نقل الطبري عن مجاهد ان كفار قريش قالوا الملائكة بنات الله فسالهم ابو بكر عن امهاتها . فقالوا انها بنات سروات الجن .[٨٥]

ومن صفات الملائكة الخاصة الطهر والخير ... يقول الجاحظ : « فان طهر الجني رنظف ونقي وصار خيرا كله فهو ملك في قول من تاول قوله عز ذكره : كان من الجن ففسق عن امر ربه . »[٨٦] .

ولابد من انهم اعتقدوا في الملائكة كذلك القرب من الله وان في امكانها ان تحقق لهم عنده اكثر مما يحقق باقي انواع الجن .

وكانت الملائكة مصورة في الكعبة رأى النبي عليه الصلاة والسلام صورتها في الفتح[٨٧] .. فاذا اضفنا الى هذا الحديث قوله تعالى : « افرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى . الكم الذكر وله الانثى . »[٨٨] فمن المحتمل ان تكون هذه الاصنام رموزا للملائكة او انها كانت تحل فيها الملائكة ..

فهي انثى كما تصوروا الملائكة وهي لله أي بناته بزعمهم . وقد روى الطبري عن « بعض اهل المعرفة بكلام العرب من اهل البصرة » ان هذه الاصنام كانت في جوف الكعبة[٨٩] . وهذا لا يتعارض مع ما يذكرونه من اماكن عبادتها الرئيسية في الطائف وقديد .. اذ يمكن ان يكون من هذه الاصنام نماذج في الكعبة .. وهذا ان صح يصور لنا كيفية عبادتهم للملائكة

---

(٨٥) تفسير الطبري « بولاق » ٢٢/٦٦ .

(٨٦) الكهف ٥٠ ، الحيوان ٦/١٩٠ ونقله الالوسي في بلوغ الارب ٢/٣٥١ .. ويذكر الجاحظ من اصناف الجن عامر ، ومارد ، روح ، عفريت وغيرهم .

(٨٧) السيرة : الروض الانف ٢/٢٧٤ ، تاريخ مكة ١/١١٠ .

(٨٨) النجم ١٩ ــ ٢١ . وانظر تفسير الطبري « بولاق » ٢٧/٣٤ .

(٨٩) المصدر السابق .

والجن .. وانما كانت عن طريق الرموز التي تمثلها او تحل فيها . والملائكة صلات بالناس تمتد حتى تشمل النسب . فقد رووا عن العرب اعتقادهم بان جرهما القبيلة البائدة من اب ملك اهبط من السماء لذنب اقترفه وتزوج من الناس ومثلها ذو القرنين وبلقيس ملكة سبأ وقريب منهم بنو السعلاة من بني عمرو بن يربوع .(٩٠) .

ولم تكن الجن مقدسة معبودة كلها في تصورهم . فان منها ما ينتسب الى الله بالبنوة أو نحوها من النسب ومنها ما اجترأ العرب عليه فقتلوه افرادا وقبائل . كالذي يروى عن بني سهم من قريش من انهم حاربوا قبيلة من الجن. ذلك ان جنيا حج فقتله فتى سهمي فقتلت به الجن كثيرا من بني سهم وعلت غبرة شديدة بمكة .. ثم ان بني سهم ومن معهم من احلافهم وعبيدهم ظهروا على الجبال فقتلوا الخنافس والحيات وما اليها فضجت الجن ووسطت قريشا في الصلح[٩١] . وذكروا ان حرب بن امية ومرداس بن ابي عامر احرقا غيضة يسكنها الجن وازدرعاها .. وقد خرجت منها عند حرقها حيات بيض .. ثم ان الجن قتلتهما[٩٢] . واحتالوا انواع الحيل لدفع اذى الجن .. ولعل الحلف كان من هذه الحيل .. فقد جاء من قول ابي لهب : « يا بني فلان ان هذا يدعوكم الى ان تسلخوا اللات والعزى من اعناقكم وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن اقيش »[٩٣] وكانوا اذا قتلوا الثعبان كسروا على رأسه روثة أو القوا عليه شيئا من رماد[٩٤] . واستخدموا الوانا من التمائم لدفع اذى الجن كسن الثعلب ، وكعب الارنب ونحو ذلك كثير[٩٥] .

---

(٩٠) الروض الانف ١/٨١ ، الحيوان ٦/١٩٧ ــ ١٩٨ ، بلوغ الارب ٢/٢٤٨ .

(٩١) تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/٤٥ عن الازرقي .

(٩٢) الاغاني « دار الكتب » ٦/٣٤١ ــ ٣٤٣ ، الحيوان ١/٣٠٢ معاهد التنصيص ١/١٢ .

(٩٣) السيرة : الروض الانف ١/٢٦٣ .

(٩٤) المقتطف العدد ٢ سنة ١٩ ص ٥٨٦ ، من مقالة لمحمد الموبلحي .

(٩٥) انظر امثال ذلك في نهاية الارب ٣/١٢٣ وبلوغ الارب ٢/٣٢١ .

اما الاصنام والاوثان فيهمنا في دراستها ان نشير الى ان الكثير منها غير مقطوع الصلة بوثنية العراق والشام واليمن • فاللات والعزى وهبل ومناة وود وذو الشرى ونسر وغيرها وجدت في النقوش السبأية والمعينية والنبطية والصفوية واللحيانية والثمودية[٩٦] • وهذا يعني ان هنالك صلة بين حنفاء الجاهلية وغيرهم من المشركين في الجاهلية القديمة •• وان صلة العرب بما حول الجزيرة لا تنحصر في نطاق التأثيرات الكتابية •• وهذا بدوره يؤكد وجود تأثيرات حضارية اجنبية قديمة الاصول •

وسبق ان ذكرت اختلاف نظرة العرب الى هذه الاصنام عن نظرة الامم المحيطة بهم والقبائل البائدة منهم •• فلعل هذه الاصنام كانت تنتقل اليهم منفردة بحيث ينسى اصلها وكذلك فانها لتعدد مصادرها لا تظل واضحة العلاقة بعضها ببعض •• وانا اتعرض هنا الى العرب الناطقين بعربية القرآن في الجاهلية •• وهم الذين اعنى بدراسة عقيدتهم •• تمهيدا لدراسة شعرهم الذي جاء بهذه اللغة • وهذه الملاحظة مقيدة بهذا الحد ولا تشمل العرب عامة •

وقد عبدت هذه الاصنام على مستويات مختلفة •• فقد كان من العرب من يعبدها لقدرة القوى التي تتصل بها على الشفاعة كما مر بنا • وكان فيهم من يعبدها لذاتها معتقدا ان لها قدرة خاصة بها • وهذا المستوى هو الذي يعبّر عنه القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: « يدعو لمن ضره أقرب من نفعه» الحج ١٣ • وقوله تعالى : « ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب • » الحج ٧٣ •

ويصور هذا المستوى ما روى البخاري عن ابي رجاء العطاردي قال : « كنا نعبد الحجر فاذا وجدنا حجرا هو خير منه القيناه واخذنا الآخر فاذا لم

---

(٩٦) تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/٨٧ ، ٨٩ ، ٩١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١٢٦ وانظره /٨١ حيث يؤكد هذه الحقيقة .

نجد حجرا جمعنا جثوة من تراب جئنا بالشاة نحلبها عليه ثم طفنا به »[٩٦] .
ومثله ما جاء عن عبدالرحمن بن جل النهدى قال : «كنا في الجاهلية اذا تحملنا حملنا حجرا على بعير فاذا رأينا احسن منه القيناه واخذنا الآخر فاذا سقط عن البعير قلنا سقط الهكم فالتمسوا غيره ... »[٩٧] .

وفي هذا الصدد يقول الآلوسي : « ومن اسبابه « اى الشرك » ان الشياطين تدخل الصنم فتحدثهم وهم لا يشاهدون الشياطين فجهلتهم وسقطتهم يظنون ان الصنم نفسه المخاطب وعقلاؤهم يقولون تلك روحانية الاصنام وبعضهم يقول انها الملائكة وبعضهم يقول انها العقول المجردة وبعضهم يقول هي روحانيات الاجرام العلوية وكثير منهم لا يسأل عما عبد بل اذا سمع الخطاب من الصنم اتخذه الها ولا يسأل عما وراء ذلك . » ويذكر المسعودي قريبا من ذلك[٩٨] .

وقد لا يكون هذا الكلام في العرب خاصة ، الا انه يمثل تفاوت الجماعة الوثنية الواحدة في تصور قوى الاصنام وحقيقة الداعي الى عبادتها . يؤكد ذلك ان ابن الكلبي ينسب عبادة الجن الى بني مليح من خزاعة[٩٩] .

ومما يلحق بذلك تخصص الاصنام بتأثير معين لكل منها . ويروى من ذلك ان قريشا حملت اللات والعزى الى احد[١٠٠]، فكأنها الهة قوةوحماية. يؤكد ذلك ان نساء ثقيف قلن عندما هدمت اللات : لتبكين دفاع[١٠١] . وهبل وذو الخلصة كانا يستقسم عندهما بالازلام[١٠٢] .. فهمـا على صلة بالغيب والعدالة .

---

(٩٦) البخاري : فتح الباري ٨ / ٧٤ .
(٩٧) الاصابة ٥/٨٥ .
(٩٨) بلوغ الارب ٢/٢١٦ . وربما كان ينقل عن اغاثة اللهفان لابن القيم . مروج الذهب ٢/٤٥ .
(٩٩) الاصنام ص ٣٤ .
(١٠٠) تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/٦٨ .. وانظر في اماكن هذه الاصنام تفسير الطبري « بولاق » ٢٧/٣٤ .
(١٠١) السيرة : الروض الانف ٢/٣٢٦ .
(١٠٢) الاصنام ٢٤ ، ٢٧ .

اما مناة فهي متعلقة بالقدر ، يقول ابن جني في ذلك : « مناة أسم صنم وهو فعله من مناه يمنيه اذا قدره وذلك لما كانوا يعتقدون فيها .. »[١٠٣] .

وجاء في اللسان ان المنى القدر وان المنى والمنية الموت لانه قدر ، وذكر جواد علي ان مناة جاءت مع جد في العهد القديم علمين لالهين ولما كان جد يعني ما يرغب فيه والحظ الحسن فمناة في مقابل ذلك لما يكره[١٠٤] .

وقد كانت هذه الاصنام توقع بمن يكفر بها عقوبات صارمة ، فقد زعمت قريش ان زنيرة عميت لكفرها باللات والعزى حين أسلمت[١٠٥] ، وشتم ضمام ابن ثعلبة اللات والعزى في دعوتـه لقومـه لكي يسلموا فخوفوه من البرص والجذام والجنون[١٠٦] .

واهم العبادات عند حنفاء الجاهلية واخطرها الحج الى مكة وقد راينا انه في نظر كثير من المفسرين والقفويين أهم ما كان يميز الحنيف .. أو انه هو الحنيفية ، وقد ذكرت الاخبار بيوتا اخرى مثل بيت ذي الخلصة المسمى الكعبة اليمانية والكعبة الشامية[١٠٧] ورئام[١٠٨] وبوانة[١٠٩] وبيوت للعزى واللات ومناة وذي الكعبات وسنداد وغيرها[١١٠] ، ومع ذكر هذه البيوت فان ما نعرفه عنها وعن طريقة التعبد فيها لا يكاد يذكر وهي لا تخرج عن ان تكون معابد اقيمت لصنم معين ، في حين ان حج مكة موسم لعبادة الله عندهم ولنا على ذلك دلائل :

---

(١٠٣) المبهج ص ٢٧ .

(١٠٤) تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/٤١ .

(١٠٥) الاستيعاب ٢/٧٥٧ .

(١٠٦) الاستيعاب ١/٤٠٢ ، السيرة : الروض الانف ٢/٣٣٩ .

(١٠٧) البخاري : فتح الباري ٨/٥٧ .

(١٠٨) السيرة : الروض الانف ١/٢٨ ، الاكليل ١/٨٢ .

(١٠٩) طبقات ابن سعد ١/١/١٠٣ .

(١١٠) انظر السيرة : الروض ١/٦٤ ، بلوغ الارب ١/٣٤٦ ، تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/١٧٤ ــ ١٧٦ .

ومن ذلك ان المشركين حجوا البيت موسمين لسنتين بعد تطهير الكعبة من الاصنام عند الفتح . ذلك ان الفتح كان في رمضان من سنة ثمان وحج بالناس تلك السنة عتاب بن اسيد[111] .

ثم حج بهم ابو بكر (رضي الله عنه) سنة تسع ونودي حينئذ : «لايحجن بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان» . وقرأ علي بن ابي طالب (رضي الله عنه) بما ارسله به النبي عليه الصلاة والسلام من سورة براءة التي نبذ فيها الاسلام الى الشرك[112] . ولو كان لحج المشركين علاقة باصنام مكة لتركوا الحج اليها بعد زوال هذه الاصنام . ومن البديهي ان عمرة المشركين بمكة لم تنقطع خلال هذه الفترة .

ومن هذه الدلائل ان المسلمين لم ينقطعوا عن الطواف بالكعبة والحج اليها في الفترة المكية بعد البعثة . ثم انهم سعوا للعمرة بعد الهجرة وقضوا هذه العمرة التي منعوا من اتمامها بعد صلح الحديبية .. ومن المهم ان نلاحظ ان نص صلح الحديبية لا يتضمن أي شيء يتعلق بكيفية اعتمار المسلمين[113] . ولو كان في شعائر الحج والعمرة ما يتعلق بالاصنام لما رضي المشركون ان يعرضوها للاهانة باعراض المسلمين عنها .

ومن ذلك ما ورد في الصحيح من حديث عمر (رضي الله عنه) انه نذر في الجاهلية ان يعتكف بالكعبة ليلة وقد أمره النبي عليه الصلاة والسلام ان يفي بنذره[114] . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتأكد من نذور الجاهلية ولا يقبل منها ما كان على صلة بالاصنام[115] .

---

(111) المحبر ١١ وانظر تاريخ ابن الاثير ٢/١٦١ ، ١٦٦ . والسيرة : الروض الانف ٢/

(112) البخاري : فتح الباري ٨/٦٧ ، مسلم : النووي ٩/١١٦ ، تفسير الطبري « بولاق » ١٠/٤٤ ، ٥٢ ، ٥٩ ، ٧٥ .

(113) السيرة : الروض الانف ٢/٢٣٠ ، ٢٥٤ ، مغازي الواقدي ٣١٠ .

(114) البخاري : فتح الباري ٤/٢٢١ ، ٢٢٨ . مسلم : النووي ١١/١٢٤ .

(115) انظر سؤاله عليه السلام عن نذر كريم بن سفيان الثقفي في اسد ←

وهذا كله يجعلنا اقرب الى قبول ما ورى من تلبيات القبائل المختلفة في الجاهلية .. وهي وان كانت تلبيات يظهر فيها الشرك الا انها تلبيات موجهة الى الله تدعوه وتضرع اليه ، ومنها تلبية قريش : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، الا شريك هو لك ، تملكه وما ملك . » ومنها تلبية من نسك للعزى : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك وسعديك ، ما احبنا اليك . »[116] . ويروى ابن حبيب اكثر من عشرين تلبية مشابهة .

ولا حاجة بنا الى تفصيل القول في الحج فهو عبادة معروفة .. غير اننا نشير الى الفروق القبلية التي ظهرت في ممارستها ، فقد كانت قريش والحمس عامة لا يقفون بعرفة ولا يخرجون من الحرم[117] ، وكانت الاوس والخزرج وغسان لا تطوف بالصفا والمروة ويبدو ان ذلك علاقة بمناة التي ينسكون اليها[118] ، وهذا يعني ان قريشا لم تكن تفرض على العرب طريقة واحدة في الحج .

وعرفت قريش عبادة اخرى هي صوم يوم عاشوراء ، وهو اليوم الذي كانت الكعبة تكسى فيه .. وقد روى ان النبي عليه الصلاة والسلام كان يصومه مع قومه ثم صامه وأمر بصيامه في المدينة عندما رأى اليهود يصومونه. ويبدو ان هذه العبادة مما أخذ عن اليهود .. ولكننا لا نعلم شيئا عن انتشار هذه العبادة في غير قريش ، وربما كانت معروفة عند الاوس والخزرج لانهم اقرب الى اليهود .. هذا اذا صح ان هذه العبادة يهودية المصدر[119] .

الغابة ٢٣٤/٤ والاصابة ٢٦٦/٥ وذكر ابن حجر ان احمد والبغوى اخرجا حديث كريم .. وانظر : النهاية في غريب الحديث ٩٨/٢ ـ في رقية مرقيها جابر عليه صلى الله عليه وسلم .

(١١٦) الاصنام ص ٧ . المحبر ص ٣١١ – ٣١٥ .

(١١٧) البداية والنهاية ٣٠٥/٢ ، بلوغ الارب ٢٨٩/٢ .. وسيأتي الحديث عن الحمس بالتفصيل .

(١١٨) تفسير الطبري ، المعارف ، ٢٣٠/٣ وما بعدها ، مسلم : النووي ٢٣/٩ – ٢٤ .

(١١٩) انظر احاديث صيام عاشوراء في البخاري : فتح الباري ٢٥٦/٣ ، ١٩٨/٤ ، مسلم : النووي ٨/٤ ، ٦ ، ٩ ، ١٠ ، وفتح الباري ٢٠٠/٤ ، بلوغ الارب ٢٨٨/٢ .

وعرفت قريش التحنث بواسطة الخلوة .. والتحنث يعني التكفير عن الذنب والخروج من الاثم . وقد روى ان عبدالمطلب هو الـذي سن التحنث وان المتالهين أخذوا ذلك عنه وقد كان النبي يتحنث قبل البعثة بالخلوة في حراء[120] . ولا نعلم على وجه يقيني لون العبادة التي يمارسهـا المتحنث في خلوته .. ومن المحتمل ان يكون التحنث تقليدا لرهبانية النصارى .. ولعل ذلك هو الذي سبب اختلاف الروايات في طريقة تعبد رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلوته بحراء قبل مبعثه : أكان يتعبد على شرع سابق أم بالهـام على الوحي .

ومن طقوس العبادة المشركة وتقاليدهـا التي لا يشك فيها النـذور والقرابين .. واخطرها النذور والقرابين البشرية ..

والقرآن الكريم يرجع بعض قتل الاولاد الى الفقر والملق : فيقول تعالى : « ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق . » الاسراء ٣١ . ولكنه يشير في موضع آخر الى صلة هذا القتل بالدين والعبادة عندهم . يقول تعالى : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل اولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم .» الانعام ١٣٧ . وجاء تفسير ذلك بانه اشارة الى الوأد وان الشركاءهم الهـة الشرك أو رجال الدين والكهان أو الشياطين .. واعتبر اشارة الى مثل نذر عبدالمطلب في قصة فداء عبدالله أبي النبي عليه الصلاة والسلام ..[121] فقتل الاولاد على هذا له علاقة بالدين عندهم يصورها القرآن الكريم بقوله تعالى زين . واقل ما يقال في فهم ذلك ان الدين ورجاله لم يحاربوا هذه العبادة بل وقفوا يشجعونها ويزينونها وجاءتنا من مصادر « كلاسيكية » اخبار في التقرب بالبشر من العزى خاصة .. فيذكر بركوبيوس « القرن السادس » ان ملك

---

(١٢٠) انظر في معنى التحنث النهاية في غريب الحديث ٢٦٤/١ ، القالـق ٢٥٠/١ ، وانظر في تحنث النبي عليه الصلاة والسلام فتح الباري ٢٩٨/٢ ، السيرة : الروض الانف ١٥٢/١ .

(١٢١) تفسير الطبري « بولاق » ٣٢/٨ . تفسير القرطبي ٩١/٧ .

الحيرة تقرب بابن الملك الغساني الذي هزمه للعزى ويذكر نيلوس ان جماعة من البدو اخذوا ابنه ليذبحوه للزهرة ـ العزى ـ ولكنهم ناموا حتى طلعت الشمس وفات وقت تقريب القربان فاطلقوا الغلام .. وجاء في بعض تواريخ السريان ان ملك الحيرة تقرب الى العزى بجماعة من الراهبات .. ويرى تولدكه ان الغريين رمز للعزى وان ما تناقله الرواة عن يومي البؤس والنعيم هو في حقيقته من صور التقرب بالبشر الى هذا الاله[122] .. وهذه الاخبار لا تصور املاقا مباشرا .. واغلب الظن ان الفقراء والاغنياء كانوا يضحون بابنائهم لترضى عنهم آلهتم فتمنحهم المال ان كانوا فقراء .. وتبارك فيما يملكون وتزيد فيه ان كانوا أغنياء .. ومن الطبيعي ان يزيد الفقراء من هذه النذور لانهم اكثر احساسا بالحاجة الى عطف الالهة .

والتضحية بالابناء لم تكن محصورة في قبائل قليلة . فقد ورد في الصحيح ان زيد بن عمر بن نفيل ـ وهو عدوي قرشي كان يحيي المؤودة على النحو الذي اشتهر عن جد الفرزدق[123] . وهذا يدل على ان الواد عرف في مكة على الاغلب .. ويدل على انه ظل معروفا حتى جاء الاسلام .. لقرب عهد زيد من الاسلام . وكانت عادة الوأد معروفة كذلك عند الاوس والخزرج في يثرب لأن الرسول صلى الله عليه وسلم بايعهم في العقبة الاولى على بيعة النساء ومنها الا يقتلوا اولادهم .. وهي بيعة النساء المذكورة في القرآن الكريم[124] . واستفتت امرأة ابن عمر وابن عباس ومروان بن الحكم في نذر لها من هذا النوع[125] ولعله كان منها في الجاهلية .. وقد يكون من آثار الجاهلية

(١٢٢) تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/١٠٢ . النصرانية وادابها ١/١٦ ، ١٠ ـ ١١ ؛ امراء غسان ص ١٨ .

(١٢٣) البخاري : فتح الباري ٧/١١٤ . ويذكر ابن حجر ان ابن اسحق والفاكهي والنسائي وغيرهم رووا الحديث .

(١٢٤) الممتحنة ١٢ . وانظر فيها تفسير الطبري ٥ بولاق ٥ ٢٨/٥ ؛ وانظر خبر البيعة في تاريخ الطبري ٢/٢٥٦ ؛ والبخاري : فتح الباري ٧/١٧٦ . ويرجح ابن حجر ان ذلك كان بعد الفتح وليس في العقبة .

(١٢٥) تاريخ الطبري ٢/٢٣٩ . ويذكر ان ابن عمر لم يفتها بشيء . وان ابن

التي تخلفت في البدو وبقيت في المناطق القاصية عن التأثير الاسلامي . ويذكر ابن حبيب ان الطلس كانوا لا يئدون وهو خبر يؤكد صلة الوأد بالدين . لأن الطلس عنده بين الحمس والحلة وهي كلها تقاسيم دينية والطلس عنده اهل اليمن بالدرجة الاولى[126] .. وقد يكون خبر ابن حبيب صحيحا اذ لم اجد ذكرا لهذا اللون من الضحايا عند من تعرضوا لنقوش اليمن وتاريخه .

وكانوا ينذرون أولادهم ويقفونهم على عبادة الاصنام .. فقد جاء ان أم المغيرة جدة النبي عليه الصلاة والسلام دفعت ابنها الى مناف الصنم فغلب عليه اسم عبد مناف[127] .. وجاء ان ام تميم بن مر نذرت ان تعلق صوفة برأس الابن الذي يعيش لها وان تجعله ربيطا للكعبة . وفي خبر انها ربطته بالكعبة بالفعل[128] . ولعل للاعلام المركبة من اسماء الآلهة علاقة بهذه النذور .

ومن النذور والقرابين الحيوانية ما ذكره القرآن الكريم والحديث الشريف من البحيرة والوصيلة والسائبة والحامي[129] والفرع والعتيرة[130] . فالبحيرة من الابل ما يمنع دره للطواغيت وتعلم بشق اذنها . والسائبة كما يبدو لون من وقف البهائم للآلهة والوصيلة من الشياه تترك وما يصحبها من ذكر يولد معها وذلك شكرا لعدد معين من الاناث ولدته امها . والحامي الفحل من الابل يعفى من الضراب بعد مدة معلومة يرضونها[131] .

عباس افتاها بأن تفتدي ابنها بمائة بعير قياسا على فدية عبدالله بن عبدالمطلب . وافتاها مروان بأن نذرها باطل لا يجب به شيء . فأخذت بفتواه .

(126) المحبر ص 181 .
(127) الروض الانف 1/6 . تاريخ الطبري 2/254 .
(128) الروض الانف 1/85 .
(129) المائدة 103 .
(130) البخاري 9/90 : قال عليه الصلاة والسلام : «لا فرع ولا عتيرة» .
(131) انظر هذا التفسير وغيره في تفسير الطبري « بولاق » 7/56 . تفسير القرطبي 1/336 .

والفرع اول النتاج يذبح للالهة والعتيرة ذبيحة رجب[132] . ويروي الطبري في كيفية التقرب بالحيوان انهم كانوا يضربونها حتى تموت أو يخنقونها .. وهي المنخنقة والموقوذة التي نهي عنها[133] . وكانوا يلطخون النصب حول الكعبة بالدم ويعلقون عليها اللحم وربما أراقوا الدماء على الصنم نفسه . يقول عمرو بن عبدالجن[134] :

اما ودماء مائرات تخالها   على قلة العزى أو النسر عندما

لقد هزّ مني عامر يوم لعلع   حساما اذا لاقى الضريبة صمما

ويقول زهير يصف بازا اصطبغ بدم فريسته[135] :

فزل عنها واوفى رأس مرقبة   كمنصب العتر دمّى رأسه النسك

وذكروا للعزى مذبحا اسموه غبغب العزى[136] وجاء في الحديث الشريف النهي عن ان يمس رأس الوليد بدم العقيقة[137] ولعل لذلك صلة بالقرابين وطريقة التقرب بها . كذلك جاء في الصحيح النهي عن صبر البهائم[138] .. وهذه اشارة الى طرقهم في القربان .

ويبدو انهم كانوا يحسبون ان الالهة تنتفع بالضحية ماديا .. فقد روى انهم لم يكونوا يأكلون من اضاحيهم ، وذلك في تفسير قوله تعالى : « فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون . لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم .. » الحج ٣٦ – ٣٧ .

---

(١٣٢) فتح الباري ٦/٩٠ .
(١٣٣) تفسير الطبري « المعارف ٩/٤٩٥ – ٥٠٠ » تفسير آية المائدة ٣ .
(١٣٤) الحماسة البصرية ١/٨٠ .
(١٣٥) مختار الشعر الجاهلي ص ٢٥٤ .
(١٣٦) الاصنام ص ١٨ .
(١٣٧) اسد الغابة ٣/٣٦٢ .
(١٣٨) مسلم : النووي ١٣/١٠٧ – ١٠٩ .

ويروى الطبري عن ابن جريج ان الآية نزلت لأن المسلمين ارادوا ان يعظموا البيت كما كان يعظم في الجاهلية وذلك بدماء الاضاحي[١٣٩] ..

وجاء في القرآن الكريم انهم كانوا يحرمون بعض الحيوان على النساء خاصة ، قال تعالى : « وقالوا ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء .. » الانعام ١٣٩ . وينقل الطبري أقوالا في ذلك ومنها انهم كانوا يحرمون اجنة السوائب والبنها والوصائل وغيرها على النساء والرجال ان كانت اناثا . وعلى النساء وحدهن ان كانت ذكورا . ويشتركون في أكل الجنين الميت[١٤٠] .

وشملت النذور الزرع[١٤١] . ويروى ابن الكلبي ان بطنا من خولان هم الذين كانوا يقسمون لله تعالى وللشركاء نصيبا من حرثهم[١٤٢]، وقد سخر سبحانه وتعالى من تساهلهم في نصيبه وتشددهم في نصيب الشركاء .

والصلاة من عباداتهم التي عرفوها . قال تعالى : « وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية » الانفال ٣٥ . وقال ابن عباس في تفسير الآية : « كانت قريش تطوف بالبيت عراة يصفقون ويصفرون فكان ذلك عبادة في ظنهم » . ويقول سعيد بن جبير انهم كانوا يمكون نحو أبي قبيس[١٤٣] . واشتهر قيس بن مخرمة بن المطلب بصفيره : « وكان شديد الصفير يصفر عند البيت فيسمع صوته من حراء »[١٤٤]ويمكن انيكون ذلك من صلاتهم . وأوصى النبي صلى الله عليه وسلم امرأة من ثقيف اسلمت على غير علم من قومها فقال لها : « لا تعبدي طاغيتهم ولا تصلي اليها قالت اذن يقتلونني . فقال : اذا جاءوك فقولي ربي رب هذه الطاغية . ووليها ظهرك

---

(١٣٩) تفسير الطبري « بولاق » ٤٨/٦ ، ١١٩/١٧ .
(١٤٠) تفسير الطبري « بولاق » ٣٥/٨ .
(١٤١) الانعام ١٣٦ . وانظر تفسير الطبري « بولاق » ٣٠/٨ .
(١٤٢) الاصنام ص ٤٤ .
(١٤٣) تفسير القرطبي ٤٠/٧ والطبري « بولاق » ١٥٧/٩ .
(١٤٤) اسد الغابة ٢٢٦/٤ ، الاصابة ٢٦٥/٥ .

اذا صليت ..[145] ، ومن غير المحتمل ان تقف الصلاة عندهم على المعنى اللغوي .. وهو الدعاء ، اذ نلاحظ أعمالا وطقوساً معينة كالصفير والتصفيق والتوجه نحو الصنم فيما سبق من أخبارها ، ولكننا لا نملك وصفا حقيقياً لهذه العبادة عندهم .

٢ ــ المجوسية

لم تنتشر المجوسية بين العرب وبقيت آثارها في الحدود الفردية .. والمؤرخون يذكرون انها عرفت في تميم على قلة .. ويذكرون ان زرارة وابنيه لقيطا وحاجبا والاقرع بن حابس تمجسوا .. ويذكرون ان حاجب بن زرارة تمجس فتزوج ابنته ثم ندم وارتد عن المجوسية[146] .

ويذكر المؤرخون جماعات مجوسية أخذ منها المسلمون الجزية في مناطق يظن ان الفرس وصلوها أما حكاماً أو جاليات .. ومن هذه المناطق اليمن[147] والبحرين[148] ، وهجر[149] وعمان[150] ، ويرى جواد علي ان أكثر هؤلاء المجوس من الفرس .. نقلوا معهم دينهم وعباداتهم وعلل قلة انتشار المجوسية في العرب بعدم رغبة الفرس في التبشير بدينهم ونشره[151].

والمجوسية ذكرت في القرآن الكريم[152] .. كذلك أشار القرآن الكريم الى التنويه بعامة .. قال تعالى : « وقال الله لاتتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فأياي فارهبون » النحل ٥١ ، وجاء في نفس السورة

---

(١٤٥) ترجمة رقيقة الثقفية في اسد الغابة ٥٤/٥٤ والاصابة ٨٢/٨ .
(١٤٦) جمهرة انساب العرب ص ٤٩١ ، بلوغ الارب ٢٤٤/١ ــ ٢٤٥ . اسد الغابة ٢٢٣/٥ .
(١٤٧) الخراج لابن آدم القرشي ص ٧٢ .
(١٤٨) فتوح البلدان ص ٨٩ ، تاريخ ابن الاثير ١٥٥/٢ .
(١٤٩) فتوح البلدان ٩٠ ــ ٩١ . اسباب النزول ص ١٢٨ « الواحدي » .
(١٥٠) تاريخ ابن الاثير ١٥٧/٢ .
(١٥١) تاريخ العرب قبل الاسلام ٢٨٤/٦ ــ ٢٨٩ .
(١٥٢) الحج ١٧ .

قوله تعالى : « فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » النحل ٩٨ ، ولم يصرح الطبري في تفسير اشارة القرآن الكريم واعتبر القرطبي الاشارة نفياً للشرك عامة وقال انه جرى استعمال الاثنين لانهما ادنى العدد ولم يقصد اللفظ خاصة[١٥٣] ، وكثرت أقوالهم في عود الضمير في قوله تعالى : « يتولونه »[١٥٤] .

ومع ذلك يروى الطبري والقرطبي ان من الجاهليين من كان يقول بأن الله سبحانه وابليس اخوان ، فينقل القرطبي عن ابن الكلبي انه قال : نزلت في الزنادقة قالوا ان الله وابليس اخوان ، فالله خالق الناس والدواب وابليس خالق الجان والسباع والعقارب ويقرب هذا من قول المجوس »[١٥٥] ولم يحددوا الاشخاص أو الجماعة العربية التي قالت هذا وان صح ان هذا القول جاهلي فهو يدل على لون من الثنوية والمعرفة بها ، ويؤكد هذه المعرفة ما يذكر من حرص قريش على انتصار الفرس على الروم فقد شعروا انهم أقرب الى شركهم ، ومن أعجب ما يذكر عن علاقة قريش الدينية بالفرس ان الفرس أرسلوا يعلمون المشركين كيف يجادلون المسلمين في الميتة[١٥٦] .. ويزيد الواحدي انهم كانوا أولياء للفرس وكانوا يكاتبونهم .. ولكن ذلك فيما يبدو لم يتجاوز تبادل الرأي الى اعتناق المجوسية .

٢ ـ الزندقة

يذكر ابن قتيبة وابن حبيب والمقدسي وابو العلاء المعري ان الزندقة كانت في قريش وانها شملت جماعة من أخطر رجالها المعاصرين

---

(١٥٣) تفسير الطبري « بولاق » ٨/١٤ ، والقرطبي ١١٢/١٠ .
(١٥٤) تفسير الطبري « بولاق » ١١٦/١٤ ــ ١١٧ ، والقرطبي ١٧٦/١٠ .
(١٥٥) تفسير الطبري « بولاق » ٦٦/٢٣ ، القرطبي ٥٢/٧ .
(١٥٦) اسباب النزول للواحدي ص ٧٩ .

للاسلام[١٥٧] .. وهم كما يقول ابن حبيب أبو سفيان بن حرب وعقبة بن أبي معيط وابي بن خلف الجمحي والنضر بن الحارث ومنبه ونبيه ابنا الحجاج السهميان والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة . ويقـــول ابن حبيب انهم تعلموا الزندقة من نصارى الحيرة ..

ويرى الآلوسي[١٥٨] ان الزندقة في استعمال ابن قتيبة ـ الذي نقـــل قوله ـ تعني الثنوية أو القول بالنور والظلمة .. واستدل بأن فكرة انكار الربوبية والبعث كانت شائعة في العرب فهم لا يحتاجون الى تعلمها من الحيرة أو غيرها . وبعض ما يقوله الآلوسي صحيح .. ولكن ابن قتيبة لا يمكن ان يقصد بعبارته المجوسية والثنوية لأنه لو أراد ذلك لذكر مجوس قريش مع مجوس تميم .. وكذلك الامر في حديث ابن حبيب والمقدسي .. يقول الاخير : « وكانت الزندقة والتعطيل في قريش والمزدكية والمجوســـية في تميم .. الخ » يضاف الى ذلك غرابة أخذ المجوسية من نصارى الحـــيرة المذكورين في كلام ابن حبيب .

والذي أتصوره ان القول بزندقة موجودة في قريش جاء من ملاحظـة تشابه لبعض الاقوال المنسوبة الى رجال منهم في حرب الاسلام . تشـــابهها مع أفكار زنادقة العصور الاسلامية . والمرزباني يروي عن ابن طباطبا عن مؤدبه ابي سعيد محمد بن هبيرة الاسدي في قول زهير :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب   تمته ومن تخطيء يعمر فيهـرم

« انه كان يسمع المشايخ يقولون : هذا بيت زندقة ، وبعيد من أبياته التي يقول في بعضها :

---

(١٥٧) نقل . الالوسي في بلوغ الارب قول ابن قتيبة ١/(٤)٢ ، ٢٨٨/٢ . المحبر ص ١٦١ ؛ البدء والتاريخ ٣١/٤ . رسالة الغفران ص ٣٥٢ . وذكر ذلك عن بعض العلماء ورجحه والنزاع والتخاصم ص ٢٤ اقتصر على زندقة ابي سفيان .

(١٥٨) قبل د . جواد علي راي الالوسي : تاريخ العرب قبل الاسلام ٢٨٧/٦ ـ ٢٨٨ .

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم »[159]

ومن الواضح ان الزندقة بالنسبة لزهير ليست خبرا روى عنه وانما هي نتيجة توصلوا اليها من رأي زهير في الموت وذهابه الى انه يجري على غير منطق .. وهذه فكرة عرفوها لزنادقة عصرهم .

سبيلنا اذن الى معرفة زندقة الجاهلية هي هذه السبيل نفسها .. وذلك بأن ندرس الاقوال المنسوبة الى هؤلاء الزنادقة . والنضر بن الحارث أهم هذه الجماعة لاتجاهه الى الجدل في حرب الاسلام .. ولكثرة ما وردنا من اخباره في ذلك .

رووا أنه تعلم القصص الفارسي وغيره في الحيرة[160] ـ وهي المصدر الذي ذكره ابن حبيب لزندقة قريش ـ فكان يقص ويزعم انه أحسن قصصاً من القرآن الكريم .. وكان يقول : انما يأتيكم محمد بأساطير الأولين وانه عليه الصلاة والسلام يستعين بجبر غلام الاسود بن المطلب وعداس غلام شيبة بن ربيعة[161] . وكان هو وعقبة بن أبي معيط اللذين ذهبا الى يثرب ليأتيا بأسئلة يهودية يمتحن بها النبي عليه الصلاة والسلام[162] وذلك انكار منه لامكان الايحاء الى البشر .. وعنده ان قصص القرآن الكريم والقصص الفارسي وقصص التوراة سواء ليس منه شيء أحسن من شيء .

وقالوا انه نزل فيه ما فيه ذكر الاساطير من الآيات الكريمة[163] .. وقسم من هذه الآيات يتعلق بالآخرة[164] ... فالبعث والحساب عنده من الاساطير .. وهو كما يظهر من هذه الآيات يستخف بحديث الاسلام عن

---

(159) الموشح ص ٦١ ــ ٦٢ .
(160) تفسير الطبري ٩/١٥١ . الروض الانف ١/١٨٨ ، الواحدي ١٩٧ .
(161) انساب الاشراف ١/١٤٠ .
(162) الروض الانف ١/١٩٠ ، ٢٢٥ . تفسير الطبري « بولاق » ١٥/١٢٧ .
(163) السيرة : الروض الانف ١/١٨٨ . تفسير الطبري « بولاق » ١٨/١٣٧ .
(164) سنتعرض لهذا في الحديث عن عقائدهم فيما بعد الموت .

الآخرة وباساطير الاولين كذلك ، فهو يربط بين الاثنين ليس على سبيل المدح كما هو واضح .. وفكرة انكار البعث من زندقته .. وقد كانت هذه الفكرة تدفعه الى مادية وتلذذ حسي يراه أهم من أي شيء .. فقد قالوا انه انزل فيه قوله تعالى : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل به عن سبيل الله » لقمان ٦ ، فعن ابن عباس قال : « نزلت في النضر بن الحارث اشترى قينة وكان لا يسمع بأحد يريد الاسلام الا انطلق به الى قينته فيقول: اطعميه واسقيه وغنيه ، هذا خير مما يدعوك اليه محمد من الصلاة والصيام وان تقاتل بين يديه فنزلت .. »[165] وهذا الطابع المادي أيضاً من زندقته ..

ويحتمل ان النضر كان يشك في الالوهة ذاتها[166] ، فقد رووا انه أنزل فيه قوله تعالى : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم » لقمان ٢٥ ، وقال النبي عليه السلام حين أمر بقتله ورفض الابقاء عليه : « انه كان يقول في الله ورسوله ما يقول »[167] .

ليس غريبا اذن ان يعتبر النضر وأمثاله زنادقة عند ابن قتيبة وابن حبيب وغيرهما وان يتصور ابن حبيب ان مصدر هذه الافكار هو الحيرة حيث الفرس والنصارى الذين يشددون على الفلسفة اليونانية ويدرسونها .. ومنهم النساطرة[168] .

ولا يمكن ان ندرس افكار هذه الجماعة كلها لقلة ما ورد عنها ولم يتجه أفرادها الى الجدل اتجاه النضر[169] ، ونحن نعتبرها مجموعة من الافراد

---

(١٦٥) لباب النقول ص ٦١٢ ، اسباب النزول ١٩٨ ، انساب الاشراف ١/ ١٤٠ .

(١٦٦) اسباب النزول ٥٥١ ، انساب الاشراف ١/١٤٠ .

(١٦٧) انساب الاشراف ١/١٤٣ ، وجاء في نفس الصفحة .. يقول في كتاب الله ورسوله .

(١٦٨) تاريخ العرب قبل الاسلام ٦/٧٤ .. ويذكر اهتمامهم بفلسفة ارسطو ونشرها .

(١٦٩) جاء في انساب الاشراف ١/١٤٢ انه كان خطيب القوم .. وجاء في تفسير القرطبي انه انزل فيه قوله تعالى : ١١/٥ : « وكان الانسان اكثر شيء جدلا . » الكهف .

لم يجمعها نظام او اتفاق غير حرب الاسلام . ولكننا نستطيع ان نفهم على أساس ما قدمناه من افكار أحدها ان بعض ما يرد في القرآن الكريم من أفكار الجاهلية انما هو من افكار هذه الجماعة خاصة ، لا المشركين عامة . من ذلك قولهم للنبي صلى الله عليه وسلم كما حكى القرآن عنهم في جملة ما طلبوه من الآيات ليؤمنوا : « او تأتي بالله والملائكة قبيلا » الاسراء ٩٢ . فهـذا قول ملحد وليس من قول شاك في الرسالة ، ومثل قولهم كما حكى القرآن الكريم : « وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » الجاثية ٢٤ . والمفسرون يعتبرون هذا القول من أقوال الدهرية والزنادقة .. وهو فيما يتعلق بالدهر يعم أهل الجاهلية تقريباً . ولكنهم لم يذهبوا الى انكار الآخرة والتوقف عند الحياة الدنيا .. وكذلك فان الدهر عند الغالبية هو القدر ولكنه عندهم كما تمثله الآية الكريمة فكرة تعارض الاعتقاد بأن الله تعالى هو المهيمن على حياة الناس[١٧٠] .

والى هؤلاء فيما نظن ينسب القرآن الكريم القول بعبث الحياة وفوضى الكون . فما يلاحظ انه تعالى يضع في مقابل انكار البعث كونه خلق الخلق بالعدل والحق . ومن ذلك قوله تعالى :

« وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا . ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار »[١٧١] . وقوله عز وجل : « وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين لو اردنا ان نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون .»[١٧٢] وقوله تعالى : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وانكم الينا

(١٧٠) سيأتي تفصيل ذلك : ويقول تعالى قبل هذه الاية : « افرأيت من اتخذ الهه هواه واضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله افلا تذكرون . » الجاثية ٢٣ .

(١٧١) سورة ص ٢٧ ، تفسير الطبري « بولاق » ٩٧/٢٢ .

(١٧٢) الانبياء ١٦ ، تفسير الطبري « بولاق » ٨/١٧ .

لا ترجعون . »[١٧٣] وقوله تعالى : « وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما الا بالحق ولكن اكثرهم لا يعلمون . »[١٧٤] وقوله تعالى : « او لم يتفكروا في انفسهم ما خلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق واجل مسمى وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون . » الروم ٨ .

فهذا كله لا يترك في النفس شكا في ان رفضهم للبعث اراهم الحياة بلا مبرر وبلا منطق مفهوم عندهم . وهي فكرة من اخطر افكارهم .. واكثرها انتشارا في الجماعة المفكرة منهم كما سنرى عند دراستنا للشعر ..

وقد حاول بعض الباحثين التماس ديانات اخرى عند العرب كالطوطمية وعبادة السلف وهي عقائد لم يعثروا منها الا على آثار لا تقبل على نحو يقيني. ولو صح أنها وجدت عندهم فهي من المندثر الذي لا يتعلق بالجاهلية التي ندرسها[١٧٥] ..

اهل الكتاب :

٤ ـ اليهودية

لم يجد المؤرخون لليهود في البلاد العربية في غير المصادر العربية الا قليلا من المعلومات التي تتعلق بالصراع بينهم وبين نصارى نجران . والمواطن التي ذكرتها المصادر العربية لليهود هي اليمن ويثرب وخيبر وفدك ووادي القرى وتيماء والطائف وتبوك ومقنا والبحرين وهجر[١٧٦] .

---

(١٧٣) المؤمنون ١١٥ ، تفسير الطبري ، بولاق ، ١٨/٥٠ .
(١٧٤) الدخان ٣٨ ، تفسير الطبري ، بولاق ، ٢٥/٧٦ ــ ٧٧ .
(١٧٥) تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/٢٢ ، ٢٦ .
(١٧٦) فتوح البلدان ص ٤٢ ، ٤٧ ، ٦٧ ، ٧١ ، ٩٠ ــ ٩١ . تاريخ الطبري : ٣/٩ ، ١٥ ، ١٦ . تاريخ ابن الاثير ٢/١٤٧ ، ١٥٢ . وانظر تاريخ العرب قبل الاسلام ٦/١٥٤ ، ١٦٠ وما بعدها .

ويروى ابو الفرج في كيفية دخول اليهود في الجزيرة العربية ان ذلك كان على عهد موسى عليه الصلاة والسلام .. فقد بعث جيشا منهم الى العماليق بيثرب وامر الا يستبقوا منهم احدا ولكنهم ابقوا على فتى اعجبهم وعادوا بعد وفاة موسى عليه السلام فرفض يهود الشام ان يقبلوهم لمعصيتهم أمر موسى عليه السلام . فعاد هذا الجيش واستوطن بيثرب .. ثم ان قريظة والنضير جاءوا الى يثرب بعد ان تغلبت الروم على اليهود في الشام .. والخبر يذكر هجرتين يهوديتين كما نرى[١٧٧] .

والهجرة الاولى مقبولة عند المستشرقين . ويرى دوزى انها تمت قبل عهد داود عليه السلام في الالف قبل الميلاد تقريبا . ويرى مرجليوث انها تمت في عهد حزقيال ٧١٧ ـ ٧٩٠ ق.م.

ويرى ولفنسون انها كانت قبل عصر التدوين العبري في القرن الثاني عشر قبل الميلاد . وهم يعتمدون على اشارات في العهد القديم تذكر خروج جماعات يهودية نحو الجنوب والغرب[١٧٨] . ويرفض جواد علي هذه الهجرة ويرى انها جاءت من ظن المؤرخين الاسلاميين ان العماليق الذين ذكرتهم التوراة كانوا يسكنون يثرب .. اما الهجرة الثانية فهي مقبولة في الوقت الذي ذكره ابو الفرج[١٧٩] .

وتذكر المصادر الاسلامية ان اليهودية انتقلت الى اليمن من الحجاز . وملخص الرواية في ذلك ان احد التبابعة ترك ابنا له في يثرب وهو في طريقه الى الغزو فقتل الولد . وعندما عاد التبع حاصر المدينة فامتنعت عليه .. وجاء حبران يهوديان اثناء الحصار فذكرا له ان يثرب هي مهاجر الرسول صلى الله عليه وسلم .. ثم انه اغرى بمكة ولكنهما ذكرا له فضلها وانها مبعث الرسول عليه الصلاة والسلام .. فكساها .. ثم انهما دخلا اليمن معه فتحديا الوثنية

---

(١٧٧) الاغاني « الساسي » ١٩/ ٩٤ .
(١٧٨) تاريخ اليهود ص ٣٠ وما بعدها .
(١٧٩) تاريخ العرب قبل الاسلام ٦/ ٩ ـ ١٠ .

ودخلا نارا مقدسة فلم تضرهما ، واخرجا شيطانا من احد الاصنام .. فهودت اليمن أو حمير[180] ، ويرى جواد علي ان دخول اليهودية كان عن طريق التجارة بين الشام واليمن ويعتبر ان هذه الروايات التاريخية تذكر الحجاز لانه يقع على طريق التجارة بين الشام واليمن[181] .

ولا ندري عن يقين شيئا يحدد لنا مدى انتشار اليهودية في اليمن .. أو مدى النفوذ الذي تمتعت به،ويرفض جواد علي رأي بعض المستشرقين الذي يذهب الى وجود دولة يهودية في اليمن يحددون لها زمنا يتفاوت بين القرن السابق للميلاد والقرن الخامس الميلادي .. لان هذا الرأي يعتمد على الاخبار الاسلامية فحسب ولا تثبته النقوش أو المصادر الاجنبية .. ويرجح ان بعض الاقيال تهودوا دون ان يشمل ذلك اليمن كله أو غالبية حكامه وقبائله[182] .

ومع ذلك فان قصة الصراع بين اليهود والنصارى في نجران التي اشار اليها القرآن الكريم في سورة البروج تكشف عن نفوذ سياسي لا شك فيه لليهودية في اليمن ، وقد سجل هذا الصراع مارشمعون اسقف بيت ارشم في رسالتين وكتاب[183] .. وقد ارسل الرسالتين الى رئيس دير الجبول في شمال سورية يصف فيها حوادث نجران ويطلب التدخل لانقاذ النصرانية في اليمن .

واما الكتاب فسجل فيه تفاصيل الحادثة وبطولة شهدائها واسماءهم . ومن اهم ما تفيده الرسالة الاولى تاريخ الحادثة فقد ارسلت الرسالة سنة ٥٢٤م على اثر وصول رسول من ملك اليمن الى ملك الحيرة يخبره بانه قضى

---

(١٨٠) السيرة : الروض الانف ١/٢٣ ـ ٢٨ . تاريخ الطبري ٢/١٠٥ تفسير الطبري « بولاق » ٢٦/٩٨ . تاريخ ابن الاثير ١/٢٤٤ . الاغاني « دار الكتب » ١٥/٢٨ . البداية والنهاية ٢/١٦٥ .

(١٨١) تاريخ العرب قبل الاسلام ٦/٢٤ .

(١٨٢) تاريخ العرب قبل الاسلام ٦/٢٧ ـ ٣٠ .

(١٨٣) ترجمها ودرسها ونشرها مار اغناطيوس يعقوب الثالث بطريرك انطاكية في المجلة البطريركية . السنة الرابعة . الاعداد من ٣١ ـ ٤٠ .

على نصارى بلاده ويحرضه على ان يفعل المثل في الحيرة .. ويطالب مارشمعون في هذه الرسالة بالضغط على يهود طبرية الذين كانوا يرسلون وفودهم الى ملك حمير في كل سنة لتحريضه على الايقاع بالنصارى مع انهم يعيشون في بلد خاضع للنصرانية . والرسالة تكشف كذلك عن احتلال حبشي سابق فهي تذكر ان الاضطهاد وجه قبل نجران الى كنيسة حبشية في ظفار والى حامية وحاكم حبشي كانوا مكلفين بحماية هذه الكنيسة[١٨٤] . وقد استقى كاتب الرسالة هذه المعلومات من رسالة الملك الحميري الى الحيرة .. وزاد من التفصيل في رسالته الثانية[١٨٥] ورجح ناشر الوثائق ان الحملة الحبشية السابقة لمحنة نجران كانت سنة ٥١٩م لاسباب ذكرها[١٨٦] . وقد دلت النقوش الحبشية واليمانية على وجود احتلال حبشي اسبق من هذا وكان بين منتصف القرن الرابع الميلادي الى سنة ٣٧٥م تقريبا . وهو احتلال حبشي مسيحي ارتبط بظهور التوحيد في نقوش الحبشة واليمن . ولم يذكر هومل ـ الذي اورد هذا ـ ما يدل على صلة هذا الاحتلال الحبشي باليهودية . وهذا كله يظهر حدة الصراع الذي عانته اليهودية في اليمن مما اضعفها هناك فلم يكن لها من القوة عند ظهور الاسلام ما تحاربه به كما فعل يهود يثرب وهو مالاحظه جواد علي[١٨٧] . وهذه الرسائل تظهر العلاقة الطيبة بين يهود اليمن وحكام الحيرة . وتظهر كذلك صلة محتملة بالفرس .. وهي الصلة التي ظهرت بعد ذلك في احتلال الفرس لليمن بطلب من سيف بن ذي يزن مما هو شهير في التاريخ[١٨٨] . وتوضح اخيرا اتصال العلاقة بين يهود اليمن العرب وبين بني دينهم في الشام ..

---

(١٨٤) المجلة البطريركية : العدد ٢٣ ص ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٢ .

(١٨٥) المجلة البطريركية : العدد ٢٤ ص ١٨٤ ، العدد : ٢٥ ص ٢٥٦ العدد : ٢٦ ص ٢٠١ .

(١٨٦) المجلة البطريركية : العدد ٢٥ ص ٢٥٨ .

(١٨٧) تاريخ العرب قبل الاسلام ٢٦/٦ .

(١٨٨) السيرة : الروض الانف ٥١/١ .

واذا كنا مهتمين ابتداء بأثر اليهود في العرب المشركين فان علينا ان ندرس ميزاتهم الدينية اولا ثم المظاهر التي اتخذتها صلاتهم بالعرب بعد ذلك ومصدرنا الرئيسي في معرفة عقائدهم القرآن الكريم •• اذ هو يكشف عن فروق جوهرية بين اليهود عامة ويهود العرب بوجه خاص •

ومن اهم ذلك ما نفهم منه ضحالة ايمانهم بدينهم حتى ليشبهون غيرهم من العرب في شكهم في النبوات وفيما جاءت به مما يتبع الكفر بها •• قال تعالى : « وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما انزل الله على بشر من شيء قل من انزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا • وعلمتم ما لم تعلموا انتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون • » الانعام ٩١ • وقد نسب هـذا القول الى مالك بن الصيف القرظي أو فنحاص أو جماعة من اليهود ولم يصدق الطبري ان يقول اليهود ذلك فنسب القول الى المشركين[١٨٩] • ولكن من الغريب ان يحتج القرآن الكريم بنبوة موسى وعلم رسالته على قوم لا يؤمنون بها • ومثل ذلك ما يرويه أبو العلاء من شعر قاله يهودي من خيبر حين اجلاهم عمر رضي الله عنه •• وهو صريح في التكذيب بالنبوة البشرية عامة[١٩٠] :

فلو كان موسى صـادقا ما ظهرتم علينا ولكن دولـة ثم تذهب
ونحن سبقناكم الى المين فاعرفوا لنا رتبة البارى الذي هو اكـذب

ومن ذلك شكهم في البعث : يقول تعالى : « والذين ينفقون اموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر •• » النساء ٣٨ •

ويذكر الطبري ان مجاهدا يراها في اليهود ولم يوافقه ونقل الواحدي قول مجاهد وذكر انه جاء عن ابن عباس وابن زيد والكلبي[١٩١] • ويقول تعالى عن

---

(١٨٩) تفسير الطبري « المعارف » ١٦٧/٧ • اسباب النزول ص ١٢٥ •

(١٩٠) رسالة الغفران ص ٢٧٧ • وذكرت د • بنت الشاطىء انكار ياقوت لهذا الشعر وظنه انه من قول ابي العلاء نحله اليهودي •

(١٩١) تفسير الطبري « بولاق » ٥٦/٥ • اسباب النزول ص ٨٧ •

رأيهم في البعث : « يا ايها الناس لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من اصحاب القبور » ، الممتحنة ١٣ ، وقد ذهب المفسرون الى ان هذه الآية في اليهود .. ولكنهم وجهوا يأسهم من الآخرة الى يقينهم من العذاب بما اذنبوا وكفروا بالاسلام[١٩٢] ، والحقيقة ان اليهود لم تكن عندهم صورة واضحة عن الآخرة كما هي في الاسلام ، ولقد روى ابن حجر عن الزبير بن بكار في الموفقيات انهم كانوا يقولون باسطورة الهامة مثل غيرهم من المشركين ... وكانت اليهود تزعم انها تدور حول قبره سبعة ايام ثم تذهب » وذلك فيمن كان يقول ان الهامة دودة[١٩٣] .

ومن ميزاتهم ما يتعلق باصل عبادتهم .. فقد دخل عليها من وثنية جيرانهم الكثير .. يقول تعالى : « ألم تر الى الذين اوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء اهدى من الذين آمنوا سبيلا » النساء ٥١ .

ويقول المفسرون ان ايمانهم بالجبت والطاغوت كان في اثناء تحريضهم لقريش على حرب الاسلام في اعقاب احد ، وذكروا ان كعب بن الاشرف سجد لصنمين اثباتا لما ذكره من فضل الشرك على الاسلام[١٩٤] ، وقد اختلفوا في معنى الجبت والطاغوت[١٩٥] .. بين كونهما صنمين او الساحر والكاهن ولكننا نعلم ان اللات وذا الخلصة وغيرهما من الاصنام سميت طاغية[١٩٦] ، كذلك ورد اسم « ذوغيت » علما لصنم معبود لحياني[١٩٧] ، كما ان سجود ابن الاشرف للاصنام يحدد معنى الكلمتين في الآية الكريمة ، ويؤكد هذه

(١٩٢) تفسير الطبري « بولاق » ٥٢/٢٨ ، والقرطبي ٣٤/٢ .
(١٩٣) فتح الباري ١٩٧/١٠ .
(١٩٤) السيرة : الروض الانف ٤١/٢ . تفسير الطبري « بولاق » ٨٣/٥ .
(١٩٥) البخاري : فتح الباري ٢٠٢/٨ ، السيرة : الروض الانف ٤١/٢ ، الفائق ٩٤/٢ النهاية في غريب القرآن ٣٩/٣ ، مفردات الراغب ٨٥ ، ٣١٤ .
(١٩٦) البخاري : فتح الباري ٦٤/٣ ، اسد الغابة ٢٦٥/٥ ، الاصابة ٨٢/٨ .
(١٩٧) التاريخ العربي القديم ١٨٤ .

التشبيه الوثنية عند اليهود انهم كانوا يحتكمون الى كاهن عربي هو ابو بردة الاسلمي[198] ويؤيد ذلك ما جاء في السيرة عن ابن اسحق : « واتى رسول الله صلى الله عليه وسلم النعام بن زيد وكردم بن كعب وبحرى بن عمرو فقالوا له : يا محمد اما تعلم مع الله الها آخر غيره • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله لا اله الا هو بذلك بعثت والى ذلك ادعو فانزل فيه وفيهم قوله : « قل اي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم واوحى اليّ هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ إئنكم لتشهدون مع الله الهة اخرى قل لا اشهد قل إنما هو إله واحد وانني بريء مما تشركون • ان الذين اتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم الذين خسروا انفسهم منهم لا يؤمنون » الانعام ١٩[199] •

ويلحق بذلك تجسيدهم وتشبيههم • فقد جاء انهم سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم عن نسب الله سبحانه وعن صفته وخلقه « وكيف خلقه وكيف عضده وكيف ذراعه » • فانزلت في اجابتهم سورة الاخلاص وكذلك قوله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه • » الزمر ٦٧[200] •

وذكر القرآن الكريم جهل قسم منهم بحقيقة التوراة • قال تعالى : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا اماني • » البقرة ٧٨ •

ولا يستغرب بعد ذلك اهتمامهم بالسحر واعتمادهم عليه •• فقد صح انهم سحروا النبي عليه الصلاة والسلام[201] •• وسحروا المسلمين في اول الهجرة لئلا يولد لهم[202] • واشار القرآن الكريم من قصص السحر عندهم الى ما كانوا يقولون في هاروت وماروت • وقد حقق ابن كثير ان ماروى في

---

(١٩٨) اسباب النزول ص ٩٢ •

(١٩٩) السيرة : الروض الانف ٤٣/٢ •

(٢٠٠) تفسير الطبري « بولاق » ٢٢١/٣٠ ، اسباب النزول ٢٦٢ ، السيرة : الروض الانف ٤٤/٢ • وانظر تخريج الحديث في لباب النقول ص ٨١٦.

(٢٠١) البخاري : فتح الباري ١٨٥/١٠ – ١٩١ • مسلم : النووي ١١٤/١٤ •

(٢٠٢) ترجمة ابن الزبير في اسد الغابة ١٦٣/٣ ، والاصابة ٦٩/٤ •

تفسير اشارة القرآن كله من الاسرائيليات ولم يثبت عنده اي حديث مرفوع صحيح في الملكين[٢٠٣] .

والقصة ليست من كتبهم المقدسة فهي مما استجد لهم في البلاد العربية[٢٠٤] وجاء من سحرهم انهم قالوا : « انظروا الى محمد يخلط الحق بالباطل ، يذكر سليمان مع الانبياء انما كان ساحرا يركب الريح »[٢٠٥] ..

وهذا كله مما دفع الى ارتياب اليهود في يهود العرب . وينقل ولفنسون ان يهوديا من حلب انكر ان يكون الذين يعتبرون انفسهم من اليهود في خيبر يهودا حقا لانهم لم يحافظوا على الدين اليهودي ولم يخضعوا لقوانين التلمود[٢٠٦] ..

والمصادر الاسلامية تعتبر عامة يهود اليمن عربا متهودين . انسابهم هي انساب اهل اليمن نفسها . ومن القبائل التي ذكروا ان اليهودية انتشرت فيها حمير وكندة وبنو الحارث بن كعب[٢٠٧] .. وذلك مفسر بقصة الحبرين . ويرى المستشرقون لهذا التهود سببا سياسيا يتمثل في مقاومة اليمن للنصرانية التي يتذرع بها الاحباش للاحتلال .. وذلك بعقيدة موحدة يمكن ان تصمد للنصرانية .. وقد اختاروا اليهودية لانها ليست لها سلطة سياسية ممثلة في دولة اجنبية قوية[٢٠٨] .. فهم يتفقون مع المصادر الاسلامية في ان يهود اليمن عرب ولكنهم يختلفون معها في تعليل تهود بعض اهل اليمن .

---

(٢٠٣) تفسير ابن كثير ١/٢٤٧ ، ٢٦٠ .

(٢٠٤) انظر تفصيل آيات الذكر الحكيم حيث ذكرت القصة فيما ليس من الكتاب المقدس واشار المعلق على تفسير ابن كثير « الهامش السابق » الى ان القصة ليست من كتب اليهود المقدسة .

(٢٠٥) السيرة : الروض الانف ٢/٢٥ ، لباب النقول ص ٢٨ .

(٢٠٦) تاريخ اليهود ص ١٣ .

(٢٠٧) جمهرة انساب العرب ٤٩١ ، بلوغ الارب ١/٢٤٤ .

(٢٠٨) تاريخ اليهود ص ٣٥ .. ويستعرض ولفنسون اقوال المستشرقين في سبب تهود اهل اليمن .

ولم يجد يهود الحجاز من حولهم نشاطا سياسيا .. ولكنهم واجهوا حياة قبلية فاضطروا الى قبولها والخضوع لمتطلباتها . فانقسموا مثل جيرانهم الى قبائل .. وانضموا الى القبائل العربية في الوان من الحلف والولاء مما عرفته الجاهلية .. ولكن ذلك لم يؤد الى دمجهم بالعرب . فوحداتهم القبلية بقيت مميزة واضحة عند النسابين مما يدل على اصل هذه القبائل العبري ويقول ابو الفرج الاصبهاني في ذلك : « فمن هؤلاء اليهود قريظة والنضير وقينقاع وغيرهم . ولم اجد لهم نسبا لأذكره لانهم ليسوا من العرب فتدون العرب انسابهم .. انما هم حلفاؤهم »[٢٠٩] .

ومع وجود هؤلاء اليهود العبريين في الحجاز فان حركة التهود وجدت في الحجاز ايضا .. وكأن السماح بالتهود وقبول الاجانب من خصائص اليهودية في بلاد العرب . فقد عدّ ابن اسحق احبار اليهود الذين كانوا يسألون النبي عليه الصلاة والسلام .. وعد فيهم نفرا من الاوس والخزرج وغيرهم .. فكعب بن الاشرف طائي امه من النضير[٢١٠] . ولبيد بن الاعصم الساحر من يهود بني زريق[٢١١] ويقول السهيلي معلقا على ذلك : قوله من يهود بني زريق ومن يهود بني حارثة وذكر قبائل من الانصار . وانما اليهود بنو اسرائيل وجملة من كان منهم بالمدينة وخيبر انما هم بنو قريظة والنضير وبنو قينقاع غير ان من الأوس والخزرج من قد تهود وكان من نسائهم من تنذر ان عاش ولدها ان تهوده .. »[٢١٢] واشار بعد ذلك الى ان قوله تعالى : « لا اكراه في الدين . » ٢٥٦ البقرة . نزل في هؤلاء الاوسيين والخزرجيين اليهود الذين احبوا الخروج مع ابناء دينهم حين اجلاهم النبي عليه الصلاة والسلام فشق على اسرهم وقبائلهم وارادوا منعهم[٢١٣] . وجاء في كتاب النبي

---

(٢٠٩) الاغاني « دار الكتب » ١١٦/٢ .
(٢١٠) الاغاني « الساسي » ١٠٦/١٩ .
(٢١١) فتح الباري ١٨٥/١٠ .
(٢١٢) الروض الانف ٢٤/٢ .
(٢١٣) المصدر السابق . وانظر اسباب النزول ٤٥ ــ ٤٦ .

صلى الله عليه وسلم بين اليهود والمسلمين في أول الهجرة : « وان يهود بني عوف امة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وانفسهم الا من ظلم واثم فانه لا يوتغ الا نفسه واهل بيته وان ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف وان ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف ، وان ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف وان ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف الا من ظلم واثم فانه لا يوتغ الا نفسه وأهل بيته ، وان جفنة بطن من ثعلبة كانفسهم وان لبني الشطنة مثل ما ليهود بني عوف وان البردون الاثم وان موالي ثعلبة كانفسهم وان بطانة يهود كانفسهم »[214] .. فالقبائل المذكورة هنا من الانصار نص الكتاب على انها كانت تضم يهودا من انفسها ومن مواليها ، ويقول حسان بن ثابت رضي الله عنه يهجو الضحاك بن خليفة الاشهلي[215] :

ابلغ ابا الضحاك ان عروقه ... اعيت على الاسلام أن تتمجدا
اتحب يهدان الحجاز ودينهم ... كبد الحمار ولا تحب محمدا
واذا تشا لك ناشيء ذو غرة ... فه" الفؤاد امرته فتهودا

وذكروا في الصحابة نفرا من العرب المتهودين قبل اسلامهم ، ومنهم جبل ابن جوال الثعلبي الذبياني وكان مع بني قريظة وقد رثاهم[216] ، ومنهم ثعلبة ابن ابي مالك القرظي الذي يذكرون أنه كندي يماني تزوج وانتسب في قريظة[217] .

ومما قالوه في نسب السموال انه غساني .. ومثله الفطيون الذي زعموا انه كان ملكا على الحجاز[218] ، ويذكر ابن قتيبة ان اليهودية انتشرت

---

(214) السيرة : الروض الانف ٢/١٦ .
(215) شرح ديوان حسان ص ٦٣ .
(216) اسد الغابة ١/٢٤٥ .
(217) الاصابة ١/٤١٤ ، شرح ديوان حسان ص ١٩٢
(218) الاشتقاق ص ٤٣٦ . وانظر في نسب السموال ، الاغاني «الساسي» ١٩/٩٨ .

في كنانة وهو شيء غريب علله الآلوسي بمجاورتهم يهود يثرب وخيبر[٣١٩]. ولا اجد ما يؤيد خبر ابن قتيبة . ويغلو اليعقوبي فيزعم ان قريظة والنضير قبائل من جذام[٣٢٠] .

والتفسير الذي أذهب اليه في تهود بعض عرب الحجاز هو أنه كان ظاهرة قبلية قبل ان تكون دينية .. فهذا التهود هو من قبيل الحلف والجوار والولاء اكثر منه رغبة في الدين اليهودي . والمشكلة ان لفظ اليهودي ديني عنصري في الوقت نفسه .. ومن هنا فمن المحتمل ان يدل في حالات مختلفة على اعتناق الدين وعلى الالتحاق القبلي ..

وقد كان اليهود يشعرون بقلتهم وضعفهم بين القبائل القوية المتعودة على القتال . وبقي لنا مما يصور هذا الشعور بالضعف ما يقصونه من فعل مالك بن العجلان بهم[٣٢١] فقد ساءته قوتهم ونفوذهم بيثرب فاستجد بالملك الغساني أي جبلة الذي فتك باشراف اليهود وسادتهم . ثم ان مالك بن العجلان خدع اليهود وفتك بمائة من سادتهم . فصوروه في معابدهم وكانوا يلعنونه . وذلوا من بعد ذلك وصاروا يلجأون الى بطون الاوس والخزرج يتعززون بهم .. وتفسر حرب تبع لأهل يثرب بانه اراد بها اليهود خاصة ولكن الاوس والخزرج دافعوا عنهم وحموهم[٣٢٢] .

وقد أدى احلاف اليهود المختلفة مع الاوس والخزرج الى اشتراك القبائل اليهودية في حروب يثرب الجاهلية : سمير وبعاث[٣٢٣] وأدى ذلك الى ان تقاتل كل قبيلة مع حليفتها من العرب فربما التقى اليهود واقتتلوا . قال

---

(٣١٩) بلوغ الارب ١/٣٤٤ ، ٢/٢٤٠ .

(٣٢٠) تاريخ اليعقوبي ٢/٣٦ ، ٣٩ .

(٣٢١) الاغاني « الساسي » ١٩/٩٦ ، ايام العرب في الجاهلية ص ٦٢ . ومالك ابن العجلان ليس ببعيد العهد عن الاسلام . . فابنه ممن حضر العقبة الاولى .. الروض الانف ١/٢٦٨ .

(٣٢٢) الروض الانف ١/٢٣ ــ ٢٦ ، الاغاني « دار الكتب » ١٥/٣٨ .

(٣٢٣) ايام العرب في الجاهلية ص ٦٥ ، ٧٣ .

تعالى : « واذ اخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون انفسكم من دياركم ثم اقررتم وانتم تشهدون . ثم انتم هؤلاء تقتلون انفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان وان يأتوكم اسارى تفادوهم وهو محرم عليكم اخراجهم افتؤمنون ببعض الكتـــاب وتكفرون ببعض »[٣٢٤] .. البقرة ٨٤ ـ ٨٥ . وقد اشتهر ذلك عند العرب ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام للانصار حين لقيهم اول مرة بمكة واتبــوا له : «امن موالي اليهود »[٣٢٥] وبهذه الاحلاف شفع المنافق عبــدالله بن أبيّ في بني قينقاع وقال انهم مواليه وانهم منعوه في الجاهلية . وطالبت الاوس بمثل ذلك في قريظة لأنهم احلافهم[٣٢٦] ..

ولم يذكر في الاخبار حلف بين غطفان واليهود ولكننا نلمح شيئا من ذلك في حروب الاسلام فقــــد كانت غطفـــان واليهـــود ممن شارك في الاحزاب[٣٢٧] ونزل المسلمون بين خيبر وغطفان فرجعت غطفان عن مناصرة خيبر وخافوا ان يخالفهم المسلمون الى ديارهم[٣٢٨] والواقدي يذكر اسدا ايضــا ويقول انها شاركت في الاحزاب[٣٢٩] ويقول ان غطفـــان واسدا دافعوا عن خيبر ودخلوا مع اليهود شهرا ثم انصرفوا[٣٣٠] .

وقد ذكر ابو الفرج قبائل عربية كانت تنزل مع اليهود .. فيقول ابو الفرج : « كان معهم من غير بني اسرائيل بطون من العرب منهم بنو الحرمان حي من اليمن وبنو مرثد حي من بلي وبنو نيف حي من بلي ايضا وبنو معاوية حي من بني سليم ثم من الحارث بن بهثة وبنو الشطبة حي من غسان »[٣٣١] .

---

(٣٢٤) تفسير الطبري « المعارف » ٢/٣٠٥ .
(٣٢٥) السيرة : الروض الانف ١/٢٦٦ . البداية والنهاية ٣/١٤٨ .
(٣٢٦) السيرة : الروض الانف ٢/١٢١ ، ١٦٧ .
(٣٢٧) السيرة : الروض الانف ٢/١٨٧ .
(٣٢٨) السيرة : الروض الانف ٢/٢٣٧ .
(٣٢٩) المغازي : ٢٩٠ .
(٣٣٠) المغازي : ص ٣١٠ . تاريخ ابن الاثير ٢/١٤٧ .
(٣٣١) الاغاني « الساسي » ١٩/٩٥ .

فهذه العلاقات اكثرها قبلي لا يشبه التبشير او ترغيب العرب في الدين اليهودي ولكن مثل هذه الصلات جعلت اليهودية في الحجاز وحيث امتد أثرها في البدو عاملا مؤثرا يجب أن يحسب حسابه في عقائد الجاهلية .

النصرانية

على غير ما رأينا في تاريخ اليهودية ، انتشرت المسيحية بالتبشير بالدرجة الاولى ، وقد اتسمت حركة التبشير النصرانية بالنشاط والفعالية بما تملك من مال ونفوذ تستمده من دولة الروم الكبرى التي هي القاعدة الامينة لهذا الدين ، ويصور ذلك الاستاذ جواد علي فيقول : « وقد كانت هذه الاديرة وهي بيوت خلوة وعبادة وانقطاع الى عبادة الله والتفكير فيه مواطن تبشير ونشر دعوة وقد انتشرت حتى في المواضع القصية من البوادي، حتى تمكنت من التبشير بين اكثر القبائل ، ولولا ظهور الاسلام ونزول الوحي على الرسول في الحرمين لكان وجه العالم العربي ولا شك غير ما نراه الآن ، كان العرب على دين النصرانية وتحت مؤثرات ثقافية اجنبية هي الثقافة التي اتسمت بها هذه الشيع النصرانية المعروفة حتى اليوم »[٢٣٢] وقد استخرج نحوا من عشرين ديرا في الحيرة وحدها[٢٣٣] .

واكثر أخبار التبشير جاءتنا من مصادر نصرانية وهذه الحقيقة تضع أمامنا صعوبات معينة .. منها فرق مابين التبشير والانتشار الفعلي للدين ، وهو ما لم يلاحظه لويس شيخو .. اذ يكفي ان يثبت عنده ان التبشير شمل منطقة أو قبيلة ليقول بأن النصرانية وجدت فيها أو شملتها .

---

(٢٣٢) تاريخ العرب قبل الاسلام ٦/٥٨ .

(٢٣٣) تاريخ العرب قبل الاسلام ٦/٧٧ .

والصعوبة الاخرى هي في تقرير مدى صحة الاخبار وامكان الثقة بها . وهي قد تأثرت ـ بلا شك ـ بمنافسة الشيع النصرانية المختلفة من نسطورية ويعقوبية وارثوذكسية ومزايداتها . ويدور حتى اليوم جدال متصل حول مذهب نصارى نجران . كل كنيسة تجعل شهداء هذه المدينة من ابطالها وقديسيها[٢٣٤] . فاذا أضفنا تزيد النصارى بعامة والمستشرقين منهم بخاصة في انتشار النصرانية فنحن امام صعوبة مزدوجة . ولتصوير هذا اللون من الاخبار المتهافتة نذكر ما نقله لويس شيخو من تقويم كنسي كلداني .. ومفاد الخبر ان يثرب كان فيها ثلاث كنائس باسم ابراهيم وموسى وأيوب عليهم السلام[٢٣٥] وهو أمر نقطع بانه لم يكن..فالمصادر الاسلامية لا يمكن ان تغفل مثل هذا في مدينة الاسلام وهي قد ذكرت في اليمن .. وأرخت لليهود بيثرب ولو سكتت عنهم ما عرف العالم عنهم شيئا ... وذكرت الافراد من نصارى الحجاز وغيرهم في كثير من المديح والاعجاب .

ويبدو ان الشام هو اول الاقطار التي عرفت العرب فيها النصرانية بحكم كون الشام موطن النصرانية الاول . ولان الدين هناك كانت له السلطة السياسية التي يخضع لها العرب[٢٣٦] . فأما الحكام الموالون للروم فقد كانوا نصارى بدون شك ... واكثر من ذلك ان الروم كانوا حريصين على ان يكون مذهب الغساسنة في النصرانية هو مذهب الدولة . ويرد نولدكه اضطهاد الروم للغساسنة الى انهم كانوا يعاقبة يحرصون على مذهبهم ويدافعون عن أتباعه[٢٣٧] .. وتذكر المصادر الاجنبية انهم شاركوا في عدة اجتماعات دينية وسياسية ارادوا بها الدفاع عن مذهبهم[٢٣٨] .

---

(٢٣٤) انظر ما كتبه بطريرك انطاكية في ذلك في المجلة البطريركية ، السنة الرابعة عدد ٣٥ ص ٢٦٠ .

(٢٣٥) النصرانية وآدابها ١/١١ .

(٢٣٦) تاريخ العرب قبل الاسلام : ٥٨/٦ .

(٢٣٧) امراء غسان ص ٢١ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٣ .

(٢٣٨) تاريخ العرب قبل الاسلام ٨٢/٦ .

واما القبائل العربية التي شاعت فيها النصرانية فقد ذكرت المصادر العربية منها قبائل لخم وجذام وكلب وغسان ومن سكن الشام من أياد وطيء وغيرهم[٢٣٩] . ويفهم شيخو ان هذه القبائل شملتها النصرانية تماما . وهو أمر لا نوافق عليه . فكل هذه القبائل جاءتنا عنها اخبار وثنية من ذلك ماجاء في الصحيح من ان غسان كانت لا تطوف بالصفا والمروة لانها ممن ينسك لمناة وهي بالمشلل عند قديد[٢٤٠] وعلاقة غسان بهذا المكان قديمة فقد جاء في السيرة ان غسان ماء بالمشلل شرب منه بنو مازن بن الأزد فسموا به وموضعه هو موضع مناة[٢٤١] .

وذكروا ان ودا كان لكلب بدومة الجندل[٢٤٢] . وان الاقيصر كان صنما لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان .. وكان عند مشارف الشام فكانت هذه القبائل تحجه وتحلف عنده وتلقي مع الشعر بالطعام[٢٤٣] . وقد ظلت هذه القبائل خاضعة للتقسيم الوثني الديني .. فكان منهم الحمس كقضاعة وجذام وكلب والطلس كأياد[٢٤٤] .

ونخلص من ذلك كله الى ان تنصر هذه القبائل لم يكن خالصا ..وربما كان يسير مع توطن هذه القبائل أو بقائها على بداوتها . ويتبع انصياعها للسلطات في المدن وهي سلطات نصرانية .

اما الحدود الزمنية لتنصر عرب الشام فمن الصعب تحديدها .. فان تاريخ الغساسنة المحقق لا يرتفع الى أبعد من المائة الخامسة للمسيح عند نولدكه[٢٤٥] ويذكر شيخو ان الضجاعمة وهم الحكام العرب قبل الغساسنة

---

(٢٣٩) جمهرة انساب العرب ٤٩١ .

(٢٤٠) مسلم : النووي ٩/٢٣ ، ٥٣ . السيرة : الروض الانف ١/١٤ . المحبر ٣١٦ ، اخبار مكة ١/٧٨ .

(٢٤١) السيرة : الروض الانف ١/١٤ .

(٢٤٢) الاصنام ص ١٠ ، جمهرة انساب العرب ص ٢٩٢ ، المحبر ص ٣١٦ .

(٢٤٣) معجم البلدان ١/٣١٤ ، الحيوان ٥/٣٧٧ ، الاصنام ص ٣٨ ، ٤٨ .

(٢٤٤) المحبر ١٧٨ ـ ١٧٩ ، اخبار مكة ١/١٣٢ .

(٢٤٥) امراء غسان ص ٥٧ .

تنصروا في أواخر القرن الثاني للمسيح[٢٤٦] . والفرق ـ وهو ثلاثة قرون ـ لا يمكن ان يملأه ما يعرفه التاريخ عن الضجاعمة من اخبار قليلة غامضة .

أما تنصر القبائل فتاريخه أصعب .. وقد اعتمد شيخو في الغالب على تاريخ التبشير فذكر من ذلك ان المسيح عليه الصلاة والسلام دخل مناطق عربية وان بعض العرب حضروا حلول الروح القدس مع تلاميذ المسيح وتكلموا بالعربية (١٤١/٢ أعمال الرسل) . وان بولص الرسول ذكر انه دخل جزيرة العرب وان بعض الرسل ومنهم متى وتوما ومتيا وبرثلماوس وتداوس بشروا في الشام وسيناء[٢٤٧] . أما عرب البلقاء والغور والسلط فتنصرهم يرجع الى مثل هذا الزمن المتقدم[٢٤٨] . وهذا كله لا يمكن ان يقبل دون تحفظ . واقل ذلك انه قد يصح مثل هذا الزمن المبكر كبداية لانتشار المسيحية لم تشمل الا افرادا قلائل من العرب .

وتذكر المصادر الاسلامية جماعة من قبائل مختلفة اعتنقت النصرانية في الحيرة ومنهم عدي بن زيد[٢٤٩] .. وتذكر كذلك ملكا من المناذرة تنصر حين سمع موعظة مؤثرة وترك الحيرة مترهبا[٢٥٠] . وتسكت المصادر عن بقية المناذرة .. وتذكر ان النعمان آخر ملوكهم حج مكة حيث أسيء اليه فتنصر[٢٥١] .. ويمكن ان نفسر وثنية ملوك الحيرة بتبعيتهم للفرس أعداء الروم النصارى .. وقد مر بنا ان ملك الحيرة كان وثنيا سنة ٥٢٤م أيام محنة نجران ، وقد استدل شيخو بتنصر بعض أبناء الاسرة الحاكمة ونسائها على نصرانية بعض ملوك الحيرة ونحن لا نجد ذلك لازما[٢٥٢] .

---

(٢٤٦) النصرانية وادابها ٤٠/١ .

(٢٤٧) النصرانية وادابها ٢٠/١ ـ ٢٣ .

(٢٤٨) النصرانية وادابها ٤٠/١ ـ ٤٤ .

(٢٤٩) النصرانية وادابها ٩٠/١ ، تاريخ العرب قبل الاسلام ٧٦/٦ . سمط اللالي ٢٢٢/١ .

(٢٥٠) النصرانية وادابها ٨٢/١ .

(٢٥١) الحيوان ٣٧٥/٤ ، سمط اللالي ٥٥٢/١ . ويقتصر الجاحظ على ذكر حجه دون تنصره .

(٢٥٢) النصرانية وادابها ٨٧/١ وما بعدها .

وخطر الحيرة لا يقف عند الذين سكنوها فهي من اخطر المواقع التي انتقلت منها آثار حضارية الى داخل الجزيرة العربية[٢٥٣] ، وقد كانت النسطورية مذهب الاكثرية في الحيرة[٢٥٤] ، وهي من أكثر الشيع النصرانية اهتماما وتأثرا بالفلسفة اليونانية ، ويرجع المؤرخون اهتمام اهل العراق بترجمة الفلسفة اليونانية بعد الاسلام الى هؤلاء النساطرة[٢٥٥] ومن الراجح انهم هم الذين نشروا المسيحية بين القبائل العربية التي سكنت شرق الجزيرة وكانت لها صلات بالعراق مثل طيء وتغلب وأياد ، يقول ابن حزم : « فيقال إن أياداً كلها وربيعة كلها وبكراً وتغلب والنمر وعبدالقيس كلهم نصارى وكذلك غسان وبنو الحارث بن كعب بنجران وطيء وتنوخ وكثير من كلب وكل من سكن الحيرة من تميم ولخم وغيرهم »[٢٥٦] ، ومع اننا لا نقبل هذه الرواية على اطلاقها فانها تصور لنا تأثير الحيرة في القبائل التي تجاورها وتأتيها ..

ويذكر شيخو ان الوثائق تشير الى جماعات من رجال الدين النساطرة كانت تمثل في قطر والبحرين وهجر ودارين والخط وعمان[٢٥٧] ، وان مجمع النساطرة الاول : (٥٨٥م) طلب الى أهل قطر ترك الاعمال يوم الاحد[٢٥٨] ، ويظن ان النساطرة كانوا من بين من بشر في اليمن كما سيأتي ، ومن انتشار النسطورية في هذه المناطق نعرف انها كانت تحظى بتشجيع الفرس وتسامحهم ، ويعود هذا الى ان النسطورية كانت محاربة من الروم محسوبة في الفرق الخارجة على الكنيسة الرسمية[٢٥٩] ، ولذلك تغلغلت في مناطق النفوذ الفارسي من البلاد العربية ، ومع ذلك فهذه المناطق لم تكن

---

(٢٥٣) تاريخ الادب العربي ، بلاشير ص ٦٢ .
(٢٥٤) فجر الاسلام ص ٢٥ .
(٢٥٥) فجر الاسلام ص ٢٨ وانظر تاريخ العرب قبل الاسلام ٧٤/٦ .
(٢٥٦) جمهرة انساب العرب ص ٤٩٢ .
(٢٥٧) النصرانية وادابها ٧١/١ .
(٢٥٨) النصرانية وادابها ٧١/١ .
(٢٥٩) تاريخ العرب قبل الاسلام ٧٣/٦ وما بعدها .

مقصورة على النصرانية .. فعندما كانت الفتوحات الاسلامية وجد الفاتحون فيها جماعات وثنية ويهودية ومجوسية ونصرانية .. وكان النصارى يسلمون في الغالب ، وكان اليهود والمجوس يفضلون دفع الجزية[٢٦٠] .

وتفسر المصادر العربية دخول النصرانية الى اليمن بأن ذلك كان بتبشير راهب اسمه فيميون .. ويروى ان جماعة من العرب اسرته وباعته بنجران وهناك اكتشفت حقيقة صلاحه ومكانه من رضى الله ، وساعده شاب عربي اسمه صالح فاثبت الاثنان بطلان الوثنية ، ودعا فيميون على نخلة معبودة فسقطت فتنصر أهل نجران[٢٦١] ، وترتبط هذه النخلة بنخلة يذكرها الهمداني وكانت الى جوار غمدان ، يقول الهمداني : « وكان الى جانب القصر نخلة تسمى اليانعة سحوق تطرح بمبانها الى بعض ابهائه»[٢٦٢] فالرواية الاسلامية قد تكون صحيحة اذا صح ان النخلة من رموزهم الدينية ، وهي بعد ذلك احدى قصص التبشير الذي لم يقف على الارجح عند هذه الحالة .. بل انه يمكن ان نفسر التضارب الواضح في الاخبار الكنسية حول أولية النصرانية في اليمن بتعدد حركات التبشير ، ففي وثيقة حبشية ان مبشرا اسمه ازقير بنى كنيسة في اليمن بموافقة التبع شرحبيل يكف ولكن قيلين من نجران هدماها ، وجاء ان قسطنطين الثاني (٣٣٧ ـ ٣٦١م) كلف تاوفيل « ثيوفيلوس » الهندي بالذهاب الى اليمن فأقنع هذا المبشر التبع واقام كنيسة في ظفار واخرى في عدن ، وقبل ذلك اشترك اسقف من اليمن في اعمال مجمع نيقية سنة ٣٢٥م[٢٦٣] وفي اخبار فطاركة المشرق جاء ان أهل نجران انما تنصروا على أيام نسطوريوس المتوفى سنة

---

(٢٦٠) فتوح البلدان ص ٩٠ ـ ٩١ ، ٨٨ ، ٨٩ . تاريخ ابن الاثير ٢/١٥٥ ، ٢/١٥٧ .

(٢٦١) انظر مصادر هذه القصة في تاريخ العرب قبل الاسلام ٦/٦٣ ، ويضاف اليها تاريخ ابن الاثير ١/٢٥٠ والسيرة ؛ الروض الانف ١/٣٠ .

(٢٦٢) الاكليل ٨/١٧ ، ٢٦ .

(٢٦٣) تاريخ العرب قبل الاسلام ٦/٦٤ وما بعدها . بلاشير : تاريخ الادب العربي ٦٤ ـ ٦٥ . النصرانية وادابها ١/٥٢ .

٥٥٠م[٢٦٤] وأما شيخو فهو يرد التبشير في اليمن الى أول أيام النصرانية ..
ويذكر ان بعض الأباء يرى ان المجوس الثلاثة المذكورين في ولاد المسيح
عليه السلام كانوا من اليمن ، وان متى الرسول بشر في اليمن كما يظن
وكذلك برثلماوس ، وان بنتانوس الفيلسوف بشر في اليمن سنة ١٨٣م
بدون شك[٢٦٥] .

أما مذهب نصارى اليمن ونجران فيقال انهم كانوا يعاقبة أو نساطرة أو
ارثوذوكس[٢٦٦] ولا نجد مانعا حقيقيا من ان تتصور ان مذهبين او أكثر من
النصرانية تجاورا في اليمن كما حدث في كثير من الاقطار الاخرى .

ولم يكن صراع النصرانية والوثنية في اليمن سلميا كما كان في الاقطار
العربية الاخرى ويرجع ذلك الى خطورة اليمن من الناحية التجارية ..
وتمثلت النصرانية لأهل اليمن في صورة الدين الدخيل الذي يفرضه عليهم
جيش الاحتلال ، ومن هنا اتخذوا موقفا معاديا عنيفا من النصرانية ..
وقد مر بنا ان الارشمي يذكر احتلالين حبشيين نصرانيين قبل محنة نجران
وبعدها ، وان النقوش ذكرت احتلالا حبشيا نصرانيا سابقا كان في منتصف
القرن الرابع الميلادي[٢٦٧] .. فاذا اضفنا الى ذلك طرد الحبشة بمساعدة
الفرس وما تبعه من احتلال فارسي استمر حتى الاسلام[٢٦٨] فان ذلك يصور
لنا أهمية أديان اليمن كسلاح من أسلحة هذه الحروب وذريعة لها في الوقت
نفسه ، وعلينا ان نتصور ما كانت تسببه هذه الحروب الدينية من رجة
في عقائد الناس في اليمن وفي العرب بعامة ، فهناك من يقاوم بالسلاح ومن
يعتنق الدين الوافد ومن يحارب العقيدة بالعقيدة بما يلزم من التعرف على

---

(٢٦٤) اخبار فطاركة كرسي المشرق ص ٢٧ .

(٢٦٥) النصرانية وادابها ٥٣/١ .

(٢٦٦) بلاشير : تاريخ الادب العربي ص ٦٤ . تاريخ العرب قبل الاسلام ٧٩/٦ ـ ٨٠ . فجر الاسلام ص ٢٥ المجلة البطريركية عدد ٣٥ سنة ٤ ص ٢٦٠ .

(٢٦٧) ص ٣٨ الهوامش ١٨٣ ــ ١٨٥ من هذا الفصل .

(٢٦٨) السيرة : الروض الانف ٥١/١ .

عقيدة الاعداء ونقاط الضعف فيها .. وأهداف هـذه الحروب لم تكن تقف عند اليمن .. ولدينا مما يصور سعة المطامع الاجنبية خبر حملة الفيل الشهيرة التي وصل فيها ابرهة الى مكة .

ولقد تولت التبشير في اليمن دولتان هما الحبشـــــة والامبراطورية الرومانية . وهذا أدى الى تأسيس التبشير على نظم وقواعد تفتقر اليهـــا المبادرة الفردية المتحمسة . ويبدو أثر ذلك في نجران خاصة .. فقد كـانت قاعدة مهيأة لنشر النصرانية وانطلاقها .. وقد اســتطاعت ان ترد جيش مسروق حين حاصرها مرتين فاضطر الى اطالة حصارها ثم انه خدع أهلهـا بان أمنهم واغتال ألفا من أشرافها ليستطيع دخولها . وجاء في رسالة الارشمي الثانية قوله : « وفي اليوم نفسه بعد احراق الكنيسة وكل من فيها جاء الملك بجميع الاعيان والاشراف الذين وقفوا امامه مكبلين فسألهم : لماذا قصـدتم ان تتمردوا عليّ ولم تسلموا لي المدينة . ولكنكم اتكلتم على ذلك الساحر الضلل ابن الفجور وعلى هذا الشيخ الاخرق الحارث بن كعب الذي صـيّر لكم رئيسا » . وقال مسروق للاخير : « تطلع .. ها انك واقف عريان امام هؤلاء الذين كانوا يعتبرونك رئيسا »[٢٦٩] .

ولقد بقي لهذه المدينة نظام كشف عنه وفدها الذي جاء الى المدينـة وكان يضم ثلاثة رؤساء ، هم العاقب والسيد والاسقف . وجاء في السـيرة ان: «العاقب امير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم لا يصدرون الا عن رأيه واسمه عبد المسيح والسيد ثمالهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم واسمه الايهم وأسقفهم وحبرهم وامامهم وصاحب مدراسهم[٢٧٠] » . وذكر لهذا الاخير صلة وثيقة بالروم . ومن الواضح ان هذه الرئاسات ليست مما يعهـــد العرب من ألوان السيادة القبلية . وهي لا تحتوي على مثل هـذا التوزيع للسلطة . أما الاسقف فمصطلح ديني مفهوم .. واما العاقب فيذكر جـواد

(٢٦٩) المجلة البطريركية سنة ٤ عدد ٣٢ ص ١٨٩ .

(٢٧٠) الروض الانف ٢/٤٥ .

على انه المتولي ، أو الناظر في نقوش الجنوب ولكننا نجد العاقب الذي رافق الوفد كان رجلا حكيما يرجعون الى رأيه كما يبدو . واما السيد فهو الذي يمثل السلطة الدنيوية .. وقد حافظوا على المصطلح العربي في تلقيبه كما هو واضح[٢٧١] . وتفيد رسالة الارشمي الثانية ان حملة مسروق على النصرانية استهدفت حضرموت أولا وقتل هناك أربعة من رجال الدين أحدهم مار وائل[٢٧٢] الذي يبدو من اسمه انه عربي . ويؤخذ من قلة عدد الشهداء من حضرموت ان النصرانية لم تكن منتشرة فيها .

ولم تتعد النصرانية في الحجاز الحالات الفردية[٢٧٣] . وكان معظم النصارى هناك من غير العرب ومن نصارى مكة ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث[٢٧٤] . وعداس مولى شيبة وعتبة ابني ربيعة[٢٧٥] . وباقوم القبطي الذي شارك في بناء الكعبة[٢٧٦] .. وعبد أعجمي وردت الاشارة اليه في القرآن الكريم وذكر المشركون ان النبي عليه الصلاة والسلام كان يتعلم منه . وتختلف فيه الروايات .. فهو جبر أو يسار أو يعيش أو بلعام أو أبو

---

(٢٧١) يقول احمد امين ان العاقب كان يتولى الشؤون الداخلية وكان السيد يتولى الشؤون الخارجية . فجر الاسلام ص ٢٦ ؛ تاريخ العرب قبل الاسلام ١٨/٨ .

(٢٧٢) المجلة البطريركية سنة ٤ عدد ٢٤ ص ١٨٥ .

(٢٧٣) وهم الباحث الفاضل د . جواد علي ـ وفضله على بحثي هذا كبير ـ فظن ان الاحابيش هم جماعة كبيرة من العبيد تضم كثيراً من النصارى. تاريخ العرب قبل الاسلام ٢٠٢/٦ . والاحابيش هم بطون من كنانة وخزاعة تحالفوا مع بطون من قريش . انظر الاشتقاق ص ١٩٣ المحبر ٢٤٦ ، ٢٦٧ ، انساب الاشراف ٥٢/١ ، تاريخ الطبري ٦٢٨/٢ ، تاريخ اليعقوبي ١٤٩/١ .

(٢٧٤) السيرة : الروض الانف ١٤٥/١ ، المحبر ١٧١ ، جمهرة انساب العرب ص ٢٩١ ، نسب قريش ٤١١/١ .

(٢٧٥) السيرة : الروض الانف ٢٦٢/١ .

(٢٧٦) الاصابة ١٤٤/١ ، الروض الانف ١٣٠/١ ، طبقات ابن سعد ٩٤/١/١ .

ميسرة الرومي أو عابس[٢٧٧] . وقد يكون أكثر هذه الاسماء وهما في رجل واحد . وقد تكون أسماء حقيقية ولكن كل ذلك لا يصور نصرانية ذات شخصية بمكة .

وكان أهل المدينة أقل اهتماما بالنصرانية . اذ لا تتفق الاخبار على نصرانية أحد من الأوس والخزرج[٢٧٨] . ويقتصر الأمر على الضافطة وهم الذين كانوا يجلبون الميرة كالحبوب والزيت الى المدينة .. وهم من انباط الشام[٢٧٩] .. ويبدو انهم اتخذوا لهم سوقاً معينة بالمدينة .

ويذكرون أن ايله كان يحكمها عند ظهور الاسلام يحنس بن رؤبة ويظن من اسمه انه نصراني وان أكيدر دومة الجندل كان نصرانيا . ولا تذكر المصادر الاسلامية شيئاً عن سكان هذين الموضعين . وقد مر بنا ان ودا الصنم كان لكلب بدومة الجندل .

والحجاز هو مهد الاسلام .. ولذلك أصبح من هدف بعض النصارى المحدثين ان يثبتوا أن النصرانية أو اليهودية كانت سائدة في الحجاز الى درجة تمكنهم من نسبة ما جاء في القرآن الكريم من قصص الى الكتب المقدسة . وهم يسلكون الى هدفهم هذا كل سبيل .

يقول شيخو ان الكعبة كانت لأسقف عليها . نقلا عن الاغاني . واصل هذا الزعم ما يذكرونه من ان الكعبة كانت بدون سقف « لا سقف عليها » قبل ان تعيد قريش بناءها وان ذلك سهل على اللصوص سرقة كنز الكعبة .. فهو يحول السقف الى اسقف[٢٨٠] . ويقول ان ملكاً من ملوك جرهم كان

---

(٢٧٧) انظر الاقوال فيه في تفسير القرطبي ١٠\١٧٧ والاصابة ١\١٢١ .

(٢٧٨) ذكروا ان ابا عامر الراهب ادعى عند النبي عليه السلام انه حنيف . السيرة : الروض الانف ٢/٥١ . وان صرمة بن ابي انس هم بالنصرانية ثم امسك . الاصابة ٣\٢٤٥ .

(٢٧٩) السيرة : الروض الانف ٢\٣٢٤ ، انساب الاشراف ١\٢٧٨ ، اسباب النزول ص ٤٥ .

(٢٨٠) النصرانية وآدابها ١/١١٢ . وانظر السيرة : الروض الانف ١/١٢٧ ، مكة ١\٤٦ .

يدعى عبدالمسيح[٢٨١] .. وجرهم قبيلة بائدة لا ندري كيف نتحقق من اسم هذا الملك من ملوكها .. ومثل هذا كثير[٢٨٢] .

واما المدينة فقد زعم شيخو ان الأوس والخزرج كانوا نصارى كلهم ، لأن الشهرستاني ذكر ان أهل الكتاب كانوا بالمدينة[٢٨٣] ، واصل كلام الشهرستاني هو : « الفرقتان المتقابلتان قبل المبعث هم أهل الكتاب والاميون والامي من لا يعرف الكتابة وكانت اليهود والنصارى بالمدينة والاميون بمكة »[٢٨٤] . وشيخو كما يبدو لم يقبل كلام الشهرستاني بالنسبة لمكة فهي عنده مدينة نصرانية قبل الاسلام ، هذا ومن الواضح ان عبارة الشهرستاني لا تفيد تعميم اليهودية والنصرانية في اهل المدينة كلهم جميعا كما فهم شيخو مجازفا ، واحتج كذلك بأن الأوس والخزرج ينتسبون الى غسان وهي عنده قبيلة مسيحية بأجمعها وقد تعرضنا لنصرانية غسان فلا نعيد الكلام هنا ، هذا ووثنية الأوس والخزرج قبل اسلامهم فوق أي شك ويكفي ان نذكر هنا ان كل قبيلة من قبائلهم كانت لها اصنام خاصة كسرها المسلمون قبل الهجرة وبعدها[٢٨٥] .

على ان النصرانية لم تكن مجهولة في الحجاز .. فقد كان فيه أفراد من النصارى كما ذكرنا .. وكان فيه مناطق سكنتها جماعات نصرانية كوادي القرى وايلة وتبوك ، وقد صح ان صورة مريم كانت في الكعبة ، ذكر ذلك

---

(٢٨١) النصرانية وآدابها ١ / ١١٦ .

(٢٨٢) انظر ما قاله د . جواد علي في طرق المستشرقين ودوى انهم يدرسون جاهلية العرب في تاريخ العرب قبل الاسلام ٦\٣ـ) .

(٢٨٣) النصرانية وآدابها ١/١١٤ .

(٢٨٤) الملل والنحل ١/٢٠٨ .

(٢٨٥) انظر في ذلك اسد الغابة ١/٢٤٥ ، ٢/١١٤ ، ٤/٩٢ ، انساب الاشراف ١/٢٦٥ ، تاريخ الطبري ٢/٣٨٦ ، السيرة : الروض الانف ٢/١١ .

البخاري[٢٨٦] وأضاف الازرقي ان الصورة كانت لمريم وعيسى عليهما السلام . وان النبي عليه الصلاة والسلام أبقى هذه الصورة ومحا الصورة الاخرى وانها بقيت حتى طمست في حريق الكعبة في أيام ابن الزبير[٢٨٧] . ويرى شيخو ان هذه الصورة تدل على أثر بعيد للنصرانية في مكة . ويظن جواد علي انها صورة لم يكن المشركون يدركون حقيقتها وانهم اعتبروها كآلهتهم وأوثانهم التي كانوا يعبدون، وقد يكونون جاءوا بها من خارج الجزيرة أو صنعها بعض الاجانب لهم[٢٨٨] . على ان ما ثبت من الحديث من معرفة لاصحاب هذه الصور وتحديدهم لا يجعل فرض الاستاذ جواد علي راجحا .. وهذه الصورة تثير تساؤلا لا سبيل الى الاجابة عنه بالقطع .. فنحن لا ندري على التحقيق من وضع هذه الصورة .. أهم المشركون أم النصارى .. والفرض الاول يدل على ان المشركين نقلوا الى وثنيتهم آثارا نصرانية .. ويقضي الفرض الآخر بأن يكون النصارى استمروا في حج البيت ووضعوا في مكة هذا الرمز من رموزهم الدينية .

وتذكر المصادر الاسلامية محاولة من محاولات التبشير في مكة .. فتذكر ان رجلا من قريش سمي شماسا لأن شماسا نصرانيا دخل مكة فأعجبت به قريش[٢٨٩] .

وأما متانة عقيدة العرب في النصرانية ومدى معرفتهم بأمور دينهم فالغالب ان البدو منهم كانوا يمارسون عباداتهم وشعائر دينهم . ولم يكونوا يعلمون الكثير عن عقائد الدين ودقائق الفروق المذهبية فيه . ويدلل بلاشير على ضحالة ايمان القبائل العربية بالنصرانية باسلامها السريع[٢٩٠] . وكان

---

(٢٨٦) البخاري : فتح الباري ٦/٢٦٩ ؛ وانظر تخريج ابن حجر له في ٨/١٤ من النسائي واحد .

(٢٨٧) تاريخ مكة ١/١١٠ ــ ١١٢ .

(٢٨٨) تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/٨٢ ، ٦/٢٠٥ ــ ٢٠٦ .

(٢٨٩) اسد الغابة ٣/٣٧٥ . ويحتمل ان يكون هذا الاسم صيغة المبالغة من شمس وتكون هذه الرواية تفسيرا لاسمه .

(٢٩٠) تاريخ الادب العربي : بلاشير ص ٦٨ وانظر تاريخ العرب قبل الاسلام ٦\٢٢٢ . .

المسلمون يرون ايمان النصارى العرب سطحيا وقد رووا ان علي بن أبي طالب رضي الله عنه نهى عن أكل ذبائح تغلب ونصارى العرب لانهم لم يتمسكوا من دينهم الا بالخمر(٢٩١) . غير ان هذا لا يمنع من تعمق بعض الافراد المتخصصين في فهم دين القبيلة .. ولابد ان يكون نصارى العرب من سكان الحضر أكثر فهما لدينهم .

الصابئة وعبدة الرحمن :

وردت الاشارة في القرآن الكريم الى جماعة اخرى هي الصابئة . قال تعالى : ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم اجرهم عند ربهم » . البقرة ٦٢ . وقال تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . » المائدة ٦٩ . وقال تعالى « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين اشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة . » الحج ١٧ . وآية الحج خاصة تقطع بان الصابئين غير المشركين والمجوس .. والآيات الكريمة كلها تميزهم عن اليهودية والنصرانية .. وقد تضاربت فيهم آراء المفسرين وغيرهم تضاربا شديدا ولكنها كلها تلاحظ ما افادته الآيات الكريمة .

نقل الطبري وابن كثير من الاقوال فيهم انهم اهل كتاب أو انهم يعبدون الملائكة أو النجوم او انهم على الفطرة او انهم يتلون الزبور او انهم خرجوا من الاديان كلها أو انهم بين اليهود والمجوس أو انهم ليس لهم عمل الا قول لا إله الا الله أو انهم اختاروا ما استحسنوه من الاديان(٢٩٢) .

وقال فيهم الزمخشري : « وهم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة . » ذكر ذلك في تفسير آية البقرة . وقال في تفسير آية

---

(٢٩١) تفسير الطبري : « بولاق » ٦/٦٥ .

(٢٩٢) تفسير الطبري « المعارف » ٢/١٤٦ . وتفسير ابن كثير ١/١٨٩ .

الفائدة في قراءة التسهيل : « وهو من صبوت لأنهم صبوا الى اتباع الهوى والشهوات في دينهم ولم يقبلوا ادلة السمع والعقل . » فهو هنا يتفق مع الشهرستاني في ان الصابئة ممن أنكر النبوات[٢٩٣] .

واورد الرازي فيهم ما نقله الطبري ورجح انهم قوم يعبدون الكواكب وان لهم فيها قولين . الاول ان الله تعالى امرهم بتعظيمها واتخاذها قبلة ، والآخر انها من خلق الله وقد جعلها المدبرة لما في العالم من خير وشر وقد نسب هذا القول الى الكلدانيين الذين ارسل اليهم ابراهيم عليه الصلاة والسلام[٢٩٤] .

ومثل هذه الاقوال جملت الآلوسي يقول : « والمقصود ان الصابئة فرق فصابئة حنفاء وصابئة مشركون وصابئة فلاسفة وصابئة يأخذون محاسن ما عليه أهل الملل من غير تقيد بملة .. ثم منهم من يقر بالنبوات جملة ويتوقف في التفصيل ومنهم من ينكرها جملة وتفصيلا .. »[٢٩٥] .

ولم يعرفهم دارسو الفرق .. فالشهرستاني يعرفهم ويحددهم بقوله : « ومنهم من يقول بالمحسوس والمعقول والاحكام ولا يقول بالشريعة والاسلام .. وهم الصابئة . »[٢٩٦] وقد عقد بينهم وبين الحنفاء مناظرة تدور حول الايمان بالنبوات وانكارها[٢٩٧] وذكر بعد ذلك هياكلهم وهي هيكل العلةالاولى ثمهيكل العقلوالسياسة والصورةوالنفس وهيدون هيكلالعلة الأولى وهي مدورة ثم هيكل زحل والمشتري وهي بأشكال مختلفة[٢٩٨] .وهذه الهياكل كما يذكر كانت موزعة في العالم بين اليمن واصفهان والهند وفرغانة

---

(٢٩٣) الكشاف ٢١٨/١ ، ٤٢٧ .

(٢٩٤) تفسير الرازي ١٠٥/٢ . والقرطبي يكتفي بالمعنى اللغوي وهو الخروج من دين الى دين . انظر الجامع ٣٤/١) .

(٢٩٥) بلوغ الارب ٢٢٥/١ .

(٢٩٦) الملل والنحل ٢/٢ .

(٢٩٧) المصدر السابق ٦/٢ — ٤٤ .

(٢٩٨) المصدر السابق ٥٧/٢ .

وغيرها[٢٩٩] . ويعتبر ابن حزم الصابئة قوم ابراهيم عليه السلام وكانوا قبله . وهم عنده اقدم الملل . ويذكر ان ابراهيم عليه السلام جاءهم بالحنفية بعدما غيروا دينهم وكانوا يسمون الحنفاء[٣٠٠] . والصابئة عند البيروني هم الذين تخلفوا من سبي بابل ودينهم بين المجوسية واليهودية[٣٠١] .

وقد استعرض مثل هذه الاقوال السيد عبدالرزاق الحسني في كتابه عن الصابئة[٣٠٢] وليس في الذي مر بنا ما يمكن الأخذ به أو ترجيحه لأنه اشبه باحتمالات ليس لها سند غير تمييز القرآن الكريم بين الصابئة والاديان الاخرى .. ويقول جواد علي ان هذه الاقوال في الصابئة مستمدة من معلومات القدماء عن صابئة العراق[٣٠٣] . ويقصد المندائيين ونصارى حران الذين سموا دينهم بهذا الاسم على عهد المامون حين أراد ان يجبرهم على الاسلام لأنهم من غير أهل الكتب السماوية[٣٠٤] ..

وقد كان من المحتمل ان نترك الكلام على الصابئة . فليس ثمة ما يوجب ان يكون كل ما ذكر في القرآن من اديان هو من اديان عرب الجاهلية .. والقرآن الكريم تحدث عن ديانات بابل والفراعنة مما لا صلة له بالعرب . ولكن ما ورد في الحديث الشريف من أن المشركين كانوا يسمون المسلمين صباة والمسلم صابئاً قد يوحي بأنهم عرفوا هذا الدين عن قرب[٣٠٥] ..

---

(٢٩٩) نهاية الارب ٦١/١ ، الملل والنحل ٢٣/٢ .

(٣٠٠) الفصل ٣٥/١ . وانظر بلوغ الارب ٢٢٨/٢ .

(٣٠١) الآثار الباقية ص ٣١٨ .

(٣٠٢) الصابئون في حاضرهم وماضيهم ص ١٤ ــ ٢٥ .

(٣٠٣) تاريخ العرب قبل الاسلام ٣١/٦ ، ٣١٢ .

(٣٠٤) الفهرست ٥٩٤ ، الآثار الباقية ٣٠٨ . وانظر في الفرق بين الفرقتين : الصابئون في حاضرهم وماضيهم ص ٣٦ ــ ٤٠ . وابو يوسف يذكرهم في زمن الرشيد : الخراج ١٢٢ ــ ١٢٤ .

(٣٠٥) يقول هستنجز : ان من اغمض اسرار تاريخ الاسلام اصرار النبي عليه الصلاة والسلام على انه حنيف جاء الحنيفية واصرار المشركين على انه صابئي : ويقول ان رواية ابن حزم التي اوردناها قبل قليل قد تفسر هذا اللغز : دائرة معارف الاديان والعقائد ٦\٥١٩ . طبع نيويورك ١٩٢٧

يقول الرازي : « وكذلك كانوا يسمون النبي صابئا لانه اظهر دينا بخلاف أديانهم »[٣٠٦] وجاء ان بني جذيمة حين غزاهم خالد بن الوليد رضي الله عنه بعد الفتح « لم يحسنوا ان يقولوا اسلمنا فجعلوا يقولون صبأنا صبأنا فجعل خالد يقتل منهم ويأسر . »[٣٠٧] ولكن هذه الظاهرة ليست واضحة الدلالة .. فقد يكونون في استعمالهم للفظ يقصدون معنى لغويا مجرداً هو الخروج من الدين والارتداد عنه[٣٠٨] ..

ومن الجانب الآخر تشير آثار الجنوب العربي الى فرقة موحدة اصطلح جواد علي على تسميتها بعباد الرحمن . وهي فرقة موحدة ليست نصرانية ولا يهودية تعبد الها واحدا هو رحمن السماء والارض .. وقد لوحظ ان التوحيد تدرج عندها .. يقول جواد علي : وورد في نص آخر : الرحمن رب السماء « بعل سمين » أي انه اله السماء فحل محل « ذو سموى » إله السماء المذكور ثم صار إله السماء والأرض رحمن بعل سمين وأرضن » فأخذ بذلك مكان ذلك الاله . »[٣٠٩]

وليس لهذه الجماعة ذكر في المصادر الاسلامية .. فهل يرجع ذلك الى انها انقرضت قبل الاسلام بحيث لم تبق في ذاكرة المؤرخين والرواة ؟

---

(٣٠٦) تفسير الرازي ٢/١٠٥ ، اللسان (صبأ) . وانظر في تسميتهم المسلم صابئا : اسد الغابة ٢٧٤/١ . ثمامة بن اثال ، ١\٢٨١ الحجاج بن علاط ، ٣\٢٢٧ ابن عمر ٢٤٠/٤ مدرك بن الحارث . وانساب الاشراف ١\١٢١ ، ١٢٢ .

(٣٠٧) البخاري فتح الباري ٤٦/٨ .

(٣٠٨) انظر معناه اللغوي في مجاز القرآن ٤٢/١ . ١٧٢ ، مفردات القرآن ص ٢٧٤ . ويذكر انهم كانوا على دين نوح والنهاية في غريب الحديث ٢٤٨/٢ .

(٣٠٩) تاريخ العرب قبل الاسلام ١٤٤/٥ ـ ١٤٥ وانظر في هذه الجماعة اليمانية التاريخ العربي القديم : هومل ص ١٠٨ ، دتلف نلسن ٢٤٣ ، فؤاد حسنين ص ٣٠٢ .

اننا نجد اسم الرحمن بين اسماء الله تعالى كلها غير مقبول عند المشركين. قال تعالى : « واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا . » الفرقان (٦٠) . وقال تعالى : « وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب » الرعد ٣٠ . وقال تعالى : « وهم بذكر الرحمن هم كافرون . » الانبياء ٣٦ .

ويفسر الطبري هذا الكفر بالرحمن ـ سبحانه ـ عند المشركين بانه اقترن عندهم بمسيلمة الذي تسمى رحمن اليمامة[٣١٠] ويفسره بأنه رفض المفاوض عن قريش ان يكتب في نص صلح الحديبية اسم الرحمن الرحيم واصراره على ان يكتب باسمك اللهم[٣١١] وجاء في الصحيح ان سهيلا قال في ذلك : « ما نعرف الرحمن اكتب ما نعرف . » او قريب من هذا اللفظ[٣١٢] .

وتبع ذلك اختلاف القدماء في الاسم : أكان معروفا في الجاهلية أم لا؟ والطبري يقول ان القول بجهلهم له هو قول « بعض أهل الغباء »[٣١٣] .

وفي سيرة عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه انه كان اسمه الجاهلي عبد عمرو او عبد الكعبة وكان صديق أبي بن خلف .. فكان يدعوه باسمه الجاهلي دون الاسلامي فلا يجيبه ثم اتفقا على ان يسميه عبدالاله .. ودار ذلك بينهما حين التقيا ببدر حين حاول ابي ان يحتمي بعبدالرحمن رضي الله عنه فقد ناداه باسمه الجاهلي فلم يجبه فسماه عبدالاله[٣١٤] ..

---

(٣١٠) تفسير الطبري « معارف » ١٣٢/١ بولاق ١٦/١٩

(٣١١) تفسير الطبري « بولاق » ١٠١/١٣ .

(٣١٢) البخاري : فتح الباري ٧/٤٠٠) ، مسلم : النووي ١٣٩/١٢ ، السيرة : الروض الانف ٢٣٠/٢ ، طبقات ابن سعد ق١ /ج ٢ / ٧٣ .

(٣١٣) الطبري « المعارف » ١٣١/١ . وانظر اقوالهم في ذلك في الاشتقاق ص ٥٨ تفسير ابن كثير ١\٤٠ .

(٣١٤) الروض الانف ٧٠/٢ ، الاغاني « الدار » ١٩٦/٤ ، انساب الاشراف ١٩١/١ ، الاشتقاق ١٢٩ .

يمكن ان نستدل من هذا على ان المشركين كانوا يعرفون شيئا عن عبادة الرحمن وكانوا يرفضونها .. اما ما يذكرونه عن مسيلمة وانه تسمى رحمن اليمامة وان الاسود العنسي تسمى رحمن اليمن وان المشركين قالوا للنبيعليه الصلاة والسلام : « بلغنا انك انما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن وانا والله لا نؤمن بالرحمن ابدا »[٣١٥] اما ذلك كله فيبدو بقايا مضطربة من هذا الدين .. ويحتمل ان يكون الكذاب قد حاول استغلال الدين اليماني الموحد في ادعائه النبوة .. فالتبست أخباره على المؤرخين ويرجح ذلك انه ادعى النبوة ولم يقل انه اله ..

وبعد فقد مرت بنا فرقة لم نعرف عن حقيقة عقائدها شيئا من المؤرخين وهم الصابئة ، ومر بنا دين موحد لا نعرف اسمه الجاهلي .. وقد يكون الدينان دينا واحدا في الحقيقة جاءنا اسمهفي القرآن الكريموجاءتنا عقيدتهفي النقوش.. وبهذانفهم اقوالبعض المفسرينالذين يذهبونالى انالصابئة قوم بين المجوس واليهود ، فهذان دينان عرفا في اليمن ؛ والمفسرين الذين يذهبون الى ان الصابئة قوم موحدون ليس لهم عمل .. وجاء في الحديث ان الحجاج ابن علاط السلمي ذكر لقريش انه سمع قائلا يقول : « يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا .. الآية » الرحمن ٣٣ ، فقالوا له : صبأت يا ابا كلاب[٣١٦] .. وهذه آية من سورة الرحمن ، وقد يكون ذلك هو الذي دفعهم الى القول بانه صبأ .. وقد يكونون ـ مع ذلك ـ قد لاحظوا كونها آية من القرآن الكريم فحسب ، فنحن لا نستطيع ان نخرج من نطاق الحدس ... وقد لا تكون ثمة علاقة بين الصابئة وعباد الرحمن .

---

(٣١٥) السيرة : الروض الانف ١/١٨٧ .

(٣١٦) اسد الغابة ١/٣٨١ .

الفصل الثاني

اثر العقائد الدينية في القيم الاجتماعية والخلقية

وصلتنا عن العرب اقاصيص متفرقة يمكن ان تكون متعلقة بالخلق الاول في تصورهم ، ذلك ان قسما منها يصور للاشياء طبائع غير طبائعها الواقعية ، ومن هذا اللون ما يتعلق بزمن الفطحل ، وهو زمن كانت فيه السلام رطابا وكانت الاشياء جميعا تنطق .. ولم يكن للنخل والشجر شوك ، وهو زمن ذكره امية بن ابي الصلت في قصصه .. يقول امية :

واذ هم لا لبوس لهم تقيهم   واذ صمّ السلام لهم رطاب

وجاء في الاسلام في رجز لرؤبة يقول فيه :

لو أنني عمّرت سنّ الحسل   أو عمر نوح زمن الفطحل

والصخر مبتل كطين الوحل

وفي تلك الايام قال الضبّ للحسل :

أهدموا بيتك لا أبا لكا   وأنا امشي الدألى حوالكا

وقال للثعلب والأرنب حين احتكما اليه : « في بيته يؤتى الحكم » في حوار طريف. وتتضح في قسم آخر من هذا القصص محاولة تفسير لبعض ما استوقف البدويّ من مظاهر الطبيعة .. فقد تراهن الضب والضفدع على

احتمال العطش فقلب الضب واخذ ذنب الضفدع ، وحمل الهدهد أمه على رأسه حين ماتت يطلب لها قبرا فمن ثم قنزعته ونتنه ، والغراب خدع الديك ورهنه من الخمار فاتخذه هذا حارسا[1] .

ومنــــه ما يتعلق بالفلك : قالوا ان الدبران خطب الثريا وكان فقيرا فقالت : ما أصنع بسبروت ؟ فساق اليها الكواكب المسماة بالقلاص مهرا .. فهربت منه فهو يطلبها ابدا .. وقالوا ان سهيلا انحدر فصار يمانيا وتبعته الشعريان فعبرت العبور المجرة وعجزت الغميصاء فغمصت من بكائهـا . وجعلوا للثريا كفين خضيب وجذماء . وللاسد ذراعين مبسوطة ومقبوضة .. وهناك سماكان رامح واعزل .. ونسران واقع وطائر ..وهناك سعد بلع وهما نجمان بلع احدهما الآخر . وسعد الذابح وهما نجمان أحدهما صغير لاحق بالآخر فهو شاته التي يذبحها[2] ولاكثر هذه الاجرام علاقة بالانواء . وقد يكون هذا القصص مفسرا لذلك . ومن هذا القصص قسم يتعلق بحيــاة الآلهة .وهو قصص لم يصلنا الا محرّفا يحمل سخرية المسلمين بالوثنية . فأساف ونائلة فجرا بالكعبة فمسخا حجرين[3] ولابد أن الاصل في هذه القصة حكاية من الحب الالهي ولو كان المسخ جاهليا لمنع من عبادة هذين الالهين. وكان على الصفا صنم يدعى مجاود الريح وآخر على المروة يســـمّى مطعم

---

(1) انظر هذا القصص في الحيوان ٢٢٠/٣ ، ١٦٦/٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ . والكامل للمبرد ٥٤٨/٢ باب من تكاذيب الاعراب . والشعر والشعراء في ترجمة امية بن ابي الصلت ٣٦٩/١ . ومجمع الامثال . وهـــي الامثال : في بيته يؤتى الحكم ١٦/٢ ، ارسح من ضفدع ٢٢٨/١ ، كيف اعاودك وهذا اثر فاسك ٩١/٢ ، احمق من الضبع ٢٢٤/١ ، خيره بين خصلتي الضبع ٤٧٥/١ ، ١١٧/٢ .

(2) صبح الاعشى ١٥٧/٢ ، تاريخ العرب قبل الاسلام ١٩/٥ ، ويذكران بعض المستشرقين يزعم بان العرب ليست لهم اساطير فيورد شيئا من اساطير الفلك .

(3) الاصنام ص ٩ ؛ تواريخ مكة ٤٩/١ ؛ المحبر ص ٣١١ . وذكروا انهما من جرهم ولعل لذلك علاقة بما مر من أن جرهما نسل هجين من الملائكة والبشر . انظر الروض الانف ٨١/١ والحيوان ١٩٧/٦ .

الطير[4] ، وقد يكون لهذا الكرم الالهي قصة تفسّره .. لان الصفا والمروة هما مكان أساف ونائلة[5] وقد يكون اللقيان لهما ..

ولقصة الطوفان علاقة بقصة الخلق العربيـــة ، فرجز رؤبة يصرّح بأن زمن المطحل كان على أيام نوح عليه السلام ، وهو شيء يناسب كون الحجارة رطبة حينئذ ، ويذكر ابن سعد ان العرب كانت تسمي ابن نوح المفقود (يام): «.. وذلك قول العرب انما هام عمنا يام ..»[6] وهو قول يشعر بأن قصـــة الطوفان معدلة عند العرب ، فهي ترسم لابن نوح عليه السلام نهاية صحراوية تذكر بالقارظ العنزي .. وبسنان بن أبي حارثة الذي لامه قومه على الكرم فركب « الجهول » ورمى بها الفـــلاة : ... « وزعمت أعراب بني مرة أن سنانا لمّا « هام » استفحلته الجن تطلب كرم نجله . »[7] وجاء في شـــعر النابغة في النعمان :

فألفيت الامانة لـــم تخنهـــا كذلك كـــان نوح لا يخون

واعتبر الجاحظ هذا الشعر من المنحول .. لأن نوحا عليه السلام ليس مثلا في الامانة[8] ولعل النابغة يشير الى غير القصة القرآنية ، وهو احتمال يؤكد الطابع العربي الذي اتخذته قصة الطوفان ، ونحن لا نغلو حين نقول بان العرب عرفوا قصصا خاصا بهم عن نوح عليه السلام ، فقد ذكر القرآن الكريم خمســة من آلهة العرب على انهـــا من آلهة قوم نوح وهي آلهة عرف

---

(4) تاريخ مكة ٧٨/١ .

(5) المحبر ٣١١ ، جمهرة انساب العرب ٢٩٣ ، معجم البلدان ٢١٨/١ .

(6) الطبقات الكبرى ١/١/١٧ .

(7) مجمع الامثال ٧٨/١ ، ٤٣٩ ، وضرب المثل في الاسلام بفقيد ثقيب انظر ١٥٥/١ .

(8) الحيوان ٢٤٦/٢ ، ولم يرد هذا الشعر في اختيار الاعلم ، وهو في ديوان النابغة « بيروت » من رواية ابن السكيت ص ٧٨ .

الرواة أماكنها وعبدتها من العرب ومنهـا اثنان هـمـا ود ويغوث جاءا في أعلامهم ايام البعثة [٩] .

وكل هذا القصص لا يكوّن تخيلا مكتملا للخلق الاول ولذلك اسباب، فهو لم يصلنا كاملا مترابطا كما وجد عندهم ، بل جاء متفرقا يصعب الربط بينه ، ناقصا اختيرت منه الطرائف التي لا تحمل روحا مشركا يتعارض مع عقيدة المسـلـمين وقصص القرآن الكريم .. وهو قصص لم يحظ باحترام الرواة حتى انهم سمّوه « اكاذيب الاعراب » ولذلك اهملوا رواية الكثير منه واكتفوا بأمثلة متفرقة .

أما خلق الانسان خاصة فلا نعرف عن تفسيرهم له شيئا ، وقد جاء ذكر آدم عليه السلام في شعر لأفنون التغلبي[١٠] ويحتمل ان تكون هذه الاشارة كتابية المصدر كما يحتمل ان تكون عربية تسمي الانسان الاول عندهم ، فقد استعمل لفظ آدم في الجنوب بمعنى العبد واستعمل في عقود تأجـيـر املاك المعابد بمعنى العبودية الدينية للآلهة[١١] .. وقد بقي للفظ من هذا الاصل

---

(٩) قال تعالى على لسان قوم نوح : « ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا . . . » نوح ٧٢ . وانظر في اماكنها وعبدتها تفسير الطبري « بولاق » ٦٢/٢٩٧ والبخاري : فتح الباري ٥٤٨/٨ ، والاصنام ص ٩ : ٥٥ وفي معجم البلدان ١٩٣/١ ارض نوح من قرى البحرين ، ولا يذكر متى اطلق الاسم على هذه القرية .

(١٠) المفضليات رقم (٦٦) ص ٢٦٢ وهو قوله :

قد كنت أسبق من جاروا على مهل

من ولد آدم مالم يخلعوا رسني

وجاء في قول لبيد وقد يكون ذلك من شعره الاسلامي :

لحا الله هذا الدهر اني رأيته

بصيرا بما ساء ابن آدم مولعا

شرح ديوانه ص ١٧٣ رقم (٢٥) .

(١١) تاريخ العرب قبل الاسلام : جاء اللفظ في المعينية والسبئية والقتبانية ، ٤٢/٨ ، ٢٢٦ .

دلالته على السواد لان العبيد غالبا ما يكونون من الزنج ، ولكننا لانستطيع أن نخرج بذلك من نطاق الاحتمال الى التقرير ، وهذه خسارة حقيقية فمن الجائز ان هذه القصة الضائعة عن خلق الانسان تفسر نظرة الجاهلي الى مركزه من الكون وتحكم على نوازعه وفطرته وغير ذلك .

واوضح ما يصوره القرآن من عقائد العرب عما بعد الموت انكارهم الحياة الاخرى وما يأتي فيها من حساب وجنة ونار .. والقرآن الكريم يصوّر انكارا لا جهلا بالبعث . يقول تعالى : « أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون . أو آباؤنا الاولون » الواقعة ٤٧ . ويقول تعالى : « وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم . » يس ٧٨ . ويقول تعالى : « ويل يومئذ للمكذبين . الذين يكذبون بيوم الدين . » المطففين ١٠ . ويقول تعالى : « كلا بل تكذبون بالدين » الانفطار ٩ ويقول تعالى : « هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون . » الصافات ٢١ وامثال هذا كثير في القرآن الكريم . ولقد نحسب ان هذا التكذيب كان لاخبار القرآن الكريم عن البعث والحساب وهو أمر صحيح لا يمكن نكرانه . فقد كان من اهم ما استعصى عليهم قبوله من الاسلام عقيدته في البعث والجزاء . ولكن هذا لا يمنع من انهم عرفوا قصصا عما بعد الموت قرنوه بالعقيدة الاسلامية وانكروهما جميعا .

فالقرآن الكريم يحدثنا انهم سمّوا حديثه عن الآخرة اساطير الاولين وزعموا أنهم وعدوا الوعود نفسها من قبل هم وآباؤهم . يقول تعالى : « بل قالوا مثل ما قال الاولون . قالوا أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون . لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ان هذا الا اساطير الاولين . » المؤمنون ٨١ ويقول تعالى : « وقال الذين كفروا إإذا متنا وكنا ترابا وآباؤنا إإنا لمخرجون لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ان هذا الا اساطير الاولين.» النمل ٦٧ ويقول تعالى : « والذي قال لوالديه اف لكما أتعدانني ان اخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن انّ وعد الله حق فيقول ما هذا الا اساطير الاولين . » الاحقاف ١٧ .

وقال تعالى : « الهكم اله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ، لاجرم انّ الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ، انه لا يحب المستكبرين ، واذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا اساطير الاولين ، » النحل ٢٢ ، ويقول الطبري انه قول من لا يؤمنون بالآخرة .[١٢]

وقال تعالى : « الذين يكذّبون بيوم الدين ، وما يكذّب به الا كلّ معتد أثيم ، اذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الاولين » حتى يقول تعالى : « ثم انهم لصالو الجحيم ، ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون » ، المطففين ١١ ، وهذا صريح في انهم كانوا يسمعون قبل الاسلام حديثا وقصصا عن حياة اخرى وكانوا يأثرون ذلك عن آبائهم الذين وعدوا الوعد نفسه من قبل ، وأصل الاساطير عند المفسرين اما من السطر بمعنى الكتابة معنى قديم جاء اللفظ دالا عليه في نقوش الجنوب واما من التسطير بمعنى الاختراع والخرافة والتزيين .[١٣]

وهما معنيان لا يخرجان بقولهم ان حديث البعث اساطير قديمة عن الدلالة التي استمدناها من هذه الآيات ، وهي ان حديث البعث قديم ، وانهم لا يصدّقونه لأنه لم يتحقق على قدمه .

ومن غير المحتمل ان توجه أشارتهم الى الكتب المقدسة .. لاننا لا نعلم انهم اعتبروا التوراة او الانجيل اساطير .. فضلا عن ان آباءهم لم يكونوا يهودا او نصارى ليوعدوا بما في الدينين من عقيدة البعث .

ولقد بقي لنا من قصصهم المتعلق بالحياة الاخرى ما يذكره الرواة عن البلية .. وهي ناقة تعقل معكوسة الرأس الى مؤخرها عند قبر الميت ، وتترك حتى تموت جوعا وعطشا .. يرون أن الميت يحشر راكبا عليها ، فاذا لم تكن له

---

(١٢) تفسير الطبري ، بولاق ، ١٤/٦٥ .

(١٣) تفسير الطبري ، بولاق ، ٧/١٠٨ ، ٩/١٥١ . تاريخ العرب قبل الاسلام وفيه ان سطر : تعني الكتابة والتدوين ٨/٢٣٤ .

بلية حشر راجلا »[14] وهذا اعتقاد منهم بأن المحشر مكان بعيد . ويحتمل ان يكون لهذه الناقة فائدة تتعلق بحياة الميموث على نحو ما عهد العرب في الصحراء من اعتمادهم على الابل في المأكل والملبس والسفر . كذلك وجدت في مقابر الجنوب أشياء مما يستعمله الانسان في حياته ومن ذلك الحليّ مما يدل على اعتقادهم بامتداد الحياة بعد الموت[15] .

وهذا لا ينبغي ان يدفعنا الى المجازفة في تصوّر مدى انتشار عقيدة البعث بين اهل الجاهلية .. وابن حبيب[16] يذهب الى ان اكثر العرب كانوا مؤمنين بالبعث والحساب . ويروى لاثبات زعمه هذا قول الاعشى :

بأعظم منك تقى في الحساب ... اذا القسمات يفضن الغبارا

وقول الاخنس بن شهاب :

وعلمت ان الله جاز عبده ... يوم الحساب بأحسن الاعمال

وتضيف قول زهير في المعلقة :

يؤخر فيوضع في كتاب فيدّخر ... ليوم الحساب أو يعجّل فينقم

ولكن ذلك لا يكفي لتدعيم قول ابن حبيب .. فالقرآن الكريم يفيض بالجدل الذي يديره مع منكري البعث والحساب، والشاكين فيه.. كالذين يقول فيهم تعالى : « واذا قيل انّ وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة ان نظن الا ظنّا وما نحن بمستيقنين» الجاثية[17] ٣٢. كذلك يلاحظ الدكتور جواد علي ان مجموعة من الالفاظ المتعلقة بالحساب عربية اصيلة كالجنة والنار والحشر والبعث وغيرها[18] .. وهي ملاحظةمهمة

---

(14) الروض الانف ١/٩٦ ، المعاني الكبير ٢/١٠٢٩ . شرح ديوان كعب بن زهير ص ١٨٨ . نهاية الارب ٣/١١٧ ، الملل والنحل ٢/٢٤٤ المحبر ٣٢٣ .

(15) تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/٢٩١ .

(16) المحبر ص ٣٢٢ .

(17) تفسير الطبري « بولاق » ٢٥/٩٥ .

(18) تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/٢٩١ .

ولكنها لا تقطع بشيء .. لان استعمال هذه الالفاظ بدلالتها الاسلامية لم يثبت انه عرف في الجاهلية .. وقد تكون هذه الاصطلاحات منقولة من أصول لغوية لا تحمل الدلالة الاسلامية ، فهي مثل الفاظ الزكاة والاسلام ونحوها .

واقرب الى الحق من غلو ابن حبيب ان الجاهلية عرفت في عقائدها البعث .. ولكنها عرفته على نحو يختلف عما جاء في عقيدة الاسلام .. ويحتمل ان أهل الجاهلية ورثوا عقيدة البعث فيما توارثوا من ملة ابراهيم عليه السلام .. ولكنهم خلطوها بكثير من العناصر الغريبة ومن التحريف مما أبعدها عن اصلها الاول .. وصيرها خليطا من الاساطير .. والخيال الساذج ، مثل اقاويلهم في الهامة والصدى .. فقد كانوا يخالون أن الميت يخرج من رأسه طائر من طير الليل .. فاذا كان موته قتلا طلب صداه أو هامته له من قاتله بقوله اسقوني .. وربما جاء الميت بأخبار الثار له والتدابير التي يتخذها وليّ الثأر لذلك[19] . وقد جاء نفي هذه الاسطورة في قول الرسول عليه الصلاة والسلام : «لاعدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر»[20]. ولا ندري على التحقيق علاقة الصدى والهامة بصورة الروح عندهم .. مع ان اثباتهم للروح .. على اي صورة تصوّروه ـ مما يثبت ايمانهم باستمرار وجود الانسان بعد موته .. اما الحساب فلا نستطيع أن نقول في مدى انتشار الاعتقاد به بينهم شيئا .. مع علمنا بانه من عقائد اهل الكتاب من العرب وغيرهم .. وربما تأثر بهم من خالطهم واتصل بهم من اهل الشرك .

وقد ادى اختلاط الاقاويل في البعث والحساب الى انه لم يكن مقنعا لقسم من اهل الجاهلية من الطبقة المفكرة الواعية منهم .. وهم الذين اطمأنوا

---

(19) امالي القالي ١٢٩/١ ، مروج الذهب ٦٨/٢ ، النقائض ٨٢/١ . بلوغ الارب ٣١١/٢ . وانظر الملل والنحل ٢٣٧/٢ . والشهرستاني يعتبر الهامة صورة من التناسخ قالوا بها .

(20) البخاري : فتح الباري ١٢٩/١٠ ، ١٣٩ ، ١٧٦ ، ١٩٨ . مسلم : النووي ٢١٣/١٤ ـ ٢١٥ .

الى فكرة الدهر على خلاف واضح بينهم في فهمها .. فهي عند الزنادقة الذين بحثنا بعض اقاويلهم في الفصل السابق فكرة ملحدة .. تناسب افكارهم الاخرى وهي تؤدي الى رفض البعث رفضا قاطعا .. وتكل تدبير الحياة والموت للدهر . ويصور ذلك قوله تعالى : « وقالوا ما هي الاّ حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا وما يهلكنا الاّ الدهر ومالهم بذلك من علم ان هم الاّ يظنّون.» الجاثية ٢٤ . ويقول الطبري في تفسير الآية الكريمة : « وما يهلكنا الا مرّ الليالي والايام وطول العمر انكارا منهم ان يكون لهم رب يفنيهم ويهلكهم.» ويقول النيسابوري انهم لم ينكروا المعاد فقط ولكنهم انكروا المبدا[٣١] . ويقول الشهرستاني في تصنيفه لمعطلة العرب : « فصنف منهم انكروا الخالق والبعث والاعادة وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفني وهم الذين اخبر عنهم القرآن المجيد : وقالوا ما هي الاّ حياتنا الدنيا[٣٢] .. والآية الكريمة بعد ذلك جازمة في ان هؤلاء أنكروا البعث ونسبوا الامانة الى الدهر وليس الى الله .. أما الخلق فالآية لا تحدّد رأيهم فيه على وضوح .. وليس ذلك غريبا .. فالملحدون بعامة يجزمون بنفي البعث ويتخبطون في الخلق وتفسيره .

والدهر عند القسم الاكبر ممن كان يقول به من العرب هو القدر .. وهو لا يتعارض مع ايمان هذه الجماعة بالله سواء كانوا من اهل الكتاب أو المشركين .. وفهم الدهر على هذا النحو شائع في الشعر الجاهلي ولذلك كان من المتيسر دراسته دراسة وافية .. فالدهر هو الزمان المعروف ... يكاد امرؤ القيس يعرّفه تعريفا فيقول[٣٣] :

الا انما الدهر ليال وأعصر وليس على شيء قويم بمستمر

---

(٣١) تفسير الطبري « بولاق » ٩١/٢٥ وبهامشه تفسير النيسابوري ٩٣/٢٥ .

(٣٢) الملل والنحل ٢٣١/٢ .

(٣٣) ديوانه رقم (١٤) ص ١٠٩ .

ومثله في التعريف بالدهر قول ابي ذؤيب الهذلي[٢٤] :

هل الدهر الاّ ليلة ونهارهـــا والاّ طلوع الشمـس ثم غيارها

ويخلط فروة بن مسيك المرادي بين الدهر والزمان لانهما مترادفان في ذهنه فيقول[٢٥] :

ومن يغرر بريب الدهر يومـا يجد ريب الزمـان له خؤونا

ولهذا الترادف بين اللفظين اعتبروا الوحدات الزمنية وحدات دهرية ايضا كما في قول اعشى أسد[٢٦] :

فلا يغرّنك من دهر تقلّبه انّ المنيـــة بالفتيـــان تنقلب

وقول ذي الاصبع[٢٧] :

اهلكنا الليل والنهار معـــا والدهــر يعـــدو مصمما جذعا

وقوله ايضا[٢٨] :

ويا بؤس للايام والدهر هالكا وصرف الليالي يختلفن كذلكا

ولترادف اللفظين نسبوا الى الزمان ما نسبوه الى الدهر ، يقول ابو الطمحان القيني[٢٩] :

ان الزمان وما تفنى عجائبـــه فيه تقطـــع الاكفـر والاقران

---

(٢٤) ديوان الهذليين ٢١/١ .

(٢٥) البيت من قطعة في الحماسة البصرية ٤١٦/٢ والوحشيات ص ٢٧ .

(٢٦) الصبح المنير ص ٦٥ .

(٢٧) الاغاني « الدار » ٦٦/٣ ، منتهى الطلب ١٩٥ . شعراء النصرانية ٦٢٩/٥ والبيت من قصيدة مفضلية رقم ٢٩ وليس البيتمرويا فيها .

(٢٨) الاغاني « الدار » ١٠٤/٣ ، شعراء النصرانية ٦٢٥/٥ .

(٢٩) البيان والتبيين ١٨٧/١ . وابو الطمحان حنظلة بن الشرقي مخضرم او جاهلي ذكر ذلك في الاصابة ٦٦/٢ ، ويقول في الشعر والشعراء ٣٠٤/١ انه كان ينزل على الزبير بن عبد المطلب ، وروى في الحيوان مدحه لمالك بن حمار الشخمي الذي قتله خفاف بن ندبه يوم قتل معاوية اخو الخنساء .

وتقول الخنساء[30] :

ان الزمان وما تفنى عجائبه ... ابقى لنا ذنبا واستؤصل الراس

وهم ينسبون الى الدهر عامة ما يكرهون من فرقة أو فقر أو موت ونحو ذلك يقول عبيد بن الأبرص[31] :

دار حيّ اصابهم سالف الدهر ... فأضحت ديارهم كالخلال

ويقول بشر بن أبي خازم[32] :

اصبح الدهر قد مضى بسمير ... بسعور الوغى وبالمفضال

ويقول دريد بن الصمة[33] :

أسرّك ان يكون الدهر سدّى ... عليّ بشرّه يغدو ويسري

ويقول جندل بن اشمط العنزي[34] :

أأمام ان الدهر أهلك صرفه ... ارما وعادا

ويقول المرقش الاصغر[35] :

تبكي على الدهر والدهر الذي ... ابكاك فالدمع كالشن هزيم

ويقول ابو دواد الأيادي[36] :

عطف الدهر بالفداء وبالمو ... ت عليهم يدور كالمجنون

---

(٣٠) انيس الجلساء ص ٥١ .
(٣١) ديوان عبيد رقم (١) ص ١٠٥ .
(٣٢) ديوان بشر رقم (٣٦) ص ١٧٠ .
(٣٣) الاغاني * الدار ٥ ٩٧/١٥ . شعراء النصرانية ٥/ ٧٧٠ .
(٣٤) الوحشيات ص ١٦٢ حماسة البحتري ص ١٢٩ .
(٣٥) المفضليات رقم (٥٧) ص ٢٤٩ .
(٣٦) دراسات في الادب العربي ص ٢٤٥ .

واوجزوا فعل الدهر بتعابير شتى كصرف الدهر وبناته وحادثه ..

يقول قيس بن الخطيم[٣٧] :

تناوله بنـــات الدهر حتى   تثلـه كمــا اثلم الانـــــاء

ويقول عمرو بن قميئة[٣٨] :

رمتني بنات الدهر من حيث لا ارى   فكيف بمن يرمى وليس برامي

ويقول عمرو بن ملقط الطائي[٣٩] :

وحوادث الايام لا يبقى لها الا الحجارة

ويقول ابو الطمحان القيني[٤٠] :

رمتني حادثات الدهـــر حتى   كأني خـــاتل يدنو لصـــيد

ويقول حاتم الطائي[٤١] :

لبسنا صروف الدهر لينا وغلظة   وكلا سقـــاناه بكاسهما الدهر

ويقول سويد بن خذاق[٤٢] :

لعل لبون الملك تمنع درهـــا   ويبعث صرف الدهر قوما نياما

---

(٣٧) ديوان قيس رقم (٢٢) ص ٧١ .

(٣٨) ديوان عمرو رقم (٣) ص ٢٢ .

(٣٩) النقائض ٢/٦٥٣ ، الاشتقاق ص ٣٨٥ ، معجم الشعراء ص ٢٥ ويسميه عمرو بن ثعلبة او ابن ثمامة .

(٤٠) الاغاني « الدار » ٢/٣٥٤ وهو ينسبه للمسيجاح بن سباع الضبي وهو جاهلي في معجم الشعراء ص ٦٩) وهو لابي الطمحان في المعمرين ٦٢ ـ ٦٣ ، والاصابة ٢/٦٦ وتفسير الطبري « المعارف » ٧/١١٤ .

(٤١) ديوان حاتم ص ٣٩ .

(٤٢) الشعر والشعراء ١/٣٠٢ .

ويقول عدي بن زيد[43] :

وخطوب الدهر لا يبقى لهـا ولمـا تـأتي بـه كالجبـال

والدهر هو القدر ولكنه غير عادل وقـد عبّروا عن ذلك حين وصفوا الدهر بالخيانة والختر والغدر والعدوان والخداع ونحوه .. يقول النابغة الجعدي[44] :

ولا تأمنوا الدهـر الخؤون فانه على كـل حال بالفتى يتقلب

ويقول أبو زبيد الطائي[45] :

خان دهر بهم وكانوا هم أهـ ـل عظيم الفعـال والتمجيد

ويقول عبيد بن الابرص[46] :

ديار بني سـعد بن ثعلبة الالى أذاع بهم دهر على الناس رائب

ويقول احيحه بن الجلاح في نفوس الناس[47] :

نظن ان لن يصيبهـا عنت الدهر وريب المنون صائبها

ويقول امية بن ابي الصلت[48] :

اجعل الموت نصب عينيك واحذر غولة الدهر ان للدهر غـولا

---

(43) ديوان عدي رقم (5) ص 82 .

(44) شعر النابغة رقم (1) ص 10 .

(45) شعر ابي زبيد رقم (9) ص 45 .

(46) ديوان عبيد رقم (1) ص 8 .

(47) يتنازعها احيحة وعدي بن زيد . . انظر ديوان عدي ص194 رقم(146) .

(48) ديوان امية ص 25 .

ويقول احيحة بن الجلاح[49] :

صحوت من الصبا والدهر غول ونفس المرء آونة قتول

ويقول عنترة[50] :

لاشك للمرء ان الدهر ذو خلف فيه تفرّق ذي الف ومألوف

ويقول سويد بن خذّاق[51] :

والا تناديني المنية أغشكم على عدواء الدهر جيشا لهاما

ويقول الحارث بن ظالم[52] :

أصابهم الدهر الختور بختره ومن لايق الله الحوادث يعثر

ويقول أبو قيس بن الاسلت[53] :

أقضي بها الحاجات ان الفتى رهن بذي لوثين خدّاع

ويقول الأعشى[54] :

أان رأت رجلا أعشى أضرّ به ريب المنون ودهر مفند خبل

وهم يرون ان هذه القوة الهائلة للدهر آتية من امتداده واستمراره فهم لا يرون له حدودا ولا يتصورون مثل هذه الحدود ، يعبّر لبيد عن هذا بقوله[55] :

---

(49) جمهرة اشعار العرب ، (231)

(50) مختار الشعر الجاهلي ص 395 .

(51) الشعر والشعراء 1/302

(52) الاغاني « الدار » 1/251 .

(53) المفضليات رقم (57) ص 286 .

(54) ديوان الاعشى رقم (6) ص 55 .

(55) شرح ديوانه رقم (5) ص ص 36 .

غلب العــزاء وكنت غير مغلّب   دهـر طويـل قائـم ممـدود
يوم اذا يأتي عليّ وليـــلة   وكلاهما بعـد القضاء يعـود
وأراه يـأتي مثل يوم لقيتــه   لم ينصرم وضعفت وهو شديد

ويقول في ذلك المـجاح بن سـباع الضبّي[٥٤ب] :

وأفنـاني وما يفنى نهـــار   وليـل كلّما يمضـي يعـود
وشـهر مستهل بعـد شـهر   وحـول بعـده حـول جـديـد
ومفقـود عزيـز الفقـد تـأتي   منيتـه ومـأمـول وليـد

ويقول حاتم الطائي[٥٥] :

وما هي الاّ ليلة ثمّ يومهـا   وحول الى حول وشهر الى شـهر
مطايا يقرّبن الصـحيح الى البلى   ويدنين أشلاء الهام من القبـر
ويتركن أزواج الغيـور لغـيره   ويقسمن ما يحوي الفتيّ من الوفر

ويقول عمرو بن الاهتم[٥٦] :

يطاوحني يوم جديـد وليـــلة   هـا أبليا جسمي وكـل فتى بالي
اذا ما سلخت الشهر أهللت بعده   كفى قاتلا سلخي الشهور واهلالي

وهم يذهبون الى معنى امتـداد الدهـر الى غير نهـــاية حين يذكرون تقسيمات الزمن .. كما في قول الاضـبط بن قريع[٥٧] :

لكل هـمّ من الهموم ســـعه   والمسى والصـبح لا فلاح معه

---

(٥٤)ب شرح الحماسـة .. المرزوقي ١٠٠٩/٢ ، ١٧٣٧/٤
(٥٥) ديوان حاتم الطائي ص ٣٩ .
(٥٦) الحماسة البصرية ٤١٦/٢ .
(٥٧) المعمرين ص ٧ ، البيان والتبيين ٢٤١/٣ ، الشعر والشعراء ٣٦٩/١ ، امالي القالي ١٠٧/١ .

وقول زرعة بن عمرو[٥٨] :

وأفنتني الليـــالي أم عمرو   وتأميلي هلالا عن هـــلال

وقول عمرو بن قميئة[٥٩] :

يا ابنة الخيـــر انا نحن رهـن   لصروف الايام بعـــد الليـالي

وقد يعبرون عن ذلك باشارات موجزة كقول الخنساء[٦٠] :

ان (الجديدين) فيطول اختلافهما   لا يفسدان ولكن يفسـد الناس

وقول أبي قلابة الهذلي[٦١] :

فالخير والشـــر مقرونان في قرن   بكلّ ذلك يأتيـك (الجديدان)

وهو تعبير شائع •• وكقول الاسود بن يعفر[٦٢] :

غدا (فتيا) دهـر ومر عليهـــم   نهار وليل يلحقـــان القـرائبا

ولهذا الرأي في الدهر تظلّموا منـــه وشـــكوه • يقـــول عمرو بن قميئـة[٦٣] :

فيـا دهر قـــدك فأسجح بنـا   فلسـنا سـلاما ولسنا حـديـدا

---

(٥٨) شرح الحماسة للمرزوقي ١٧٣٧/٤ .

(٥٩) ديوان عمرو بن قميئة ص ٣١ رقم ٦١ .

(٦٠) انيـس الجلسـاء ص ٥١ .

(٦١) ديوان الهذليين ٣٩/٢ .

(٦٢) الصبح المنير ص ٢٩٣ . وجاء في شعر النابغة الجعدي : ص ١٦٩ .

غدا فتيـا دهر فمرا عليهـــــم   نهـار وليـــل يلحقان التواليـــا

(٦٣) ديوان عمرو بن قميئة ص ٦٣

ويقول الحارث بن حلزة[٦٤] :

من حاكم بيني وبين الدهر مال عليّ عمدا

وتقول الخنساء[٦٥] :

تعرّقني الدهر نهسا وحزّا واوجعني الدهر قرعا وغمزا

وتوجعهم من الدهر شائع في الشعر وأندر منه شتمهم اياه ، يقول لبيد[٦٦] :

لحا الله هذا الدهر اني رأيته بصيرا بما ساء ابن آدم مولعا

وتقول الخنساء[٦٧] :

قد راعني الدهر فبؤسا له بفارس الفرسان والخنشليل

وذكروا شاعرا اكتفوا بلقبه ولم يذكروا زمنه وهو شاتم الدهر المبدي ورووا له قوله[٦٨] :

ولمّا رأيت الدهر وعرا سبيله وأبدى لنا ظهرا أجبّ مسلّعا
ومعرفة حصّاء غير مفاضة عليه ولونا ذا عثانين أجدعا
وجبهة قرد كالشراك ضئيلة وصمّر خديه وأنفا مجدّعا
هناك ذكرت الذاهبين أولي النهى وقلت لعمرو والحسام الادعا
فإني أرى الحيّين كعبا ودارما أصابهم دهر وكان مفجّعا

---

(٦٤) الوحشيات ص ١٦٣ .

(٦٥) انيس الجلساء ص ٧ .

(٦٦) شرح ديوانه رقم (٢٥) ص ١٧٣ .

(٦٧) الوحشيات ص ٢٢٠ ، الوساطة ص ٤٣٠ . ويذهب الجرجاني الى انهم شخصوا الدهر لطول شكواهم منه ، ورسالة الغفران ص ٣٦١ ، والصناعتين ص ٣٠٣ .

(٦٨) الوحشيات رقم (٣٦٢) ص ٢٢٠ .

وفي ذلك جاء نهي الرسول عليه الصلاة والسلام عن شتم الدهر فقال :

« لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر » .

الدهر والقدر

تخلص مما استعرضناه من شعر الجاهلية في الدهر الى ان الدهرية تخالف دهرية الزنادقة فهي ليست ملحدة . ويدل على ذلك وجودها عند عدي ابن زيد وهو نصراني ويدل عليها ذلك أيضا انها لا تحول دون الايمان .. كما جاء في قول الحارث بن ظالم الذي رويناه :

أصابهم الدهر الخثور بختره ۔۔۔ ومن لا يَقِ الله الحوادث يعثر

وهي دهرية متشائمة لا تخطر الا في ساعة الالم والحزن .. ويكثر ورودها في شعر الشيوخ والمصابين . ومن هنا فهي في حقيقتها تدور حول القدر الظالم الذي لا ينجو منه أحد .. والحديث الشريف الذي رويناه جاء بلفظ اصرح في الربط بين قولهم في الدهر وبين القدر .. وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « قال الله عز وجل : يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار »[69] .

وقد عرف عن أهل الجاهلية منذ القديم ايمانهم العميق بالقدر .. يقول قتادة[70] : « فانه لم يكن أحد من العرب الا وهو يثبت القدر وأنشد :

ما كان قطعي هول كل تنوفة ۔۔۔ الا كتابا قد خلا مسطورا »

---

(٦٩) البخاري : فتح الباري ٦٦/٨ ؛ ٦٥/١٠ . مسلم النووي ٢/١٥-٣

(٧٠) العقد الفريد ٢٨٠/٢ .

وقال الاصمعي[71] للمازني وقد رمي عنده بالاعتزال : « والعرب تقول : لو خيّرت لأخترت تحيل على القدر ، وينشدون :

هي المقادير فلمني أو فذر   ان كنت أخطأت فما أخطا القدر»

ويقول السهيلي[72] معلقا على قول ابن الزبعرى :

يا غراب البين أسمعت فقل   انما تنطق شيئا قد فعل

« قوله قد فعل أي قد فرغ منه وقد كانوا في الجاهلية يقرّون بالقدر ، قال لبيد :

ان تقوى ربنا خير نفل   وبإذن الله ريثي وعجل

من هداه سبل الخير اهتدى   ناعم البال ومن شاء أضل

وقال راجزهم :

ايها اللائم لمني او فذر   ان كنت اخطأت فما أخطا القدر»

واللفظ لا شك في جاهليته : يقول لبيد[73] :

ولا أقول اذا ما أزمة أزمت   يا ويح نفسي مما أحدث القدر

وهو يقول في هذه القصيدة[74] :

فقلت ليس بياض الرأس من كبر   لوتعلمين وعند العالم الخبر

فهذه قصيدة جاهلية قالها قبل ان يسنّ ويشكو طول عمره ، ويقول في رثاء عمه ملاعب الاسنة[75] :

تركته للقدر المتاح

---

(71) مجالس العلماء ص ٢٩٥ .
(72) الروض الانف ١٥٧/٢ .
(73) شرح ديوان لبيد رقم (٩) ص ٦٤ .
(74) المصدر السابق ص (٦٢)
(75) المصدر السابق رقم (٥٣) ص ٣٣٢ .

ويقول أوس بن حجر[٧٦] :

لعمر ما قدر أجدى بمصرعه لقد أخل بعرشي أي اخلال

ويقول الاسود بن يعفر[٧٧] :

فيا لهف نفسي على مالك وهل يتفع اللهف زو القدر

ويحتمل ان اثبات القدر كان نتيجة تفكيرهم في الموت بالدرجة الاولى .. فمما نلاحظه في ألفاظ الموت عندهم أن كثيرا منها هو اشارة الى الشيء الواجب كالحتم والمنية والحمام أو الى الوقت المحدد كالأجل واليوم .. ولكن هذا لم يمنعهم من أن يعلقوا بالقدر اشياء أخرى .. وهم غالبا يذكرون القدر والدهر في حالات اليأس والقنوط ويذكرون ارادة الله في حالات التأمل الهادىء كما رأينا في قول لبيد : وباذن الله ريثي وعجل ، وفي مثل قول ثعلبة بن عمرو العبدي في مواطن الفخر والتهديد[٧٨]:

عتاد امرىء في الحرب لا واهن القوى

ولا هو عما يقدر الله صارف

ويبدو ذلك جليا في قول عدي بن زيد فقد جرى على هذه القاعدة رغم نصرانيته .. وهو يعلق تفاؤله بمشيئة الله كقوله في سجنه[٧٩] :

ولنا مجد ورب مفضل بيديه الخير ما شاء أمر
ـه فضل ولديه سعة انما يرجى لما فات الغير
وشفيع منجح ينظرنا بيديه اليوم تيسير العسر

---

(٧٦) ديوان اوس ص ١٠٦ .
(٧٧) الصبح المنير ص ٢٩٨ . ولعله يدفع اللهف زو القدر .
(٧٨) المفضليات رقم (٧٢) ص ٢٨٢ .
(٧٩) ديوان عدي رقم (٨) ص ٦٢ .

ويقول في أخرى وهو يبدو فيها يائسا متحققا من مصيره[٨٠] :

أيها الشامت المعيّر بالدهر أأنت المبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الايام ام أنت جاهل مغرور

وهو يعلق في قصيدة أخرى آماله بمشيئة الله .. أما مخاوفه فهي حتم أو قدر مجهول يقول عدي[٨١] :

واذهبي يا اميم ان يشأ الله ينفّس من ازم هذا الخناق
او تكن وجهة فتلك سبيل الناس لا تمنع الحتوف الرواقي

والذي يستنتج من ذلك أن القدر عندهم مسؤول عن الخير والشر ولكنهم لا يصرّحون بذكر مقدره في حالة حزنهم وثورتهم .. وقد رأينا انهم قد يصلون حينئذ الى درجة الشتم والسباب في خطاب الدهر .. وهم بهذا الصنيع يتفادون المساس بالمقدسات الدينية ويطلقون لانفسهم حرية التعبير عن مشاعرهم في الوقت نفسه .

واذا كانت غالبية الجاهليين يقولون بالجبر فان قسما منهم كانوا قدريّة يرون ان الانسان حر مختار .. فقد جاء في الحديث[٨٢] ان المشركين خاصموا النبي عليه الصلاة والسلام في القدر فانزل في هذه الخصومة قوله تعالى : « إنّا كل شيء خلقناه بقدر » القمر ٤٨ . فهؤلاء الذين خاصموا في القدر لم يكونوا يثبتونه على الاكثر ولذلك أكد لهم في الآية الكريمة . ونفهم من القرآن الكريم أن هؤلاء كانوا على الغالب من الأثرياء والسادة الذين كان نجاحهم في حياتهم يبطرهم ويجعلهم يتصوررون

---

(٨٠) المصدر نفسه رقم (١٦) ص ٨٧ .

(٨١) ديوان عدي بن زيد رقم (٩٢) ص ١٥١ .

(٨٢) مسلم النووي ١٦/٢٠٥ ، الطبري ، بولاق ، ٢٧/٦٥ اسباب النزول للواحدي ص ٢٢٨ . ويروى الطبري ان ابن عباس كان يقول بان الآية في قوم ينكرون القدر دون ان يعرف زمن المنكرين .

أنفسهم متحكمين في مصائرهم وفي ثرواتهم يقول تعالى : « ويل لكل همزة لمزة . الذي جمع مالا وعدده . يحسب ان ماله أخلده » الهمزة ١ . ويقول تعالى : « لقد خلقنا الانسان في كبد أيحسب أن لن يقدر عليه أحد » البلد ٦. ويقول تعالى : « ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا » الكهف ٣٥ .

وجاء في الحديث أن ذا اللحية الكلابي سأل النبي صلى الله عليه وسلم :
« أنعمل في أمر مستأنف او أمر قد فرغ منه قال : في أمر قد فرغ منه ، قال : ففيم نعمل اذن ؟ قال : اعملوا فكلٌّ ميسّر لما خلق له »[٨٣] . والحديث يصور تفكيرا في القدر لا يمكن وصفه بالسذاجة . فهو يمثل احساس هذا الرجل بانتفاء الغاية من العمل اذا كان لا يغيّر من القدر .. ومن ذلك نرى أن القدر كان من أهم مواضيع التفكير الجاهلي اثباتا ونفيا . وستجد ذلك ظاهرا في الشعر ظهورا جليا .

وللجدّ أو الحظ مكان مهم في حياة الجاهليين . فقد كان بعض الناس مشهورين بينهم باليمن وكان آخرون منهم محدودين لا يلقون خيرا . وممن اشتهر بحسن حظه وظفره دريد بن الصمة الذي حمله قومه الى حنين حين كان شيخا عاجزا يتيمنون به[٨٤] . وكان الاحيمر بن عبدالله فارسا من أمثل فرسان تميم .. ولكنه كان محدودا حتى أنه لم يكن يطعن برمح الا انكسر في يده[٨٥] . ويتعلق بالحظ على الاكثر تطيرهم من بعض الاشياء وتفاؤلهم باخرى وقد كان لمعرفة دلالة هذه الاشياء « علم » خاص اشتهر به بنو لهب[٨٦] وهي شهرة تقوم على فهم دلالة الاشياء غير المقررة . أما الغراب

---

(٨٣) اسد الغابة ١٤٤/٢ . الاصابة ١٧٨/٢ ويذكر ابن حجر ان البغوي والطبراني وغيرهما اخرجوه .
(٨٤) الاغاني « الدار » ٣٠/١٠ .
(٨٥) في اللسان أن المحدود هو الذي لا يصادف خيرا .. وانظر الثعالبي ٣١٥/١ ، ٥٨٢/٢ .
(٨٦) جمهرة انساب العرب ص ٨٧ واللسان مادة لهب .

والسانح والبارح والحيوان الاعضب وما اليه فقد كان واضح الدلالة عند الناس[٨٧] .

الخير والشر

ونحن نجد في الشعر الجاهلي مذاهب مختلفة في الخير والشر بمعناها المادي الذي يعني ما يرغب فيه وما يكره .. وهي مذاهب متأثرة بوساوس الطيرة والفأل أحيانا اذ يشعر الانسان ان له نصيبا معينا من الخير والشر .. وانه يختلف في ذلك عن بقية الناس .. فالمثقب مثلا يحس ان الشر يطارده أينما توجه .. ولا يمنعه هذا الاحساس من أن يتبين استحالة معرفة المستقبل يقول المثقب[٨٨] :

وما أدري اذا يممت أمرا | أريد الخير أيهما يليني
أ الخير الذي أنا أبتغيه | أم الشر الذي هو يبتغيني

ويعبّر عبيد عن احساس مقارب حين يقول[٨٩] :

والخير لا يأتي على عجل | والشر يسبق سيله مطره

ويقول كعب بن زهير[٩٠] :

لعمرك لولا رحمة الله انني | لأمطو بجد ما يريد ليرفعا
فلو كنت حوتا ركتض الماء فوقه | ولو كنت يربوعا سرى ثم قصعا
اذا ما نتجنا أربعا عام كفأة | بغاها خناسير فأهلك أربعا
اذا قلت اني في بلاد مضلة | أبى أن ممسانا ومصبحنا معا

(٨٧) انظر في موضوع الطيرة تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/٣٢٤ وما بعدها .

(٨٨) ديوان المثقب ص ٤٢ .

(٨٩) الوحشيات ص ١٣٦ . ولم يرد في ديوانه .

(٩٠) شرح ديوان كعب ص ٢٢٧ .

ومن مذاهبهم في الخير والشر ما يتأثر بنظرتهم في القـــدر . يقـــول ابن الزبعرى[91] :

يـا غراب البين أسـمعت فقـل   انما تنطق شــيئا قـــد فعل
ان للخير وللشـــــر مـــدى   وكـلا ذينـــك وقت وأجـــل
كـــل بؤس ونعـــيم زائـــل   وبنـات الدهـــر يلعبن بكـل

فالشاعر يرى الخير والشر كليهما من لعب الدهر بالناس . وعكســه أبو قلابة الهذلي الذي يقول[92] :

لا تأمنن وان أمسـيت في حرم   ان المنـايـا بجنبي كل انســان
واسلك طريقك تمشي غير مختشع   حتى تـلاقي ما يمني لك المـاني
فالخيـر والشر مقرونـان في قرن   بكل ذلك يأتيـــك الجـديدان

فأبو قلابة ينسب الخير والشر الى القدر .. ويسوق ذلك تشجيعـا للانسان على التماس الخير بالرغم من المنايا التي ينطوي عليها .

على ان الغالب عليهم اعتبار الفرح بالخير والركون اليه عجزا وغفـلة واعتبار الجزع من الشر والاستسلام عند وقوعه ضعفا وخورا .. ويبـدو ان هذا التصور هو الذي تواضع عليه مجتمعهم حتى مدحوا وافتخروا على أساس منه ، يقول النابغة[93] :

ولا يحسبون الخير لا شر بعـده   ولا يحسبون الشر ضـربة لازب

ويقول طرفة[94] :

ان نصـــادف منفـــا لاتلفنـــا   فرح الخير ولا نكبـــو لضـــر

---

(91) السيرة : الروض الانف ٢/١٥٧ . طبقات ابن سلام ص ١٩٨ .
(92) ديوان الهذليين ٢/٣٩ ، السيرة : الروض الانف ١/٧٨ والنص منه .
(93) مختار الشعر الجاهلي ص ١٦٢ .
(94) ديوان طرفة ص ٧٧ رقم (٥) .

وقد جاء الخير والشر بمعناهما الاخلاقي في الشعر الجاهلي ، وهـذا المعنى تابع للمعنى المادي .. فالخير بالمعنى الخلقي هو صنع ما ينفع الناس ويسعدهم .. والشر يقابله ويمكن أن يكون استعمال اللفظين كاسمي تفضيل هو الاصل في هذا المعنى المثالي فالقول بأن شيئا خير من آخر يعني وجود مقياس أو مثل أعلى رجع اليه القائل .. ومن استخدام اللفظين بهـذا المعنى الاخلاقي قول عبيد[95] :

الخير يبقى وان طال الزمان بـه ... والشر أخبث ما أوعيت من زاد

وقال زهير[96] :

فما يك من خـير أتـوه فانما ... توارثـه آبـاء آبائهم قبـل

وقول عبد قيس بن خفاف البرجمي في وصيته لأبنه[97] :

واذا هممت بأمر شـر فاتئـد ... واذا هممت بأمر خير فافعـل

وقول عمرو بن الاهتم[98] :

وكـل كريم يتقي الذم بالقرى ... وللخير بين الصـالحين طريق

ومن الجلي في هذه النصوص أن أهل الجاهلية قرروا للخير معـاني مثالية واضحة منها بقاء الخير ورسوخه .. وهو المعنى الذي يلمّ به عبيد .. ومنها ان الخير لا يزال موجودا بين الصالحين كما يقول عمرو بن الاهتم .. وتحتمل وصية خفاف معاني كثيرة منها ان الخير واضح لا يحتاج الى تبصّر وامعان نظر ، وان فعل الخير لا ينتهي بما يندم عليه فاعله فليس للخوف من فعل الخير وجه .

---

(95) ديوان عبيد رقم (16) ص 49 .
(96) شرح ديوان زهير ص (96) .
(97) المفضليات رقم (116) ص 385 .
(98) المفضليات رقم (23) ص 127 .

لا نجد مدخلا الى حياة الجاهلية من الناحية الدينية أفضل من الحلال والحرام عندهم ، وهو اعتبار شمل الاماكن والازمنة والناس والمال والاعمال وغيرها ومن الحق ان نلاحظ أن كثيرا من الحرمات هي حرمات تابعة بمعنى انها ليست محرّمة في ذاتها ولكنها اكتسبت حرمتها من شيء آخر .. ومن ذلك مجموعة من الحرمات المتعلقة بمكة وبالحج .

ولسنا في حاجة الى اثبات أن مكة كانت مكانا محرّما فيه القتال . ولكنّ من المفيد ان تبين مدى التزام العرب بهذه الحرمة وشمول هذا الالتزام لهم .. وقد جاءنا في الاخبار ذكر مناسبتين خرج فيهما العرب على هذه الحرمة .. واحدى هاتين المناسبتين ما سمّوه حرب الفجار وهي حرب وصمت بالفجور لأنها دارت في الحرم[99] والمناسبة الاخرى عام الغدر الذي يذكره ابن حبيب .. وهو يروي ان رجلين من تميم قتلا ملكا في الحرم وأخذا كسوة للكعبة كان يحملها وقد علم أهل الموسم بما حدث بعد انتهاء الحج فغدروا بتميم ، فسمي ذلك العام بعام الغدر وصار من تواريخهم في الجاهلية[100] . واذا صدّقنا هذا الخبر فنحن نميل الى أن الغدر أطلق على فعلة تميم وليس على ما عوقبوا به بعد ذلك ، وتميم اتهمت بالغدر في الجاهلية وهجاها بذلك امرؤ القيس فقال[101] :

ألا ان قوما كنتم أمس دونهم   هم منعوا جاراتكم آل غدران

---

(99) السيرة : الروض الانف ١/ ١٢٠ ، الكامل للمبرد ١١٧٨/٣ . ويذكر في ايام العرب في الجاهلية انها سميت لانها دارت في الشهر الحرام . ص ٣٢٢ .

(100) المحبر ص ٧ .

(101) ديوان امرىء القيس رقم (٧) ص ٨٣ . ومثلها رقم (١٩ ، ٢٠) فهي في هجاء تميم بالغدر .

وهجا النمر بن تولب بني سعد من تميم بقوله[١٠٢] :

اذا ما دعوا كيسان كانت كهولهم   الى الغدر ادنى من شبابهم المرد

وقال فيهم قتيبة بن مسلم في الاسلام : « كنتم تسمون الغدر في الجاهلية كيسان »[١٠٣] .

ويمكن ان تكون هذه الشهرة بالغدر راجعة الى ذلك العام ، وهــذا يصور انكار الجاهلية القاطع على من يتعدى على حرمة مكة .. ويحدثنا اليعقوبي أن هذه الحرمة امتدت الى عكاظ والاسواق الاخرى القريبة ، ويقول ان بعض العرب مثل أسد وطيء كانوا يستحلّون المظالم في هــذه الاسواق فكانوا يسمّون المحلّين ، وكانت قبائل من تميم وشيبان وكلب يحملون السلاح فيمنعون من الظلم وسفك الدماء وارتكاب المنكر ، وكانوا يسمّون الذادة المحرمين .[١٠٤] ويؤيد ما يذكره اليعقوبي ان هذه الاسواق كان لها حكام من تميم يقومون بفض ما يحصل فيها من نزاع[١٠٥] .

اثر الدين في تركيب المجتمع

وقد امتدت حركة مكة الى من يقطنها من القبائل وهم قريش ومن معها من كنانة وخزاعة وهم الذين سمّوهم الحمس ، في حين سموا من سكن خارج الحرم حلة[١٠٦] .

---

(١٠٢) الحماسة البصرية ٢/٢٨٧ .

(١٠٣) النقائض ١/٢٥٤ .

(١٠٤) تاريخ اليعقوبي ١/٢٢٧

(١٠٥) النقائض ١/٤٣٨ ، المحبر ١٨٢ .

(١٠٦) انظر في الحمس والحلة : فتح الباري ٣/٤٠٦ ، تفسير الطبري «بولاق» ٨/١٠٨ — ١٢٠ ، الطبقات الكبرى ١/١/١) تاريخ مكة ١/١٢٢ . السيرة : الروض الانف ١/١٣٢ ، وكلهم يذكرون ان الحمسة هي التشدد في الدين . ويعينون قبائل الحمس والحلة .. ويذكرون الفروق الدينية في العبادات . وسنذكر مصادر اخرى عند الحاجة .

والحقيقة أن ما جاءنا عن الحمس والحلة مختلط أشــد الاختلاط . قاسم الحمس عند الرواة يعني التشدد في الدين .. وهم يرون أن قريشــا تشدّدت في دينها فحرمت على نفسها طائفة من المآكل والاعمال .. فكانوا في الموسم لا يسلأون السمن ولا يأتقطون ولا يرتبطــون عنزا ولا يغــزلون الصوف والوبر ولا يستظلون الا بقباب الادم[107] .. وكانوا لا يقفون مع الناس بعرفة ويبدأون الحج من مزدلفة لئلا يخرجوا من الحرم .. وكانوا يدخلون البيوت من ابوابها ويطوفون بالبيت في ثيابهم . اما الحلة الذين لم يحرموا شيئا مما حرمه الحمس فكانوا يقفون بعرفة ويطوفون بالبيــت عراة الا اذا حصلوا على ثياب الحمس أمّا بالاعــارة أو الكراء .. وكان لبعضهم صديق من الحمس ينزلون عليه ويطوفون في ثيابهوهو الحرمي[108] وكانوا يأتون بيوتهم من ظهورها او من فتحة يحدثونهــا فيها .. والرواة يذكرون كذلك ان الحمس هم قريش ومن ارتبط معها بالصهر من العرب كبني عامر وخزاعة وغيرها .

ونحن نجد تناقضا كبيرا في هذا الذي ذكروه .. فمن الواضح ان التشدد في الدين أمر مرهون بالارادة ، فكل انسان يستطيع ان يتشدّد في دينــه ويكون بالتالي من الحمــس . ولكن ذلك كان ممتنعا لان الحمس محدّدون قبليا .. وكذلك جاءنا في الاخبار انهم لم يكونوا يسمحون لاحد من الحلة بتقليد الحمس ويعتبرون ذلك خروجا على الدين .

جاء في الحديث الشريف : « كانت قريش تدعى الحمس وكانوا يدخلون من الابواب في الاحرام وكانت الانصار وسائر العرب لا يدخلون من الابواب فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في بستان فخرج من بابه فخرج معه قطبة ابن عامر الانصاري فقالوا : يا رسول الله ان قطبة رجل فاجر فانه خرج معك

---

(١٠٧) بلوغ الارب ٢٤٤/١ .

(١٠٨) المحبر ص ١٨١ ، جمهرة انساب العرب ص ٢٣١ .

من الباب فقال : ما حملك على ذلك ؟ فقال : رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت ، فقال اني أحمس ، قال : فان ديني دينك ... »[109] .

ومن هذا التناقض في اخبار الحمس ما ذكروه عن تشددهم في دينهم .. فنحن نجد فيما كلّف به الحلة من الشدة اكثر مما كلّف به الحمس .. ومن ذلك تكليفهم بأن يطوفوا عراة نساء ورجالا او في ثياب الحمس ، وهم يعللون ذلك بانهم كرهوا الطواف في ثياب دنسوها بارتكاب المآثم ، وهو تعليل ينم عن ضمير ديني يقظ ، ويمكن ان نتصور الحرج الذي كان يعانيه الحلة من هذا التقليد من حالة عرضت لاحد الحمس ، فقد رووا أن عبدالله بن جدعان اشترط على ضباعة بنت عامر ليطلقها الا تتزوج من هشام بن المغيرة ، فان اخلت بالشرط فان عليها ان تطوف بالبيت عريانة وان تغزل الصوف بمكة وان تنحر عددا من الابل ذكروه .. وقد أخلت قريش لها البيت لتطوف به عارية[110] واشتراط هذا الشرط وتحايلهم للوفاء به دليل على مبلغ تحرجهم من عري النساء وهو يدل على مبلغ تمسك الحلة بدينهم وطاعتهم لفروضه .

أما هذه الاشياء التي حرموها على انفسهم في الاحرام فهي تحمل من الترفع والكبرياء اكثر مما تحمل من التديّن ، وقد مدح الشعراء وافتخروا بعدم ادّخار الشحم واطعامه عبيطا وجعله قرى للضيف : يقول زهير في هرم[111] :

من لا يذاب له شحم النصيب اذا زار الشتاء وعزّت اثمن البدن

ويقول الشارح : « يريد نصيبه من الشحم لانه لا يدّخره ، يطعمه للناس عبيطا .. » ويقول عروة بن الورد[112] :

فان حياتنا أبدا حرام وليس لجارنا أبدا حميت

(109) اسباب النزول للواحدي ص ٢٨ ، لباب النقول ص ١١٨ ، تفسير الطبري «معارف» ٣/٣٥٥ في تفسير الآية ١٨٩ البقرة والحديث مختصر في البخاري : فتح الباري ٣/٩٠ .

(110) انساب الاشراف ١/٤١٦ .

(111) شرح ديوان زهير ص ١٢٢ .

(112) ديوان عروة ص ٢٢ .

ويلفت النظر في قول عروة « حرام » فهو ذو دلالة صريحة على ما نذهب اليه من أن هذا التحريم لم يكن دينيا بقدر ما كان ترفعا وفخـــارا • ويقول المزّق[113] :

وانّ لكيزا لم تكن رب عكة   لدن صرحت حجاجهم فتفرقوا

والشاعر يفخر بان لكيزا لم تكن تعود معها من الحج بالســـمن •• وتذكر هنا رأي القدماء في ابيات امرىء القيس التي يقول فيها في المعزى :

فتملأ بيتنا اقطـــا وسمنـــا   وحسبك من غنى شبع وريّ

فقد رووا انها تنم عن ضعة لا تليق بملك مثله[114] •• ثم ان ابن حبيب يبين حقيقة الامر فيذهب الى انه من البر بالفقراء فيقول : « ••• ويتواصلون في النسك يمنح الغني مالـــه أو كثره في نســـكه فيســـلا فقراؤهم السمن ويجتزون من الاصواف والاوبار ما يكتفون به ••• »[115] كيف اذن نفهم ظاهرة تقسيم قبائل العرب الى حمس وحلّة ؟

ان تاريخ هذا التقسيم غير معروف ، فابن اسحق يصرّح بأنه يجهل وقته ولا يدري أكانت بدايته قبل الفيل أم بعده[116] وقد يكون هـــذا التقسيم قديما جدا •

والحمس قريش ومن ولدت من العرب ومن ساكنها في الحرم •• وهذا شيء يتفق عليه الرواة •• وهو يربط بين الحمس وحرمة مكة برباط واضح • ويدل على هذا الارتباط جملة من القرائن • منها اعتزاز قريش بسكنى الحرم حتى انهم كانوا يقولون : « نحن اهل الله »[117] • ويقولون : « نحن بنو

---

(113) المفضليات رقم (81) ص 301 •

(114) الموشح ص 26 ، ديوانه رقم (22) ص 137 •

(115) المحبر ص 181 •

(116) السيرة : الروض الانف 1/132 •

(117) المحبر : ص 180 ، الفائق 293 وجاء في تاريخ العرب قبل الاسلام 8/20 ــ 21 ان هذا التعبير معروف في النقوش اذ تنتسب القبائل الى الهها مثل اولاد عم ، اهل عشتر •

ابراهيم واهل الحرمة وولاة البيت وقطان مكة وسكانها فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا فلا تعظموا شيئا من الحل كما تعظمون الحرم ... »[118] وقد كانوا بالفعل لا يخرجون في الحج من الحرم وقد امرهم الله تعالى بأن يفيضوا من حيث افاض الناس[119] . وشاع ذلك عنهم كما يدل قول المطلّ السلمي[120] :

أظنكم من اسرة قمعية اذا نسكوا لا يشهدون المعرّفا

ولعل ذلك يرجع الى احساسهم بأن حرمتهم متعلقة بالحرم فأرادوا ان يحفظوها ويؤكدوها . وجاء في الحديث أن مطعم بن عدي رأى النبي عليه الصلاة والسلام بعرفة واقفا مع الناس فقال : « هذا من الحمس ما له هاهنا . »[121] والحديث يصور هذا الاعتزاز بسكنى الحرم . ويدل التقسيم نفسه على أصل الحميس . فان المقابلة بينهم وبين الحلة تدل على انهم جماعة لهم حرمة وهو معنى لم يفت الزمخشري .. ولكنه ظن ان معنى الحرمة تابع وليس اصلا في اللفظ[122] .. ويقول نولدكه ان الاحمس كلمة تفيد معنى المقدّس وذلك بدلالة المقابلة بين كلمتي حمس وحلة[123] . وهو رأي يؤكده ما يذكره جواد علي .. فهو يذكر أن كلمة أحمس في اصلها متعلقة بالآلهة[124] .

---

(118) الروض الانف ١/١٣٢ .

(119) قال تعالى : «ثم أفيضوا من حيث افاض الناس .» البقرة : ١٩٩ .

(120) ديوان الهذليين ٣/٥٢ .

(121) اسباب النزول ص ٣٣ . وذكر انه في صحيح مسلم ، النهاية في غريب الحديث ٣/٢٥٨ ، الفائق ١/٢٩٣ .

(122) الفائق ١/٢٩٢ . « الحمسة الحرمة مشتقة من اسم الحمس لحرمتهم بنزولهم الحرم » .

(123) دائرة المعارف الاسلامية مادة الحمس ١٠٠/٨ .

(124) تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/٢٢٨ .

وهذه الحرمة الخاصة التي اكتسبتها قريش من سكنى مكة افادتها في عملها التجاري فائدة كبيرة .. فقد كانت لهم ثمانية اشهر حرم من بين العرب يسيرون فيها الى اي البلاد ارادوا .. وتحديد السبل بثمانية اشهر يذكره ابن اسحق[١٢٥] .. اما ابن حبيب فيقول ان قريشا لم تكن تهاج طول السنة .. ذلك أن مضر كانت تراهم يستحقون هذا الامان بما قضوا من حق ارثهم الديني من اسماعيل وما اقاموه من فروضه . وكانت احلاف مضر لاتهاجم قوافل قريش .. فطي لحلفها مع أسد وكلب لحلفها مع تميم[١٢٦] . والحق ان الاخبار لا تذكر أية حالة هوجمت فيها تجارة قريش مع انهم ذكروا ان ملوك الحيرة كانوا يضطرون الى حماية قوافلهم ويكلفون من الاشخاص والقبائل القوية من يجيرها أو يبذرقها لهم . ومع ذلك كانت هذه القوافل تهاجم وتنتهب[١٢٧] . وقد انفرد الحمس تقريبا بادارة شؤون الحج . . ووزعوا ذلك على بطون قريش ، فكانت مآثر الجاهلية متسمة بين أكبر هذه البطون . ولما تمنحه هذه المآثر من ميزات معنوية وشرف فقد كانت مصدر نزاع ومنافسة شديدة[١٢٨] .. فقد كانت لخزاعة حتى اخذها قصي منها بزق خمر فيما يقولون وبالقوة والحرب كذلك ثم تنازعت قريش هذه المآثر مما أدى الى انقسامهم الى حلفين أو حزبين هما حلف المطيبين وحلف الاحلاف أو لعقة الدم[١٢٩] .. وفي الاخبار ان دغفلا النسابة غض من تيم قبيلة أبي بكر رضي الله عنه لانهم ليسوا من اهل المآثر[١٣٠] .. مما يوضح القيمة الجاهلية التي تمنيها هذه المناصب الدينية .

---

(١٢٥) الروض الانف ١/٧٥ .

(١٢٦) المحبر ص ٢٦٤ .

(١٢٧) ايام العرب في الجاهلية : يوم السلان ١٠٧ ، الصفقة ص ٢، نخلة من ايام الفجار ص ٣٢٦ والمحبر ص ١٩٥ حيث يذكر ابن حبيب ان بلعاء ابن قيس الكناني انتهب قافلتين للنعمان .

(١٢٨) السيرة : الروض الانف ١/٨٠ ــ ٨٣ ، تاريخ مكة ١/٤٤ ، ٥٩

(١٢٩) المحبر ص ١٦٦ .

(١٣٠) مجمع الامثال ١/١٩ .

ونحن نجد على الناحية المقـــابلة ان بعض الناس كانوا يعتبرون تحت المســتوى المطلوب لكي يكونوا متبولين دينيا ومستحقين لشرف دخول الكعبة. جاء في الحديث أن قريشا رفعت البيت واتخذت له سلما لئلا يدخله الا من يرضونه . وكانوا ربما يتركون الرجل يرتقي السلم حتى يكاد يدخل البيت ثم يدفعونه فيسقط وربما يعطب[131] .. وقد يكون هؤلاء هم الذين روى الطبري انهم كانوا مسخوطين في اهل الجاهلية ، فقد روى عن ابن زيد قال: « كان قوم مسخوطين في اهل الجاهلية فلما بعث الله نبيه قالوا لو أتينا محمدا صلى الله عليه وسلم فآمنا به واتبعناه فقال بعضهم لبعض : كيف يقبلكم الله ورسوله في دينه ، فقالوا : ألا نبعث الى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا فلما بعثوا نزل القرآن : « قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله .. »[132] واصل هذا الحديث ما ورد في الصحيـــح عن ابن عباس : « أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا واكثروا وزنوا واكثروا فاتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا ان الذي تقول وتدعو اليه حســن لو تخبرنا ان لنا عملنا كفارة ...»[133] والحديث ـ ان كان يتحـــدث عن نفس الظاهرة ـ يرد السخط الى كثرة الآثام التي كان بعض الناس يرتكبها .. وهو سبب نضيف اليه ما وصلنا في تاريخ الدعوة الاسلامية من سخرية المشركين بالدين الجديد الذي يكون اتباعه من الطبقات الدنيا في المجتمع كالرقيق والفقراء والضعاف وهي سخرية نجد صـــداها في القرآن الكريم . يقول تعالى : « وقالوا نحن اكثر اموالا واولادا وما نحن بمعـــذبين . قل ان ربي يبســط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن اكثر الناس لا يعلمون . وما اموالكم ولا اولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى .. » سبأ ٣٥ـ٣٧ .

---

(١٣١) تفسير ابن كثير ٣٣٠/١ ، الطبقات الكبرى ٩٥/١/١ . النهاية في غريب الحديث ٩١/٣ .

(١٣٢) الزمر ٥٣ ، تفسير الطبري « بولاق » ١١/٢٤

(١٣٣) البخاري : فتح الباري ٤٢٦/٨ .

ويقول تعالى : « ان الذين اجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون • واذا مرّوا بهم يتغامزون ، واذا انقلبوا الى اهلهم انقلبوا فكهين • » المطففين ٢٩ - ٣١ •

ويقول تعالى « ونادى اصحاب الاعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما اغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون • أهؤلاء الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمة • ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا انتم تحزنون • » الاعراف • ٤٨ - ٤٩ •

ويقول تعالى : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم • » الاحقاف ١١ •

ويقول قتادة فيما نقله الطبري عنه في سبب نزول هذه الآية : «قد قال ذلك قائلون من الناس كانوا اعسر منهم في الجاهلية قالوا والله لو كان هذا خيرا ما سبقنا اليه بنو فلان••»[١٣٤] ومن الواضح في هذه النظرة انهم كانوا يقيسون رضا الله عن الانسان بما يحوزه من النعمة ومظاهر القوة والثراء •• ويرون الفقر والضعف علامة سخط من آلهتهم •• وهم على هذا يعتبرون المستوى الاجتماعي للانسان هو مستواه الديني نفسه •

وكانت ميزة الحمس تنتقل بالزواج الى القبائل الاخرى خارج مكة وتوجد فروقا بين القبائل البدوية •• ويشهد على ذلك بعض اشارات الشعراء كقول عمرو بن معد يكرب مخاطبا العباس بن مرداس السلمي[١٣٥]•

أعباس لو كانت شيارا جيادنا   بتثليث ما ناصيت بعدي الاحامسا

---

(١٣٤) تفسير الطبري « بولاق » ٢٦/٩ .

(١٣٥) الاغاني « الدار » ٣١٥/١٤ ، بلوغ الارب ٢٨٩ ، ومنصفة العباس هي الاصمعية رقم (٧٠) .

وكان العباس قد غزا زبيدا وقال في ذلك قصيدته المنصفة .. وكان ذلك جعله يظن سليما كعامر بن صعصعة أبناء عمومتها مع انهم ليسوا من الحمس كعامر . ويقول حسّان بن ثابت[١٣٦] :

فـلا والله ما تدري هـذيل امحض ماء زمزم أم مشوب
وما لهم ان اعتمروا وحجوا من الحجرين والمسعى نصيب

فحسان يهجو هذيلا بأنهم لم يكن لهم أن يشربوا من زمزم وانهم ليس لهم نصيب من المسعى والحجرين وكل ذلك يصور مرتبة دينية وهو ما يلاحظ في قول الاعشى[١٣٧] :

وما جعل الرحمن بيتك في العلى بأجياد غربي الصفا والمحرّم
فما أنت من أهل الحجون ولا الصفا ولا لك حق الشرب من ماء زمزم

ويقول الراجز يوم جبلة[١٣٨] :

اقدم قطيفاتها بنو عبس المشر الحلة في القوم الحمس

وهو يصور حدوداً واضحة بين القسمين وهما في يوم جبلة عبس وعامر وتوضح ذلك دختنوس حين ترى ان دم ابيها ينبغي ان تنال به عامر وهي من الحمس ولا تنال به عبس « غالب » فذلك عار .. تقول دختنوس يوم جبلة[١٣٩] :

فان تعقب الايام من عامر يكن عليه حريقا لايرام اذا سما
ليجزيتهم بالقتل قتلا مضعّفا وما في دماء الحمس يا مال من بوا
ولو قتلتنا غالب كان قتلها علينا من العار المجدّع للعلى

ومن هذا نرى ان تقسيم القبائل الى حمس وحلة لم يكن متعلقا بالحج فقط .. ولم ينحصر في الحجاز وقبائله .. وانه تقسيم ديني في اصله ولكنه ساهم في تكوين حدود اجتماعية مختلفة .

---

(١٣٦) شرح ديوانه ص ٥٦ .
(١٣٧) ديوان الاعشى رقم ١٥) ص ١٢٣ .
(١٣٨) النقائض ٦٦٦/٢ .
(١٣٩) النقائض ٦٦٥/٢ .

ومن الحرمات المهمة الاخرى ، الاشهر الحرم التي كان التزامهم بحرمتها صارما دقيقا يصوره ذلك الجدل الذي قام حول سرية عبدالله بن جحش أكان استيلاؤها على قافلة ابن الحضرمي في شهر الحرام أم قبله بيوم ، وقد أدى ذلك الى أن يرسل المشركون يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عما اذا كان يحل القتال في الشهر الحرام .. وتوقف النبي عليه الصلاة والسلام عن تسلم القافلة لانه لم يأمر بالقتال ولم يرض به في الشهر الحرام .. وتفاءلت اليهود بذلك كله[١٤٠] ، كأنهم توقعوا انه سيجمع المشركين ويقضي على ترددهم في حرب الاسلام .

وكان التزام العرب بحرمة هذه الاشهر في المناطق البعيدة عن مكة على نفس المستوى من الدقة والصرامة ، يقول ابو رجاء العطاردي في حديثه : « .. فاذا دخل رجب قلنا منصل الاسنة فلا ندع رمحا فيه حديدة ولاسهما فيه حديدة الا نزعناه والقيناه شهر رجب .. »[١٤١] وقال وفد عبد القيس للنبي صلى الله عليه وسلم : « يا رسول الله انا لا نستطيع ان نأتيك الا في شهر الحرام وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر فمرنا بأمر فصل .. »[١٤٢] ونحن نجد في اخبار الجاهلية انهم كانوا يفادون اسراهم ويفاوضون قتلة ذويهم في الاشهر الحرم[١٤٣] .. وذكر في التواريخ غير العربية ان عرب الشمال كان لهم اشهر يحرّمون فيها الغزو والقتال[١٤٤] .

---

(١٤٠) السيرة : الروض الانف ٢/٥٩ ، اسباب النزول للواحدي ص ٣٥ ــ ٣٨ ، تاريخ الطبري ٢/٤١٠ .

(١٤١) البخاري : فتح الباري ٨/٧٤ ، وابو رجاء تميمي ، اسد الغابة ٢/١٣٦ ، وله هنا حديث مماثل ..

(١٤٢) البخاري / فتح الباري ١/١٠٨ .

(١٤٣) في الشهر الحرام جاء صخر يسأل قطفان عن قاتل اخيه معاوية الاغاني « الدار » ١٥/٩١ ، ووفد لقيط بن زرارة على عامر في فداء اخيه معبد النقائض ٢/١٠٦٣ .

(١٤٤) تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/٢١٥ ، ٨/٣٧٧ .

والاشهر الحلال لا تقل اهمية في فهم الحياة الجاهلية عن الاشهر الحرم. فالحلال كالحرام من حيث صلتها بالدين .. ونحن من الواقع العملي نجد ان الناس لا يتسامحون مع من يحرّم امرا احله الدين ولا يعتبرونه أقل جرما ممن يحلّ الحرام . وهذه الحقيقة يمكن ان تلقي ضوءا جديدا على جانب خطير من حياة الجاهلية .. ذلك هو جانب الغزو والحروب الطاحنة التي كانت تقوم بين القبائل المختلفة وتحيل حياتها الى صراع دائم من اجل البقاء . ان الدين لم يكن بمعزل عن هذه الحياة الحربية فقد كان يعتبرها أمرا حلالا بما فيها من قتل ونهب وقسوة بالغة ومثل اخلاقية تمجّد القوة والاقدام وتحتقر الضعف ولا تمنحه أية فرصة للبقاء[145] . ان الدين الذي حرّم القتال في اشهر معينة احله في اشهر اخرى .. وكان رجال الدين وحدهم هم الذين يستطيعون في الجاهلية ان يحلّوا حراما فيحلّون القتال فيه في الحقيقة. وقد يكون النسيء طريقة من طرق الكبس او تثبيت المواقيت . ولكنه كان يؤدي الى تجويز القتال في بعض الاشهر الحرم ويحرّمه في بعض اشهر الحلّ بصورة تابعة وذلك قوله تعالى : « انما النسيء زيادة في الكفر يضلّ به الذين كفروا يحلّونه عاما ويحرّمونه عاما » التوبة ٣٧ . وقد كان النسيء محصورا في جماعة من كنانة هم القلامسة .. وكان النسيء يتم في الحج مما

---

[145] بحث هذا الجانب ووفاه حقه من الدراسة د . محمد حسين في : « الهجاء والهجاؤون » وهو يذهب الى ان حياة الصحراء جعلت الصراع من اجل البقاء صريحا مكشوفا .. وجعلت القوة هي المثل الاعلى للجاهلية الذي يمكن ان ترد اليه مقاييسهم ومثلهم الاخرى .. فالرجل الامثل هو القوي القادر على احتمال المشقة ، المتحكم في عاطفته المالك لزمام نفسه فلا تستعبده اللذة . والمرأة المثالية هي المنعمة التي يحوطها رجل قوي .. وادى ذلك الى ان يكون الحق للقوي والمجد للغالب .. ولا اجد حاجة لزيادة بحث هذا الجانب من حياة الجاهلية ولا مجالا لذلك .. الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ٦٦/١ وما بعدها .

يؤكد مسؤولية الدين في الجاهلية عن حياة الحرب والغزو[146] وذلك باضفاء الشرعية الدينية عليها ، وذلك يوضح كيفية اكتساب الحقوق المشروعة بوسائل الغصب والاكراه والقوة .. ويوضح بالتالي أن الجاهلي لم يكن متناقضا مع نفسه حين يدعو الى السلم احيانا وحين يتحدث عن مفاهيم عالية كالحق والعدل والبِرّ ثم يفخر في لحظة تالية بانه غزا وقتل وسبا واستلب ، فقد كانت قاعدته العامة أن القتال حلال في غير الاشهر الحرم .

وثمة اعتبار آخر شارك الدين في فرضه .. وهو كراهية الحرب بين ابناء القبيلة الواحدة فقد كانت صلة الرحم من احسن اعمالهم التي يرجون عليها حسن الجزاء من الله ، وقطع الرحم عندهم يؤدي الى الخذلان وانزال العقوبات ، جاء ان ابا جهل استفتح يوم بدر فدعا بهذا الدعاء : « اللهم اقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة .. »[147] وطمأنت السيدة خديجة رضي الله عنها النبي عليه الصلاة والسلام حين شك في حقيقة الوحي بأنه يصل الرحم في جملة من حسن عمله ـ فلن يخزيه الله ابدا[148] ويقول الحارث بن يزيد السعدي[149] :

لا لا أعق ولا أحو ... ب ولا أغير على مضر
لكننا غزوى اذا ... ضبح المطي من الدبر

ويقول النابغة[150] :

مهلا بغيض بن لأي انها رحم ... حبتم بها فأناختكم بجعجاع

---

(146) تاريخ العرب قبل الاسلام ٣٨٣/٨ ـ ٣٩٨ ، وانظر في الغاية حسن النسيء وكيفيته والقائمين به وزمنه تفسير الطبري « بولاق » ٩١/١٠ ، المحبر ص ١٥٦ جمهرة انساب العرب ١٨٩ طبقات ابن سلام ص ٦١ ، بلوغ الارب ٢٨٩/٢ .

(147) السيرة : الروض الانف ٦٦/٢ ؛ تفسير الطبري « بولاق » ١٣٨/٩ .

(148) تاريخ الطبري ٢٦٨/٢ .

(149) البيان والتبيين ٢٠٠/٣ ، وهو جد الاحيمر السعدي اللص .

(150) مجمع الامثال ٦٤/٢ ، ديوان النابغة « بيروت » ص ١٢٤ من رواية ابن السكيت .

ويقول الحارث بن ظالم[151] :

فيالله لم اكسب اثاما ولم اهتك لذى رحم حجابا

والذين رووا اخبار حرب البسوس الطاحنة رووا ان مهلهلا قال لقومه : « وقد رأيت ان تبقوا على قومكم فانهم يحبون صلاحكم ... وان القوم سيرجعون اليكم غدا بمودتهم ومواصلتهم وتتعطف الارحام حتى تتواصلوا »[152] وجاء في خبر يوم بعاث ان الخزرج قرروا ان يبدوا الاوس فقال لهم عبدالله بن أبي : « ان هذا بغي منكم على قومكم وعقوق .. واني لأخافه أن ينصروا عليكم ببغيكم عليهم»[153] وهذا لا يعني اننا نقول بان الدين هو الذى حرّم الحروب في داخل القبيلة فقد كان ذلك حكما صارما أوجبه الحرص على قوة القبيلة والحفاظ على كيانها بين القبائل الاخرى ولكن الدين لم يكن بمعزل عن ذلك ، وقد رأينا ان قطع الرحم عندهم حوب ومأثم وبغي وعقوق وهو ذنب يستحق الخذلان والهزيمة .

ان هذا ينتهي بنا الى ان الجاهلية عرفت قانونين يتعامل بأحدهما ابناء القبيلة الواحدة وبالآخر القبائل المتباعدة .. وهذا ينسجم مع ما اشار اليه د. محمد حسين من أن الجاهلي لم يكن مواطنا في وطن بل كان مواطنا في قبيلة[154] واذا جاز لنا استعمال مصطلحات حديثة في الحديث عن الجاهلية ، فان الجاهلي عرف قانونا عاما وآخر محليا . وكان يجد انه عادل حين يطبّق القانونين المختلفين دون ان يكون في ذهنه اى شك في الحق والعدل والظلم وما الى ذلك من مفاهيم ، يقول زهير لبني حصن وهم من كلب وكانوا استولوا على مال رجل من عبدالله بن غطفان قبيلة زهير في القمار[155] .

---

(151) المفضليات رقم (89) ص 325 .

(152) ايام العرب في الجاهلية ص 165 .

(153) ايام العرب في الجاهلية ص 73 – 78 اخبار يوم بعاث وفيه من مثل ما تلقاه الكثير . وانظر النقائض 1/258 في صلح الرباب وتميم .

(154) الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ص 164 . في حديثه عن الهجاء السياسي .

(155) شرح ديوان زهير ص 56 .

وان الحق مقطعـــه ثلاث يمين او نفار أو جـــلاء
فذلكم مقاطع كـــل حق ثلاث كلهن لكم شــفاء

وهو شعر أعجب القدماء لانــه اســتوعب كل طرق الحكم بالحق[156] ولكن هذه المعرفة باصول القضاء في هذه القصيدة انما يراد بها الوصول الى ان بني حصن اجاروا الرجل الذي اخذوا ماله وهو ما لا يحق لهم . ويقول زهير :

بأي الجيرتـــين اجرتموه فلم يصلح لكم الا الوفاء

واذن فمال هذا الرجل يكفله الجوار .. ولو استطاع بنو حصن ان يثبتوا انهم لم يجيروه لاعتبرهم زهير على حق في اخذ ماله . ويقول زهير ايضـا[157] :

تقي تقي لم يكثّر غنيمـــة بنهكة ذي قربى ولا بحقلّد
سوى ربع لم يأت فيها مخانة ولا رهقا من عائذ متهوّد

والشاعر يمدح صاحبه بأن غنائمــه ليــت من ذوي قرباه ولا جيرانه العائذين به وانه لا يأخذ سوى مرباعه .. وذلك كله يبيح له ان يصفــه بالتقوى والنقاء .

وجاء أن قيس بن زهير غزا بني تميم فسبا فتاتين واستاق ابلا لقرواش ابن عوف وافلت داحس الذي اعجبه فاتفق مع الفتاتين ان يطلقهما ويرّدالابل بالفرس . ولكن قرواشا الذي كان غائبا لم يرض ان يؤخذ فرسه فنافر قيس ابن زهير .. وحكـم بينهما ان تـرد الفتـاتان والابـل لقيـس والفـرس لقرواش[158] .. ومعنى هذا القضاء ان ما غنمه قيس هـو له في شـرعهم

---

(156) اعجب عمر رضي‌الله عنه بما قسم زهير واهتدى اليه من‌اصول‌القضاء، البيان والتبيين ١/٢٤٠ ، الشعر والشعراء ١/٨٥ ، عيون الاخبار ١/٦٧ .

(157) شرح ديوان زهير ص ٢٣٤ .

(158) الثعالبي ١/٨٥ .

واعرافهم . وكل هذا يوضح ان « القانون العام » كان صريحا في اعطاء الحقوق للمنتصر فهو يمتلك ما يسلبه ملكية شرعية لا ينازع فيها .

اننا امام قانون مهما يكن غريبا في حدوده وتطبيقاته ولسنا امام فوضى مطلقة لا يسود فيها اي قانون . واذا كان لهذا القانون جانب انساني نافع فهو كراهيتهم الظاهرة للسرف في الدماء ، وتبدو هذه الكراهية فيما نقله اهل الاخبار عن ايام الفجار وبعاث وذات الجراجر من ايام داحس والغبراء[١٥٩]. وغيرها من ايامهم . وقد كانوا يفضلون الاسر على القتل في الغالب .. ونحن نعرف مبلغ الدية عندهم بالنسبة للملك والصريح والحليف[١٦٠] . واما في حالة الثأر فيكون قبول الدية ضعفا غير مستحب[١٦١] ويكون قتل القاتل عملا مقبولا عند قبيلتي القاتل والمقتول .. فمع ان قبيلة القاتل تحاول ان تحميه من اولياء الثأر فهي لا تتهمهم اذا اخذوا بثأرهم . فاذا كثرت الدماء بين قبيلتين دفعت القبيلة الاقل خسارة في الدماء دية الفرق كما حدث في حرب داحس والغبراء[١٦٢] .

---

(١٥٩) ايام العرب في الجاهلية ص ٣٢٥ ؛ ٧٦ ـ ٧٨ ، ٢٦٦ ، ٢٧٧ .

(١٦٠) انظر الاغاني «الدار» ٣/٢٦/ ، ٦/٢٨٧ في ان دية الحليف نصف دية الصريح . وانظر في كون دية الملك الف بعير النقائض ١/٢٢٧ في فداء معبد بن زرارة ؛ ١/٤٠٧) في دية عمرو بن الجون ، الاغاني ١١/١١١ في دية ابن الاسود بن المنذر .

(١٦١) تقول كبشة اخت عمرو بن معد يكرب : « نوادر القالي ص ١٩٠ »

ارسل عبد الله اذ حان يومه

الى قومه لاتعقلوا لهم دمي

ويقول جابر بن حني التغلبي .. المفضليات رقم (٤٢) ص ٢١١

انفت لهم من عقل قيس

اذا وردوا ماء ورمح ابن هرثم

وانظر الاصمعية ٤٤ للاسعر الجعفي

(١٦٢) ايام العرب في الجاهلية ص ٢٧٠ .

ولم يكن القتال مباحا بين ابناء القبيلة الواحدة كما ذكرنا .. ولذلك فان حقوق الفرد لا يمكن ان تنتقل بالقوة الى فرد آخر .. ولا يمكن قبول العنف والتعسف في نطاق القبيلة يصوّر ذلك طرفة حين يقول :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند

ويقول الحصين بن الحمام المرّي[163] :

الا تقبلون النصف منّا وانتم ... بنو عمّنا لا بلّ هامكم القطر

ومن هنا كان اهل الجاهلية يحرصون على البراءة من بعث الحرب بين ابناء قبيلتهم ولا يبدأونها ظالمين . يقول الحارث بن عباد في البسوس[164] :

لم اكن من جناتها علم الله ... واني بحرّها اليوم صالي

ويقول قيس بن زهير[165] :

فان تك حربكم أمست عوانا ... فاني لم اكن فيمن جناها

ويقول أيضا[166] :

فان تك حرب فلم اجنها ... جنتها صبارتهم اوهم

ويقول العباس بن مرداس في حرب اثارها هو وخفاف بن ندبة بين بني سليم وهو يصوّر في شعره مدى ما يحس به من الم الندم والشعور بالذنب[167] :

ألم تر اني كرهت الحروب ... واني ندمت على ما مضى

ندامة زار على نفسه ... لتلك التي عادها يتقى

---

(163) الاغاني « الدار » ١٤/٥

(164) الاصمعيات رقم (٤٠) ص ٢٢٣ .

(165) النقائض ٦٢/١ .

(166) مجمع الامثال ٥٩/٢ .

(167) الشعر والشعراء ٦٣٢/٢ .

وأيقنت أني لا صبتـه من الامر لابس ثوب خزى
حيـاء ومثلي حقيق به ولم يلبس القوم مثل الحيا

ويقول الحصين بن الحمام ملقيا تبعة الحرب على بني عمه(١٦٨) :

جزى الله افناء العشيرة كلهـا بدارة موضوع عقوقا ومأثما
بني عمنا الادنين منهم ورهطنا فزارة اذ رامت بنا الحرب معظما

مفاهيم العدل وتاثرها بالدين

وصلتنا وفرة من الاخبار عن القضاء في الجاهليـة .. واول ما يلفت الانتباه هو وجود قضاء ديني وآخر عرفي او مدني ان صح التعبير . روى البخاري عن جابر : « وكانت الطواغيت التي يتحاكمون اليها في جهينة واحد وفي أسلم واحد وفي كلّ حي واحد .. كهّان ينزل عليهم الشيطان »(١٦٩) . ولو اننا اخذنا بلفظ الحديث لكان معنى هذا ان الكاهن لازم في حياة كل قبيلة كالسيد تماما .. وكانوا فضلا عن ذلك يتحاكمون الى كهنـة القبائل الاخرى لأنهم كانوا يشتهرون من بين الكهنة بصدق النبوءة او الاهتداء الى دقائق الخلافات او لاسباب اخرى فقـد تنافر هاشـم وامية الى الكاهن الخزاعي(١٧٠) وتنافر عبدالمطلب وقريش الى كاهنة بني سعد بن هذيم في زمزم واحتكم الى الكاهنة سجاح في فداء ابنه عبدالله .. وفي منافرة بينـه وبين جندب بن الحارث قصد الكاهن القضاعي بالشام فهذه ظاهرة يصعب تفسيرها فقد كان هؤلاء بمكة حيث هبل الذى كانوا يحتكمون اليه ويضربون بقداح كانت عنده(١٧١) .

---

(١٦٨) المفضليات رقم (٠) ص ١٤٣ .

(١٦٩) البخاري : فتح الباري ٢٠٨/٨ .

(١٧٠) انساب الاشراف ٦١/١ ، ٧٤ تاريخ الطبري ٢٤٢/٢ ، تاريخ ابن الاثير ٢٤٨/٢ ، تاريخ مكة ٢٨٥/١ .

(١٧١) الاصنام ص ٢٨ ، المحبر ٣٣٢ ، تفسير الطبري « بولاق » ٤٩/٦ ، الروض الانف ١٠٣/١ .

فتحصل لهم في قضايا النسب والارث وغيرها .. ولا يمكن تفسير ذلك الا بشهرة هؤلاء الكهنة وامتيازهم .

وكانوا يستقسمون عند ذي الخلصة ايضا حتى اخفره رجل موتور أمرته القداح بالا يثار لأبيه فضرب وجه الصنم بالقداح .. ولم يستقسموا عنده بعدها[172] . وكان المحتكمون الى الاصنام يعملون اجرا لسدنته يسمونه حلوان الكاهن فيضرب لهم بالقداح عند الصنم وقد بلغ الحلوان في حالة الاحتكام الى هبل مائة درهم ..[173] والكاهن قد ينسب الحكم الى الاله فهو الذي عبر عما يريد بالازلام . والكاهن في هذه الحالة شخص مرضي تفصح له الآلهة عمّا تريد ويستطيع هو ان يسائلها .. وقد يدعي الكاهن ان له تابعا من الجن او الشياطين يخبره بحقيقة الامر الذي يستشار فيه .. وقد يدعي انه يفهم الامور بالهام خاص ومقدرة على النفاذ والفهم .

والكاهن شخص غير طبيعي وهو ذو صلة بالالهة والجن .. فليس معقولا ان يتكلم كلاما طبيعيا وكان اسلوب الكهنة المعتاد الذي ينطقون به احكامهم هو السجع ومع ان اكثر السجع الذي يروى لهم مشكوك في صحة نصوصه .. فلا سبيل الى الشك في انه كان اسلوبهم الخاص باجماع اهل الاخبار .. واصح مثال من هذا السجع تعليق حمل بن النابغة الهذلي على حكم النبي عليه الصلاة والسلام في الجنين فقد رووا انه قال : كيف اغرم من لا شرب ولا اكل ، ولا نطق ولا استهل ، فمثل ذلك يطل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انما هذا من اخوان الكهان[174] . ونحن لا نجد في كلام حمل تلك الجمل من القسم المسجوع ولا التلميح الغامض .. ومع ذلك احس النبي صلى الله عليه وسلم انه كلام يشبه كلام الكهان .. وربما كان حمل يردد حكما من احكام كهان الجاهلية ولا يستبعد ان يكون لهم في الجاهلية

---

(172) الاصنام ص ٣٥ ؛ ٤٧ الروض الانف ١/٦٥ .

(173) جاء في الحديث النبوي عن حلوان الكاهن . مسلم : النووي ٢٢١/١٠

(174) مسلم : النووي ١٧٧/١٢ — ١٧٩ .

حكم معين في الجنين .. فالغموض اذا ليس شرطا في كلام الكاهن .. وان كان مما يلجا اليه حين ينبيء عن الغيب احتيالا وتهربا .

ويذكر أهل الاخبار كثيرا من الحكام الذين ليست لهم صفة دينية مما يدل على انهم احتكموا الى ادراكهم وتعمقهم في فهم العرف المعمول به بينهم والى رجاحة العقل وصدق الحدس الذي يشتهرون به . ويبدو انه للتعويض عن المكانة الدينية والسلطة الروحية للكاهن كان هـذا النوع من الحكام يختار من بين الرؤساء والسادة المطاعين في قومهم ومن هنا وجدنا في اسماء الحكام عبدالمطلب بن هاشم وابا سفيان بن حرب والوليد بن المغيرة والعاص ابن وائل من سادة قريش . والاقرع بن حابس وحاجب بن زرارة من تميم وامثالهم من باقي القبائل[١٧٥] .وكان الحاكم الذي لا يضمن انقياد المختصمين يرفض الحكم بينهم او يتقدم بأخذ مواثيق الطاعة لما يصدره من حكم على نحو ما يذكرون عن جد حسان بن ثابت او ابيـه حين حكم في قضيـة سمير[١٧٦] .

واذا كان الكاهن غير مطالب بان يبرر احكامه لانها غيبية مقدسة عندهم فأن الحكم مضطر الى ان يكون منطقيا في احكامه متمشيا فيها مع القواعد والاعراف التي تواضـع عليهـا المجتمـع الجـاهلي . وكان بعض هـؤلاء الحكام « يشرع » قواعد جديدة حين يبلغ المرتبة التي تخوله من هيبة وشهرة بالحكمة والسداد بين الناس .. فعامر بن الظرب العدواني هو الذي جعل الدية مائة من الأبل وكان لقمان جعلها مائة جدي ولعامر حكم معروف في الخنثى والافعى الجرهمي ينسب اليـه انه هو الذي حكم بأن التسرط املك[١٧٧] .

---

(١٧٥) المحبر ١٣٢ ، بلوغ الارب ٣٠٨/١ ، مجمع الامثال ٤١٨/١ .

(١٧٦) ايام العرب في الجاهلية ص ٦٦ ، تاريخ ابن الاثير ٤٠٢/١ ، الاغاني « الدار » ٢٦/٣ .

(١٧٧) جمهرة انساب العرب ٢٦٤ ، انساب الاشراف ٩/١ ، المعمرين ص٤٧ .

ويذكر ابن حبيب والقلقشندي من ذلك احكاما اسلامية ينسبانها الى رجال جاهليين فقريش كانت تقطع السارق ولصوص الابل .. وقطعت سارقي كنز الكعبة .. وهما ينسبان الحكم بالقطع الى الوليد بن المغيرة والرجم في الزنا الى ربيع بن حدان والصلب في قطع الطريق الى المناذرة . والى اكثم بن صيفي الحكم بالولد للفراش ؛ والى ذي المجاسد توريث البنات اوث البنين(١٧٨) .. ولا يذكر من رجعت اليهم من أهل الاخبار مصدر هذه الاحكام الجاهلية التي ابقاها الاسلام .. وقد تكون بقية ما ورثوه من ملة ابراهيم عليه الصلاة والسلام .. وذلك يفسر ابقاء الاسلام عليها .. ووجود هذه الاحكام ليس غريبا فالبيئات التجارية كمكة واليمن كانت تحتاج الى عقوبة صارمة في السرقة .. والبيئات الحضرية الخاضعة لنفوذ دول عريقة في التمدن كالحيرة والشام والبحرين كانت تحتاج الى قانون ونظام مهما تكن حقيقة مستواه او مدى تطبيقه واحترامه ويتساوى البدو والحضر في الحاجة الى نظام للتوريث .. ويبدو ان توريث المرأة لم يكن يسير على نظام ثابت .. والاغلب ان العرب لم يكونوا يورثوهن . وتقول الاخبار انهم كانوا لا يورثون الا من حاز الغنيمة وقاتل على ظهور الخيل(١٧٩) .

وكان الحكام احيانا يعملون في نطاق القبيلة ولا يعرفون خارجها .. وقد سأل النبي صلى الله عليه وسلم رجلا عن كنيته وكانت ابا الحكم فقال انه كان يحكم بين قومه حين يختصمون فيرضى بحكمه كلا الفريقين فكنوه بهذه الكنية ..(١٨٠) وكان قسم آخر منهم تتمدى شهرته قبيلته فيحكم بين القبائل الاخرى . وربما كانت الاسواق والمجتمعات البدوية احوج الاماكن الى القضاة بما يحصل فيها من نزاع بين التجار واحتكاك بين القبائل المختلفة . ولما كانت هذه الاسواق تعقد في الاشهر الحرم فقد اضطروا الى الالتجاء الى

---

(١٧٨) المحبر ٢٣٧ ؛ صبح الاعشى ١/٢٣٥ .

(١٧٩) المصدران السابقان ؛ وتاريخ الطبري ٢/٢٨٦ .

(١٨٠) اسد الغابة ٥/٢٢٦ ؛ والاصابة ٦/٢٧٨ .

الحكام .. وكان حكام عكاظ من تميم الى ان جاء الاسلام[١٨١] .. وكان غيلان بن سلمة الثقفي كما يروون يجلس للحكم في الموسم يوماً من ثلاثة ايام[١٨٢] .

ولا ندري حقيقة الصلة بين القضاء الديني والقضاء الاعتيادي .. ويمكن ان نفترض انهما انفصلا في عهد متأخر .. ففي اليمن جمع المكربون المعينون بين السلطة الدينية والدنيوية .. ثم انفصلت السلطتان فيما بعد[١٨٣] .. ولا يمكن الجزم بالنسبة للبدو والحجاز ويمكن ان يكون النوعان من القضاء قد وجدا منفصلين . والامر في تخصص كلّ نوع من القضاء اكثر تعقيدا .. فنحن نجد قضايا من اللون نفسه تعرض على كاهن أو حكم .. وربما كان الامر يخضع لدرجة اهتمام الخصوم بالدين وربما كانوا يلجأون الى الكاهن بعد ان يعجزوا عن تبين الحقائق بالطرق المعتادة .

وارفع ما وصلنا عن احساس الجاهلية بقيم العدالة جاءنا في اخبار حلف الفضول[١٨٤] وتاريخه مرتبط بحرب الفجار فقد جاء في اعقابها[١٨٥] .. وربما كانت هذه الحرب التي تعدت على الحرمات هي سبب عقد هذا الحلف بما ايقظت من ضمير ديني لدى الذين شاركوا فيها او تجنبوها .. والحقيقة ان حلف الفضول هو امتداد اسمي لحلف سابق قبلي هو حلف المطيّبين الذي تكوّن نتيجة الخلاف حول اقتسام مآثر الجاهلية . وقبائل هذا الحلف كما

---

(١٨١) المحبر ٨١ – ٨٣ ، النقائض ٤٣٨/١ .

(١٨٢) المحبر ص ١٣٥ ، مجمع الامثال ٤١٨/١ .

(١٨٣) تاريخ العرب قبل الاسلام ١٠/٨ ، ١٣ ، ٢٣ .

(١٨٤) يقال انه كان بعثا لحلف جرهمي تعاقد عليه الفضل بن فضالة والفضل ابن وداعة وفضيل بن الحارث وبذلك سمي حلف الفضول .. ويرى السهيلي ان التسمية جاءت من لفظة وردت في نص الحلف وهو محق في ذلك . تاريخ ابن الاثير ٢٥/٢ ، الروض الانف ٩١/١ دائرة المعارف الاسلامية ٥٠/٨ ولم يذكر كاتب المادة « ارندك » الاختلاف في سبب التسمية .

(١٨٥) الطبقات الكبرى ٨٢/١/١ كان الحلف بعد الفجار . . وكان الفجار في شوال والحلف في ذي القعدة .

ذكرها ابن حبيب هي بنو عبدمناف وبنو اسد وبنو زهـرة وبنو الحـارث ابن فهر وبنو تيم وهي القبائل التي تكوّن منها حلف الفضول تقريبا[١٨٦] .. ولم يخرج منهم الا بنو امية من عبد مناف . أما السبب المباشر للحلف فيروى ان العاص بن وائل السهمي اغتصب بضاعة رجل من زبيد ورفض الاحلاف أن يأخذوا له بحقه وهم الحلف المقابل للمطيبين . فجاء الكعبة وانشد :

يا آل فهـــر لمظلوم بضاعتـــه ... ببطن مكة نائي الـــدار والنفر

ومحرم أشعث لم يقض عمـرته ... يا للرجال وبين الحجر والحجر

انّ الحرام لمن تمّت كرامتـــه ... ولا حرام لثوب الفاجر الغـــدر

فسعى الزبير بن عبدالمطلب في نصرة الرجل .. واجتمعت قبائل حلف الفضول وعقدوا حلفهم في دار عبدالله بن جدعان واخذوا للرجل بحقه .

أما نص الحلف فقد رواه النبي صلى الله عليـــه وسلم ، فقال : « . . تحالفوا أن ترد الفضول على أهلها والا يعز ظالم مظلوما .. » ورواه ايضا بلفظ : « .. فتعاقدوا وتعاهدوا بالله القائل لنكونن مع المظلوم حتى يؤدى اليه حقه ما بل بحر صوفة وفي التأسّي في المعاش »[١٨٧] .

والحلف بهذا النص ذو شقين واضحين .

واولهما ينص على تكوين قوة من القبائل الداخلة فيه تنفذ ما تراه عدلا وحقا .. ولا يتحدث الرواة عن الطريقة التي يعتمدها الحلف في التعرف على صاحب الحق وصدق دعواه واكبر الظن أنهـم تركوا ذلك للطرق المعروفـة عندهم في التقاضي .

---

(١٨٦) المحبر ص ١٦٦ ـ ١٦٧ . وهو يذكر اسد بن عبد العزى في المطيبين دون الفضول ولكن عبد الله بن الزبير وهو اسدي هدد بأن ينصر الحسين ابن علي اذا دعا بحلف الفضول وهذا يدل على ان اسدا داخل في الحلف . انظر الروض الانف ١/٩٢ .

(١٨٧) المصادر السابقة وتاريخ ابن الاثير ٢/٢٥ ؛ بلوغ الارب ١/٢٥٧ .

والقسم الثاني من الحلف له خطر واضح ، اذ هو يمثل نوعا من التكافل الاجتماعي والالتزام بمساعدة المحتاج من المتحالفين ، واقتران ذلك بالعمل على نصرة الحق هو تطوّر كبير في فهم العدالة والنظر اليها من زاوية جديدة ، ويمثل هذا الحلف طفرة في فهمه الواسع لقضية العدالة من ناحية ثانية ، فهو قد تجاوز الحاجز القبلي وعمّ بضمان الحق لكل من يطلب ذلك وان كان هذا من الناحية العملية داخل مكة .

ولم يكن هذا العهد الذي قطعه حلف الفضول فورة عاطفية لم تجد السبيل الى التطبيق .. فقد رووا ان النبي عليه الصلاة والسلام اخذ بحق رجل اراشي من ابي جهل .. وكان غصبه ابله وماطله بالثمن[١٨٨] ، واشترى صلى الله عليه وسلم ابلا من رجل زبيدي وكان ابو جهل يريد شراءها بالوكس وكان المشركون قد امتنعوا من الزيادة على السعر الذي اعطاه[١٨٩] ، واخذ العباس بحق رجل من سليم[١٩٠] ، واما بالنسبة للتآسي في المعاش فنذكر كفالة النبي عليه الصلاة والسلام والعباس لعلي وجعفر ابني ابي طالب وذلك للتخفيف من عياله وكان أبو طالب فقيرا[١٩١] .

ومن الطريف أنهم عرفوا ادواء القضاء في الجاهلية .. فقد رووا أن ضمرة بن ضمرة النهشلي ارتشى فنفّر عباد بن انف الكلب الصيداوي على سبرة بن عمرو الفقعسي[١٩٢] ، ورووا ان الاقرع بن حابس هو اول من داهن في الحكومة ... وذلك حين تنافر اليه جرير بن عبدالله البجلي وخالد ابن ارطاة الكلبي[١٩٣] .

---

(١٨٨) الروض الانف ١/٢٣٨ ، الاصابة ٦/٢٦٨ ترجمة النواح بن سلمه الاصغر حفيد هذا الاراشي .
(١٨٩) انساب الاشراف ١/١٣٠ .
(١٩٠) الاصابة ٥/٢٦٦ .
(١٩١) تاريخ الطبري ٢/٣١٢ .
(١٩٢) الحيوان ١/٣١٦ ، مجمع الامثال ١/٤١٨ .
(١٩٣) النقائض ١/٣٦٥ .

وروح العدل عندهم هو النصف أو السوية[194] وكأن ذلك جاء من القسمة فأن قسمة النبي، نصفين لا تتيح مجالا للجور أو المغالطة وكذلك التسوية .. هذا والقبول بالحق واعطاؤه للمظلوم مثل من مثلهم التي فخروا بها كما هجوا برفض الحق .. وان كان ذلك يأتي في العادة مقترنا بعدم قبول الظلم والقدرة على أزالته .. يقول الاسود بن يعفر[195] :

فلا انا معطيكم عليّ ظلامة ۔۔۔ ولا الحق معروفا لكم انا مانع

ويقول لبيد[196] :

وكثيرة غرباؤها مجهولة ۔۔۔ ترجى نوافلها ويخشى ذامها

غلب تشذر بالذحول كأنها ۔۔۔ جنّ البديّ رواسيا اقدامها

انكرت باطلها وبؤت بحقها ۔۔۔ عندي ولم تفخر عليّ كرامها

ويقول جثامة بن قيس الكناني في لينه لقومه[197] :

واغرض عن اصول الحق فيهم ۔۔۔ اذا التبست واقتطع الصدورا

---

(194) يقول درهم بن يزيد او عمرو بن امرىء القيس (الاغاني « الدار » ٢١/٣ ؛ جمهرة اشعار العرب ٢٣٧) .

بامال والحق ان قنعت به ۔۔۔ فيه وفينا لأمرنا نصف

ويقول المعين بن الحمام (الاغاني « الدار » ٥/١٢)

الا تقبلون النصف منا وانتم ۔۔۔ بتوعمنا لا يبل هامكم القطر

ويقول زهير : شرح ديوانه ص ٢٥٦

اروتنا خطة لاعيب فيه ۔۔۔ يسوى بيننا فيها السواء

(195) الصبح المنير ص ٣٠٢ .

(196) شرح ديوان لبيد رقم (٤٨) ص ٣١٧ .

(197) المؤتلف والمختلف ص ١٠٦ .

ويقول أخو السموال سعية بن الغريض مضيفاً انه لا يغالط في الحق ولا يتلاعب به(١٩٨) :

اننا اذا مالت دواعي الهوى وأنصت السامع للقائل
لا نجعل الباطل حقا ولا نلطّ دون الحق بالباطل
نخاف ان تسفه احلامنا فنخمل الدهر مع الخامل

ونحن نجد في شعر هذا الشاعر اليهودي وضوحا وانقيادا للحق .. فهو لم يقيّد كلامه بأي قيد ولم يعلّق اعطاءه الحق بشيء .. ومعنى الانقياد للحق والاخلاص له وعدم تشويهه معنى معروف عندهم ؛ يقول عوف بن الاحوص(١٩٩) :

أقر بحكمكم ما دمت حيا وألزمه وان بلغ الفناء
فلا تعوجوا في الحكم عمدا كما يتعوّج العود السراء
ولا آتي لكم من دون حق فأبطله كما بطل الحجاء

فالحق عند عوف قيمة لا ينبغي التلاعب بها بأن يشتط صاحبه ويغالي ، وان يحتال الذي عليه الحق ليبطله ويلغيه كما يبطل اللغز اذا كشف عن غموضه ، وقد جاء في كلامهم استعمال الحق بمعنى الواجب من حيث ان الواجب حقّ على الانسان لغيره .. وهو بهذا الاستعمال في قول المثقب(٢٠٠) .

اكرم الجار وأرعى حقّه ان عرفان الفتى الحقّ كرم

---

(١٩٨) طبقات ابن سلام ص ٢٣٨ ؛ وهو يرويها لسلام بن ابي الحقيق . وفي الاغاني « الساسي » ١٩/١٠٠ لنعيه .

(١٩٩) المفضليات رقم (٤٨) ص ١٧٤ .

(٢٠٠) ديوان المثقب ص ٤٦ .

والحق بهذا المعنى يتسع حتى يشمل مثلهم التي مجدوها من كرم وقرى ووفاء وحمل للمغارم وغيرها .. يقول أحيحة بن الجلاح[٢٠١] :

يلوون مالهم عن حق أقربهم وعن عشيرتهم والحق للوالي

ويقول لبيد[٢٠٢] :

فتى عارف للحق لا ينكر القرى ترى رفده للضيف ملآن مترعا

ويقول معوّد الحكماء[٢٠٣] :

حملت حمالة القرشي عنهم ولا ظلما اردت ولا اختلابا
أعوّد بعدها الحكماء بعدي اذا ما الحق في الاشياع نابا

ويقول ربيعة بن مقروم الضبي[٢٠٤] :

يهينون في الحق اموالهم اذا اللزبات التحين المسيما

ويقول العباس بن مرداس مستعملا الحق في معنى ايجاب الشيء وتأكيده[٢٠٥] :

اذ ما اتيت على الرسول فقل له حقا عليك اذا اطمأن المجلس

وهو معنى تابع للحق بمعنى الواجب .. ومن هذا المعنى جاء تعبير حماية الحقيقة .. وهي ما يستحق الحماية .. يقول عنترة[٢٠٦] :

ومشك سابغة هتكت فروجها بالسيف عن حامي الحقيقة معلم

---

(٢٠١) الاغاني ٥ الدار ٨ ١٥/٣٧ .
(٢٠٢) شرح ديوان لبيد رقم ٢٥ ص ١٧٢ .
(٢٠٣) المفضليات رقم ١٠٥ ص ٣٥٨ .
(٢٠٤) المفضليات رقم ٣٨ ص ١٨٣ .
(٢٠٥) الحماسة البصرية ١/١١٩
(٢٠٦) مختار الشعر الجاهلي ص ٣٧٧ .

ويقول العباس بن مرداس[٢٠٧] :

فلم ار مثل الحي حيا مصبّحا ولا مثلنا لما التقينا فوارسا
اكـر واحمى للحقيقة منهم واضرب منّا بالسيوف القوانسا

ومن معاني الحق الاخرى عندهم الصدق كما في قول النابغة[٢٠٨] :

اتاك بقول هلهل النسج كاذب ولم يأت بالحق الذي هو ناصع

وقول المثقب[٢٠٩] :

فأما ان تكون اخي بحق فأعرف غثّي من سميني
والاّ فاطرحني واتخذني عدواً أتقيك وتتقيني

والحق المقابل للصدق يقترب من المعنى المجرد .. وهو معنى ورد في الشعر الجاهلي ايضا . قول طرفه[٢١٠] :

دببت بسرّي بعد ماقد علمته وانت باسرار الكرام نسول
وكيف تضل القصد والحق واضح وللحق بين الصالحين سبيل

ويقول قيس بن الخطيم[٢١١] :

متى ماتقد بالباطل الحق يابه وان قدت بالحق الرواسي تنقد

ويقول العباس بن مرداس[٢١٢] :

وكيف اعادي معشرا يأدبونكم على الحق الاّ يأشبوه بباطل
ابت كبدي لا اكذبنك قتالهم وكفّي وتاباه عليّ أناملي

---

(٢٠٧) الاصمعيات ٧٠ ص ٢٣٨ .
(٢٠٨) مختار الشعر الجاهلي ص ١٥٧ .
(٢٠٩) ديوان المثقب ص ١٢ .
(٢١٠) ديوان طرفة رقم ١٢ ص ١١٦ .
(٢١١) ديوان قيس بن الخطيم ص ٤٦ .
(٢١٢) الوحشيات ص ٨٥ .

ويقول المتلمس[٢١٣] :

واعلم علم حـــق غير ظنّ   وتقوى الله من خير العتاد
لحفظ المال ايســـر من بغاه   وضرب في البلاد بغير زاد

فالحق في هذه الاقوال ان لم يكن معنى فلسفيا خالصا فانه يستوعب بشموله جميع المعاني التي ذكرناها سابقا •• وينبغي ان نقف عند التفاتهم الى معان مقررة للحق ثابتة له •• ومن ذلك وضوحه وجلاؤه والى ذلك اشار طرفة •• ومنه انتصار الحق وغلبته والى ذلك يشير قيس بن الخطيم •• بل ان نقطة التقابل بين الباطل تكمن في وجود الحق وجودا ثابتا وزوال الباطل وانعدامه • يقول لبيد[٢١٤] :

الا كل شيء ما خلا الله باطـل   وكلّ نعيم لا محالـــة زائل

ويقول ايضا :

الا تســـألان المرء ماذا يحاول   أنحب فيقضى أم ضـــلال وباطل

وابطال الشيء الغاؤه وازالته •• وقد مرّ بنا قول عوف بن الاحوص بهذا المعنى :

ولا آتي لـــكم من دون حق   فابطله كمـــا بطل الحجـــاء

ومعاني مادة بطل هي البطولة والبطالة المقابلة للجد والعمل والبطلان بمعنى الزوال والتلف والضياع • وهو المعنى الذي يهمنا •• اما البطولـــة فبعيدة عن ان تقابل الحق • واما البطالة فمن الواضح من استعمالهم اللفظ بمعناها انهم يقصدون اللهو والهزل والتعطل • يقول المثقب[٢١٥] :

فابقــى باطلي والجـــد منها   كـــذا كـــان الدرابنة المطـــين

---

(٢١٣) الحماسة البصرية ٦٨/٢ .

(٢١٤) شرح ديوان لبيد رقم ٣٦ ، ص ٢٥٤ .

(٢١٥) ديوان المثقب ص ٤٠ .

ويقول دريد بن الصمة[٢١٦] :

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه   فلما علاه قال للباطل ابعد

وهذا المعنى ظاهر متميز لا شبهة في انه لا يقابل الحق ، ولا يبقى بعد ذلك غير انهم ارادوا بالباطل الزائل الزائف .. وبالحق الثابت الباقي .. ونحن لا نستغرب أن يوجد عندهم هذا المثل الاعلى .. وذلك على ضوء معرفتهم لله كما أوضحناها في دراسة أديانهم .. لأن هذه المعرفة تعني قدرا كبيرا من القدرة على النظر الشامل .. والاعتقاد بالله جدير بأن يهدى الى شيء من المثل والا يكون عقيما ليس له اثر على فكر الانسان وسلوكه ..

اثر الدين في طبيعة علاقة الرجل بالمرأة :

ويشمل اعتبار التحريم والتحليل علاقة الرجل الجاهلي بالنساء .. فالرواة[٢١٧] يذكرون ان بعض بني تميم تزوّج ابنته بعد ان دخل المجوسية وهذا يشعرنا بأن امتناع العرب من زواج البنات والاخوات ونحوهن انما كان بسبب ديني .. وروى الطبري في جملة اخباره في تفسير قوله تعالى : «ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن .. » الانعام ١٥١ انهم كانوا يرون الزنا حلالا في السرّ حراما في العلن[٢١٨] ، ونحن على أي حال نجدهم يميّزون بين الصلة المشروعة وغيرها .. يقول الاعشى[٢١٩] :

واقرت عيني من الغانيات   فاما نكاحا واما أزن

ويقول عبيد[٢٢٠] :

وبيت يفوح المسك من حجراته   تسدّيته من بين سرّ ومخطوب

---

(٢١٦) الاصمعيات رقم ٢٨ ص ١١٤ .

(٢١٧) بلوغ الارب ٢٤٤/١ .

(٢١٨) تفسير الطبري « بولاق » ٦٠/٨ .

(٢١٩) ديوان الاعشى رقم ٢ ص ١٧ .

(٢٢٠) ديوان عبيد رقم ٨ . ص ٢٥ .. وذهب د . حسين نصار الى ان سر ومخطوب اماكن وذكر انه لم يجد لمخطوب ذكرا في كتب المواضع والبلدان واللغة

وذهب قسم من اللغويين الى ان الحليلة بمعنى الزوجة هو من الجوار لانها تحلّ مع زوجها في المكان .. او من المحلّ الخاص الذي تحتله في نفس زوجها[221] .. والذي دفعهم الى هـذا التأويل قدم اللفظ بمعنى الزوج وجاهليته فهو ليس من الاسماء الشرعية الاسلامية .. ولكن هذه الملاحظة غير دقيقة .. لأن الحرام والحلال وجدا في الجاهلية ولا سبيل الى الشك في ذلك .. ولعلهم تأثروا باستعمال الشعراء للجارة بمعنى الزوجة فقاسوا عليه[222] .

والصورة اللاهية من علاقة الرجل بالمرأة تتناقض مع القيم الدينية .. ومن هنا يقول النابغة ان من المحرم على الحاج ان يلهو بالمرأة .. وذلك معنى قوله[223] :

قالت اراك اخا رحل وراحلة   تغشى متالف لن ينظرنك الهرما
حيّاك ودّ فأنّا لا يحل لنا   لهو النساء وان الدين قد عزما
مشمرين على خوص مزمّمة   نرجو الاله ونرجو البر والطعما

وهناك الفاظ اخرى تحمل طابع الاصطلاح الديني يمكن عن طريق دراستها التعرف على آثار الدين في الجاهلية . ومنها البّر والتقى والجزاء والتأله والفجور والاثم ونحوها . واهمال هذه الالفاظ في الاسلام او غموض معناها لا يمنع من انها كانت ذات خطر واهمية عندهم .

البـر :

والبر مرتبط بالحج ويعني القبول .. فهم يقولون للحاج : حج مبرور ومن[224] ذلك قول النابغة[225] :

مشمرين على خوص مزمة   نرجو الاله ونرجو البر والطعما

---

(221) اللسان « حلل » من الحلول مع الزوج .. المصباح المنير « حلل » من المحل الخاص في نفس الزوج .

(222) كقول الاعشى : ايا جارتا بيني فانك طالقة .

(223) مختار الشعر الجاهلي ص ١٦٩ .

(224) اللسان « برر » .

(225) سبق قبل قليل .

والبر كذلك متصل بالقسم ويعني تصديق القسم وفعل ما يقسم على فعله .. ولعله من هنا جاء معنى الانقياد في استعمالات الكلمة .. انشد في اللسان بدون عزو «يبرك الناس ويفجرونكا» ويقول لبيد وهو يكاد يعرّف البرّ[٢٢٦] :

وما البر الا مضمرات من التقى   وما المال الا معمرات ودائـــع

ومكان البر القلب .. فهو مضمر كما يقول لبيد وكما يقول زهير[٢٢٧]:

ومن يوف لا يذمم ومن يهد قلبه   الى مطمئن البـــر لا يتجمجـــم

ولعله من هنا جاء استعمال البر بمعنى القلب .. فهو مكانه .

التقى : والتقى معروف عندهم وهو أمر طبيعي ما داموا يرون ان الالهة تعقب بالخير والشر على الاعمال .. وهو أمر بديهي في أية عبادة .. فلولا أن الاله يرجى ويخشى ما عبد والاشارة الى جزاء الله وردت في شعرهم ... يقول النابغة[٢٢٨] :

اذن فعاقبني ربي معاقبـــــة   قرّت بها عين من يأتيك بالفنـد

ويقول زهير[٢٢٩] :

رأى الله بالاحسان ما فعـــلا بكم   فابلاهما خير الجزاء الذى يبلو

ويقول الحصين بن الحمام[٢٣٠] :

جزى الله افنـــاء العشيرة كلهـــا   بدارة موضوع عقوقا ومأثمـــا

---

(٢٢٦) شرح ديوان لبيد رقم ٢٤ . ص ١٦٨ .
(٢٢٧) شرح ديوان زهير ص ٢٩ ، وفي مختار الشعر الجاهلي ص ٢٢٤ ومن يفض .
(٢٢٨) مختار الشعر الجاهلي ص ١٥٤ .
(٢٢٩) شرح ديوان زهير ص ٩٦ .
(٢٣٠) المفضليات رقم ١٢ ص ٦٥ .

ويقول النابغة[٢٣١] :

جزى الله عبســا عبس آل بغيّض ... جزاء الكلاب العاويات وقد فعــل

ويقول الاعشى[٢٣٢] :

وادفع عن اعراضــكم واعيركم ... لسانا كمقراض الخفاجي ملحبــا

هنالك لا تجزوني عنــــد ذاكــم ... ولكن سيجزيني الاله فيعقبــــا

ويبدو الفرق بين الشرك والكتابي في هذه الناحية في تصورهما لمــا يرضي الله من الاعمال •• يقول الاعشى في مدح هوذة الحنفي النصــراني الذي اطلق اسراه لله[٢٣٣] :

بهــم تقرّب يوم الفصح ضاحيــة ... يرجو الاله بما سدّى وما صنعــا

فهذه نظرة كتابية لا شك فيها •• ولم نجدها فيما استعرضنا من اثر الدين في الحياة العربية الجاهلية ••

ومن استعمالهم للتقى قول زهير[٢٣٤] :

ومن ضريبته التقوى ويعصمه ... من سيىء العثرات الله والرحم

ويقول المتلمس[٢٣٥] :

واعلم علم حق غيــــر ظنّ ... وتقوى الله من خير العتاد

التاله :

والتاله مرتبة اعلى في حيوية الضمير الديني •• وهو لفظ وصلنــا في الاخبار ولم استطع أن أعثر عليه في الشعر • جاء في حديث صلح الحديبية

---

(٢٣١) الخزانة ١/١٣٩ •• ويقال انه لعبد الله بن همارق •

(٢٣٢) ديوان الاعشى رقم ١٤ ص ١١٧ •

(٢٣٣) ديوان الاعشى رقم ١٣ ص ١١ •

(٢٣٤) شرح ديوان زهير ص ١٤٥ •

(٢٣٥) الحماسة البصرية ٢/٦٨ •

ان قريشا ارسلت في جملة من اوفدتهم لمفاوضة النبي صلى الله عليه وسلم الحليس سيد الاحابيش فقال حين رآه : « هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه ؛ فلما رأى الهدي يسيل عليه من زخر الوادي في قلائده قد أكل اوباره من طول الحبس عن محله رجع الى قريش ولم يصل الى النبي صلى الله عليه وسلم اعظاما لما رأى فقال لهم ذلك فقالوا .. له اجلس ؛ فانما انت اعرابي لا علم لك »[٢٣٦] وقد غضب الحليس وهدد بأن ينقلب على قريش بقومه .. والحليس هو الذي أنكر على ابي سفيان العبث بجثمان حمزة رضي الله عنه في احد[٢٣٧] ونفهم من هذا ان الحليس كان معروفا بالتأله هو وقومه وقد اشتهر ذلك عنهم حتى علمه النبي صلى الله عليه وسلم ، ونفهم كذلك ان هذا التأله يدفع صاحبه الى انصاف خصومه واعدائه في كل الاحوال حتى الحرب . ويذكر ابن حبيب انهم كانوا يشترطون في العرضة الذي يضرب بالقداح في الميسر ان يكون معروفا بالتأله كأن ذلك يمنعه من محاباة بعض الايسار[٢٣٨] .. ويذكرون ان زهير بن ابي سلمى كان يتأله ويقارن ابن سلام الجمحي بين المتألهين من الشعراء والمتهترين[٢٣٩] .. ومن هذه المقارنة نشعر ان التأله يعني صيانة اعراض الناس بعدم ذكر نسائهم او الافحاش في هجائهم ... ويروون ان زهيرا ندم بعد هجاء آل حصن وكان يقول : « ما خرجت بليل قط الا خشيت ان يصيبني عذاب من السماء بظلم اهل بيت من العرب كرام . »[٢٤٠] والتأله على هذا يمثل حدا عاليا من التقوى .. لأنه لا يقف عند حدود العبادات والطقوس بل يتعداها الى الاحسان في التعامل مع الناس وانصافهم .

---

(٢٣٦) السيرة : الروض الانف ٢/٢٢٧ ، تاريخ الطبري ٢/٦٢٨ ، الطبقات الكبرى ١/٢/٧٠ . وجاء هنا : « فبعثوا الحليس بن علقمة وهو يومئذ سيد الاحابيش وكان يتأله » .

(٢٣٧) السيرة : الروض الانف ٢/١٤٠ .

(٢٣٨) المحبر ص ٢٣٣ .

(٢٣٩) الشعر والشعراء ١/٧٨ ؛ طبقات ابن سلام ص ٢٤ .

(٢٤٠) شرح ديوان زهير ص ٦٥ ؛ ٨٦ .

الفجـور :

ومن أهم الكلمات ذات المدلول الديني عندهم الفجور وهو يقابل البّر احيانا ، يقول النابغة[٢٤١] :

إنّا اقتسـمنا خطّتينـا بيننا فحملت برّة واحتملت فجارا

وجاء في الحديث ما يربط هذا المصطلح بالدين ويعطيه معنى الفسـق أو الخروج على تعاليم الدين ، فعن ابن عباس انهم كانوا يعتبرون العمرة في اشهر الحج « من افجر الفجور في الأرض »[٢٤٢] ومرّ بنـا في حديث اخر انهـم سمّوا رجلا من الحلة فاجرا لأنه خرج من باب بسـتان وهو محظور على الحلة ، وأنهم سمّوا حرب الفجار كذلك لأنها تعدّت على حرمة مكة .

الاثـم :

والاثم هو الذنب وعلاقته واضحة بالدين ، يقول الحارث بن ظالم[٢٤٣] :

ما أبالي أراشـدا فأصبحاني حسـبتني عواذلي أم غويّـا
بعد الاّ أصـر لله اثما في حياتي ولا أخـون صـفيا

ويقول امرؤ القيس في تحلله من نذره[٢٤٤] :

فاليوم أشرب غير مسـتحقب اثما من الله ولا واغـل

ويقول يزيد بن خذاق[٢٤٥] :

تحلّل أبيت اللعن من قول آثم على ما لنـا ليقسـمّن خموسا

وبعد ، فان هذه الالفاظ وغيرها ينبغي ان تكون دليـلا نهتدي به في التعرف على الآثار الدينية في اخلاق الجاهلية وسلوكها وبالتالي في آدابها ، وانه لمن الطبيعي ان لا تظهر هذه الآثار عند جميع الشعراء بنفس الوضوح لان الناس ما يزالون يختلفون في مبلغ تدينهم .. كذلك لا تظهر المشاعر الدينية

---

(٢٤١) مختار الشعر الجاهلي ص ١٦٦ .
(٢٤٢) البخاري : فتح الباري ٣٢٢/٢ .
(٢٤٣) الاغاني « الدار » ١٢٢/١١ .
(٢٤٤) ديوان امرىء القيس رقم ١٦ ص ١٢٢ .
(٢٤٥) المفضليات رقم ٧٩ ص ٢٩٨

بنفس الدرجة من العمق في فترات حياة الشاعر المختلفة .. فهي خاضعة لنضج الانسان وتقدمه في السن وهي خاضعة ايضا لظروف حياته فهي تتنبه عند المصاعب والكوارث وتبدو خاملة في احيان اخرى .. وقد ادى تتبع اسماء الآلهة وملاحظة ندرتها في الشعر وكذلك الشك في اصالة كثير من الشعر الجاهلي الى القول بضعف الروح الديني عند الجاهلي وقصورها وضحالة الدين الجاهلي نفسه[٢٤٦] وربما كان ذلك صحيحا اذا كان حديثنا عن البدوي البسيط .. وهو اقل صحة اذا كان الحديث يدور حول العرب جميعا .. عقلائهم وشعرائهم واهل الحضر منهم .. والحق ان هذه النتيجة التي يقال أن دراسة الشعر الجاهلي عدت اليها فرضت فيما بعد على الشعر الجاهلي فصار الباحثون يحكمون على الشعر الذي تبدو فيه أية فكرة دينية متقدمة واضحة بأنه منحول .. فنحن في الحقيقة نفتش عن الشيء ثم ننكره حين نجده ثم نعجب لعدم وجوده وهو موقف لا شك في غرابته .. والذي أطمع فيه ان يكون ما تقدم من هذا البحث قد كسر هذه الحلقة المفرغة وجعلنا اكثر استعدادا لقبول افكار ناضجة على انها جاهلية لا داعي للشك في اصالتها ما دامت قد وصلتنا عن الرواة الموثوق بهم .

---

(٢٤٦) يقول بلاشير في تاريخ الادب العربي ص ٤٦ : « وهذا الحس الايجابي يدفع ثمنه قصور فاضح : فنفس البدوي ـ كذلك الحضري ولكن بدرجة أقل ـ لا تنفتح للشعور الديني فان عاطفته الدينية من التفاهة بحيث تدهشنا عند مخلوق على اتصال دائم بالطبيعة .. »

ويقول نيكلسون في ص ١٣٥ من كتابه في التاريخ الادبي للعرب لندن ١٩١٤

بأن الدين كان قليل التأثير في حياة اهل الجاهلية ولذلك لا نتوقع ان نجد له آثارا في شعرهم . ويضيف بعد استعراض سريع لعقائد الجاهلية : ان البدوي لا يعرف شيئا عن العاطفة الدينية الحقيقية . ولا يشعر بالحاجة الى الدعاء او الصلاة لآلهته وان كان يقسم بهم احيانا شاعرا بانهم موجودون . وقد يتذكر اله عند حاجته كما يمسك الغريق بالقشة .. ولكن ايمانه بالطقوس اكثر وذلك لفائدتها . فهو ينال الامن والراحة في الاشهر الحرم بصرف النظر عن قيمتها الدينية .

وانظر مثل هذه الآراء في العرب في فجر الاسلام ص ٣٠ .



الباب الثاني

الحياة والموت في أغراض الشعر الجاهلي



الفصل الأول

في الرثاء وبكاء الديار

لم يصلنا من رثاء الجاهلية شيء كثير . واكثر ما وصلنا منه هو لشعراء مخضرمين كلبيد ومتمم بن نويرة والخنساء، أو لشعراء تتفاوت الرواية في تقدير عصرهم بين الجاهلية والاسلام كبعض شعراء هذيل . ومن هنا اجد من الصعب دراسة الرثاء وتتبع معانيه الجاهلية دون أن استعين بشعر المخضرمين ويشجعني على هذا الصنيع أنّ الشخصية الادبية لبعض المخضرمين جاهلية اكتملت قبل الاسلام ، وان قسما من رثاء المخضرمين ـ وان كان اسلامي الزمن ـ قيل في شخصيات جاهلية لم تعرف الاسلام ممّا جعل رثاءهم يحمل من الافكار والمثل الجاهلية ما يجعله صورة قريبة للرثاء الجاهلي .

وكذلك وصلنا عن الجاهلية رثاء اختلط بالوقوف على الاطلال واعتبر من النسيب وهو رثاء يبكي به الشعراء قبائل ميتة : او رثاء يعبّر به الشاعر عن احزان نفسية . وان مصطلح القدماء الذي اطلق على هذا اللون من الشعر ـ وهو بكاء الديار أو الاطلال ـ لهو مصطلح لا غموض في دلالته ، ونحن نجد في هذا الشعر المعاني والمشاعر التي نجدها في الرثاء .. فقد كانوا يعبّرون عن جزعهم عند الديار والقبور . ويدعون لهما بالسقيا ، ويقفون بهما ، ويزورونهما . ويحيّونهما .. وكانوا يردّون بلى الاطلال الى الدهر أو الزمان .. وقد مرّ بنا ان الدهر هو سبب الموت في الشعر الجاهلي .. يقول النابغة[1] :

(1) مختار الشعر الجاهلي ص ١٦٦ .

غشيت منازلا بعريتنات فأعلى الجزع للحيّ المبنّ
تعاورهنّ صرف الدهر حتى عفون وكلّ منهمر مرنّ

ويقول زهير[2] :

لمن الديار بقنّة الحجر أقوين من حجج ومن دهر
لعب الزمان بها وغيّرها بعدي سوافي المور والقطر

ويقول طرفة[3] :

فغيّرن آثار الديار مع البلى وليس على ريب الزمان كفيل

ويقول امرؤ القيس[4] :

الا عم صباحا أيها الطلل البالي وهل يعمن من كان في العصر الخالي
وهل يعمن الا سعيد مخلّد قليل الهموم ما يبيت بأوجال

ويقول النابغة[5] :

يا دار ميّة بالعلياء فالسند اقوت وطال عليها سالف الأبد

ومن اهم معاني الوقوف بالاطلال مساءلتهم لها وصمتها وهو معنى نجده في رثائهم بكثرة ، يقول دريد بن الصمّة[6] :

فان الرزء يوم وقفت أدعو فلم أسمع معاوية بن عمرو
ولو أسمعته لأتاك يسعى حثيث السعي أو لأتاك يجري

---

(2) شرح ديوان زهير ص ٨٦ .
(3) ديوان طرفة رقم ١٢ . ص ١١٧ .
(4) ديوان امرىء القيس رقم ٢ ص ٢٧ .
(5) مختار الشعر الجاهلي ص ١٤٦ .
(6) الاغاني « الدار » ١٥/٦٧ .

ويقول كعب بن سعد الغنوي[7]:

وداع دعا يا من يجيب الى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب
فقلت ادع اخرى وارفع الصوت ثانيا لعلّ ابا المغوار منك قريب
يجبك كما قد كان يفعل إنه بامثالها رحب الذراع أريب
اتاك سريعا واستجاب الى الندى كذلك قبل اليوم كان يجيب

ويقول متمّم[8]:

وليأتين عليك يوم مرّة يبكي عليك مقنعا لا تسمع

ويقول [9]:

أبى الصبر آيات أراها وانني ارى كلّ حبل بعد حبلك اقطعا
واني متى ما أدع باسمك لا تجب وكنت جديرا ان تجيب وتسمعا

ويقول عبدة بن الطبيب[10]:

حتى اذا وافى الحمام لوقته ولكل جنب لا محالة مصرع
نبذوا اليه بالسلام فلم يجب أحدا وصمّ عن الدعاء الأسمع

وتقول قتيلة اخت النضر بن الحارث[11]:

هل يسمعن النضر ان ناديته إن كان يسمع ميّت لا ينطق

---

(7) الاصمعيات رقم ٢٥ ص ٩٨ . وجمهرة اشعار العرب ص ٢٤٩ . وينقل الميمني في سمط اللآلىء ٢/٧٧١ عن ابن هشام في التيجان ان ابا المغوار المرثي بالقصيدة قتل في ذي‌قار الآخر .. وهذا يحقق جاهلية القصيدة .

(8) المفضليات رقم ٩ ص ٥٤ .

(9) المفضليات رقم ٦٧ ص ٢٦٧ .

(10) المفضليات رقم ٢٨ ص ١٤٩ .

(11) انيس الجلساء ص ١٧٨ .

والرياح التي يصنعون ما تفعله بالديار هي مما يذكرونه في الرثاء ، وهم يألمون من فعلها في الميت وفي قبره ، يقول دريد بن الصمة أو الخنساء[١٢]:

فأما يمس في جـدث مقيمـا بـمهلة من الارواح قفر
فعزّ عليّ هلكك يا ابن عمرو ومالي عنك من عـزم وصبر

وتقول الخنساء [١٣] :

فلم ينج صخرا ما حذرت وغاله مواقع غاد للمنـون ورائـح
رهينةُ رمس قد تجرّ ذيولهـا عليه سوافي الرامسات البوارح

وتقول[١٤] :

وابكـي لصـخر إذ ثوى بين الضـريحة والصـفائح
رمسـا لـدى جـدث تـذيـع بتربـه هـوج النـواقـح

وتقول[١٥] :

ان يك هذا الدهـر أودى به وصار مسْحا لمجارى القطار
فكـل حي صائر للبـلى وكلّ حبـل مرّة لانـدثار

وتقول سارة القرظية[١٦] :

بأهلي أمة لـم تغن شـيئا بذى حُرُض تعفيها الرياح

---

(١٢) انيس الجلساء ص ١٦ من المقدمة . وفي ص ٢٤ من الديوان للخنساء « بمعترك من الارواح » .
(١٣) انيس الجلساء ص ١٣ .
(١٤) انيس الجلساء ص ١٠ .
(١٥) انيس الجلساء ص ٤٠ .
(١٦) انيس الجلساء ص ١٥٨ . وبأهلي امة رواية جاءت في الهامش وفي الاصل رمة . ورواية الهامش اصح اذ البيت من رثاء الشاعرة لقومها الذين اوقع بهم

ويقول عمرو بن ملقط الطائي يحض عمرو بن هند على الثار لأخيه[١٧] :

هـا إن عجزة أمه بالسفح أسفل من أواره
تسفي الرياح خلال كشحيه وقد سلبوا إزاره

وتجد عناية الشاعر بذكر مكان قبر المرثي ، وهي العناية التي نلاحظ في تحديد اماكن الديار ، يقول النابغة[١٨] :

لئن كان للقبرين قبر بجلق وقبر بصيداء التي عند حارب

ويقول قيس بن زهير[١٩] :

تعلم أن خير الناس ميت على جفر الهباءة لا يريم

وهو يذكرنا بقول زهير : لمن طلل برامة لا يريم ، ويقول طفيل الغنوي[٢٠] :

وكان هريم من سنان خليفة وحصن ومن أسماء لما تغيبوا
ومن قيس الثاوي برمان بيته ويوم حقيل فاد آخر منجب
وبالسهب ميمون الخليقة قوله لملتمس المعروف أهل ومرحب

ويقول أبو زبيد[٢١] :

غير ان اللجلاج قد هد ركني يوم فارقته بأعلى الصعيد
في ضريح عليه عبء ثقيل من تراب وجندل منضود

(١٧) النقائض ٢/٦٥٣ ، الاشتقاق ص ٣٨٥ ، واسمه في معجم الشعراء ص ٢٣٥ عمرو بن معامة او عمرو بن ثعلبة .
(١٨) مختار الشعر الجاهلي ص ١٦٠ .
(١٩) النقائض ١/٩٦ .
(٢٠) ديوان طفيل ص ١٨ .
(٢١) شعر ابي زبيد رقم ٩ ص ١٢ — ١٤ .

عن يمين الطريق عنـــد صـــدىً حرّانَ يدعو بالويـــل غير معود

ويقول المرقش الاكبر[٢٢] :

لم يشج قلبي للحـــوادث الاّ صاحبي المتروك في تَغْلَـــم

ويقول صخر بن عمرو في أخيه معاوية[٢٣] :

اذا ذكر الاخوان رقرقت عبرة وحيّيت رمسا عند لية ثاويا

ونجدهم أحيانا يصرّحون بأنهم يريدون من بكـــاء الديار رثاء قبيلة معيّنة ، يقول عبيد بن الابرص[٢٤] :

لمن طلل لم تعف منـــه المذانب	فجنبا حِبِرٍّ قد تعفّى قواهب
ديار بني سعد بن ثعلبـــةَ الأُلى	أذاع بهم دهر عـــلى الناس رائب
فأذهبهم مـــا اذهب الناس قبلهم	ضراس الحروب والمنايا العواقب

ويقول[٢٥] :

تذكرت أهلي الصـــالحين بملحوب	فقلبي عليهم هالـــك جدُّ مطلـــوب
تذكرت أهل الخير والباع والندى	واهل عتاق الجرد والبرّ والطيـــب
تذكـــرتهم مـــا ان تجـــفّ مدامعي	كأن جدول يسقي مزارع مخروب

ويقول[٢٦] :

ليس رسم عـــلى الدفـــين بيـــالي	فلوى ذروة فجنبـــي أثـــال
فالمـــرَوْراة فالصفيحـــة قفر	كلّ وادٍ وروضةٍ محـــلالِ
دار حيٍّ اصابهم ســـالف الدهـ	ـر فأضحت ديـــارهم كالخـــلال
مقفرات الاّ رمـــاداً غبيّـــا	وبقايا من دمنـــة الاطـــلال

---

(٢٢) المفضليات رقم ٢٢٨ ص ٢٢٨ .

(٢٣) الاغاني « الدار » ١٠/١٥ وانظر له مثل ذلك في ١٠٢/١٥ .

(٢٤) ديوان عبيد رقم ٤ ص ٨ .

(٢٥) ديوان عبيد رقم ٨ ص ٢٤ .

(٢٦) ديوان عبيد رقم ٤١ ص ١٠٥ .

ويقول جابر بن حنيّ التغلبي بعد ان يصف رحيل الظعن[٢٧] :

تصعّدُ في بطحاء عِرق كأنها ... ترقّى الى اعلى أريك بسلّم
لتغلبَ أبكي اذ أثارت رماحها ... غوائل شرّ بينها متفاقم

ويقول المرقش الاصغر[٢٨] :

لابنة عجلانَ بالجوّ رسومْ ... لم يتعفّين والعهد قديمْ
لابنة عجلان اذ نحن معا ... واي؛ حال من الدهر تدوم
أمن ديار تعفّى رسمها ... عينك من رسمها بسجوم
أضحت قفارا وقد كان بها ... في سالف الدهر ارباب الهجوم
بادوا واصبحت من بعدهم ... احبني خالدآ ولا أريم

وقد وقف الشعراء بديار قومهم وبكوها حين هاجرت قبائلهم الى الاقطار المفتوحة في الاسلام وشعرهم هذا لا يختلف في شيء عن المألوف من الوقوف بالاطلال .. يقول النابغة الجعدي[٢٩] :

أقفرت منهم الأجارب فالنّهـ ... ـي وحوضى فروضة الأدحال
فحَبيّ فالثغر فالصفح فالاجـ ... ـداد قفر فالكوثر كور أثال
هاجروا يطلبون ما وعد الله ... فبانوا وجارهم غير قال

ويقول تميم بن ابيّ بن مقبل[٣٠] :

صحا القلب عن اهل الركاء وقاته ... على ماسل خلاته وحلائله
أخو عبرات سيق للشام أهله ... فلا اليأس يسليه ولا الحزن قاتله
تناسا عن شرب القرينة أهلها ... وعاد بها شاء العدو وجامله

---

(٢٧) المفضليات رقم ٤٢ ص ٢١٠ .
(٢٨) المفضليات رقم ٥٧ ص ٢٤٧ .
(٢٩) شعر النابغة الجعدي ص ٢٣٠ .
(٣٠) ديوان تميم رقم ٢٢ ص ٢٤٠ .

تمشّي بهــا شوّل الظبــاء كأنهــا   جنى مهرقــان فاض بالنيل ســاحله
وبدّل حالا بعــد حــال وعيشة بعيشتنا ضَيِّقَ الركاء فماقلـــــه
سَخاخا يُزَجّي الذئبُ بين سهوبها   وفحلُ النعــــام رزده وأزاملـــه
الا ربّ عيش صالح قــد لقيته   بضيق الركاء اذ به من نواصله
اذ الدهر محمودالسجيات تُجِنّني   ثمار الهوى منه ويؤمن غائلـــه
وحيٍّ حلال قد رأينــا ومجلسٍ   تعادي بجِنّان المتحول قنابلـه
هم التابعون الحق من عنــد اصله   بأحلامهم حتى تصاب مفاصلــه
هم الضاربون اليَقْدُمِيَّةَ تَمْتري   بما في الجفـــون اخلصته صياقله

فهذا الشاعر يرثي ديار قومه ويأسى لفراقهم ، ويجعل ذكرى هواه من بعض ما يبكي به الماضي ، وذلك لا ينقل هذا الشعر من الرثاء الى النسيب كما هو واضح ، ويقول لبيد[٣١] :

هلكت عامر فلم يبق منهـــا   برياض الأعــراف الاّ الديار
غيــرُ آلٍ وعَتْتَــــةٍ وعريش   ذعذعتهــا الريــــاح والامطــار
وأرى آل عامـــر ودّعـــوني   غيــر قـــوم افراسهم امهــار
واقفيها بكــل ثغــــر مخوف   هم عليهــا لعمر جدى تضـــار
لــم يمنوا المولى على حــدث الدهـــر ولا تجتويهم الاصـــهار

وستجد فيما بعد ان لهذا الرثاء من حيث هو خواطر في الفناء الملازم للحياة علاقة مهمة بالحماسة والفتوة ، ونكتفي هنا بتحقيق الصلة بين الرثاء وبكاء الديار ونهتدي اخيرا بقول لبيد[٣٢] :

وما الناس الاّ كالديار واهلهــا   بها يوم حلّوها وغدوا بلاقــــع

---

(٣١) شرح ديوان لبيد رقم ٧ ص ٤٤ ويقول الطوسي شارح الديوان ان القصيدة جاهلية قالها لبيد في رحيل بني جعفر قومه ومجاورتهم بني الحارث بن كعب ، ويرى د. احسان عباس انها في سكنى عامر للامصار في الاسلام . انظر : ص ١٩ من مقدمة الديوان .

(٣٢) المصدر السابق رقم ٢٤ ص ١٦٩ .

فهذه شهادة شاعر معاصر لظاهرة رثاء الديار ابان اصالتها .. وهو يرى أن الانسان مثل الديار من حيث فناؤهما .

وقد ينظر الشاعر الى فراق أحبته او تغيّر عهودهم على انه من الوان الفناء والتحول الذي لا يبقى عليه شيء ؛ وهو حينئذ قريب من معاني الرثاء. ومن مظاهر هذا القرب أن يردّ النوى أو تحوّل الحبيب الى الدهر والايام. يقول عروة بن الورد[٣٣] :

ألــم تعرف منــازل أم عمرو بمنعرَج التواصف من أبان
وقفت بها ففاض الدمع مني كمنحدر من النظم الجمــان
ولكن لا يلبّث وصـــل حيّ وجدّة وجهـــه مرّ الزمان

ويقول الاعشى[٣٤] :

وقد أرانا طلابا همّ صاحبــــه لو أن شيئا إذا ما فاتنا رجعـــا
تعصي الوشاةَ وكان الحب آونة ممّا يزيّن للمشغوف ما صنعـا
وكان شيء الى شيء ففرّقــــه دهر يعود على تفريق ما جمعـا

ويقول ذو الاصبع العدواني[٣٥] :

أمسى تذكرها من بعدما شحطت والدهر ذو غلظة حينا وذو لين
فان يكن حبهـــا امسى لنا شجنا وأصبح الوأيُ منها لا يوانيني
فقد غنينا وشمل الدهر يجمعنا أطيع ريا وريّـــا لا تعاصيني

ومن مظاهر هذا الاقتراب من معاني الرثاء ان يعتبر الشاعر انفصاله عن حبيبه حتما لا مفرّ منه ولا مهرب .. يقول بشر بن ابي خازم[٣٦] :

فان تك قـد نأتك اليـوم سـلمى فكلّ قوى قرين لانقطـــــاع

---

(٣٣) منتهى الطلب : ٢٤٩/١ . وليست في ديوانه الذي ينتهي بقافيةاللام .

(٣٤) ديوان الاعشى : رقم ١٣ ص ١٠١ .

(٣٥) المفضليات رقم ٣١ ص ١٦١ .

(٣٦) ديوان بشر رقم ٢٣ ص ١٠٧ .. وفي القصيدة اقواء .

ويقول في هذه القصيدة :

وكل غضارة لك من حبيب ... لها بك او لهوت به متاع
قليلا والشباب سحاب ريح ... اذا ولّى فليس له ارتجاع

ويقول حسان[37] :

فابك ما شئت على ما مضى ... كلّ وصل منقض ذاهب
لو يردّ الدمع شيئا لقد ... ردّ شيئا دمعك الساكب

ويلاحظ ذلك ايضا في مقارنة الشاعر احيانا بين انقطاع ما بينه وبين حبيبه وبين من يرثيهم بشعره .. يقول ابو ذؤيب[38] :

فان تصرمي حبلي وان تتبدلي ... خليلا ومنهم صالح وسميج
فاني صبرت النفس بعد ابن عنبس ... وقد لجّ من ماء الشؤون لجوج
لأحسب جلداً أو لينبأ شامت ... وللشرّ بعد القارعات فروج
فذلك أعلى منك فقدا لأنه ... كريم وبطني بالكرام بعيج

ويقول ساعدة بن جؤية مستخدما اسلوبا قصصيا معروفا للرثاء[39] :

فاليوم امّا تمسي فات مزارها ... منّا وتصبح ليس فيها مأرب
فالدهر لا يبقى على حدثانه ... أنس لفيف ذو طوائف حوشب

وهذه القصيدة اقرب الى الرثاء منها الى النسيب .. وهي لا تختلف عن قول أبي ذؤيب في عينيته المعروفة في رثاء ابنائه[40] :

فلئن بهم فجع الزمان وريبه ... إني بأهل مودتي لمفجّع
والدهر لا يبقى على حدثانه ... في رأس شاهقة أعزّ ممنّع
والدهر لا يبقى على حدثانه ... جون السراة له جدائد أربع

---

(37) شرح ديوان حسان ص ٣٦ .
(38) ديوان الهذليين ٦٠/١ .
(39) ديوان الهذليين ١٨٣/١ .
(40) ديوان الهذليين ٢/١

وسنفصل القول في هذا الاسلوب القصصي فيما بعد .

وما وصلنا من رثاء الجاهلية يمثل اتجاهين رئيسين ، اولهما تهويل الشاعر في تصوير احزانه وعظم رزيته وتمرّدها . والآخر محاولته أن يتأسى بأن من فقده واحد من البشر أو الاحياء الذين كتب عليهم هذا المصير .

ويدفع الشاعر الى المبالغة في تأبين الميت واظهار الجزع عليه بالاضافة الى حزنه وألمه شعوره بان ذلك واجبه المتوقع منه .. يقول جبار بن سلمى[41]:

وما للعين لا تبكي بجيرا ... ولو أني نعيت لـه بكاني

وتقول الخنساء[42] :

ومالي لا ابكي على من لو انه ... تقدمَ يومي قبله لبكى ليا

ويقول كعب الغنوى[43] :

فأبليت خيرا في الحياة وانما ... ثوابك عندى اليوم أن ينطق الشعر

والناس من حول الشاعر يطالبونه بهذا الواجب ، يقول أبو سمّال الاسدي[44] :

يعيّرني الاقوام بالصبر بعده ... وليس لصدع في فؤادى شاعب

ويقول أبو خراش الهذلي[45] :

ولا تحسبي اني تناسيت عهده ... ولكن صبرى يا أميم جميل

---

(41) المؤلف والمختلف ص ٩٩ . وهو صحابي وهو قاتل عامر بن فهيرة يوم بئر معونة . رضي‌الله عنهما : اسد الغابة ٢٦٥/١ .

(42) انس الجلساء ص ٨٦ .

(43) شعراء النصرانية ٧٥٠/٥ .

(44) المؤلف والمختلف ص ١٢٧ : ونقل كرنكو عن التاج انه كان في الردة مع طليحة .

(45) ديوان الهذليين ١١٦/٢ . يرثي أخاه عروة ، وفي الاصابة انه قتل في الجاهلية : ١٥٢/٢ .

ويقول دريد بن الصمة(٤٦) :

تقول الا تبكي اخاك وقد أرى   مكان البكا لكن بنيت على الصبر

ويقول سلمة بن يزيد الحارثي(٤٧) :

أقول لنفسي في الخلاء ألومهـا   لك الويل ما هذا التجمّل والصبر
الا تفهمين الخبر أن لست لاقيـا   اخي اذ اتى من دون أكفانه القبر
وكنت اذا ينـأى به بين ليلة   يظل على الاحشاء من بينه الجمر
فهـذا لبين قـد علمنـا أيـابـه   فكيـف لبين كـان موعـده الحشر

ويقول ابو عداس النميري مبرّرا ما يظهر من جلد وصبر(٤٨) :

أعدّاس هل يأتيك عنّي أنـه   تغيّر خيلاّن فطـال شحوب
أعدّاس ما أدراك أن ربّ هالك   تقطّع من وجـد عليه قلوب
تخطيته من أن ارى باكيـا له   فيشمت عاد أو يسـاء حبيب

ومثله قول أبي ذؤيب(٤٩) :

وتجلّدي للشـامتين أريهـم   أني لريب الدهر لا أتضعضع

---

(٤٦) الاغاني « الدار » : ١٠/٥ . شرح الحماسة للتبريزي ٨٥٩/٢ .

(٤٧) امالي القالي ٧٣/٢ ، التنبيه ص ٩٧ ، اللآلي ٧٠٧/٢ . ويذكر البكري ان الخنساء كانت تنشد هذا الشعر في الاسلام كانه يشير الى انه شعر جاهلي . ويؤيد ذلك ان اليمني يذكر ان اسلام اخي الشاعر ليس ثابتا .. وفي حماسة البحتري ص ٤٣١ ان الشعر لليلى بنت سلمة ترثي اخاها ؛ وانظر شرح الحماسة للمرزوقي ١٠٨٠/٣ .

(٤٨) المؤتلف والمختلف ص ١٦٢ وكان كسرى حبس ابنه فظن انه قتل .

(٤٩) ديوان الهذليين ٣/١ .

ومعاني التأبين معروفة ، وهي نفسها معاني الفخر والمدح وتؤول الى المثل الاعلى الجاهلي للرجل ، ويبـــدو ان يذكر الشاعر أخطـــاء المرثي أو ينقده ... ومن ذلك قول قيس بن زهير[٥٠] :

تعلّم أن خير النـــاس ميت ... عـــلى جفر الهبـــاءة لا يريم
ولولا ظلمـــه مـــا زلت أبكي ... عليـــه الدهر ما طلع النجوم
ولكن الفتى حمـــلَ بن بدر ... بغى والبغي مرتعـــه وخـــيم

ويقول ذو الاصبع في رثاء عدوان[٥١] :

ويا بؤس للايام والدهر هالكـــا ... وصرفُ الليالي يختلفن كذلكـــا
أبعـــد بني ناج وسعيك فيهم ... فلا تتبعن عينيك ما كان هالكـــا
اذا قلت معروفا لأصـــلح بينهم ... يقـــول مرير لا احـــاول ذلكـــا
فأضحوا كظهر العود جُبَّ سنامه ... يدب الى الاعـــــداء أحدب باركا
فان تك عَدوان بنُ عمرو تفرقت ... فقد غنيت دهرا ملوكا هنالكـــا

ويقول ايضا[٥٢] :

عـــذير الحي من عَـــدوا ... نَ كانوا حيّـــة الأرض
بغى بعضــــهم بعضـــــا ... فلم يُرعوا عـــلى بعض
ومنهـــم كانت الســـــادا ... ت والمـــوفون بالقـــرض

ويهوّل الشاعر في الذي اصابه فيقول انه لا يكترث لما يحـــدث بعـــد ذلك ، يقول أوس بن حجر[٥٣] :

أيتها النفس أجملي جزعـــا ... إنّ الذي تحذرين قد وقعـــا

---

(٥٠) النقائض ٩٦/١ . وتخريجها في اللآلىء ٥٨١/١ .
(٥١) الاغاني « الدار » ١٠٤/٣ . وانظر في عدد عدوان ثم تفانيها . الاغاني : ٩١/٣ ، ١٠٣ .
(٥٢) الاغاني « الدار » ١٠٦/٣ ، الاصمعيات رقم ١٨ ص ٦٨ .
(٥٣) ديوان أوس رقم ٢٦ ص ٥٣ .

ويقول تأبط شرا[54] :

أبعد قتيل العوص آسى على فتى	وصاحبه او يأمل الزاد طارق

وتقول الخرنق[55] :

الا آليت آسى بعد بشر	على حيّ يموت ولا صديق

وتقول الخنساء[56] :

فشأنّ المنايا إذ اصابك ريبها	لتغد على الفتيان بعدك او تمر

وتقول :

فشأنّ المنايا بالاقارب بعده	لتعل عليهم علة بعد ناهل

ويقول غوية بن سلمي[57] :

كلّ ميت قد اغتفرت فلا أجـ	ـزع والد ولا مولود
غير أنّ اللجلاج هدّ جناحي	يوم فارقته بأعلى الصعيد

ويقول غوية بن سلمي[58] :

الا نادت امية باحتمال	لتحزنني فلا بك ما أبالي
فسيري ما بدالك أو اقيمي	فأيا ما أتيت فعن تقالي
وكيف تروعني امرأة ببين	حياتي بعد فارس ذي طلال

---

(54) الاغاني « الساسي » ١٨/٢١٤ .
(55) ديوان الخرنق ص ٨ .
(56) أنيس الجلساء ص ٢٩ ، ٦٩ .
(57) شعر ابي زبيد رقم ٢٩ ص ٣) .
(58) شرح الحماسة « التبريزي » ٣/٣٠ .

وينحدر من هذه الفكرة القول بأن الزمن ليس عـادلا ، فهو يذهب بأحاسن الناس وافاضلهم تاركا شرارهم .. وقد يتأذى الشاعر بالعيش مع هؤلاء الباقين أو ينصـرف الى ذمهم وتصوير سـوء أخـلاقهم . تقـول الخنساء[٥٩] :

ان الزمان ومـا يفنى له عجب ... أبقى لنا ذنبا واستؤصل الراسُ

ويقول الاسود بن زمعة[٦٠] :

الا قد سـاد بعدهم رجال ... ولولا يومُ بدر لم يسودوا

ويقول عبّاد بن عبد عمرو الذهلي[٦١] :

اخليد اني قد فقدت معاشـرى ... وبقيت في خلـف مـن الجنّاب
لا ينتمـون ولا تزال غريبـة ... شنعاء بينهـم من الالقـاب
واذا لقيتهـم فشرّ معاشـر ... واذا قعدت رميت بالأذراب

ويقول احيحة بن الجلاح[٦٢] :

مضوا قصد السبيل وخلفوني ... الى خلَف مـن الابرام خلفي
سـدى لا يكتفون ولا اراهم ... يصونون امرءا ان كان يكفي

ويقول لبيد[٦٣] :

قضّ اللبانة لا أبالك واذهب ... والحق بأسرتك الكرام الغيّب
ذهب الذين يعاش في اكنافهم ... وبقيت في خلف كجلد الاجرب

---

(٥٩) انيس الجلساء ص ٥١ .
(٦٠) اللالي، ٦٠٢/١ .
(٦١) المؤتلف والمختلف ص ٩٠ . ولم يذكر الامدي زمنه ، ولكن اسم ابيه الذي بقي على صيغته الجاهلية يدل على ان الشاعر ادرك الجاهلية .
(٦٢) الاغاني « الدار » ٤٣/١٥ .
(٦٣) شرح ديوان لبيد رقم ١٧ ص ١٥٢ .

يتآكلون مغـالـة وخيـانـة ويعاب قائلهم وإن لم يَشْغَب
يا أربدُ الخيرِ الكريمُ جدوده خلّيتني أمشي بقرن أعضـب

ويقول الحارث بن حلّزة(٦٤) :

من حاكم بيني وبين الدهر مال عليّ عمـدا
أودى بسادتنا وقـد تركوا لنا حلقـا وجردا
خيلي وفارسُها وحقّ ابيك كان أعزّ فقـدا
فلو ان ما يأوي اليّ أصـاب مـن ثـهلان هـدّا
فضعي قناعك انّ ريب الدهر قد افنى معدّا
فلكم رأيت معاشرا قد جمّعوا مالا ووُلـدا
وهم رُباب حـائر لا تسـمع الآذان رعـدا
فعش بجدّك لا يضرك النوك ما لاقيت جدّا
والعيش خير في ظـلال النوك ممن عاش كدّا

وتقول شاعرة الحماسة(٦٥) :

وقـالوا ماجداً منكم قتلنـا كذاك الرمح يكلف بالكريم
بعين أباغَ قاسـمنا المنـايا فكان قسيمها خير القسـيم

---

(٦٤) الاغاني « الدار » ١١/٤٩ عن النظر بن شميل ، الوحشيات ص ١٦٢ .

(٦٥) شرح الحماسة « التبريزي » : ٢/١٧٩ . وعين اباغ موضع يوم للغساسنة والمناذرة انظر ايام العرب في الجاهلية ص ٥١ ، وقائل البيتين في قول البكري رجل شيباني وحقق اليمني انهما لفروة بنت مسعود ، اللآلىء ٢/٧٦٢ . وانشد التبريزي بعد البيتين بدون عزو :

اذا ما المنايـا قاسـمت يا ابـن مـحل
اخا واحدا لـم يعط نصفا قسيمهـا
فآب بلا قسـم وآبت بقسـمه
الى قسـمها لاقت قسيما يضيمهـا

وتقول الخنساء[٦٦] :

ما لذا الموت ما يزال مخيفا   كلَّ يوم ينال منّا شريفا
مولعا بالسّراة منّا فما يـأ   خذ الاّ المهذّب الغطريفا
فلو ان المنون تعدِل فينا   فتنال الشريف والمشروفا
كان في الحق أن يعود لنا المو   ت والاّ تسومه تسويفا
أيها الموت لو تجافيت عن صخـ   ـر لألفيته تقيّا عفيفا

ويدير زهير هذا الجدل نفسه مع الدهر ، فيقول[٦٧] :

فاستأثر الدهر الغداة بهم   والدهر يرميني ولا أرمي
لو كان لي قرنا أنازله   ما طاش عند حفيظة سهمي
أو كان يعطي النّصف قلت له   أحرزت قِسمك فاله عن قِسمي
يا دهر قد أكثرت فجعتنا   بسراتنا وقرعت في العظم
وسلبتنا ما لست معقِبه   يا دهر ما انصفت في الحكم

ويصبح طعم الحياة مرّا عند الشاعر .. ويحس أن من العدل ان يحرم نفسه من المتع التي حرم منها الميت ، ولعل نذرهم أن لا يشربوا ولا يقتلوا ولا يدّهنوا ولا يقربوا نساءهم على صلة بهذا المعنى .... يقول طفيل الغنوي[٦٨] :

تداماي قد اضحوا تخلّيت منهم   فكيف الذ الخمر أم كيف أشرب

ويقول عدي بن ربيعة[٦٩] :

ما أرجّي في العيش بعد ندامى   قد أراهم سقوا بكأس حلاق

---

(٦٦) انيس الجلساء : ص ٥٨ .
(٦٧) شرح ديوان زهير ص ٣٨٢ .
(٦٨) ديوان طفيل ص ١٨ .
(٦٩) معجم الشعراء ص ٢٤٨ ، اخبار المراقسة واشعارهم ص ١٠ .

وتقول الخنساء[٧٠] :

أقول أبا حسانَ لا العيشُ طيب   وكيف وقد أفردت منك بطيب

وتقول :

فاصبحت لا التذ بعدك نعمة   حياتي ولا ابكي لدعوة ثاكل

ويقول كعب الغنوي[٧١] :

أبى دون حلو العيش حتى امرّه   نكوب على آثارهنّ نكوب

ويقول أبو خراش الهذلي[٧٢] :

فلست بناسيه وان طال عهده   وما بعده للعيش عندي من طعم

وقريب من ذلك دعاء النابغة على الناس بأن لا يهنأوا بما يملكون من النعم .. يقول النابغة[٧٣] :

لا يهنيء الناس ما يرعون من كلأ   وما يسوقون من اهل ومن مال
بعد ابن عاتكةَ الثاوي على أبوى   أمسى ببلدةِ لاعمّ ولا خال

وثمة معنى يكثر ايرادهم له ، ولكنني لم استطع أن اضمه في موضع واضح بين معاني الرثاء .. وذلك هو مقارنتهم بين ما فقدوه من الاحبة وبين الخسارة المالية ممثلة في الابل ، يقول دريد بن الصمة[٧٤] :

أعاذل ان الرزء امثالُ خالد   ولا رزءَ مما أهلك المرء عن يد

---

(٧٠) انيس الجلساء ص ٥ ، ٦٩ .

(٧١) الاصمعيات رقم ٢٦ ص ١٠١ .

(٧٢) ديوان الهذليين ١٥٣/٢ .

(٧٣) شرح الحماسة للمرزوقي ٩٠١/٢ ، الحماسة البصرية ٢٢٠/١ وهي في ديوانه طبعة بيروت ص ١١٤ . عن ابن الاعرابي وابي عبيدة .

(٧٤) الاصمعيات رقم ٢٨ ص ١١١ .

ويقول الاسود بن زمعة[٧٥] :

أتبكي أن يضل لها بعير ويمنعها من النوم السهود
فلا تبكي على بكر ولكن على بدر تقاصرت الجدود

ويقول الاجدع الهمداني[٧٦] :

أسالتني بنجائب ورحالها ونسيت قتل فوارس الأرباع
وبني الحصين ألم يرعك نعيّهم أهل اللواء وسادة المرباع
تلك الرزية لا قلائص أسلمت برحالها مشدودة الانساع

ويقول النابغة الجعدي[٧٧] :

تلوم على هلك البعير ظليمتي وكنت على لوم العواذل زاريا
ألم تعلمي أني رزئت محاربا فمالك منه اليوم شيء ولا ليا

ويقول أبو دواد الايادي[٧٨] :

لا أعد الإقتار عدما ولكن فقد من قد رزئته الاعدام

ويقول ابو زبيد[٧٩] :

ان الرزية لا ناب مصرّمة قرّم تنقّله من حاصن عمر

---

(٧٥) الاغاني ١/٦٠٣ – ٦٠٤ .
(٧٦) الاصمعيات رقم ١٦ ص ٦٤ .
(٧٧) شعر النابغة الجعدي ص ١٧٢ – ١٧٣ .
(٧٨) دراسات في الادب العربي رقم ٦٠ ص ٣٣٦
(٧٩) شعر ابي زبيد رقم ١٥ ص ٦٨ يرثي عبيد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

ونفهم من ابيات لحزّاز بن عمرو أنه شرب خمرا ببعير فليم على ذلك .. فقال[80] :

تبكي على بكر شربت به	سفها تبكيها على بكر
هلاّ على زيد الفوارس زيـ	ـد اللات أو هلاّ على عمرو
تبكين لارقأت دموعك أو	هلاّ على سلفي بني نصر
خلفوا عليّ الدهر بعدهم	فبقيت كالمنصوب للدهر
ان الرزية ما أولاك اذا	هرّ المخالع أقدح اليسر

ولا يمكن ان تطمئن الى ان هذا المعنى ـ أي انفاق المال على الخمر حزنا على الميت ـ هو المقصود فيما قدّمنا من شعر .. وكذلك لا تستطيع ان تقول ان المال يرتفع في قيمته عندهم حتى يقارنوا بين انفاقه وموت أحبّائهم .. وربما كانوا يعبّرون عن قلة اهتمامهم بعد المرثي بالمال .. ويكون هذا البعير الواحد الذي يكثرون من ذكره رمزا للمال .

والجاهلي مطالب بان يكون قويا جلدا .. وكذلك فان الحياة لا يمكن ان تقف لموت احد .. ومهما يكن من عظم الفقد فان على الشاعر أن يمضي في حياته : وهي في ذلك كالموت قدر مرسوم للانسان .. وهذا يدفع الشاعر الى تلمس ما يعزّيه ويخفف عنه آلامه واحزانه .. وفكرته الاساسية هنا ان الموت حتم لابد منه ولا جدوى من أية محاولة للتغلب عليه .. وقد عبّروا عن هذه الفكرة باشكال مختلفة .. منها قولهم في رثاء اخوانهم أنّ كلّ الاخوان سيتفرقون يوما من الايام .. يقول متمّم[81] :

أقول لها لما تهتني عن البكا	أفي مالك تهينني أم خالد
فان كان أخواني اصيبوا او اخطأت	بني امك اليوم الحتوف الرواصد
فكلّ بني أم سيمسون ليلة	ولم يبق من أعيانهم غير واحد

(80) شرح الحماسة للتبريزي ٢/٢٢ وهي في رثاء زيد الفوارس الضبي .
(81) الاغاني * الدار * ١٥/٢١١ .

ويقول عمرو بن معد يكرب[82] :

وكــل أخ مفارقه أخــوه ... لعمرُ أبيـك الا الفرقدان

ويقول لبيد[83] :

فهل نبئت عن اخوين داما ... على الايام الا ابني شمام

والا الفرقدين وآل نعش ... خوالدُ ما تحدّث بانهدام

ويقول أبو خراش[84] :

ألم تعلمي أن قد تفرّق قبلنا ... خليلا صفاء مالك وعقيل

ويقول لبيد[85] :

كـــل بني حـــرّة مصـــيرهم ... قلّ وان أكثرت من العـدد

ان يغبطوا يهبطوا وان أمِروا ... يوما يصيروا للهلك والنكد

ويقول كعب بن زهير[86] :

فلا تـأل ـشكـل كلّ أم ... اذا ما اخوة كثـروا وطابوا

وقد يتأسى الشـاعر بأنه هو نفسـه سـيلحق بالمرثي يقول دريد بن الصمة[87] :

وهوّن وجدي أنما هو فارط ... أمامي وأني وارد اليوم أوغد

---

(82) الكامل للمبرد ١٢٤٠/٣ . وقد شرح الفكرة وانشد امثلة اخرى . وهو يذكر ان عمرا قال هذا الشعر قبل ان يسلم .

(83) شرح ديوان لبيد رقم ٢٧ ص ٢٠٨ .

(84) ديوان الهذليين ١١٦/٢ .

(85) شرح ديوان لبيد ١٨ ص ١٦٠ .

(86) شرح ديوان كعب ص ٢٤٩ .

(87) الاصمعيات رقم ٢٨ ص ١١٥ .

ويقول سلمة بن يزيد[88] :

وهونَّ وجدي أنني سوف اغتدي   على إثره حقا وان نفّس العمر

ويقول كعب الغنوي[89] :

غنينا بخير حقبة ثـــم جلّحت   علينا التي كلَّ الرجـــال تصيب
فابقت قليلا ذاهبـــا وتجهّـــزت   لأخر والراجي الحياة كـــذوب
وأعلم أن الباقي الحيَّ منهمـــا   الى أجل اقصى مـــداه قريب

وقد تكون الاسوة بالجماعة .. وهنا يفترق الطريق بالشاعر : فهو اما أن يختار السادة والعظماء الماضين والملوك المعمّرين المشاهير ليعتذربعجزهم أمام القدر عن عجزه .. وأما ان يطلق لفكره العنان ليعي حقيقة الفنـــاء المطلقة .. يقول متمم ـ وهو يختار جماعة من قومه يتأسى بهم[90] :

لعمري وما دهري بتأبين هالك   ولا جزعٍ والموت يذهب بالفتى
لئن مـــالك خلّـــى عليَّ مكانه   ففي اسوة ان كنت باغية الاســى
كهولٌ ومرد من بني عمّ مـــالك   وأيفاع صدق قد تمليّتهم رضى
سقوا بالعقار الصرف حتى تتابعوا   كداب ثمود اذ رغا سقبهم ضحى

ويقول لبيد معددا سادة قومه[91] :

فاما تريني اليوم عندك ســـالما   فلـــست باحيا من كلاب وجعفر
ولا من ابي جَزء وجاري حَنتومَةٍ   قتيلهمـــا والشـــارب المتقطـــر
ولا الاحوصين في ليال تتابعـــا   ولا صاحب البّراض غير المغمّر
ولا من ربيع المقترين رزيتـــه   بذي عَلَق فاقني حياءك واصبري

---

(88) امالي القالي ٢/٧٣ . وانظر الهامش ٤٧ من هذا الفصل .
(89) الاصمعيات رقم ٢٦ ص ١٠٢ .
(90) الكامل للمبرد ١٣٤٣/٢ .
(91) شرح ديوان لبيد رقم ٨ ص ٤٧ .

ومثله قول الاسود بن يعفر[٩٢] :

فان يك يومي قد دنا وإخالـــه كواردة يوما على غير منهـــل
طباها الخلاء والضَحاء واقبلت الى مـــتب كالجرة متعثـــل
فقبلي مات الخالدان كلاهمـــا عميدُ بني جحوانَ وابنُ المضـــلل
وعمروُ بن مسعود وقيسُ بن خالد وفارسُ رأس العين سلمى بن جندل

ومن الاسوة بالناس جميعا قول لبيد[٩٣] :

ما ان تعرّى المنون من احـــد لا والدٍ مشفقٍ ولا ولـــد

وقول بشر بن أبي خازم[٩٤] :

هل لعيش اذا مضـــى لزوال من رجوع أم هـــل مثمّر مال
ما رأيت المنون عرّين حيّـا لا لعـــدم ولا لكثرة مال

ويقول اعشى تميم[٩٥] :

أرى الايــام لا تبقي عـــزيزا لعزّتـــه ولا تبقي ذليـــلا
ولا تبقي مـــن الثقلين طرا ولا تبقي الحزون ولا السهولا

وبهذا الشمول في الفكر سمّوا الموت بالحق .. يقول النمر بن تولب :

ألم تر أن جمرة جاء منهـــا بيان الحق لو نفع الكـــلام

---

(٩٢) الصبح المنير ص ٣٠٦ .
(٩٣) شرح ديوان لبيد رقم ١٨ ص ١٥٨ .
(٩٤) ديوان بشر رقم ٢٦ ص ١٧٠ .
(٩٥) الصبح المنير ص ٢٧٢ . وله في المؤتلف والمختلف شعر يقوله في رثاء بعض قتلى بدر ص ٢٠ .

ويقول الافوه الاودي[96] :

فرشوا لـــه أثوابَــه وتفجعوا ورنَّ مرنـــات وثـــار به النفر
الى حفرة يأوي اليها بـــميـــه فذلك بيت الحق لا الصوف والشعر

وتقول الخنـــاء[97] :

كذّبت بالحـــق وقـــد رابني حتى علت أبياتنا الواعيـــه

وبهذا التسول اختيروا الموت سبيلا قاصدا وتأسوا بان المرثي كان سالك هذا السبيل لا محالة .. وانه سلك سبيلا يسلكه كل الناس . يقول أحيحة ابن الجلاح[98] :

مضوا قصدَ السبيل وخلّفوني الى خلف من الابـــرام خلفي

ويقول طفيل الغنوي[99] :

مضوا سلفا قصـــدُ السبيلِ عليهم وصرف المنايا بالرجـــال تقلّب

ويقول لبيد[100] :

مضوا سلفا قصدُ السبيلِ عليهم بَهِيءٌ من السلاّف ليس بحَيْـدَر

ويقول الاسود بن يعفر[101] :

مضـــوا لسبيلهم وبقيت وحدي وقـــد يغني رَباعته الوحيـــد

---

(96) الطرائف الادبية ص 15 . الاغاني « الساسي » 19/160 في امرائـــه الـــبية الاسدية .

(97) انيس الجلساء ص 90 .

(98) الاغاني « الدار » (15/3) .

(99) ديوان طفيل ص 17 .

(100) شرح ديوان لبيد رقم 8 ص 54 .

(101) الصبح المنير 295 .

ويقول[102] :

ولقد علمت سوى الذى نبأتني أن السبيلَ سبيلُ ذي الأعواد

ويقول اعشى باهلة[103] :

إمّا سلكت سبيلا كنت سالكها فاذهب فلا يبعدنك الله منتشر

ويقول متمم[104] :

ذهبوا فلم ادركهم ودعتهم غول أتوها والطريق المهيّع

وقد يقلب الشاعر نظره في الحياة من حوله فيجد صورة من الفناء في كل شيء ، يقول عبيد بن الابرص[105] :

ان يك حوّل عنها أهلها فلا بدىء ولا عجيب
أويك أقفر منها جوّها وعادها المحل والجدوب
فكلّ ذى نعمة مخلوسها وكلّ ذى أمل مكذوب
وكلّ ذى ابل موروثها وكلّ ذى سلب مسلوب
وكلّ ذى غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب

وتقول الخنساء[106] :

كل امرىء بأتاقي الشر مرجوم وكل بيت طويل السمك مهدوم
لا سوقة منهم يبقى ولا ملك ممن تملكه الاحرارُ والروم
ان الحوادث لا يبقى لنائبها الا الالهُ وراسي الاصل معلوم

---

(102) المفضليات رقم 44 ص 216 .
(103) الاصمعيات رقم 24 ص 93 .
(104) المفضليات رقم 9 ص 54 .
(105) ديوان عبيد رقم 5 ص 13 .
(106) انيس الجلساء ص 79 .

ويقف الشاعر متأملا محاولة الانسان أن يفسّر الموت وان يتصرّف كما لو كان يفهم حقيقته •• فيسخر من ذلك كله ••

سخر الشعراء من قول اهل الجاهلية للميت : لا تبعد •• وذلك بأن يوردوا العبارة ثم ينقضوها •• أو بأن يشيروا الى بعد الميت ونأيه •• ويذكر صنيعهم هذا يقول مالك بن الريب[107] :

يقولون لا تبعـد وهـم يدفنونني   وأين مكان البعد الا مكانيا ••

ويقول في ذلك النمر بن تولب من رثائه لزوجه[108] :

فلا تبعُد ـ وقد بعُدت ـ واجرى   عـلى جـدث تضمنهـا الغمام

وتقول فاطمة بنت الاحجم الخزاعية[109] :

إخوتي لا تبعُـدوا ابدا   وبـلى ـ والله ـ قـد بعُدوا

ويقول قيس بن الخطيم[110] :

فلا يبعدنك الله عبدَ بن ناقـذ   ومن يعله ركن من الترب يبعُد

ويقول غويّة الضبّي[111] :

ألبي لا تبعَد وليس بخالـد   حيّ ومن تصب المنون بعيد

---

(107) ذيل أمالي القالي ص ١٢٧ .

(108) الاغاني « الساسي » ١٩/١٦٠ .

(109) شرح الحماسة « المرزوقي » ٩١٢/٢ ، الاغاني « الدار » ١٠/٣١٦ .

(110) ديوان قيس بن الخطيم رقم ٦ ص ٧) .

(111) معجم الشعراء ص ٢٠٧ – ٢٠٨ .

ومن اشاراتهم الى بعد الميت على سبيل الرفض غير المباشر لعبارة لا تبعد قول النابغة[112] :

حسب الخليلين نأي الارض بينهما هذا عليها وهذا تحتهـا بالي

وقول بشر بن أبي خازم في رثاء نفسه[113] :

ثوى في ملحد لابدّ منـه كفى بالموت نأيا واغترابـا

وقول النمر بن تولب[114] :

اعاذل ان يصبح صداي بقفرة بعيدا نآى بي صاحبي وقريبي
تري أنّ ما أبقيت لم اك ربّـه وان الذي انفقت كان نصيبي

ويقول متمم[115] :

تحيته منّي وان كان نائيـا وامسى ترابا فوقه الارض بلقعا

وسخروا مما يؤبنون به ومما يصطنع لهم من جهـاز وغسل ودفن ونحوه .. ومن أروع ما قالوا من ذلك قول الافوه الاودي[116] :

الا علّلاني واعلمـا أنني غرر وما خلت ينفيني النفاق ولاالحذر
وما خلت يجديني أسـاتي وقد بدت مفاصل أوصالي وقد شخص البصر
وجاء نساء الحي مـن غيـر إمرة زفيفا كمـا زُفّت الى العطن البقر
وجـاءوا بمـاء بـارد وبغسلة فيالك من غسـل سيتبعه عبـر
فنائحة تبكي وللنوح درسـة وأمر لها يبدو وأمر لها يسر

---

(112) شرح الحماسة للمرزوقي ٢/٩٠١ . وانظر الهامش ٧٣ من هذا الفصل
(113) ديوان بشر رقم ٥ ص ٢٤ .
(114) طبقات ابن سلام ص ١٣٥ ؛ الاغاني * الساسي ١٩/١٦١ .
(115) المفضليات رقم ٦٧ ص ٢٦٨ .
(116) الطرائف الادبية ص ١٥ .

ومنهن من قد شقق الخمش وجهها مسلبة قد مس ّ احشاءها العبر
فرّموا له أثوابه وتعجّعوا ورن مرنّات وثار به النفر
الى حفرة يأوي اليها بسعيه فذلك بيت الحق لا الصوف والشعر
وهالوا عليه الترب رطبا ويابسا الا كل شيء ما سوى ذاك يجبر
وقال الذين قد شجوت وساءهم مكاني وما يغني التأمل والنظر
قفوا ساعة فاستمتعوا من اخيكم بقرب وذكر صالح حين يذكر

والشاعر لا يكاد يغادر شيئا مما يودع به الميت دون أن يشكك فيه .. فلا الشقاق ولا الحذر ولا الاسى بنافع شيئا .. والفعل ليس له مبرر حين يذكر ما سيصير اليه من بعده .. وحزن تسائه عليه مدخول يخفي امرا .. وهو دارس مع ذلك لا محالة .. وذكر الصديق الذي ساءه أن يموت الشاعر لا يغني شيئا ولا يرد ذاهبا .. والحقيقة في الامر كله انه سيأوي الى حفرته بسعيه وحده .. وانه سيهال عليه التراب .. وهو أمر لا يخفف ولا يجتبر .

ويقول الاسود بن يعفر ساخرا مما سيؤبّن به(117) :

نعم قليل اذا نادى الصدى أصلا وحان منه لبرد الماء تغريد
وودّعوني وقالوا ساعة انطلقوا اودى فاودى الندى والحزم والجود
فما أبالي اذا ما مت ما صنعوا كلّ امرىء بسبيل الموت مرصود

ويقول يزيد بن خذاق في مثل ذلك(118) :

هل للفتى من بنات الدهر من واق أم هل له من حمام الموت من راق
قد رجلوني وما رجلت من شعث وألبسوني ثيابا غير اخلاق
ورفّعوني وقالوا أيما رجل وأدرجوني كأني طيّ مخراق

(117) الصبح المنير ص ٢٩٥ .

(118) المفضليات رقم ٨٠ ص ٢٩٩ وهي هنا للمزق العبدي . وفي الشعر والشعراء ٣٠٢/١ ذكر انها لابن خذاق وروى البيت الخامس فيها .

وأرسلوا فتيةً من خيرهم حسبا ... ليسندوا في ضريح الترب أطباقي
وقسموا المال وارفضت عوائدهم ... وقال قائلهم مات ابن خذاق
هوّن عليك ولا تولع بإشفاق ... فإنما مالنا للوارث الباقي

ومن الملاحظ أن مثل هذه الافكار يكثر ورودها في رثاء النفس وتمازجها كما هو واضح مخاوف الانسانية الخالدة من الموت وما يأتي بعده .. ومثال ذلك الخوف من الدفن ومن الوحدة والظلام .. ومن السباع والذئاب والضباع التي تعبث بقبر الميت وجثمانه .. يقول عبيد[119] :

اشري التلاد بحمد المال أبذله ... حتى أصير رميما تحت الواح
بعد انتقال اذا وسدت جنجنتي ... في قعر مظلمة الارجاء مكلاح
أو صرت ذا بومة في رأس رابية ... أو في قرار من الأرضين قرواح

ويقول افنون التغلبي[120] :

كفى حزنا ان يرحل الحي غدوة ... وأصبح في أعلى إلاهة ثاويا

ويقول أبو الطمحان القيني[121] :

ألا علّلاني قبل نوح النوائح ... وقبل ارتقاء النفس بين الجوانح
وبعد غد يالهف نفسي على غد ... اذا راح اصحابي ولست برائح
اذا راح أصحابي تفيض دموعهم ... وغودرت في لحد عليّ صفائحي
يقولون هل اصلحتم لأخيكم ... وما اللحد في الارض الفضاء بصالح

(119) ديوان عبيد رقم ١٢ ص ٤٠ .
(120) المفضليات رقم ٦٥ ص ٢٦١ .
(121) الحماسة البصرية ٢٨١/١ .. والشاعر اما جاهلي او مخضرم الاصابة ٦٦/٢ . الشعر والشعراء ٣٠٤/١ . ومما يؤكد جاهليته ما رواه ابو الفرج في الاغاني « الدار » ١٥١/١١ من ان قيس بن زهير تمثل ببعض شعره يوم جبلة . وفي الحيوان ٣٨٠/١ انه مدح مالك بن حصار السمخي وهو الذي قتله خفاف بن ندبة يوم قتل معاوية اخي الخنساء.

ويقول قران الضبي[١٣٢] :

الا ليت شعري ما يقول مخارق اذا جاوب الهام المصيح هامتي
ودليت في غبراء يسفي ترابها عليّ طويلا في ترابها اقامتي

ويقول ابو ذؤيب الهذلي[١٣٣] :

أعاذل أبقي للملامة حظها اذا راح عني بالجلية عائدي
فقالوا تركناه تزلزل نفسه اذا اسندوني أو كذا غير مسند
وقام بناتي بالنعال حواسرا والصقن ضرب السبت تحت القلائد
يودون لو يفدونني بنفوسهم ومثنى الأواقي والقيان النواهد
وقد ارسلوا فراطهم فتأثلوا قليبا سفاها كالاماء القواعد
مطأطأة لم ينبطوها وانها ليرضى بها فراطها أم واحد
قضوا ما قضوا من رمها ثم اقبلوا اليّ بطاء المشي غبر السواعد
يقولون لما جشت البئر أوردوا وليس بها ادنى ذفاف لوارد
فكنت ذنوب البئر لما تبسلت وسربلت أكفاني ووسدت ساعدي
أعاذل لا اهلاك مالي ضرني ولا وارثي ان ثمر المال حامدي

والشاعر - كما نرى - لا يكاد يترك من تفاصيل موته شيئا مما ينم عن اطالة الفكرة وحضور الصورة في ذهنه . اما تشبيه القبر بالقليب فهو من تشبيهاتهم المعروفة في شعرهم . يقول النمر بن تولب[١٣٤] :

وذي ابل يسعى ويحسبها له أخي نصب في رعيها ودؤوب
غدت وغدا رب سواه يسوقها وبدل أحجارا وجال قليب

---

(١٣٢) معجم الشعراء ص ٣٢٧ .
(١٣٣) ديوان الهذليين ١/١٢١ .
(١٣٤) الحماسة البصرية ٢/٦٥ .

وتقول ضباعة بنت قرط في رثاء هشام بن المغيرة المخزومي[١٢٥] :

تفـــاقدوا من معشــــر مالهم أيّ ذنوب صوّبوا في القليب

ويقول حاتم الطائي[١٢٦] :

أما ويّ ما يغني الثراء عن الفتى اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر
اذا اتـــاه دلاّني الذين احبهم للحودة زلج جوانبهـــا غبـــر
وراحوا عجالا ينفضــون اكفهم يقولون قـد دمّى أناملنا الحفر

ومن خوفهم من عيث الحيوان باجسادهم قول المشعّث العامري[١٢٧]: ويتسب في اللسان لثقب .

ياصر يثركني الحــيّ يومـــا رهينةَ دارهـــم وهم ســـراع
تمتّع يا مشعّث إنّ شــــيئا سبقت به الوفاة هــو المتـــاع
وجاءت جيال وأبـــو بنيهـــا احمّ الماقين بـــه خمـــاع
فظلاّ ينبشـــان التـــرب عنّي ومـا أنا ويب غـيرك والسـباع

ويقول متمم[١٢٨] :

يالهفَ من عرفاءَ ذاتِ فليلـةٍ جاءت الىّ على ثلاث تخمـــع
ظلّت تراصدني وتنظر حولهـــا ويريبهـــا رمق وأني مطمـــع
وتظلّ تنشـطني وتلحيم أجريا وسط العرين وليس حيّ يدفـع
لو كان سيفي باليمين ضربتهـــا عني ولم أوكل وجنبي الاضـــيع
ولقد ضربت به فتسقط ضـربتي أيدي الكماة كـأنهن الخِرْوَع
ذاك الضـــباع فان حززت بمديـــة كفّي فقـولي محسن ما يصـــنع

---

(١٢٥) العمدة ٢٧٨/١ . وهشام هو ابو ابي جهل .

(١٢٦) ديوان حاتم الطائي ص ٣٩ .

(١٢٧) الاصمعيات رقم ٨، ص ١٦٥ . وفي تفسير الطبري « بولاق » ٩٢/١٣: جاء في البيت الثاني سبقت به الممات . واظنه أصح .

(١٢٨) المفضليات رقم ٩ ص ٥٢ .

ويقول ساعدة بن جؤيه[129] :

وما يغني امرءا ولــــــد أحمت　　منيّته ولا مــــال أثيــــل
رلو أمست له أُدُمٌ" صـــفايا　　تُقَرقِر فــي طوائنها الشحول
مصعّدة" حواركها تراهــــا　　اذا تمشي يضيق بها المسيــل
اذا ما زار مجنـــأة" عليهــا　　نقال الصخر والخشب القطيــل
وغـــودر ثاويــــا وتأوّبتــــه　　مذرّعة" أميــم لهــا فليـــل
لهـا خففـــان قــد ثلبا وراس　　كراس العَوْد شـمهرة نؤول
تبيت الليــــل لا يخفى عليهـــا　　حمار حيث جرّ ولا قتيــــل
كمشي الاقبل الساري عليهـــا　　عفاء كالعبــاءة عقنقليل
فذاحت بالوتــائر ثــم بدّت　　يديهــا عند جانبــه تهيــل
هنالك حين يتركــه ويغـــدو　　سليبـــا ليس في يده فتيـــل

وللمرقّش الاكبر شعر يعبّر عن المخاوف نفسها ، وقد اعتبره القدماء واقعيا ، واخذوا منه نهاية قصة حياته وحبّه ، فقالوا : ان عــبقا له تركــه مريضا في غار وانه كتب أبياتا على رحله فعرفت أســرته او اسماء حبيبته الحقيقة وضربوا العبد حتى دلّهم عليه ، فاحتملوه وقد أكلت السباع انفه :

يقول مرقّش[130] :

يا صاحبيّ تلوّما لا تعجــــلا　　ان الرحيلَ رهينُ الاّ تعذلا
فلعلّ بطأكما يفرّط سيّــــئا　　أو يسبق الاسراع سيبا مقبلا
يا راكبــا امّا عرضــت فبلغن　　أنس بن سعد ان لقيت وحرملا
لله دركمـــا ودرّ أبيكمـــا　　ان افلت الغفليّ حتى يقتــلا
من مبلغ الاقوام ان مرقشــا　　أمسى على الاصحاب عبئا مثقلا
ذهب السباع بانفه فتركتــه　　أعثى عليه بالجبـــال وجيئلا
وكأنمـــا ترد السباع بشلوه　　اذ غاب جمع بني ضبيعة منهلا

---

(129) ديوان الهذليين ٢١٣/١ .

(130) المفضليات رقم ٤٥ ص ٢٢٢ .

ويقول حبيب الاعلم[131] :

وخشيت وقع ضريبة قد جربت كل التجارب
فأكون صيدهم بها وأصير للضبع السواغب
جزرا وللطير المربئة والذئاب والثعالب
وتجر مجرية لها لحمي الى أجر حواشب
سود سحاليل كأن جلودهن ثياب راهب
آذاهن اذا احتضر ن فريسة مثل المذانب
ينزعن جلد المرء نز ع القين أخلاق المذاهب

ويقول جرية بن الاشيم الفقعسي[132] :

فلا يأكلني الذئب فيما دفنتني ولا فرعل مثل الصريمة خارب
أزل هليب لا يزال مآبطا اذا ذربت أنيابه والمخالب

ويمكن ان يكون هذا الخوف من الحيوان وعبثه بالميت اعتقادا منهم بأن البعث يتوقف على سلامة جسد الميت ، يقول الشنفرى[133] :

فلا تقبروني انّ قبري محرّم عليكم ولكن خامري أم عامر
اذا احتملوا رأسي وفي الرأس اكثري وغودر عند الملتقى ثم سائري
هنالك لا أرجو حياة تسرني سجيس الليالي مبسلا بالجرائر

فالشنفرى لا يهمه أن يدفن لأنه لا يرجو من بعد الموت حياة كما يقول ..

---

(131) ديوان الهذليين ٢/٧٩ .
(132) الحيوان ٦/٥٢ .
(133) الطرائف الادبية ص ٣٦

وصف الماء وصلته بمعاني الحياة :

من الملاحظ ان القرآن الكريم ضرب المثل للحياة الزائلة ومتعها الزائفة بالماء أو الغيث الذي ينبت زرعا رائعا لا يلبث ان يتحول الى حطام متبدّد ، فالماء في هذا مثال الحياة الدنيا التي تحمل في طياتها عوامل فنائها ، يقول تعالى : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا .» الكهف آية ٤٥[١٣٤] :

ويضرب القرآن الكريم المثل للبعث بالماء الذي يحيي الارض الميتة ، يقول تعالى : « ومن آياته أنك ترى الارض خاشعة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت انّ الذي أحياها لمحيي الموتى انه على كل شيء قدير . » فصلت ٣٩ .

والشاعر الجاهلي يستخدم عنصر الماء استخداما يظهر فيه تناقض عنصر الماء فهو مادة للحياة والموت معا . ويتجلى ذلك في زعم الشاعر الجاهلي أن الامطار والانواء هي سبب تخريب الديار وامحائها .. ثم في استطراده الى وصف الحياة التي بعثتها الامطار نفسها في الديار .. فهي تؤدي الى امراع وخصب يجتذب الوانا من الحيوان الذي يألف هذه الديار ويتناسل بها . والامطار على هذا تزيل حياة وتبعث حياة اخرى .. والشاعر يتناسى الصورة القاتمة التي يرسمها للديار المهجورة الأبدة بصورة الحياة التي تبعثها الامطار فيها .. يقول لبيد[١٣٥] :

عفت الديار محلّها فمقامها	بمنى تأبد غولها فرجامها
فمدافع الريّان عرّي رسمها	خلَقا كما ضمن الوُحيّ سلامها
دمن تجرّم بعد عهد أنيسها	حجج خلون حلالها وحرامها

---

(١٣٤) ومثل الآية الكريمة يونس ٢٤ والحديد ٢٠ .

(١٣٥) شرح ديوان لبيد رقم ٨) ص ٢٩٧ .

رزقت مرابيع النجوم وصابها ... ودق الرواعد جَوْدها فرهامها

من كل سارية وغـــاد مدجن ... وعشـية متجاوب إرزامهـا

فعلا فروع الايهقان وأطفلت ... بالجلهتين ظباؤهـا ونعامهـا

والوحش ساكنة على اطلائهـا ... عوذا تأجَّلُ بالفضاء بهامهـا

وجلا السيولُ عن الطلول كأنها ... زبر تجدُّ متونهـا اقلامهـا

أو رجع واشمة أسفَّ نؤورها ... كففا تعرَّض فوقهن وشامها

فوقفت أسالها وكيف سؤالنا ... صمًّا خوالد ما يبين كلامها

ولقد بلغ من تلذذ الشاعر بوصف ما يعث المطر من حياة في الديار أنَّ المفسرين اختلفوا في قوله : رزقت مرابيع النجوم .. أهو يدعو بالسقيا أم يخبر(١٣٦) . ويقول سلامة بن جندل(١٣٧) :

هاج المنازل رحلة المشتاق ... دمن وآيـات لبثـن بـواق

لبِسْنَ الرواسِ والجديدُ بلاهما ... فتركْن مثلَ المهرق الاخلاق

للحارثية قبـل أن تناى النوى ... بهم واذ هي لا تريـد فراقي

ومجرُّ سـارية تجرُّ ذيولهـا ... نوسَ النعام تناط بالاعناق

مصريةٌ نكباءُ أعرض شيمهـا ... بأشـابة فزرودَ فالافـلاق

هتكت على عوذ النعاج بيوتهـا ... فيقعـن للركبـات ... والارواق

فترى مذانب كلِّ مدفع تلعـة ... عَجِلت سـواقيها من الاتآق

فكأن مدفع سيل كلِّ دميثـة ... يعلى بذى هـدَب من الاعلاق

من نسج بصرى والمدائن نشِّرت ... للبيع يوم تحضّر الاسـواق

فوقفت فيهـا ناقتي فتحنَّنت ... لهوى الرواح تتوق كـل متاق

---

(١٣٦) شرح الطرائف السبع ص ٥٢١ ، ٥٢٢ . ويقول ابن الانباري انه دعاء وان بعض اهل اللغة قال انه خبر .

(١٣٧) ديوان سلامة بن جندل ص ١٢ .

ويقول النابغة الذبياني[138] :

أمن ظلامة الدمن البوالي	بمرفض الحبي الى وعال
فأمواه الدنا فعوبرضات	دوارس بعد احياء حلال
تأبد لا ترى الا صنوارا	بمرقوم عليه العهد خال
تعاورها السواري والغوادي	وما تذري الرياح من الرمال
أثيث نبته جعد تراه	به عوذ المطافل والمتالي

وهي صورة شائعة في الشعر الجاهلي .. وهي قريبة من الاستقاء للميت ، لأنه دعاء بأن تذهب الوحشة عن قبره وتحيط به الخضرة يقول النابغة في رثاء النعمان الغساني[139] :

سقى الغيث قبرا بين بصرى وجاسم	بغيث من الوسمي قطر ووابل
ولا زال ريحان ومسك وعنبر	على منتهاه ديمة ثم هاطل
وينبت حوذانا وعوفا منورا	سأتبعه من خير ما قال قائل

ويقول اوس بن حجر[140] :

لا زال مسك وريحان له أرج	على صداك بصافي اللون سلسال
يسقي صداك ومسماه ومصبحه	رفها ورمسك محفوف بأظلال

ويقول البريق الهذلي في رثاء أخيه[141] :

سقى الرحمن جزع نابعات	من الجوزاء أنواءا غزارا
بمرتجز كأن على ذراه	ركاب الشام يحملن البهارا
فحط العصم من اكناف شعر	فلم يترك بذي سلع حمارا
ومر على القرائن من نمار	وكاد الوبل لا يبقي نمارا

---

(138) مختار الشعر الجاهلي ص ٣١٢ . وانظر في معناها له ص ٢٠٨ .

(139) المصدر السابق ص ١٩٨ .

(140) ديوان أوس رقم ٤٠ ص ١٠٥ .

(141) ديوان الهذليين ٦١/٣ . والبريق كان شيخا على عهد عمر رضي الله عنه انظر ٥٨/٣ من الديوان .

ويبدو احساس الشاعر الجاهلي بتناقض عنصر الماء في انه يدعو للديار بالسقيا وهو الذي يزعم ان المطر يمحوها ويعفو على آثارها ، ولا شك انه حين يستسقي لها يتمنى لها الحياة .. وأنه حين يصف فعل الامطار بها يتألم من اندثارها وزوالها .. وهو يحس أن للماء القدرة على الفعلين معا .. ومن دعائهم بالسقيا للديار المهجورة قول المثقب[142] :

الا حيّيا الدار المحيل رسومها   تهيج علينا ما يهيج قسيمها
سقى تلك من دار ومن حلّ ربعها   ذهابٌ الفوادي وبلها وقديمها

وقول زهير بن جناب الكلبي[143] :

فيا رسم ليلى هجت للعين عبرة   وحزنا سقاك الوابل المتبعّق

وقول الحطيئة[144] :

أرى عليها وليٌ ما يغيّرها   وديمة ملّيت منها عزاليها

ومن النماذج النادرة التي يتجاوز فيها حديث الشاعر عن الامطار التي تندرس بها الديار ودعاؤه لها بالسقيا قول النابغة الجعدي[145] :

ألم تسأل الدار الغداة متى هيا   عددت لها من السنين ثمانيا
أربت عليها كلّ وطفاء جونةٍ   وأسحمَ هطّالٍ يسوق القواريا
بوادي الظباء فالسليل تبدّلت   من الحيّ قطرا ما يغبّ وسافيا
فلا زال يسقيها ويسقي بلادها   من المزن رجّاف يسوق السواريا
يسقّي شرير البحر جَودا تردّه   حلائب قُزح ثم أصبح غاديا

---

(142) شعر المثقب ص ٤٧ .
(143) منتهى الطلب ١/١٠٢ .
(144) ديوان الحطيئة رقم ٤٤ ص ٢٠١ .
(145) شعر النابغة الجعدي ص ١٦٦ .

وليس النابغة مضطرب الشعور متناقضا مع نفسه في شعره هذا .. فهو يتألم لما أصاب الدار .. وهو يدعو لها بالسقيا والحياة .. وانما التناقض في الماء القادر على محو معالم الدار وبعث الحياة فيها .

ووصف السحاب والمطر والماء يكثر وروده مع المعاني التي تعوّد الشاعر الجاهلي ان يخصص لها صدر شعره .. ويأتي ذلك وصفا للسحاب الذي يستقيه الشاعر للدار أو المرأة التي يذكرها .. أو هو مما يارق له الشاعر ويطول به ليله وتستثار به ذكرياته .. ونستطيع أن نميّز أسلوبين .. اتخذهما وصف الامطار والمياه .. أولهما أن يأتي هذا الوصف على سبيل التسلي وذلك بعد ان يذكر الشاعر أمرا أحزنه وآلمه .. والاسلوب الآخر أن يؤتى بهذا الوصف أولا ثم يتلوه ذكر ما يتألم له الشعراء . فكأن البرق والمطر هو الذي أعاد على الشاعر هذه الذكرى المؤلمة ..

ومن التسلي بوصف المياه عن معاني الفناء قول الاعشى في وصف ريمان وخرابة وما مرّ به من فتح الحبشة وفارس[146] :

ولقد أراه بغبطة	في العيش مخضرا جنابه
فخوى وما من ذي شبا	ب دائم أبدا شبابه
بل هل ترى برقا على الـ	ـجبلين يعجبني انجيابه
من ساقط الاكناف ذي	زجل أربّ به سحابه
مثل النعام معلقا	لمّا دنا قردا ربابه

فكأن الاعشى يزيح عنه تلك الصورة القاتمة للفناء بصورة أخرى تنبض بالحياة ومثل ذلك نجده في القصيدة المنسوبة الى عبيد أو اوس بن حجر ، تقول القصيدة[147] :

(١٤٦) ديوان الاعشى رقم ٥٤ ص ٢٨٩ .

(١٤٧) ديوان اوس رقم ٥ ص ١٤ ، ديوان عبيد رقم ١١ ص ٣٤ والنص من ديوان عبيد ..

هبت تلوم وليـت سـاعة اللاحي ... هلّا انتظرت بهذا اللوم أصباحي
قاتلها الله تلحـاني وقـد علمت ... أنّ لنفسـي افسادي واصـلاحي
كان الشـباب يلهّينـا فيعجبنا ... فما وهبنـا ولا بعنـا بأربـاح
ان اشرب الراح أو أرزأ لها نشـبا ... فلا محالة يوما انني صـاحي
ولا محـالـة من قبر بمحنيـة ... وكفـن كسـراة الثور وضّـاح
يا من لبرق أبيت الليـل أرقبـه ... من عارض كبياض الصبح لمّاح

ومثل ذلك قول قيس بن عيزارة في أسره حين رامت فهم قتله .. وفي قصيدته هذه يقول الشاعر(١٤٨) :

وقـال نسـاء لو قتلت لسـاءنا ... سواكن ذو الشجو الذي أنا فاجع
رجال ونسـوان بأكناف رابـة ... الى حُثُنٍ تمّ العيون الدوامـع
سقى الله ذات الغمر وبـلا وديمة ... وجادت عليها البـارقات اللوامـع
بما هي مِقناة أنيقٌ نباتهـا ... مربٌّ فترعاها المخاض النوازع
وان سال ذو ماويْن أمست قِلاته ... لها حَدَبٌ تستنّ فيه الضفادع
اذا أصدرت عنه تمشت مخاضها ... الى السرّ تدعوها اليه الشفائع
لهـا هجلات سـهلة ونجـادة ... دكادك لا تؤبي بهن المراتـع
كأن يلنجوجـا ومسـكا وعنبرا ... بأشرافه طلّت عليـه المرابـع

ويقدم الشعر الجاهلي صورة اخرى لوصف الماء متصلة اتصالا وثيقا ببكاء الديار وارتحال الحبيبة عنها .. وقد رأينا ان ذلك مرتبط عنده بمعاني التحوّل والزوال وفوت ما لا سبيل الى استرداده .. وهذه الصورة هي صورة الشاعر باكيا في أثر الراحلين أو صورته باكيا من ذكرى الحبيبة أو مما صارت اليه ديارها .. والشاعر يختار أن يشبّه دموعه بالمياه المتدفقة من الدلاء المطينة أو المياه التي تجري في الانهار والجداول أو الماء الذي يتسرب من مزادة يصفها .. وقد ينساق في هذا الوصف فيصف الدلاء

(١٤٨) ديوان الهذليين ٢/٧٦ .. وفي القصيدة ان تأبط شراً خلّص الشاعر.

والنواضح والجداول والزروع حتى يشعرنا بأنه انصرف عن أحزانه ونسي ما بدأ به من وصف الدموع والاحزان . يقول عبيد[١٤٩] :

أرض توارثها شعوب	فكلّ من حلّها محروب
أمـا قتيـلا وامّا هالكا	والشيب شين لمن يشيب
عيناك دمعهما سروب	كـأن شأنيهما شعيب
واهيـة أو معين ممعن	من هضبة دونها لهوب
أو فلَج ما ببطـن واد	للماء من تحته قسيب
أو جدول في ظلال نخـل	للماء من تحته سكوب

ويقـول[١٥٠] :

تذكرتهم ما ان تجفّ مدامعي	كأن جدول يسقي مزارع مخروب

ويقول علقمة بن عبدة[١٥١] :

فالعين مني كـأن غـرب تحطّ بـه
دهماء حاركها بالقتب مَحْزوم
قـد عرّيت حقبة حتى استطف لهـا
كِتْر كحافة كير القين ملمـوم
كـأن غسلة خِطْمي بشـفرها
في الخـدّ منها وفي اللحيين تلغيم
قـد أدبـر العرّ عنها وهي شـاملها
من ناصع القطران الصرف تدسيم
تسقي مذانب قـد زالت عصيفتها
حدورها من أتيّ المـاء مطموم

---

(١٤٩) ديوان عبيد رقم ٥ ص ١١ ؛ شرح القصائد العشر ص ٥٣٧ .
(١٥٠) ديوان عبيد رقم ٨ ص ٢٥ .
(١٥١) مختار الشعر الجاهلي ص ٤٢٥ ؛ المفضليات رقم ١٢٠ ص ٣٩٨ .

من ذكر سلمى وما ذكرى الاوان لها
الا السفاه وظن الغيب ترجيم

ويقول الأعشى[152] :

وبانت بها غربات النوى وبدلت شوقا بها وادكارا
ففاضت دموعي كفيض الغروب امّا وكيفا وامّا انحدارا

ويقول امرؤ القيس[153] :

أمن ذكر نبهانية حل أهلها بجزع الملا عيناك تبتدران
فدمعهما سكب وسح وديمة ورش وتوكاف وتنهملان
كأنهما مزادتا متعجل فريّان لمّا تسلقا بدهان

ويقول لبيد[154] :

وقفت بهن حتى قال صحبي جزعت وليس ذلك بالنوال
كأن دموعه غربا سناة يحيلون السجال على السجال
اذا أرووا بها قصبا وزرعا أمالوها على خور طوال

ويقول بشامة بن الغدير[155] :

فوقفت في دار الجميع وقد جالت شؤون الرأس بالدمع
كغروض فياض على فلج تجري جداوله على الزرع

---

(152) ديوان الاعشى رقم ٥ ص ٥٥ .
(153) ديوان امرىء القيس رقم ٨ ص ٨٨ .
(154) شرح ديوان لبيد رقم ١١ ص ٧٢ .
(155) المفضليات رقم ٢٢ ص ١٠٧ .

ومن أجمل ما قالوا في وصف الدموع وأكثره تفصيلا قول زهير[156] :

ما زلت أرمقهم حتى اذا هبطت
أيدي الركاب بهم من راكس فلَلَقا
دانية لشروري أوتفا أدم
يسعى الحداة على آثارها حزقا
كأن عيني في غربي مقتلة
من النواضح تسقي جنة سُحُقا
تمطو الرشاء فتجري في ثنايتها
من المحالة ثقبا رائدا قلقا
لها متاع وأعوان غدون به
قتب وغَرب اذا ما أفرغ انسحقا
وخلفها سائق يحدو اذا خشيت
منه اللحاق تمدّ الصلب والعنقا
وقابل يتغنى كلما قدرت
على العَراقي يداه قائما دَفَقا
يحيل في جدول تحبو ضفادعه
حبو الجواري ترى في مائه نطقا
يخرجن من شَرَبات ماؤها طحل
على الجذوع يخفن الغم والغرقا

(156) شرح ديوان زهير ص37 ومختار الشعر الجاهلي ص247 والنص منه. وانظر في تشبيه الدمع بالدلو والمزادة ونحوها : ديوان الاعشى رقم 68 ص 323 شرح ديوان زهير ص 147 ديوان امرىء القيس رقم 3 ص 44 ، رقم 9 ص 90 ، المفضليات رقم 96 ص 330 لبشر بن ابي خازم .

وتصوير الدمع على هذا النحو يورده متمّم في بعض مراثي أخيه فيقول(١٥٧) :

اذا عبرة ورّعتهـا بعـد عبـرة
أبت واستهلت عبـرة ودمـوع
كما فاض غـرب بين أقـرنِ قامـةٍ
يروّى دَبـارا مـاؤه .... وزروع
جديـد الكلى واهي الأديـم تبـينـه
عن العيـر زوراء المقـام نـزوع

ولا يمكننا أن نعتبر هذا الوصف مبالغة في تصوير الحزن ، لأن المبالغة ليست من سمات الشعر الجاهلي . ويمكن ان نهتدي باختيار الشاعر أن يشبه دموعه بالماء الذي ينساب من أدوات السقي ، فنفهم أنه يجتلب صورة من صور الاستسقاء تعبيراً عن الحرص على الحياة واشتهائها .وهو يطمئن الى هذه الصورة وأمثالها بعد ان يتعبه تفكيره في الفناء .وهو يستخدم اسلوب الاستطراد الشائع في الشعر الجاهلي ، فينتقل بعفوية لا يكبح جماحها العقل من آلامه الى آماله .

وقد ذكرنا سياقا آخر لوصف المطر وشيم السحاب ، وذلك أن يتقدم ذكر المطر ويتخذ ذريعة للذكرى أو يعتبر سببا للارق والهموم .. ومن أمثلة ذلك قصيدة لعدي بن زيد يمزج أحزانه بوصفه للمطر ، فهـو يتخيـل في السحاب والبرق مأتماً يبكي فيه عليه ، ثم يمضي في وصف المطر ممهدا بذلك لحديثه الصريح عن خوفه من أن ينجح أعداؤه في كيدهم له فيقتل أو يسجن، يقول عديّ في هذه القصيدة(١٥٨) :

أرقت لمكفهرّ بـات فيـه بوارق يرتقين رؤوس شـيب

(١٥٧) المفضليات رقم ٦٨ ص ٢٧١ .

(١٥٨) ديوان عدي رقم ٣ ص ٢٧ . دخدار : الثوب . معرب من الفارسية .

تلوح المشـــرفيّة في ذراه ويجلو صفح دَخْدار قشيب
كأن مآتما باتت عليـــه خضَضْن مآليا بدم صبيب
بلالِين الأكفّ على عـــديّ ويَنْطُفْن رجعهن الى الجيوب
سقى بطن العقيق الى أفـــاق ففا ثـورٍ الى لَبَب الكثيب
فرَوّى قلّة الأدحـــال وبل ملحا فالنبيءُ فذا كريب
فمنه ديمة وطفـــاء سكب وذو نُزَل تفرَّعَ في السيوب
كـــأن دفوق جُونٍ تمتريـــه تجائب قاصبا فحنينُ نيب
يجيء بما أمدّتـــه الثريا مسيرا أمره بدرّ الجنوب
سعى الاعداء لا يألون شرا عليّ وربّ مكة والصليب
أرادوا كي نمهـــل عن عـــديّ فيسجن أو يدهـــدى في قليب

ويقول خفاف بن ندبة[159] :

يا هل ترى البرق بت أرقبـــه في مكفهر نشـــاصه قـــرد
مال على قبـــة البنـاء فمـــزّال فمرّ على الرجـــلاء فالجمد
اذا مرتـــه ريــح يمانيـــة يبرد ربعـــانه الى تضـــد
يترك منهـــا التهـــاء مفرطه مثل الرياط المنشورة الجدد
ان أمسي رمسا تحت التراب فهل تصرف بمدي المنون عن أحـــد
كـــل امرئ فاقـــد أحبتـــه ومـــلم وجهـــه الى البـــلد

ويقول تميم بن أبي بن مقبل[160] :

تأمل خليـــلي هـــل ترى ضوء بارق
يمان مرتـــه ريـــح تجـــد فغترا

---

(159) منتهى الطلب ١/١٥ .. والبيت الثاني جاء هكذا في المخطوطة ، وفيه خروج على الوزن .

(160) ديوان تميم رقم ١٧ ص ١٢٩ .

مرته الصبا بالغور غور تهامة
فلما ونت عنه بشعثين أمطرا
يمانية تمري الرباب كأنه
رئال نعام بيضه قد تكسرا
وطبق لوذان القبائل بعد ما
سقى الجزع من لوذان صفوا واكدرا
فأمسى يحط المعصمات حبيه
وأصبح زيتان الغمامة أقسرا
كأن به بين الطراق ورهوة
وناصفة الضبين غابا مسترا
فغادر ملحوبا تمشي ضبابه
عباهيل لم يترك لها الماء مجحرا
أقام بشطان الركاء وراكس
اذا عسرق ابن المساء في الوبل بربرا
أصاخت له قدر اليمامة بعدما
تدثرها من وبله ما تدثرا
أناخ برمل الكومحين إناخة الـ
ـيماني قلاصا حط عنهن أكورا
اجدي أرى هذا الزمان تغيرا
وبطن الركاء من موالي أقفرا
وكائن ترى من منهل باد أهله
وعيد على معروفه فتنكرا
أتاه قطا الاجباب من كل جانب
فنقر في أعطانه ثم طيرا

فأما تريني قد أطاعت جنيبتي

وخيّط رأسي بعد ما كان أوفرا

وأصبحت شيخاً أقصر اليوم باطلي

وأديت ريعان الصبا المتعوّرا

وقدّمت قدّامي العصا أهتدي بها

وأصبح كرّي للصبابة أعسرا

فقد كنت أحذي الشاب بالسيف ضربة

فأبقي ثلاثا والوظيف المكعبرا

والشاعر هنا يفصّل في وصف المطر ، ويسرف في وصف غزارته ، ويحرص على أن يذكر الاماكن التي أصابها .. ثم ينتقل من ذلك الى تذكر أهله الذين كانوا يسكنون بعض هذه المواضع « الركاء » ويرسل حسرة في أثر البائدين من أصحاب المناهل ثم ينصرف بعد ذلك الى شبابه يبكيه ويسترجع ذكرياته .

ومثل شعر تميم هذا قصيدة امرىء القيس التي يبدأها مثله بوصف المطر متخذاً ذلك وسيلة ليتذكر أختاً له ضعيفة بعيدة عنه لا يستطيع ان يعينها بغير شعره ..

وربما كان هذا الشعور رثاء لأن بعد هذه الاخت عن الشاعر قد يكون بعد الحيّ عن الميت ، يقول امرؤ القيس[166] :

أعنّي على بــــرق أراه وميض	يضيء حَبِيّاً في شماريخَ بيض
ويهدأ تاراتٍ ســـناه وتارة	ينوء كتعتاب الكسير المهيض
وتخرج منه لامعات كأنها	أكفّ تلقّى الفوزَ عند المفيض
قعدت له وصحبتي بين ضــارج	وبين تلاع يثلث فالعريض

(166) ديوان امرىء القيس رقم ٥ ص ٧٢ ، وانظر ص ٣٤ من هذا الفصل .

أصـاب قطاتين فـــال لواهما   فوادي البديّ فانتحى للاريض

بلاد عريضة وأرض أريضـــة   مدافع غيث في فضـــاء عريض

فأضحى يسح الماء عن كـــل فيقة   يحوز الضباب في صفاصف بيض

فأسقي به أختي ضعيفة اذ نـأت   واذ بعـــد المزار غيـر القريض

ويقول عروة بن الورد في امرأته الكنانية التي خدع عنها مبتدأ قصيدته بوصف السحاب والبرق[162] :

ارقت وصحبتي بمضيق عمق   لبرق في تهـامـة مســـتطير

اذا قلت اســـتهلّ على قديـــد   يحـور ربـابه حَوْر الكسير

تكشّف عـائذٍ بلقـاء تنعي   ذكورَ الخيـل عن ولـد شـفور

سـقى سـلمى وأين ديـار سلمى   اذا حلّت مجـــاورةَ السرير

اذا حلـــت بـأرض بني عليّ   وأهـــلي بين زامـــرة وكير

ذكرت منـازلا من أم وهـــب   محلّ الحيّ أســـفل ذي النقير

وآخر معهـــدا من أم وهـــب   معرّســـنا بدار بني النضير

تخلص من هذا الاستعراض لبعض نماذج وصف الماء في الشـــعر الجاهلي الى انه مما يستعين به الشاعر على اشاعة جوّ من الفرح أو الحزن .. ولذلك فهو يتداعى مع معاني الحياة والموت في حالات كثيرة ..

وللحيوان كذلك قيمة رمزية في تحس الشاعر بمعاني الحيـــاة والموت ، وقد انتبه الجاحظ لهذه القيمة فقال فيها : « ومن عادة الشـــعراء اذا كان الشعر مرثيّة أو موعظة أن تكون الكلاب هي التي تقتل بقر الوحش واذا كان الشعر مديحا وقال كأن ناقتي بقرة من صفتها كذا أن تكون الكلاب

---

(١٦٢)   ديوان عروة ص ١٠ .

هي المقتولة : ليس على أن ذلك حكاية عن قصة بعينها ، ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلتها ، أما في أكثر ذلك فانها تكون هي المصابة والكلاب هي السالمة والظافرة وصاحبها الغانم .. »(١٦٣) وكلام الجاحظ واضح بنقل قصص الحيوان في الشعر الجاهلي من الواقع الى صعيد الرمز الذي يؤدي وظيفة محدّدة تتسق مع غرض الشاعر في القصيدة ، ومن هذا الحيوان الذي استخدم رمزا في الحياة والموت الناقة والفرس وبقر الوحش وحمار الوحش والوعل والنسر والثعلب والكلاب ، وقد مرّ بنا استخدامهم للضبع وما في معناها من الذئاب والكواسر ، وسنتحدث عن هذه الرموز في فصل قادم ، لأن استخدامها في الشعر الجاهلي جرى على أسلوب قصصي له ميزاته وخواصه ، ولأن استخدام هذه الرموز ليس وقفا في شعرهم على الرثاء الذي فرغنا له في هذا القسم من البحث .

---

(١٦٣) الحيوان ٢/٢٠

الفصل الثاني

في الحماسة

رأينا في دراسة عقائد الجاهلية أن من أكثر جوانبها غموضاً واختلاطا أقوالها وقصصها في البعث ، وهو أمر خطير في مجتمع مرهف الاحساس بمشكلة الفناء ، لان الطبيعة من حوله لا تريه خصبا ممدودا بل تعاقبا سريعا من الخصب والجدب وهو كذلك يواجه الفناء في حروب طاحنة لا تكاد تهدأ ولقد وقفنا عند فكرة الدهر أو الزمن عندهم .. وقلنا انها من أكثر الافكار شيوعاً بينهم .. ولكنّ فكرة الدهر كانت قاصرة عن حل كل ألغاز الفناء ، فهي تمثل القدر دون أن تصور فيه قوةعادلة تطمئن اليها النفس ، وانما الدهر قدر ظالم ، ومن هنا تسبب في فقدان التوازن النفسي للقائلين به ، اما تمردا وعنفا ، واما استسلاما عاجزا ، على ان أخطر قصور في فكرة الدهر هو عجزها عن أن تقول شيئا في البعث عند الاكثرية ، وانكارها له عند قلة من زنادقة الجاهلية ، فان هذا القصور عن تصوّر امتداد لحياة الانسان بعد موته لم يترك في يد القائل بالدهر غير حياته يحاول ان يغنيها بما يناسب مثله الاخلاقية .

شعر الفتيان

ومن ابرز الصور التي يقدمها الشعر الجاهلي للحياة في ظل أفكار الجاهلية عن الفناء تلك الصور التي سماها أهل الجاهلية بطالة الصبا أو

باطله ، وهي تصوّر الحياة مترعة بأنواع اللذاذة كالمرأة والخمر والصيد والغناء والميسر وما الى ذلك . يقول عبيد بن الابرص[1] :

هبّت تلوم وليست ساعةَ اللاحي
هلّا انتظرت بهذا اللوم أصباحي

قاتلها الله تلحاني وقد علمت
أنّ لنفسي افسادي واصلاحي

كان الشباب يلهّينا ويعجبنا
فما وهبنا ولا بعنا بأرباح

ان أشرب الراح أو أرزأ لها ثمنا
فلا محالة يوما أنني صاحي

ولا محالة من قبر بمحنية
وكفن كسراة الثور وضّاح

ويقول امرؤ القيس[2] :

تمتّع من الدنيا فانك فاني
من النشوات والنساء الحسان

من البيض كالآرام والأدم كالدمى
حواصنها والمُبْرِقاتِ الرواني

ويقول عمرو بن كلثوم منها أبياته في الخمر من معلقته[3] :

وأنا سوف تدركنا المنايا
مقدَّرة لنا ومقدّرينا

---

(1) ديوان عبيد رقم ١١ ص ٣٤ . ديوان أوس بن حجر رقم ٥ ص ١٤ .
(2) ديوان امرىء القيس رقم ٨ ص ٨٧ .
(3) شرح القصائد السبع لابن الانباري ص ٣٧٤ .

ويقـول حسان[4] :

ومسـك بصـداع الرأس مـن سَكَر
نادبتـه وهـو مغـلوب فغـدّاني

لمّـا صـحا وتراخى العيش قلت لـه
انّ الحيـاة وان الموت مثلان

فاشرب من الـراح ما آتـاك مشـربه
واعلم بأن كلّ عيش صـالح فـاني

ويقول أبو الذيـال البلوي[5] :

هبّت بليـل تلوم في شـرب الخمـر وذكـر الكواعب الخُرّد
فقلت مهـلا فـلا عليك إن امسـيت غويّا غيّي ولا رشـدي
اني لمسـتيقن لئن لـم امت م اليوم اني إذن رهـين غـد
هـل نحن إلا كمن تقـدّمنـا منشـا ومن تم ظمؤه يـرد
نحن كمن قـد مضى ما إن أرى شـحّا يزيد الحريص من عـدد
فـلا تلومنّني على خـلقي وانني حياء الكريم واقتصدي

ويقول سلميّ بن ربيعة[6] :

إنّ شـواء ونشـوة	وخبب البـازل الامون
يجشـمها المرء في الهـوى	مسـافة الـنـائط البطين
والبيض يرفـلن كالـدمى	في الريط والمذهب المصـون
والكثر والخفض آمنـا	وشرعّ المزهر الحنـون
من لـذة العيش والفتى	للدهر والدهر ذو فنون
والعسر كاليسـر والغنى	كالفقر والحيّ للمنـون

(4) شرح ديوان حسان ص ٤١٢ . وانظر فيه وفي الشاهد قبله : اساليب الصناعة في شعر الخمر والناقة ص ٨ ، ١٥ .

(5) طبقات ابن سلام ص ٢٤٦ .

(6) البيان والتبيين ١/١٩٠ . شرح الحماسة للمرزوقي ٢/١٢٣٧ . والتبريزي ٢/٨٢ .

ويقول الأعشى[7] :

وقد غدوت الى الحانوت يتبعني
شاوٍ مشلٌّ شلولٌ شلشلٌ شول

في فتية كسيوف الهند قد علموا
أن ليس يدفع عن ذي الحيلة الحيل

ويقول بعد ان يذكر بعض الوان فتوته[8] :

وكاس شربت على لـذة	وأخرى تداويت منها بها
لكي يعلم الناس أني امرؤ	اتيت المعيشة من بابها

ويقول عدي بن زيد[9] :

وندامى لا يفرحون بما نا	لوا ولا يرهبون صرف المنون
قد سقيت الشمول في دار بشر	قهوة مزة بماء سخين

ويبدو الحارث بن ظالم فتى حريصاً على اللذة على تدينه وايمانه حين يقول[10] :

إعزفا لي بلذة قينيا	قبل ان يبكر المنون عليا
قبل أن يبكر العواذل إني	كنت قدماً لأمرهن عصيا
ما أبالي أراشدا فأصبحاني	حبتي عواذلي أم غويا
بعد الا أجير الله إثما	في حياتي ولا أخون صفيا
من سلاف كأنها دم ظبي	في زجاج تخاله رازقيا

(7) ديوان الاعشى رقم ٦ ص ٥٩ .
(8) ديوان الاعشى رقم ٢٢ ص ١٧٣ .
(9) ديوان عدي بن زيد رقم ١)٤ ص ١٨٦ .
(10) الاغاني « الدار ١١:٨/١٢٢ وقد ذكران فيها غناء لابن محرزومالك وان في نقيضتها لابن الاطنابة غناء لعزة الميلاء سمعه معبد .

والشاعر في هذه النماذج كلها شاب مندفع بعنفوان صباه الى حياة لاهية وفي ذهنه عن الفناء فكرتان ملحتان : أولاهما أن الموت لا مفر منه ، وهذا يلغي كلّ اعتبارات الحذر والحيطة لما تأتي به الايام من حاجة ، فالنهاية لا يمكن ان يتلافاها غني بغناه أو راشد بما يصطنع من الرشاد ، والغني كالفقر والراشد كالغاوي والحياة والموت مثلان . وفي هذا يقول طرفة[11] :

أرى قبر نحّام بخيل بماله
كقبر غوي في البطالة مفسد

ترى جثوتين من تراب عليهما
صفائحُ صمٌّ من صفيح منضّد

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي
عقيلة مال الفاحش المتشدّد

والفكرة الاخرى هي أن الموت قد يكون قريبا .. بل قد يكون غدا .. وهذا يدفع الى اغتنام غفلات الدهر والمبادرة الى التمتع بالحياة وفي ذلك يقول طرفة :

لعمرك أن الموت ما أخطأ الفتى
لكا لطول المرخى وثنياه باليد

ويقول :

اذا كنت لا تستطيع دفع منيتي
فدعني أبادرها بما ملكت يدي

ويقول حسان فيما رويناه له :

فاشرب من الخمر ما آتاك مشربه
واعلم بأن كل عيش صالح فاني

---

(11) ديوان طرفة رقم) ص ٥٢ .

وفي هذا السياق بين الانسان والموت، يقول الحارث بن ظالم :

أعزفالي بلذة فتيتيا قبل أن يبكر المنون عليا

وحقيقة الامر في هذا السياق أن الشاعر لا يستطيع أن يصرف ذهنه عن التفكير في الموت كما هو واضح .

وتختلف الحالة اختلافا بينا حين تكون حقيقة الفناء في مواجهة الشاعر اذ أنه يورد ما يحسبه مثالا للحياة الخصبة في سياق الذكرى والحنين الى الماضي ، والخلاف فني وليس نوعيا ؛ فهو يقدم مثال الفتوة نفسه وهو يشمل النساء والخمر والميسر وركوب الخطر كالصيد في الاماكن التي يتحاماها الناس وقطع الصحاري المهلكة وما الى ذلك .. ولكنه يقدم هذا المثال في اطناب ظاهر ، ولعل هذا الاطناب طبيعة مفهومة للذكريات عامة حين يتلذذ صاحبها باستعادتها بعد السنين الطوال . ونضيف الى ذلك أن الشاعر الجاهلي حين يسترجع ماضيه قريب من موقف الرثاء ، وقد يقترب منه اقترابا صريحا . يقول المتلمس[12] :

خليلي أمّا متّ يوما وتنقضت
منايا كما فيما يزحزحه الدهر
فمرّا على قبري فقوما فسلّما
وقولا سقاك الغيث والقطر يا قبر
كأن الذي غيّبت لم يله ساعة
من الدهر والدنيا لها ورق نضر
ولم تسقه منها بعذب منعّم
يَرودُ حمته القومَ رجراجةٌ بِكْرُ

(12) ديوان المتلمس ص ٢٠٢ . ويروى البيت الرابع برفع القوم والمعنى انهم يحمون ريق هذه المرأة . والوجه نصب القوم والمعنى ان الفتاة أباحت له ما منعته من القوم .

ولـم يصـطبح في يوم حـَسـرٍ وقِرّةٍ
حميّاً قديَت في مفاصـله الخمر

ولم يرعِ العيس الكوانس بالضـحى
بأمرار موليٍّ ألبدته صـفر

ولـم يمـدح القـرم الهمام بكفـه
لطائـم يسـقي من قواضـلها القفر

ويقول أحيحة بن الجلاح[13] :

لتبكني قينـة ومزهرهـا	ولتبكني قهـوة وشاربهـا
ولتبكني ناقـة اذا رحلت	وغاب في سرحٍ مناكبهـا
ولتبكني عصـبة اذا جمعت	لم يعـلم النـاس ما عواقبهـا

ويقول دويد بن نهد[14] :

اليوم يبنى لدويـد بيتـه	لو كـان للدهـر بلى أبليتـه
أو كان قرني واحـداً كفيتـه	يا ربّ نهب صـالح حويتـه
وربّ غيـل حسـن لويتـه	ومعصـم مخضّـب ثنيتـه

ويقول عبد يغوث بن وقاص الحارثي[15] :

وتضـحك مني شيخة عبشمية	كأن لم ترى قبلي أسيرا يمانيـا
وظل نساء الحي حولي ركّـداً	يراودن مني ما تريد نسـائيـا
وقد علمت عرسـي مليكة أنني	أنا الليث معدّوا عليّ وعاديا

---

(13) الاغاني « الدار » ٣٦/١٥ . . وفيه غناء لابن سريج وغنته حبابة . . والقصيدة تختلط بشعر لعدي بن زيد رقم ٥ ص ٤٥ ولذلك خرجها المحقق هناك ص ١٩٤ . وانظر الاغاني « الدار » ١٥٣/٢ ، ١٢٢/١٥ .

(14) طبقات ابن سلام ص ٢٧ .

(15) المفضليات رقم ٣٠ ص ١٥٨ .

وقد كنت نحار الجزور ومعمل الـ مطي وأمضي حيث لا حيّ ماضيا
وأنحر للشرب الكرام مطيّتي واصدع بين القينتين ردائيا
وكنت اذا ما الخيل شمّصها القنا ليقا بتصريف القناة بنانيا
وعادية سوم الجراد وزعتها بكفي وقد أنحوا اليّ العواليا
كأني لم أركب جوادا ولم أقل لخيلي كرّي نفّسي عن رجاليا
ولم أسبأ الزقّ الرويّ ولم أقل لأيسار صدق أعظموا ضوء ناريا

وسواء كان الشاعر يستحضر صورة الموت كالمتلمس أم كان يواجهه فعلا كعبد يغوث فان هذا الشعر رثاء لا شك فيه .. والشاعر اذ يفخر بفتوته في ظاهر الأمر ، يطمئن نفسه في الحقيقة بأن حياته لم تذهب عبثا .. فقد أغناها بألوان المتعة وضروب المفاخر .. ولكنه يسوق كلامه في حزن وفي أسى على فوات هذه المتع وعجزه الراهن عن جني المزيد منها . ومما يتصل بارتياح الفتى الى امتلاء حياته بالمتع مما يخفف عنه ألم فقدها قول قيس بن الخطيم(١٦) :

تذكر ليلى حسنها وبهاءها
وبانت فأمسى ما ينال لقاءها
ومثلك قد أصبيت ليست بكنة
ولا جارة أفضت اليّ حياءها
اذا ما اصطبحت أربعا خطّ مئزري
وأتبعت دلوي في السخاء رشاءها
ثأرت عديا والخطيم فلم أضع
ولاية أشياخ جعلت ازاءها
. . . .
. . . .

(١٦) ديوان قيس بن الخطيم رقم ١ ص ٢١ .

متى يأت هذا الموت لا تبق حاجـــة

لنفسي الا ّ قــد قضـيت قضاء ّها

وصورة الفتوة شائعة في الشعر الجاهلي وهي تتخذ مثالا يتوارد عليه الشعراء فالشاعر يأتي بخاطرته في الفناء فيرثي الديار أو يبكي شبابه أو يتوجع من تغيير الدهر لحبيبته أو يذكر امرأة غضت منه لسنّه وضعفه ثم يردّ على هذه الخاطرة بأنه طالما كان فتى منفلت العنان ثم يعدّد من الوان البطالـــة ما يهتم به ، موجزا أو مطيلا في ذلك كله أو بعضه ، وانما يختلف شـــعراء الجاهلية في الاهتمام ببعض أعمال الفتيان .

كاهتمام الاعشى بالخمر والنســـاء ، واهتمام امرىء القيس بالمرأة والصيد . وسنجتزىء بتحليل بعض أمثلة هذا اللون من تصوير الفتوة لأن أمثلته كثيرة في شعرهم .

يقول امرؤ القيس[١٧] :

ألا عـم صـباحا أيهـــا الطلل البـــالي

وهل يعمن من كـان في العصر الخـــالي

وهـــل يعمن الا ّ ســـــــعيد مخـلـّد

قليـــل الهموم ما يبيت بأوجـــــــال

وهـل يعمن من كـــان أحدث عهـــده

ثلاثين شـــــــهرا في ثلاثة أحـــــوال

ديـار لســـــلمى عافيـات بـذي خـــــال

ألحّ عليهـا كلّ أســـــحمَ هطّـال

(١٧) ديوان امرىء القيس رقم ٢ ص ٢٧ . واهم ما خالفت فيه شرح القدماء هو في قوله : صرفت الهوى عنهن من خشية الردى .. فقد فسروا الردى هنا بالفضيحة وهو تفسير لا يتفق مع شخصية امرىء القيس وقصصه الذي يرويه مع النساء ذوات الازواج والاطفال ..

وتحسب سلمى لا تزال ترى طَلاً

من الوحش أو بَيْضاً بميثاء مِحلال

وتحسب سلمى لا تزال كعهدنا

بوادي الخزامى أو على رأس أوعال

ليالي سلمى اذ تريك مُنَصَّباً

وجيداً كجيد الرئم ليس بمعطال

الا زعمت بسباسة اليوم أنني

كبرت والا يحسن اللهو أمثالي

هذه خاطرة الشاعر في الفناء ، وهو يتمثل له في اطلال حبيبته سلمى التي لم يبق له منها الا الذكرى الحية التي تكاد ترتسم أمامه ، ويتمثل له كذلك في كبره الذي تشير اليه بسباسة .. وهو يرد عليها بعنف ملحوظ ينمّ عن خوفه الشديد من الشيخوخة :

كذبت لقد اصبي على المرء عرسه

وأمنع عرسي أن يُزَنَّ بها الخالي

ويا ربّ يوم قد لهوت وليلة

بآنسة كأنها خطّ تمثال

ولكن ذلك كله مضى وبسباسة صادقة والشاعر يحس بقرب النهاية :

وبيت عذارى يوم دجن ولجته

يطفن بجبّاء المرافق مكسال

سباط البنان والعرانين والقنا

لطاف الخصور في تمام واكمال

نواعمَ يتبعن الهوى سبل الردى

يقلن لأهل الحلم ضلاً بتضلال

صرفت الهوى عنهن من خشـية الردى
ولـست بمقليّ الخـلال ولا قـال

وقد صار خوف الردى ينغّص على امرىء القيس لذاته .. ويمثل أمامه قريبا واقعا فيرثي نفسه هذا الرثاء القريب مما رويناه من رثاء عبد يغوث والمتلمس :

كـأني لـم أركب جـواداً للـذة
ولم أتبطـن كاعبـا ذات خلخـال
ولـم أسـبأ الزق الروي ولـم أقـل
لخيـلي كرّي كرّة بعـد إجفال
ولـم أشـهد الخيـل المغيرة بالضـحى
على هيكل نهـد الجزارة جـوّال

ويجرّه ذكر الخيل الى أن يرسم مشهدا من مشاهد الصيد ، فاذا وصلنا الى نهاية القصيدة سمعنا كلاما فيه الكثير من الحيرة والالم ، فامرؤ القيس الذي يحس باقتراب نهايته يعمل في الوقت نفسه على استرجاع ملك آبائه ، وهو يحس أن قرب الموت منه جدير بأن يصرفه عن المال وعن الملك .. ولكنه لا يستطيع أن يهمل هذا الملك ما بقيت حشاشة نفسه .. وهي بعد طبيعة الانسان الذي تراوده آماله حتى اللحظة الاخيرة من حياته فلا هو بمدرك شيئا من آماله ولا هو يرتاح باليأس منها :

فلو ان ما أسـعى لأدنى معيشـة
كفاني ولم أطلب قليـل من المـال
ولكنما أسـعى لمجـد مؤثـل
وقـد يدرك المجـد المؤثل أمثـالي
وما المرء ما دامت حشـاشـة نفسـه
بمدرك أطـراف الخطـوب ولا آلي

ومعلّقة امرىء القيس لا تختلف عن هذه القصـيدة الا في أنها أكثر بساطة : فهو يبكي في أولهـا من ذكرى الحبيب والمنزل .. ثم يندفـع في استرجاع ذكريات صباه .. وهي في المعلّقة تقتصر على نجاحه في اسـتمالـة المرأة ثم يقول في آخر قصصه الغرامي :

تسـلت عمايـات الرجال عن الصبا
وليـس فؤادي عن هواهـا بمنسـلي

وليس هذا من كلام فتى عابث وانما هو كـلام رجـل بلغ من العمر ما يعتبره المجتمع سنّ النضج ومراجعة النفس وتغلّب الحلم على عاطفـة الصبا .. وهو يقول ذلك بين يدي حديثه عن همومه التي يأتيه بها الليـل ولا يريحه منها النهار .. فنفهم نوع هذه الهموم وهي على الاكثر هموم انسان صار يعيش على ذكرى الماضي .

ويقول عبيد بن الابرص في مثال نادر من شعر الفتوة يقسم فيه ذكرياته فيوردها في موجتين متلاحقتين[18] :

وبيت يفـوح المسـك من حجراتـه
تسـدّيتـه من بين سـرّ ومخطوب
ومسـمعة قـد أصحل الشرب صوتها
تأوّى الى أوتار أجوف محنـوب
شـهدت بفتيـان كرام عليهم
حبـاء لمن ينتابهم غيرُ محجـوب
وخرق من الفتيـان أكرم مصـدقا
من السـيف قد آخيت ليس بمذروب
فأصـبح منّي كل ذلك قـد مضـى
فأيّ فتى في النـاس ليس بمكـذوب

(١٨) ديوان عبيد رقم ٨ ص ٢٥ ، وانظر القصيدتين رقم ١٢ ص ٣٨ ، رقم ٤١ ص ١٠٥ .

هذا هو الجانب اللاهي من حياة الشاعر ، وهو يرسل في أثر ذكرياته هذه الحسرة المؤلمة .. ويشعر بأنه خدع بجمال تلك الايام كما يخدع كل فتى .. ولم يبق له من هذه الحياة الا ذكرى ليس لها وزن في ميـــزان الحقيقة .. ويقول عبيد بعد ذلك مباشرة :

وقد اغتدي في القوم تحتي شـملة
بطرف من السيدان أجرد منسوب

كميتٍ كشاة الرمل صافٍ أديمُه
مِفَجٍّ الحوامي جُرْشُعٍ غير مجنوب

وخيلٍ كأسراب القطا قد وزعتها
بخيفانة تنمي بساق وعرقوب

. . . .

ترى المرء يصبو للحياة وطولها
وفي طول عيش المرء أبرح تعـذيب

وهو في هذا القسم يتذكر الجانب الجادّ من حياته ، وينهيه نهاية أصرح ، فهو قد أصبح شيخا عاجزا عن حياته الماضية .. وهو مبّرح أبرح تعذيب بهذه الشيخوخة التي أسلمه اليها حب الحياة ومدافعة الموت ..

ويقول الاسود بن يعفر[١٦] :

هـل لشـباب فات من مطلب	أم ما بكاءُ البَدَنِ الاشيب
الا أضاليلُ ومن لا يزل	يوفي على مَهْلكة يَعْطب
بدّلت شيبا قد علا لمّتي	بعد شباب حسن مُعْجِب

(١٦) منتهى الطلب ١/٨٧ ـ ٨٨ . وانظر داليته المفضلية رقم ٤٤ ص ٢١٦ . وفي حماسة البحتري ثلاثة ابيات من مثالنا منسوبة للاسود ابن جهم التميمي ص ٢٨٨ . ويبدو ان هذا الخطأ يقتصر على اسم الاب ، لان الاسود نهشلي تميمي .

صاحبته ثمّت فارقته	ليت شبابي ذاك لم يذهب
وقد أراني والبلى كاسمه	اذ أنا أمشي ولم أحدب
ولم يعرني الشيب أثوابه	اصبي عيون البيض كالربرب
كأنما يومي حول اذا	لم أشهد اللهو ولم ألعب
وقهوة صهباء باكرتها	بجهمة والديك لم ينعب
وطامح الرأس طويل العمى	يذهب جهلا كل ما مذهب
كويته حين عدا طوره	في الرأس منه كية الكلب
وغارة شعواء ناهبتها	بسابح ذي حضر ملهب
تراه بالفارس من بعد ما	نكس ذو الأعنة كالأنكب
وصاحب نبهته موهنا	ليس بأنتاح ولا جانب
أروع بهلول الحشا	كالنصل ما تركب به يركب
فقام وسنان الى رحله	وجسرة دوسرة ذعلب
ومرباً كالزج أشرفته	والشمس قد كادت ولم تغرب
تلفني الريح على رأسه	كأنني صقر على مرقب
ذاك ومولي يمج الندى	قريانه أخضر مطلوب
قفر حته الخيل حتى اذا	زاهره أغشى بالزرنب
جاد السماكان بقريانه	بالنجم والنثرة والعقرب
كأن أصوات عصافيره	أصوات راعي ثلة مخصب
قدت به أجرد ذا ميعة	عبل الشوى كالصدع الأشعب
فردا تغنيني مكاكيه	تغني الولدان في الملعب

والقصيدة غنية عن التحليل وهي تصور شيخا يتذكر صباه .. ويلفت النظر فيها انها تنتهي بمثل ما رويناه لإمرىء القيس ، بمشهد من مشاهد الصيد يتكون من وصف مكان جاده المطر فأمرع وأخصب ، وقد ارتاده الشاعر على جواده الذي يصف من نشاطه ما يصف .

ويقول سلمي بن عوية بن ربيعة الضبي[٢٠] :

لا تَبْعُدَنْ عهدُ الشباب ولا لذاته ونباته النضر
والمرشقاتُ من الخدود كأيـ ماض الغمام صواحب القطر
وطرادُ خيل مثلها التقتا لحفيظة ومقاعدُ الخمر
لولا أولئك ما حفلت متى عوليت في حرج الى قبر
هزئت زنيبة ان رأت ثرمي وان انحنى لتقادم ظهري

وهذه هي نفس ثلاثية طرفة .. ولكنها هنا ماض ذهب .. وقريب من ذلك قول بشر بن ابي خازم[٢١] :

وعشت وقد افنى طريفي وتالدي
قتيل ثلاث بينهن أصرّع
فإن سقاط الخمر كانت خباله
قديما فلوموا شارب الخمر أودعوا
وحبه القداح لا يزال مناديا
اليها وان كانت بليل تقعقع
نساءُ الحسان المرْشِقات كأنها
جآذر من بين الخدور تطلّع

---

(٢٠) مجالس ثعلب ١/٢٤٥ .. وهكذا ذكر الاسم .. ولعله غوية بن سلمي ابن ربيعة فيكون ابن الشاعر الذي روينا له فيما مضى « هامش ٦ من هذا الفصل ص ١٦٣ » وذكر في معجم الشعراء عوية بن سلمي بن ربيعة وقال انه جاهلي ، وانشد ابياتا على التاء لشاعر سماه اقرانة بن غوية بن سلمى بن ربيعة وذكر انه جاهلي ص ٣٢٧ . والابيات التائية نفسها انشدها ابو زيد في نوادره لرجل ادرك الاسلام : ص ٢٢ ، وبهذا يكون سلمى وابنه غوية وحفيده قرانة جاهليين . وذكر البكري في التشبيه ص ١١٥ ان قائل مثالنا هو سلمى بن غوية بن سلمى بن ربيعة . . فاذا صح ذلك فهو اخو قرانة الذي يذكر ابو زيد والمرزباني جاهليته .. وكذلك فان روح الشعر جاهلي .

(٢١) ديوان بشر رقم ٢٥ ص ١١٦ .

وقد أولع الأعشى بهـذا اللون من الشـعر وتفنّن فيه .. ومن ذلك قـولـه[22] :

لعمرك ما طـول هـذا الزمن	على المرء الا عنـاء معن
يظـل رجيما لريب المنـون	وللسقـم في أهله والحزن
وهـا لك أهـل يجنّـونـه	كآخـر في قفـرة لم يجـن
وما إن أرى الدهـر في صرفه	يغـادر من شـارخ أو يفن
فهـل يمنعنّي ارتيـادي البلا	د من حـذر الموت أو يـاتين
اليـس اخـو الموت مسـتوثقا	عليّ وان قلت قـد أنسـأن
عليّ رقيب لـه حـافـظ	فقل في امـرىء غلق مرتهـن
أزال أذينـة عن ملكـه	وأخرج من حصنـه ذا يزن
وخـان النعيم أبا مـالك	وأي امرىء لم يخنـه الزمن
أفـاد المـلوك فأفنـاهـم	واخـرج من بيتـه ذا حـزن
وعهـد الشـباب ولذاته	فـان يك ذلك قد نتّـدن
وطاوعت ذا الحلم فاقتـادني	وقـد كنت أمنع منـه الرسن
وعاصيت قلبي بعـد الصـبا	وأمسى وما ان لـه من شـجن
فقد أشرب الراح قـد تعلميـ	ـن يوم المقـام ويوم الظّعن
وأشرب بالريف حتى يقـال	لـ قد طال بالريف ما قد دجـن
وأقـررت عيني من الغـانيا	ت إمّـا نكاحـا وإمّـا أزن

. . . .

وبيداء قفـر كبرد السـدير	مشـارها دائرات أجـن
قطعت اذا خبّ ريعـانهـا	بدوسـرة جسـرة كالفدن

---

(22) ديوان الاعشى رقم ٢ ص ١٥ . وستأتي أمثلة اخرى من شعره .

ومن الواضح أن ذكريات الأعشى الفتي رويت في ظل خواطره في الفناء المسلط على الملوك والسوقة .. والذي لا يغفل عن انسان حلّ أو ارتحل .. وغاية الأمر أن يؤجل الانسان فيلقى الفناء المتمي من الشيخوخة والسقم وترقب الموت .. والجانب المشرق في الحياة أنها لم يخدع عنها صاحبها .. فقد شرب فأكثر ، وأقر عينه من النساء وركب الاخطار ..

ويقول البرج بن مسهر الطائي[33] :

وندمان يزيد الكأس طيبا	سقيت اذا تعرّضت النجوم
رفعت برأسه وكشفت عنه	بمعرفة ملامة من يلوم
فلمّا أن تنشّى قام خرْق	من الفتيان مختلف هضيم
الى وجناء ناوية فكاست	وهي العرقوب منها والصميم
فاشبع شربه وجرى عليهم	بأبريقين كأسهما رذوم
تراها في الاناء لها حميّا	كميتا مثلما فقع الأديم
فبتنا بين ذاك وبين مسك	فيا عجبا لعيش لو يدوم
يطوّف ما يطوّف ثم يأوي	ذوو الأموال منّا والعديم
الى حفر أسافلهن جوف	وأعلاهن صفّاح مقيم

ونحن نستطيع أن نفهم لاميّة حسّان الشهيرة في آل جفنة في ضوء هذه النماذج فهي في حقيقتها قصيدة ذكرى وليست قصيدة مدح .. ويغلب على الظن أنه نظمها بعد شيخوخة وسنّ عالية ، وبعد ان ذهب ملك آل جفنة فهو يقول فيها[34] :

أسألت رسم الدار أم لم تسأل
بين الجوابي فالبضيع فحومل

(33) المؤتلف والمختلف ص ٦٢ ، مجموعة المعاني ص ١٩٩ . وقد حقق المرزوقي جاهلية الشاعر في شرح الحماسة ٢٥٩/١ .

(34) شرح ديوان حسان ص ٣٠٧ . وانظر امثلة اخرى لشعر الفتيان في : شرح ديوان لبيد القصائد رقم ٩ ، ٢٥ ، ٤٨ . المفضليات : الحادرة
←

فالمرج مرج الصفتَّرين فجاسم
فديار سلمى دُرَّساً لم تحلل

دمِن تعاقبها الرياح دوارس
والمدجنات من السماك الأعزل

دار لقوم قد أراهم مرّة
فوق الأعزّة عزّهم لم ينقل

لله در عصابة نادمتهم
يوما بجلّق في الزمان الأول

. . . .

فلبثت أزماناً طوالا فيهم
ثمّ ادّكرت كأنني لم أفعل

هم إذن ذكرى لم يبق منها شيء .. وكأنها كانت حلما لم يحدث قط .. وهو قد نادمهم في الزمان الاول .. ويستمر الشاعر في استرجاع الذكريات الاخرى .. فيقول :

أما ترى رأسي تغيّر لونه ... شمطا فأصبح كالثغام المحول
فلقد يراني موعديّ كأنني ... في رأس دومة أو سواء الهيكل
ولقد شربت الخمر في حانوتها ... صهباء صافية كطعم الفلفل
يسعى عليّ بكأسها متنطّف ... فيعلّني منها ولو لم أنهل

. . . .

رقم ٨ متمم بن نويرة رقم ٩ ثعلبة بن صعير رقم ٢٤ ، مرقش الاكبر رقم ٥١ ، ربيعة بن مقروم رقم ١١٢ ، علقمة بن عبدة رقم ١٢٠ . الاصمعيات : خفاف بن ندبة رقم ٢ ، والمنخل اليشكرى « الرائية » رقم ١٤ وذهبت في اختيار هذه القصائد الى وضوح الفكرة فيها وشمولها لعدة جوانب من الفتوة .

ولقد تقلّدنا العشيرة أمرها ونسود يوم النائبات ونعتلي

. . . .

وتزور أبواب الملوك ركابنا ومتى نحكّم في البرية نعدل

وليس حسّان مبتدعا او غريبا حين يجعل منادمة الملوك وأخذ جوائزهم من ألوان فتوّته الماضية .. فقد مرّ بنا في شعر المتلمس الذي رويناه قوله[٢٥] .

ولم يمدح القرم الهمالك بكفه لطائم يسقى من فواضلها القفر

ويفخر الأعشى بمدح جماعة من الملوك على النحو الذي عرفناه في شعر الفتيان فيقول[٢٦] :

ولقد ساءها البياض فلطّت	بحجاب من دوننا مسدوف
فاعرفي للمشيب اذ شمل الرأ	س فان الشباب غير حليف
ودعي الذكر من عشائي فما يد	ريك ما قسوتي وما تصريفي
وصحبنا من آل جفنة املا	كا كراما بالشام ذات الرفيف
وبني المنذر الاشاهب بالحيـ	ـرة يمشون غدوة كالسيوف
وجُلُنداء في عمانّ مقيما	ثم قيسا في حضرموت المنيف
قاعدا حوله الندامى فما ينـ	ـفك يؤتى بموكر مجدوف
وصدوح اذا يهيجها الشـ	ـرب ترقّت في مزهر مندوف
بينما المرء كالرديني ذى الجبـ	ـة سوّاه مصلح التثقيف
أو اتاه النضار لاحمه القيـ	ـن وداري صدوعه بالكتيف
ردّه دهره المضلل حتى	عاد من بعد مشيه كالدليف

---

(٢٥) هامش رقم ١٢ من هذا الفصل ..

(٢٦) ديوان الاعشى رقم ٦٣ ص ٢١٣ .

وقد لاحظ د. محمد حسين أن هذه القصيدة ليست مديحا لبعض هؤلاء الملوك كما روى ثعلب وذكر ان القصيدة مما يتذكر الاعشى شبابه فيه وعندي أن لامية حسّان لا تختلف عنها ..

المرأة في شعر الفتيان

وقد رأينا أن من ضروب مفاخر الفتيان اختلاب النساء .. ونحن نلاحظ في حديثهم عن ذلك انهم لا يحتفون بالعواطف الرقيقة المخلصة وانما يذهبون الى المتعة المادية .. ومن هنا نجد امرأ القيس يذكر أكثر من امرأة .. أما بتسمية عدة نساء .. أو على طريقتهم في التكثير « ومثلك .. وبيضاء » ان المرأة في هذا الحديث ليست انسانا بقدر ما هي أداة المتعة[27] . وللمرأة دور آخر في هذا اللون من الشعر .. فنحن كثيرا ما نجدها شابة خالدة الشباب تسخر من الشاعر الشيخ وتهزأ من ضعفه وتعرض عنه .. فتستثير حديثه عن فتوّته الماضية ذلك مع أن الشاعر يروي لنا بعض ذكريات شبابه مع هذه الفتاة نفسها .. فكأنه شاخ وشاب رأسه وبقيت حبيبة صباه خارج نطاق الزمن .. يقول الاعشى[28] :

بانت سعاد وأمسى حبلها انقطعا
واحتلّت الغمر فالجُدّين فالفرَعا

وانكرتني وما كان الذي نكِرت
من الحوادث الاّ الشيبَ والصلعا

---

(٢٧) استدل د . محمد حسين على هذه النظرة الى المرأة في شعر الاعشى بانه يهمل تسميتها احيانا ويكتفي بالاشارة اليها . . : مقدمة ديوان الاعشى ص ق . ويقول ص ٨٢ في شرح القصيدة رقم ١٠ : « والاعشى هنا كما هو في كثير من قصائده لا يعنيه من امر صاحبته التي يتغنى بها الا انها وسيلة لتحقيق لذته ولذلك فهو لا يذكر اسمها وانما يشير اليها ب «بيضاء» فهو لا يتغنى بها في حقيقة الامر وانما يتغنى بلذته» .

(٢٨) ديوان الاعشى رقم ١٣ ص ١٠١

قد يترك الدهر في خلقاءَ راسيةٍ
وهيا وينزل منها الأعصم الصدعا

بانت وقد أسأرت في النفس حاجتها
بعد ائتلاف وخيرُ الودّ ما نفعا

وقد أرانا طلابا همَّ صاحبه
لو أن شيئا اذا ما فاتنا رجعا

تعصي الوشاة وكان الحبُّ آونة
مما يزيّن للمشغوف ما صنعا

وكان شيء الى شيء فغيّره
دهر يعود على تشتيت ما جمعا

وما طلابك شيئا لست مدركه
ان كان عنك غراب الجهل قد وقعا

هذه سعاد تنكر على الشاعر شيبه وصلعه ، ولكنها في مثل سنه كما يقول .. لأنه عرفها وعرفته في الشباب .. ومثل ذلك قول الاعشى أيضا[٢٩] :

ألم تنه نفسك عما بها	بلى عادها بعض أطرابها
لجارتنا اذ رأت امّتي	تقول لك الويل أنى بها
فان تعهديني ولي لمّة	فانّ الحوادث ألوى بها

وفي هذه القصيدة يقول :

مضى لي ثمانون من مولدي	كذلك تفصيل حسابها
فأصبحت ودّعت لهو الشبا	ب والخندريس لأصحابها

(٢٩) ديوان الاعشى رقم ٢٢ ص ١٧١ ــ ١٧٣ .

فهذه الجارة التي كانت تعهد الأعشى شابا له لمّة تعجب لشيخوخته وهو في الثمانين من عمره أما هي فلا يبدو أنّ للسنين بها شأنا . ويقول الاسود بن يعفر[٣٠] :

قد أصبح الحبل من أسماء مصروما
بعد إئتلافٍ وحبٍّ كان مكتوما
واستبدلت خلّة مني وقد علمت
أن لن أبيت بوادي الخسف مذموما
عفّ صليب اذا ما جلبةٌ أزمَت
من خير قومك موجودا ومعلوما
لمّا رأت أن شيب المرء شامله
بعد الشباب وكان الشيب مسؤوما
صدّت وقالت أرى شيبا تفرّعه
انّ الشباب الذي يعلو الجراثيما

ويقول[٣١] :

صحا سُكْرٌ منه طويل بزينبا
تعاقبه لمّا استبان وجرّبا
وأحكمه شيبُ القَذال عن الصبى
فكيف تصابيه وقد صار أشيبا
وكان له فيما أفاد حلائل
عجلن اذا لاقينه قلن مرحبا
فاصبحن لا يسألنه عن غيابه
أصعّد في علو الهوى أم تصوّبا

---

(٣٠) المفضليات رقم ١٢٥ ص ٤١٨ .

(٣١) الصبح المنير ص ٢٩٣ .

على انه يغنينا عن الازدياد من الامثال ان هذه الظاهرة هي الاصل في شعرهم والنادر أن يذكر الشاعر أنّ صاحبته شاخت كما شاخ . ومن هذا النادر قول شمعة بن قمير الطهوي[32] :

وما تنكري منّي فقد ردّ مثله
عليك اختلاف بكرة وأصيل
تقعقع قلباها وشاب لداتها
وجازت لطيش نبلها ونصولي

وقول معاوية بن مالك معوّد الحكماء[33] :

أجدّ القلب من سلمى اجتنابا
وأقصر بعد ما شابت وشابا
وشاب لداته وعدلن عنه
كما أنضيت من لبس ثيابا
فان تك نبلها طاشت ونبلي
فقد نرمي بها حيثا صيابا
فتصطاد الرجال اذا رمتهم
وأصطاد المخبأة الكعابا

وهذا اللون الواقعي من الحديث عن المرأة نادر كما ذكرنا ، مما يحتم علينا أن نفهم المرأة ـ وان حدّد اسمها ـ على انها اللذة والمتعة وحياة اللهو يتغنون بها وبشبابها الخالد . فالشاعر يهرم ويشيخ ولكنّ شوقه الى الحياة يظل شابا .

---

(32) المؤتلف والمختلف ص ١٤٢ . وفيه جادت لطيش .

(33) المفضليات رقم ١٠٥ ص ٣٥٧ . . وانظر القصيدة رقم ٦٣ في ديوان الاعشى وفيها يذكر مكابرة صاحبته ورفضها الاعتراف بالكبر .

ويغلب على خمر الفتيان أن تكون صبوحا يباكرونها قبل الفجر وقبل أن ينتشر الناس في الأرض وقبل أن يسمع صوت الطير .. وهذه عناية لا تسلك فيها بتأكيد معنى التبكير في شرب الخمر .. يقول الأعشى[34]:

أتاني يؤامرني في الشمول ليلا فقلت له غادها
أرحنا نباكر جد الصبوح قبل النفوس وحسادها
فقمنا ولما يصح ديكنا الى جونة عند حدادها

ويقول:

وكأس كعين الديك باكرت حدها
بفتيان صدق والنواقيس تضرب

ويقول:

وذات نواف كلون الفصوص باكرتها فادمجت ابتكارا
غدوت عليها قبيل الشروق إما نقالا وإما اغتمارا

ويقول عدي بن زيد[35]:

هذا ورب مسوفين صبحتهم
من خمر بابل لذة للشارب
بكروا علي بسحرة فصبحتهم
بإناء ذي كرم كقعب الحالب

(34) ديوان الاعشى رقم ٨ ص ٦٩ ، رقم ٣٠ ص ٢٠٣ ، رقم٥ ص ٤٥ .

(35) ديوان عدي بن زيد رقم ٢٨ ص ١٧ . والاغاني « الدار » ٢/٣٥٥ ويذكر ابو الفرج ان في القطعة غناء لحنين الحيري .

ويقول ثعلبة بن صعير[٣٦] :

باكرتهم بسباء جون ذراع
قبل الصباح وقبل لغو الطائر

ويقول عبدة بن الطبيب[٣٧] :

وقد غدوت وقَرْنُ الشمس منفتق
ودونه من سواد الليل تجليل
اذ أشرف الديك يدعو بعض اسرته
لدى الصباح وهم قوم معازيل
الى التجار فأعداني بلذته
رِخو الازار كصدر السيف مشمول

وقد ذكر الاعشى الصبوح في عشرة مواضع من شعره[٣٨] ولم يذكر وقتا آخر لشربه غير ما جاء في قوله[٣٩] :

شربت اذا الراح بعد الاصيل طابت ورقّم أطلالها

وقوله :

ولقد أرجّل جمّتي بعشية للشرب قبل سنابك المرتاد

---

(٣٦) المفضليات رقم ٢٤ ص ١٣٠ .

(٣٧) المفضليات رقم ٢٦ ص ١٤٣ .

(٣٨) ديوان الاعشى « الترقيم للقصيدة فالبيت » : ٥ـ١٢ ، ٦ـ٢٦ ، ٨ ـ ١٠ ، ١٠ ـ ١٠ ، ٢٦ ـ ١٦ ، ٣٠ ـ ١٢ ، ٢٦ ـ ٤٢ ، ٦٤ـ١٢ ، ٧٦ ـ ٧ ، ٧٨ ـ ٢١ . ولم أحص الصبوح حين يذكرها على سبيل التشبيه .

(٣٩) ديوان الاعشى رقم ٢١ ص ١٦٣ ، رقم ١٦ ص ١٣١ .

ولعله هنا يقصد أنه يتهيأ في العشية ليصل الى الحانوت قبل الصباح قبل سابك المرتاد .. وليس في شعر عدي بن زيد[40] وحسان[41] ذكر الصبوح ولعلهم يصورون بهذا الاصرار على الصبوح لهفة الى الخمر وانشغالا بها عما يؤدي الانسان من عمله وما يدبّر من معايشه في النهار .. فهم لا يفرطون في الفرص ولا يشتغلون بغير المتعة .. ومردّ ذلك الى الخوف من الغد ومن مفاجأة الحوادث ..

الصيد في شعر الفتيان :

وقد يفخر الفتيان بالصيد .. ويغلب أن تكون رحلة الصيد التي يفخرون بها الى مكان لم يطأه أحد قبلهم أو مكان مخوف حمته الرماح .. ويتكون مشهد الصيد عادة من وصف لمكان أصابه الغيث فامرع وزهى بالزرع الذي يجتذب الوحش والقسم الآخر من مشهد الصيد يتضمن وصفا للحصان الذي ركبه الشاعر في رحلته وقد يطغى أحد القسمين على المشهد فيطيل الشاعر في وصف الغيث أو الفرس ويختصر الكلام على القسم الآخر .

يقول امرؤ القيس[42] :

وقد اغتدي والطير في وكناتها
لغيث من الوسمي رائده خال
تحاماه أطراف الرماح تحاميا
وجاد عليه كلّ اسحمَ هطّال

---

(40) ديوان عدى « القصيدة فالبيت » ١٣/١٢ ؛ ٢/٢٨ ، ١/٤٤ .

(41) شرح ديوان حسان :
ص ١١٢ اهوى حديث الندمان في فلق الصبح وصوت المسامر الغرد
ص ٢٢٥ :
مع ندامى بيض الوجوه كرام   نبهوا بعد خفقة الاشراط
ص ٢٥٦ .
وقد غدوت على الحانوت يصحبني من عاتق مثل عين الديك شعشاع
ص ٤١٢ :
لتصطبحن وان اعرضت عنها   ولو اني بحيته سقاني

(42) ديوان امرىء القيس رقم ٢ ص ٣٦ .

بمجلزة قـد أترز الجـرى لحمهـا
كميت كـأنهـا هـراوة منـوال
ذعـرت بهـا سربـا نقيـا جلوده
واكرعـه وشي البرود من الخـال

الى آخر قوله في ذلك .. ويقول امرؤ القيس ايضا[43] :

وغائط قـد قطعت وحـدي للقلب من خوفـه اجـلال
صـاب عليه ربيع باكـر كـأن قريـانـه الرحـال
تقـدمني نهـدة سبوح صـلّبها العضّ والحيـال

ويقول زهير[44] :

وغيثٍ من الوسـميّ حـوّ تلاعـه
أجابت روابيـه النجا وهواطـله
هبطت بمسـود النواشر سـابح
ممَرّ أسـيل الخد نهـدٍ مراكله

ويقـول طرفة[45] :

وضـابٍ سَـفَرَ الماء بهـا
غرقت أولاجهـا غير الثـدد
فهي موتى لعـب المـاء بهـا
في غثـاء سـاقه السـيل عندد
قـد نبطنت بطـرف هيكـلٍ
غير مربـاء على جـأب مكـد

---

(43) المصدر السابق رقم ٣٣ ص ١٦٠ .
(44) شرح ديوان زهير ص ١٢٧ ، مختار الشعر الجاهلي ص ٢٤١ والنص منه .
(45) ديوان طرفة رقم ٣ ص ٢٨ .

ويقول لبيد[46] :

وغيثٍ بدكداك يزين وهاده
نبات كوشي العبقري المكثب

أربّت عليه كلّ وطفاء جونةٍ
هتوفٍ متى ينزف لها الوبل تسكب

بذي بهجة كنّ المقانب صوبه
وزيّنه أطراف نبت مشرّب

الى أن يصل الى وصف حصانه فيقول :

بسرت نداه لم تسرّب وحوشه
بضرب كجذع الهاجريّ المشذّب

ويقول تميم بن أبيّ بن مقبل[47] :

وغيثٍ مريع لم يجدّع نباته
ولته أهاليل السماكين معشبٍ

برت وغناني الذباب عشية
بذابله والشمس لمّا تغيّب

والشمس أسباب كأن شعاعها
ممدّ حبالٍ في خباء مطنّب

بذي ميعة كان بعض سقاطه
وتعسدانه رشلا ذآليل ثعلب

ويقول[48] :

وغيثٍ تبطّنت الندى في تلاعه   بمضطلع التعداء نهد مراكله

---

(46) شرح ديوان لبيد رقم ٢ ص ١١ .
(47) ديوان ابن مقبل رقم ٢ ص ٨ .
(48) ديوان ابن مقبل رقم ٣٢ ص ٢٤٦ .

ويقــــول[49] :

وغيثٍ تبطّنت قرْيــــانــه إذا رفّـه الوبلُ عنـه دجن
وقــوف بــه تحت أظـــلالــه كهول الخزامى وقوف الظّعَن
كـأنّ صـــواهـل ذبّــانـه قبل الصـــباح صهيل الحصن
بنهـد المراكـل ذي ميعــــة أزلّ الفشار معـــنٍ مغــن

ولعل تداعي وصف الغيث والحصان داخل اطار مشهد الصيد أوجـد تداعيا بين الموضوعين بعامـة .. وذلك يمكن ان يفسّر لنـا تعاقب وصـف الفرس والامطار في معلقة امرىء القيس التي يبدو فيها جزءا الصـــــورة منفصلين .. يقول امرؤ القيس :

وأنت اذا اســـتدبرته سدّ فرجَه بضافٍ فويق الأرض ليس بأعـــزل
أحار ترى برقـا كـــأن وميضــــه كلمع اليـــدين في حبّي مكلّـل

ومثل ذلك قوله في الضادية[50] :

. . . .

واضـــحى يســـحّ الماء عن كلّ فيقـــة
يحـــوز الضـــباب في صـــفاصف بيض
فاســــقي بــه أختي ضـــعيفة إذ نأت
وإذ بعـــــد المزار غيرّ القـــريض
ومربـأة كـالـزجّ أشــرفت فوقهـــا
أقلّب طرفي في فضــــــاء عريض
فظلت وظـــلّ الجون عندي بلبده
كـأني أعـدّي عن جنـــاح مهيض

---

(49) ديوان ابن مقبل رقم ٣٨ ص ٢٨٩ .
(50) ديوان امرىء القيس رقم ٥ ص ٧٣ .

الى آخر قوله في وصف حصانه ثم صيده .. وقد يبدو لنا وصف الامطار في المعلقة والضادية بعيدا عن أن يصوّر مكانا للصيد لأنه في الحقيقة وصف لعاصفة ، ولكنّ ذلك لا يمنع من تداعي وصف الغيث والخيل تأثرا بمشهد الصيد .. ويبدو ذلك في قول امرىء القيس أيضا[51] :

ديمةٌ هطلاء فيها وطف	طبق الأرض تحرّى وتدر
تخرج الودّ اذا ما أشجذت	وتواريه إذا ما تشتكر
وترى الضبّ خفيفا ماهرا	ثانيا برثنه ما ينعفر
وترى الشجراء في ريّقه	كرؤوس قطّعت فيها الخمُر
ساعة ثم انتحاها وابل	ساقط الاكناف واه منهمر
راح تمريه الصبا ثمّ انتحى	فيه شؤبوب جنوب منفجر
ثجّ حتى ضاق عن آذيّه	عرضُ خيم فخفاف فيسر
قد غدا يحملني في أنفه	لاحق الإطلين محبوك ممر

ففي هذه القطعة يصف امرؤ القيس عاصفة على نحو ما يفعل في المعلقة والضادية .. ثم يتلو هذا الوصف بذكر الفرس الذي حمله في أنف العاصفة .

وقد لاحظنا في حديثنا على علاقة وصف الماء بالرثاء أنه يأتي في أحيان كثيرة للتسلّي عن صور الفناء واستبعادها .. وأنه لذلك يشبه أن يكون رمزا للحياة .. ونضيف هنا أن وصف الحصان بعد وصف الطبيعة السخية ينم عن تعلّق الفتى بالحياة .. واتصاله في الطبيعة .

الناقة في شعر الفتيان :

ومما يرويه الفتيان كذلك في شعرهم حديث قطعهم الصحاري والمفاوز المهلكة على ناقة يصفونها .. وليس لهذا الوصف وظيفة فنية في القصيدة أحيانا .. كما في شعر الاسود بن يعفر وعبد يغوث الحارثي الذي

---

(51) ديوان امرىء القيس رقم 27 ص 144 .

روينا[52] .. ولكن الاعشى بجمعه بين حياة الفتيان والتعبير عنها وبين احترافه المدح يفيد أحيانا من الاسفار فائدة فنية .. ونستطيع أن نرصد محاولته في هذا المجال .. فهو قد يدرج حديث أسفاره في كلامه عن ذكريات شبابه كما في قوله فاخرا[53] :

أجدّ بتيّا هجرُها وشتاتُها — وحبّ بها لو تُستطاع طياتها
وما خلت رأيَ السوء علّق قلبه — بوهنانة قد أوهنتها سِناتها
رأت عنجزا في الحيّ أسنان أمها — لداتي وشبّانُ الرجال لداتها
فسائلها ما أبصرت تحت درعها — على صومنا واستعجلتها أناتها
ومثلكِ خَوْدٍ بادن قد طلبتها — وساعيت معصيا لدينا وشاتها
متى تُسْقَ من أنيابها بعد هجعة — من الليل شِرْبًا حين مالت طلاتها
تخله فلسطيًّا اذا ذقت طعمه — على رَبِذات الثيّ حمشٍ لثاتها
وخصم تمنّى فاجتنبت به الى — وعوجاءُ حرفٍ ليّنٍ عذباتها
تعاللتها بالسوط بعد كلالها — على صحصح تَدْمى به بَخَصاتها
وكأس كماء النيّ باكرت حدّها — بغيرتها اذ غاب عنّي بغاتها

ومن الواضح أن الناقة والسفر أدرجا ادراجا في جملة من أعمال الفتوّة والشاعر لا يتوصل بذكر ناقته الى شيء ، وهو قد يغفل الاستفادة من وصف الناقة في قصائد المديح ـ كذلك يقول الاعشى[54] :

. . . .

فان تك لمتي يا قتل أضحت — كأن لم اجر في ددن غلاما
وأقصر باطلي وصحوت حتى — كأن لم أجر في ددن غلاما
فإنّ دوائر الأيّام يفني — تتابع وقعها الذكر الحساما
وقد أقرى الهموم اذا اعترتني — عُذافِرةً مضبّرةً عقاما

. . . .

---

(52) الهوامش : رقم 19 ، 15 من هذا الفصل ، ص 205 ، 166
(53) ديوان الاعشى رقم 10 ص 83 .
(54) ديوان الاعشى رقم 29 ص 195 ـ 196 .

وادكنَ عاتقٍ حَجْلٍ سِبَحْل صبحت براحه شَرْباً كراما

. . . .

وبيضاءِ المعاصم إلفِ لهوٍ خلوت بِشَكْرِها ليلا تماما
حلفت لكم على ما قـد نعيتم برأس العين إذ نقض السقاما
وشيكا ثم ثاب إليه جسم للتسن° بلادكم إلى ما

وفي قصيدة أخرى يقدم الاعشى وصف اسفاره ثم يستطرد الى آلـوان أخرى من فتوته حتى اذا وصل الى موضع المديح لمّح الى الناقة تلميحا ، يقول الأعشى[٥٥] :

فكيف بدهر خلا ذكره وكيف لنفس بإعجابها
وإذ لمّتي كجناح الغداف ترنو الكعاب لإعجابها
وعنس حملت على سبب مواشكةٍ حين يُرمى بها
ويعْلُنَ منها صريف الديس اذا صرّفته بأنيابها
أكلت السنامَ فأفنيته وشدَّ النسوع بأصلابها
وكأس شربت على لذّة وأخرى تداويت منها بها

. . . .

وكعبة نجران حتم عليك حتى تناخي بأبوابها

ونجده احيانا يؤخر حديث جرأته على الاسفار ليتوصل به الى المدح وهو يبدأ حديثه عن سفره على انه لون من افعاله اذ هو فتى – ولكننا نفهم في آخر حديثه أنه يرتحل الى ممدوحه[٥٦] :

فـامـا تريني عـلى آلـة قليت الصبا وهجرت التجارا

---

(٥٥) ديوان الاعشى رقم ٢٢ ص ١٧١ – ١٧٣ . وفي المطبوع نقص في بعض الابيات اكمله لي استاذي د . محمد حسين عن مخطوطة المكتبة المتوكلية باليمن المحفوظة صورتها بمكتبة جامعة الدول العربية ص ٤١ ب .

(٥٦) ديوان الاعشى رقم ٥ ص ٤٥ – ٤٧ .

فقد اخرج الكاعب المسْتَرا ةَ من خدرها وأشيع القمارا
وذاتِ نواف كلون الفصو ص باكرتها فادمجت ابتكارا

. . . .

وشوقٍ علوق تناسيته بجوالة تستخف الفقارا

. . . .

فلا تشتكنّ اليّ الوجا وطول السرى واجعليه اصطبارا
رواحَ العشيّ وسير الغدوّ يد الدهر حتى تلاقي الخيارا
تلاقين قيسا وأتباعه يسعّر للحرب نارا فنارا

ولست أزعم ان هناك تسلسلا زمنيا لهذه القصائد ؛ وان الشاعر الجاهلي توصل بعد محاولات مختلفة الى استقلال وصف الاسفار استقلالا فنيا .. ولكن الذى نستطيع ان نلاحظه هو أن هذا اللون من الانتقال من مقدمة القصيدة الحماسية الى المدح لا ينفي الصفة الحماسية الاصيلة لوصف الناقة .. فهو لا يأتي في قصائد المديح وحدها أولا .. وهو شعر حماسي حين يأتي في قصائد المديح كذلك ..

ولم تكن هذه الحياة التي يفخر بها الفتيان هي الحياة الطبيعية المعتادة لاهل الجاهلية فهي بطالة أو باطل ، وهي غيّ وضلال يسدر فيه الشباب ثم يصحو منه الرجل الناضج .. يقول الاعشى[٥٧] :

وأقصرت عن ذكر البطالة والصبا
وكانت سفاها ضلةً من ضلالكا

ويقول[٥٨] :

فاصبر فانك طالما أعملت نفسك في الخسارة
ولقد أنى لك ان تفيـ ـق من الصبابة والدعارة

---

(٥٧) ديوان الاعشى رقم ١١ ص ٨٩ .
(٥٨) ديوان الاعشى رقم ٢٠ ص ١٥٥ .

ويقول النابغة[٥٩] :

على حينَ عاتبت المشيبَ على الصبا — وقلت ألمّا أصح والشيب وازع

ويقول زهير[٦٠] :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله — وعرّي أفراس الصبا ورواحله
وأقصر عمّا تعلمين وسُدّدت — عليّ سوى قصد السبيل معادله

ويقول طرفة :

أرى قبر نحّام بخيل بماله — كقبر غويّ في البطالة مفسد

ويقول دريد في مرثية أخيه[٦١] :

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه — فلما علاه قال للباطل ابعد

ويقول عبد قيس بن خفاف البرجمي[٦٢] :

صحوت وزايلني باطلي — لعمرُ أبيك زيالا طويلا

ولم يكن التطرف في التماس المتعة مقبولا في دين الجاهلية وأصرح ما وصلنا مما يدل على ذلك قول الاسود بن يعفر[٦٣] :

ألم يأتها أنّي صحوت عن الصبا — وأبت الى اكرومة وتديّن
وفارقت لذات الشباب وأهله — كمرقة غاد منهم لميمّن

---

(٥٩) مختار الشعر الجاهلي ص ١٥٦ .
(٦٠) شرح ديوان زهير ص ١٢٦ .
(٦١) الاصمعيات رقم ٢٨ ص ١١٤ .
(٦٢) المفضليات رقم ١١٧ ص ٢٨٦ .
(٦٣) منتهى الطلب ١/٨٥ .

ويحس الاعشى أن ما أصابه من آلام في شيخوخته كان عقابا على ما ركب من اثم في صباه فيقول[٦٤] :

وما كان ذلك إلاّ الصبـــا والاّ عقابٌ امرىء قد أثم

ولا نستطيع أنْ نغفل ملاحظة ابن سلاّم التي تقسم الشعراء الى متألّه ومتعهّر .. نحن نفتقد صورة المتألّه في شعر زهير الا في همزيته في هجاء آل حصن وقد تكون هذه القصيدة من شعره المبكر .. وقد كان فيما يروى يكثر من الندم على ما قاله فيهـــا في آل حصن ويرى انه معرّض لعقوبة من الله عليها ..

شعر الكرم

وقد انطلق قسم من اهل الجاهلية من تفكيرهم في الفناء الى الزهد في المال والاسراف في انفاقه والجود به . والخطّ العام لتفكيرهم أن المال لا يمدّ في عمر الانسان والفقر لا يعجّل منيته ؛ وان الانسان فاقد ماله حتما وانما يكسب البخيل في النهاية سوء الاحـــدوثة في الناس ؛ يقول حطـــائط بن يعفر[٦٥] :

تقول ابنة العبّاب رهْم حَرَبْتَنا حطائط لم تترك لنفسك مقعدا
إذا ما جمعنا صِرْمَةً بعد هجمة تكون علينا كابن أمّـك مبردا
فقلت ولم اعيَ الجوابَ تأمّلي أكان هزالا حتف زيد وأربـــدا
أريني جوادا مات هزْلا لعلّني أرى ما ترين او بخيـــلا مخلّدا
ذريني آكن للمال ربّا ولا يكـــن لي المال ربّا تحمدي غبّه غدا
ذريني فلا أعيا بما حـل ساحتي أسـود فأكفي او أطيـع المســودا
ذريني يكن مالي لعرضي وقاية يقي المال عرضي قبل ان يتبدّدا

---

(٦٤) ديوان الاعشى رقم ٤ ص ٣٥ ، وانظر الكلام على التأله في الفصل الثاني من الباب الاول . ص ١١٤

(٦٥) الاغاني « الدار » ١٢/٢٧ عن المفضل شرح الحماسة للمرزوقـــي ١٧٢٢/٤ .

وشعر حطائط هذا من اجمل مـــا قالوا في الكرم واحفله بالتأمل .. فالشاعر يبرّر كرمه بالوان من الحجج .. فلا الكرم يؤدي الى فقر صاحبه حتى يموت هزالا .. ولا البخل يحفظ على الناس حياتهم .. والشاعر يرى أنه بكرمه يملك المال ويصرّفه ولا يملكه ماله ويتصرّف به .. وان هذا الكرم يمكنّه من أن يختار مكانه بين قومه سيّدا او مسودا ، وان هذا المال سيتبدد لا محالة وان احسن ما يصنعه به أن يدفع عن عرضه . ويقول تابط شرا[66]:

بل من لعذالة خذالة أشيـــب حرّق باللوم جلدي أي إحراق
يقول أهلكت مالا لو قنعت به من ثوب صدق ومن بزّ واعـلاق
عاذلتي إنّ بعض اللومّ معنفة" وهـــل متــاع وان أبقيته بـاق
إنّي زعيم لئن لم تتركوا عذلي أن يسأل الحيّ عني أهل آفاق
أن يسال القوم عني أهل معرفة فلا يُخَبِّرهـم عن ثابت لاق
سدّد خلالك من مال تجمّعـه حتى تلاقي الذى كلّ امرىء لاق

ويقول قيك بن مالك[67] :

يا خال ذرني ومالي ما فعلت به وما يصيبك منـــه إنّني مودي
إنّ قيكا أبى إلاّ خلائقــه حتّى تبيد جبال الحرّة السودُ
فلن اطيعـك الاّ أن تخلّدني فانظر بكيدك هل تستطيع تخليدي

ويقول هاشم بن حرملة[68] :

وعاذلـــة هبّت بليـــل تلومني كأني إذا أنفقت مالي أضيـــمها
دعيني فانّ الجود لن يتلف الفتى ولن يخلد النفس اللئيمة لومها
وتذكر أخلاق الفتى وعظـــامه مفرّقة" في القبـر بـاد رميمهـا

---

(٦٦) المفضليات رقم ١ ص ٢٠ .
(٦٧) الاصابة ٦/٨٤ ، وذكر انه انهب ماله بمكة وانه جاهلي .
(٦٨) الاغاني « الدار » ١٥/١٠٣ . عن الاصمعي .

ومن اشهر امثلة هذا المعنى قول حاتم الطائي[٦٩] :

أماويّ قد طال التجنّب والهجر ... وقد عذرتني في طلابكم العذر
أماويّ إنّ المال غـــاد ورائح ... ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماويّ إنّي لا اقول لســـائل ... إذا جاء يوما حلّ في مالنا نذر
أماويّ إمّا مانـــع فمبيّـــن ... وامّا عطـــاء لا ينهنهـــه الزجر
أماويّ مـــا يغني الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر
إذا أنـــا دلاّني الذين أحبهم ... لملحودة زلج جوانبهـــا غبـــر
وراحوا عجالا ينفضـــون اكفّهم ... يقولون قد دمّى أناملنا الحفر
تري أنّ ما أهلكت لم يك ضرّني ... وأنّ يدي مما بخلت به صفر

ومن الشـــعراء من يحرص على ان يذكر أن انفاقه المال غير موجه الى الضلال يقول حاتم الطائي[٧٠] :

وعاذلـــة هبّت بليـــل تلومني ... وقد غاب عيّوق الثريـــا فعرّدا
تلوم على الاهلاك في غير ضلّة ... إذا ضن بالمال البخيـــل وصرّدا

وقد يضيف الشاعر الى حبّه لحسن القالة بين الناس شعورا دينيا بأن انفاقه يرضي الله عنه .. يقول لبيد[٧١] :

تلوم على الاهلاك في غير ضلّة ... وهل لي ما أمسكت إن كنت باخلا
رأيت التقى والحمد خير تجـــارة ... رباحا إذا ما المرء اصبح ناقلا
وهل هو إلاّ ما أبتنى في حياته ... إذا قذفوا فوق الضريح الجنادلا
وأثنوا عليه بالذي كان عنـــده ... وعضّت عليه المائدات الأنامـــلا

---

(٦٩) ديوان حاتم ص ٣٩ .
(٧٠) ديوان حاتم ص ٢٦ .
(٧١) شرح ديوان لبيد رقم ٣٥ ص ٢٤٦ .

ومن الواضح أن الشاعر يربر كرمه بالتقى والحمد معا .. وهما عنده كل الكسب الذي يراه حقيقيا في حياة الانسان .. واوضح من ذلك قول النمر ابن تولب[٧٢] :

ألا يا ليتني حجر بواد	اقام وليت امّي لم تلدني
فاني قد لبست العيش حتى	مَلِلت من الحياة فقلت قدني
ولاقيت الخيور وأخطأتني	شرور جمّة وعلوت قِرني
يلوم أخي على إهلاك مالي	وما إن غاله ظهري وبطني
ولا ضيّعته فألامَ فيه	فانّ ضياع مالك غيرُ مَعْنِ
ولكن كلّ مختبط فقير	يقول ألا استمع انبئك شأني
ومسكين واعمى قال يوما	اغثني للاله ولا تدعني
اقي حسبي به ويمرّ عرضي	عليّ إذا الحفيظة أدركتني
وأعلم أن ستدركني المنايا	فأن لا أتبعها تتبعني
رأيت المانعين المال يوما	مصيرهم لالقاء فدفن

والنمر كما لاحظنا يفرّق بين اهلاك المال في الشهوات وبين انفاقه في وجوه الخير واغاثة الضعيف والاعمى الذي يتوسل اليه بالله .. ويبقى أنّ ما يعتبر ضلة في مقياس الجاهلية هو غير ما تفهمه كمسلمين .. فأجواد الجاهلية يفخرون بأنهم يرَوون نداماهم من الخمر ويعقرون لهم الابل .. وهذا عندهم كرم معتاد مقبول ، يقول النمر تولب[٧٣] :

قامت لتعذلني من الليل ، اسمعي :	سفه تبيّتك الملامة فاهجعي
لا تجزعي لغد فأمر غد له	أتعجلين الشرّ ما لم تشتمي

(٧٢) منتهى الطلب ٤٨/١ ــ ٤٩ . ومن القصيدة ابيات متفرقة في طبقات ابن سلام ص ١٣٤ ، والمعاني الكبير ١٢٦٤/٣ .

(٧٣) خزانة الادب ١٥٣/١ ، والبغدادي ينقل من شرح ديوان النمر لمحمد ابن حبيب . انظر ١٥٥/١ وبعض القصيدة في اللآلي، ٤٨/١، الحماسة البصرية ٣٢/٢ .

قامت تبكّي أن سبات لفتية ... زرقاً وخابية بعَـوْدٍ مُقْطَع
وقربت في مقرى قلائصَ أربعـا ... وقريت بعدَ قرى قلائصَ اربع
أتبكّيا من كـلّ شيء هيّن ... سفهٌ بكاءُ العين ما لم تدمع
فاذا أتاني إخـوتي فذريهـم ... يتعلّلوا في العيش أو يلهوا معي
لا تطرديهم عن فراشـي إنّني ... لابدّ يوما أن سيخلو مضجعي
هـلا سـألت بماديـا وبيته ... والخلّ والخمر التي لم تمنـع
لا تجزعي إن منفس أهلكتـه ... وإذا هلكت فعند ذلك فاجزعي

ومن تأملاتهم في شعر الكرم تصويرهم لما يحدث للمال بعد موت مالكه يقول ضمرة بن ضمرة النهشلي[٧٤] :

بكرت تلومك بعد وهن في الندى ... بسل عليك ملامتي وعتـابي
أأصرها وبنيّ عمّي سـاغب ... فكفاك من إبة عليّ وعـاب
ولقد علمتُ فلا تظنّي غيـره ... أن سوف يظلمني سبيلُ صحابي
أرأيت إن صرخت بليل هـامتي ... وخرجت منهـا عاريا أثوابي
هل تخمشن إبلي عليّ وجوهها ... أو تعصبن رؤوسـها بسـلاب

ويقول النابغة الجعدي[٧٥] :

أرأيت إن بكرت بليـل هامتي ... وخرجت منها باليا أوصـالي
هل تخمشن إبلي عليّ وجوهها ... أو تضربنّ رؤوسـهـا بسـآلي

ويقول ذو الاصبع[٧٦] :

أبنـيّ إنّ المـال لا ... يبكي إذا فقـد البخيلا
فابسـط يمينك بالنـدى ... وامـدد له باعا طويلا

---

(٧٤) الوحشيات ص ٢٥٦ ، الشعر والشعراء ٢١١/١ .
(٧٥) شعر النابغة الجعدي ص ٢٣٦ .
(٧٦) الاغاني « الدار » ٩٦/٣ . وانظر أبياتا في المعنى انشدها في معجم البلدان من رواية ابن الاعرابي لرجل من بني دبير ٣٤١/١ . ولم يذكر زمنه .

وتحدثوا عن الوارث الذي يقبل على المال وينسى صاحبه الميت .. يقول حاتم الطائي[77] :

أهن للذي تهوى التلاد فانه ... إذا متّ كان المال نهبا مقسما
ولا تشقين فيه فيسعد وارث ... به حين تخشى أسود اللون مظلما
يقسمه غنما ويشري كرامة ... وقد صرت في خط من الأرض أعظما
قليل به ما يحمدنك وارث ... إذا ساق مما كنت تجمع مغنما

ويقول عبيد[78] :

إني وجدّك لو أصلحت ما بيدي ... لم يحمد الناس بعد الموت إصلاحي

ويقول ابو دواد الايادي[79] :

والمرء يكسب ماله ... بالشحّ يورثه الكلاله

ويقول الاضبط بن قريع السعدي[80] :

قد يجمع المالَ غير آكله ... ويأكل المالَ غيرُ من جمعه

ويقول النمر بن تولب[81] :

وذي إبل يسعى ويحسبها له ... أخي نصب في رعيها ودؤوب
غدت وغدا ربّ سواه يسوقها ... وبدّل أحجارا وجال قليب

ويقول الحارث بن حلزة معبّرا عن الخوف من مفاجأة الحوادث للاغنياء واصحاب الحيطة والصنع للمال[82] :

---

(77) ديوان حاتم ص ٢٤ .
(78) ديوان عبيد رقم ١٢ ص ٤٠ .
(79) دراسات في الادب العربي رقم ٥٤ ص ٣٢٢ .
(80) أمالي القالي ١٠٧/١ ، البيان والتبيين ٣٤١/٣ ، الاغاني « الساسي » ١٥٥/١٦ .
(81) الكامل للمبرد ٣٢٥/١ ، الحماسة البصرية ٦٥/٢ .
(82) المفضليات رقم ١٢٧ ص ٤٢٩ .

قلت لعمرو حين أبصرته | وقد حبا من دونها عالج
لا تكسع الشول بأغبارها | إنك لا تدري من الناتج
واحلب لأضيافك ألبانها | فإنّ شرّ اللبن الوالج
ربّ عشار سوف يغتالها | لا مبطيءّ الشدّ ولا عائج
يسوقها شلاّ إلى أهله | كما يسوق البكرةّ الفالج
قد كنت يوما ترتجي رسلها | فأطّرد الحائل والدالج
بينا الفتى يسعى ويسعى له | تاح له من أمره خالج
يترك ما رقّح من عيشه | يعيث فيه همج هامج

والحارث يعظ صاحبه بأنه لا يعرف من سينتج هذه الابل التي يحتاط لقوة انسالها باغفائها من الحلب ، وقد يكون الناتج لها مغيرا يذهب بها الى أهله .. أو وارثا يضعف عن حفظها وابلغ من ذلك واكثر تعبيرا عن الخوف على المال من الدهر قول عبيد بن الابرص[83] :

فأقبل على أفواق مالك إنما | تكلّف م الأشياء ما هو ذاهب

فعبيد يرى ألاّ يأمن صاحبه من الدهر بين الحلبتين .. فيعلمه ان يحلب ما يكون من اللبن في ابله ولا ينظره حتى يجتمع .. لأن كل شيء ذاهب ؛ والحق أن الجاهلي لا يزهد في المال شاكا في قيمته على النحو الاسلامي .. ولكنه يحب المال ويريد الانتفاع به قبل ذهابه بالجود به وانفاقه .

---

(٨٣) ديوان عبيد رقم ٤ ص ٩ . وأثبت د . حسين نصار في الاصل أفواق سهمك وهي عن الفائق . ونقل عن اساس البلاغة أفواق نبلك ، وأفواق هي التي ادحت للزمخشري بروايته . . وقد اخترت الرواية الثالثة التي ذكرها المحقق .. والافواق أحد جموع الفيقة وهي ما يكون من لبن بين الحلبتين كما في القاموس .

وادراك الفرسان لحتمية الموت دفعهم الى الجراة عليه .. فاذا لم يكن تفادي الموت ممكنا فان الخوف منه عبث لا طائل من ورائه .. ومن اشهر الامثلة في هذا المعنى قول عنترة[٨٤] :

بكرت تخوفني الحتوف كأنني قد بتّ عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها إنّ المنيّة منهل لابدّ أن أسقى بكأس المنهل
فاقني حياءك لا أبا لك واعلمي أنّي امرؤ سأموت إن لم أقتل

وقوله[٨٤] :

وعرفت انّ منيّتي إن تأتني لا ينجني منها الفرار الأسرع
فصبرت عارفة لذلك حرّة ترسو إذا نفس الجبان تطلّع

ويقول في ذلك برذع بن عدي الظفري[٨٥] :

وأصبر نفسي في الكريهة إنّه لذى كلّ جنب مستقرّ ومصرع

ويقول دريد بن الصمة في محاولته انقاذ اخيه[٨٦] :

فطاعنت عنه الخيل حتى تنفست وحتى علاني حالك اللون أسودُ
طعان امرىء واسى أخاه بنفسه وأعلم أن المرء غير مخلّد

ويقول النمر بن تولب[٨٧] :

وإن أنت لاقيت في نجدة فلا تتكادك أن تقدما
فانّ المنيّة من يخشها فسوف تصادفه أينما
وإن تتخطاك أسبابها فانّ قصاراك أن تهرما

---

(٨٤) مختار الشعر الجاهلي ص ٢٨٦ ، ص ٣٩٣ . وعارفة صفة لمحذوف اي صبرت نفسا عارفة .

(٨٥) الاغاني « دار الكتب » ١٦/٢٣٦ .

(٨٦) الاصمعيات رقم ٢٨ ص ١١٥ .

(٨٧) مختارات ابن الشجري ص ١٧ .

ويقول الحصين بن الحمام[88] :

أبى لابن سلمى أنه غير خالد ملاقي المنايا أيَّ صَرف تيمّما
فلست بمتاع الحيــــاة بسبّة ولا مبتغٍ من خشية الموت سلّما

والى هذا يذهب زهير على الاكثر حين يقول :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن رام أسباب السماء بسلّم

وقد استعملت الفكرة في التحريض بين القبائل كما استعملت في النطاق الفردي يقول بشامة بن الغدير[89] :

فأمّـــا هلكت ولــــم آتهم فأبلغ أماثل ســـهم رســـولا
بأن قـــومكم خيّروا خصلتيـــن كلتاهما جعلوهـــا عُدولا
خزيَ الحياة وحربَ الصديق وكلاًّ أراه طعـــاما وبيـــلا
فان لم يكن غيـــر إحداهمـــا فسيروا إلى الموت سيراً جميلا
ولا تقعـــدوا وبكم منّـــة كفى بالحـــوادث للمرء غولا

ويقول المتلمّس[90] :

أعاذل إنّ المـــرء رهنُ منيّـــة صريعٌ لعافي الطير أو سوف يرمس
فلا تقبلن ضيما مخافة ميتـــة وموتن بها حـــرا وجلدك أملس
فمـــا الناس إلا ما رأوا وتحدّثوا وما العجز الاّ أن يضاموا فيجلسوا

ويقول النمر بن تولب في عكس هذا المعنى[91] :

سمونا ليشكر يوم النهاب نهزّ قنـــا ســـمهرتا طوالا
فلمّا التقيا وكان الجـــلاد أحبّوا الحياة فولّوا شـــلالا

---

(88) المفضليات رقم ١٢ ص ٦٩ .
(89) المفضليات رقم ١٠ ص ٥٩ .
(90) ديوان المتلمس ص ١٨٢ .
(91) الحيوان ٣٦/٦ .

وقريب من جرأتهم على الحرب جرأتهم على الطواف في الارض والنقلة فيها ، الا ان السفر يطرح سؤالا عن مكان الموت .. والشاعر يتشجع بأن الموت لا حق بالانسان أقام أم ارتحل .. يقول الحصين بن الحمام أو ابن قميئة[٩٢] :

خليليّ لا تستعجلا أن تزوّدا	وأن تجمعا شملي وتنتظرا غدا
فما لبث يوما بسائق مغنم	ولا سرعة يوما بسابقة غدا

ويقول عروة بن الورد[٩٣] :

ذريني أطوّف في البلاد لعلني	أخليك أو اغنيك عن سوء محضري
فأن فاز سهم للمنية لم أكن	جزوعا وهل عن ذاك من متأخر
وإن فاز سهمي كفكم عن مقاعد	لكم خلف أدبار البيوت ومنظر

ويقول[٩٤] :

أرى أمّ حسانَ الغداة تلومني	تخوّفني الاعداء والنفس أخوف
تقول سليمى لو أقمت لسرّنا	ولم تدر أني للمقام أطوّف
لعلّ الذي خوّفتنا من أمامنا	يصادفه في أهله المتخلف

---

(٩٢) ديوان عمرو ص ١١ ، الاغاني « الدار » ١٠/١٤ ، « الساسي » ١٥٩/١٦ .

(٩٣) ديوان عروة ص ٢٤ ، والاصمعيات رقم ١٠ ص ٣٦ .

(٩٤) ديوان عروة ص ٢٢ .

ويقول الشنفرى[٩٥] :

إذا مــا أتتني ميتي لم أبالهــا ولم تذر خالاتي الدموعَ وعمتي
ولو لم أرم في أهــل بيتي قــاعدا إذن جاءني بين العمودين حُمّتي

ويقول معقّر بن حمار البارقي[٩٦] :

تهيّبك الأسفار من خشيــة الردى وكم قد رأينــا من رد لا يسافر

ويقول ثعلبة بن عمرو العبدي بعد أن يصف سلاحه[٩٧] :

عتادُ امرىءٍ في الحرب لا واهنِ القوى ولا هو عما يُقدّر اللهُ صــارف
به أشهد الحربَ العوانَ إذا ابدت نواجذها واحمرّ منهــا الطوائف
ولو كنت في غمــدان يحرس بابه أراجيل أحبُوش وأسودُ آلف
إذا لأتتني حيث كنت منيتــــي يخبُّ بهـــا هاد لأثري قائف
أمن حذر آتي المهالك ســادرا وأيةُ ارض ليــس فيهـا متـالف

ويقول الاعشى[٩٨] :

تقول ابنتي حين جد الرحيــــل أرانا ســـــواء ومن قــد يتم
أبانا فــلا رمت من عنــدنا فانــّا بخير إذا لـــم ترم
ويا أبتــا لا تـــزل عنـــدنا فانّا نخـــاف بــأن تخترم
أرانـا إذا أضـــمرتك البـــلا د نجفى وتقطـــع منّـــا الرحـــم
أفي الطوف خفت عليّ الـــردى وكـــم من رد أهله لـــم يرم

---

(٩٥) المفضليات رقم ٢٠ ص ١١٢ .
(٩٦) المؤتلف والمختلف ص ٩٢ ؛ معجم الشعراء ص ٢٠٤ .
(٩٧) المفضليات ص ٢٨٢ رقم ٧٤ . وينسب البيتان الاخيران لاوس بن حجر وابي الطمحان القيني . ديوان اوس رقم ٢٠ ص ٧٤ .
(٩٨) ديوان الاعشى رقم ٤ ص ٤١ .

ويقـــول [99] :

تقول بنتي وقد قرّبت مرتحلا	ياربّ جنّب أبي الأوصاب والوجعا
واستشفعت من سراة القوم ذا شرف	فقد عصاها أبوها والذي شفعـــا
مهـــلا بنَيَّ فانّ المرء يبعثــه	هم إذا خالط الحيزوم والضلعـــا
عليك مثل الذي صلّيت فاغتمضي	يوما فأنّ لجنب المرء مضطجعا

ويعكس ذلك في قوله[100] :

فهل يمنعنّي ارتيادي البلا	د من حـــــذر الموت أن يأتين
أليس أخـو الموت مســـتوثقـا	عليّ وان قلـت أنـــــمـــان
عليّ رقيـب لـــه حـافـظ	فقـــل في امرىء غلِق مرتهن

ولا شك ان الكثير من هذا الشعر كالذي رويناه للشـــنفري وعروة بن الورد وثعلبة بن عمرو العبدي انمـــا يتحدث عن الخروج للغارة والقتال.. ولكن يميّزه مع ذلك أنه يثير ناحية المكان كما يثيرها الاعشي حين يتحـــدث عن رحلته الى ممدوحيه .

---

(99) ديوان الاعشـى رقم ١٣ ص ١٠١ .

(100) ديوان الاعشـى رقم ٢ ص ١٥ .

الفصل الثالث



الشـــــكوى :

رأيت المنايا خبط عشــواء من تصــــب

تمتــه ومن تخطيء يعمّر فيهـــــرم

هذه هي النظرة الجاهلية الى حياة الانسان ، فهو داخل حصار محـــكم مكوّن من الموت وضعف الهرم ، ان كل يوم يمدّ للانسان في عمره يقرّبـه من العجز ويفقده مزيـــدا من بهجـــة العيش .. وفي ذلك يقـول عمرو بن قميئة[1] :

لا تغبـط المرء ان يقـــال لـه أمســى فـلان لأمـره حكما

إن ســرّه طول عيشـه فلقــد أضحى على الوجه طولُ ما سلما

ويقول عبيد[2] :

ترى المـرء يصـــبو للحياة وطولهـا

وفي طـــول عيش المـرء أبــرحُ تعذيب

---

(1) استوقف هذا المعنى الجاحظ فأنشد بعض النصوص التالية في الحيوان ٦/٥٠١ ، ٥٠٢ . وعنه ابن قتيبة في عيون الاخبار ٢/٢٢١ وصاحب الكامل ١/١٨٧ وعيار الشعر ص ٨٠ والصناعتين ص ٣٨ . . مع بعض الاختلاف في نسبة النصوص . . . والبيتان في ديوان عمرو بن قميئة رقم ٤ ص ٢٦ .

(2) ديوان عبيد رقم ٨ ص ٢٧ .

ويقول النابغة الجعدي[٣] :

المرء يرغب في الحيـــا ة وطول عيش قد يضرّه
تفنى بشاشـــته ويبـــ قى بعد حلو العيش مرّه
وتســوؤه الأيام حتـ ـى لا يرى شيئاً يسرّه

ويقول حميد بن ثور[٤] :

أرى بصري قد رابني بعد حدّة وحسبك داء أن تصحّ وتسلما

ويقول الأعشى فيما يؤدي اليه طول العمر من ألم وأن طول العمر الى غايـة[٥] :

لعمرك ما طول هـــذا الزمن على المرء إلا عنـــاء معـــن
يظلّ رجيما لريب المنـــون وللسقم في أهله والحزن
وهالك أهل .. يجنّـونـه كآخر في قفـرة لـم يجـن
وما إن أرى الدهـر في صرفـه يغـادر من شـارخ أو يفـن

ويقول النمر بن تولب شاكيا ما صار اليه من عجز مدّ له في حيـاتـه وسلامته[٦] :

لعمري لقد أنكرت نفسي ورابني مع الشيب أبدالي التي أتبـدّل
فضول أراها في أديمي بعدمـــا يكون كفاف اللحم أو هو أفضـل
كأن محطاً في يدي حارثيـــة صناع علت مني به الجلد من عل
وقولي اذا ما غاب يومـــا بعيرهم بلاقوته حتى يؤوب المنخـــل

(٣) شعر النابغة الجعدي ص ١٩١ .. وجاء في الشعر والشعراء ٩٠/١ أن الابيات للذبياني .

(٤) ديوان حميد بن ثور ص ٧

(٥) ديوان الاعشى رقم ٢ ص ١٥ .

(٦) هي مجمهرة النمر في جمهرة اشعار العرب ص ١٩١ .

وأضحي ولم يذهب بعيري غريبةً	وأشوي الذي أشوي ولا أتحلّل
وظلمي ولم أكسَر وأنّ ظعينتي	تلفّ بنيها في البجاد وأعزل
ودهري فيكفيني القليل وأنني	أؤوب اذا ما أبت لا أتملّل
وكنتُ صفيّ النفس لا شيء دونه	وقد صرت من إقصا حبيبي أذهل
بطيء عن الداعي فلست بآخذ	إليه سلاحي مثل ما كنت أفعل
تدارك ما قبل الشباب وبعده	حوادث أيام تضرّ وأغفل
يؤود الفتى بعد اعتدال وصحّة	ينوء اذا رام القيام ويحمل
يودّ الفتى طول السلامة والغنى	فكيف ترى طول السلامة يفعل

ويقول المرقش الاكبر(٧) :

ليس على طول الحياة ندم	ومن وراء المرء ما يعلم

ويبدأ أبو زبيد الطائي مرثية أخيه بهذا المعنى كأنه يرى في موت أخيه قبل أن يهرم جانباً من الخير .. يقول أبو زبيد(٨) :

إنّ طول الحياة غيرُ سعود	وضلالٌ تأميل عيش الخلود

ويقول حسّان السعدي أو حنظلة بن أبي عفراء(٩) :

مهما يكن ريب المنون فانّني	أرى قمر الليل المعذّب كالفتى
يهلّ صغيراً ثمّ يعظم ضوؤه	وصورته حتى اذا ما هو استوى
تقارب يخبو ضوؤه وشعاعه	ويمصح حتى يستسرّ فما يرى
كذلك زيد الأمر ثم انتقاصه	وتكراره في إثره بعد ما مضى

---

(٧) المفضليات رقم ٥٤ ص ٢٢٩ .

(٨) شعر ابي زبيد رقم ٩ ص ٤٢ .

(٩) نوادر ابي زيد ص ١١١ لحسان السعدي وبعضها عن ثعلب الذي روى انها من اقدم الشعر الجاهلي والحيوان ٣/٤٧٨ ، ٦/٥٠١ عن ابي زيد . ومعجم البلدان ٤/١٢٤ لحنظلة . وجاء في الحيوان قمر الليل المعذر . واخترت ما في الاصل وهو النوادر .

أرى الموت مشن شارك الماء غاية	له أثر يجري إليــــــه ومنتهى
يبيّت أهل الحصن والباب مطلق	ويأتي الجبال من شماريخها العلى
فلا ذا نعــــيم يتــــركن لنعيمه	وان قال قرّطني وخذ رشوة أبى
ولا ذا بؤوس يتركن لبؤوســـــه	فتنفعه الشكوى‌اذا ماهو اشتكى

الانســان يمر بدورة كدورة القمر المعذب .. يولد ضعيفا ثم يشــــب ويقوى ثم يأخذ بالنزول حتى اذا ذهب بقيت هــذه الدورة ليمر بها انسان آخر .. ولا نملك الا ان نعجب بهذا التشبيه المقلوب .. فهو يوحي لنــا بأن عذاب الانســان اوضح في ذهن الشاعر من عذاب القمر .. ولا شــك في أن جمال هذا الايحاء في صدقه .. وكذلك يقف الشاعر عنــد الموت الذي يشبه الماء .. فهو لا يمتنع عليه حصن ولا جبل .. ولا يقبل فديــة من غني منعّم ولا يسمع شكاة بائس فقير .. وهكذا يصور الشاعر لنا الحياة فهي عذاب ينتهي الى فجيعة ..

ومن هذه النظرة الى حياة الانســان بين حتف مفاجيء وبين عمر طويل يؤدي الى العجز أتى الخلاف في لونين من الشكوى .. اولهما يصور فعــل الدهر المفاجيء الذي يغتر الناس وهم غافلون عنه .. ومن ذلك قول عــدي ابن زيد[١٠] :

قـد أرانـا وأهلنـا بخفـــــير	نحسب الدهر والسـنين شهورا
فأمنّـا وغـرّتنـا ذاك حتى	راعنا الدهر قـد أتانـا مغـيرا
انّ للدهر صولةً فاحـذرنهـا	لا تبيتن قــد أمنت الدهــورا
قد ينام الفتى صـحيحا فيردى	ولقــد بــات آمنــا مسرورا
إنّما الدهــر ليّن ونطـــوح	يترك العظم واهيــا مكسورا

(١٠) ديوان عدي رقم ٩ ص ٦٤ .

واللون الآخر من الشكوى يصور فعل الدهر الدائب المستمر الذي لا يحس به الانسان •• ومن هذا قول الأفوه الأودي[11] :

إن تري رأسي فيه قزع | وشواتي خلّة فيها دوارْ
فصروف الدهر في أطباقه | خلعة فيها ارتفاع وانحدار
بينما الناس على عليائها | إذ هووا في هوّة منها فغاروا
إنما نعمة قوم متعة | وحياة المرء ثوب مستعار
ولياليه إلال للقوى | من مداه تختليها وشفار
تقطع الليلة منه قوّة | وكما كرّت عليه لا تغار
حتم الدهر علينا أنه | ظلف ما نال منا وجبار
فله في كلّ يوم غدوة | ليس منها لامرىء طار مطار

والعجز الذي يصير اليه المسنّ في مجتمع يحتاج الى القوّة يدفعه الى الضيق بحياته •• يضاف الى ذلك رتابة الأيام واحساس المسنّ بقلة نفعه لأهله وضيقهم به •• يقول زهير :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش | ثمانين حولا لا أبالك يسأم

ويقول لبيد[12] :

ولقد سئمت من الحياة وطولها | وسؤال هذا الناس كيف لبيد

ويقول زهير بن جناب الكلبي[13] :

لقد عمّرت حتى ما أبالي | أحتفي في صباحي أم مسائي

---

(11) الطرائف الادبية ص 11 .
(12) ديوان لبيد رقم 5 ص 35 .
(13) الاغاني « الساسي » 21/96 . المعمرين ص 26 .

ويقول المستوغر بن ربيعة[١٤] :

ولقد سئمت من الحياة وطولها ... وعمرت عدد السنين مئينا
مائة حدتها بعدها مئتان لي ... وعمرت من عدد الشهور سنينا
هل ما بقي إلا كما قد فاتنا ... يوم يمر وليلة تحدونا

ويقول مسافع بن عبد العزى الضمري[١٥] :

لعمركما لو يسمع الموت قد أتى ... لداع على بره جفته العوائد
به سقم من كل سقم وخبطة ... من الدهر أضحى غضنه فهو ساجد
اذا مر تمشي قيل تمشي مسافع ... ألا لا يؤدي لو بني لي لاحد
يظنون أني بعد أول ميت ... فأبقى ويمضي واحد ثم واحد
فقالوا له لما رأوا طول عمره ... تأت لدار الخلد إنك خالد
غضاب علي أن بقيت وإنني ... يود الذي يهوون لو أنا واجد

ومثل ذلك تعبيرا عن ملل المعمر من الحياة وضيق أهله به قول كعب ابن رداة النخعي[١٦] :

لقد ملني الادنى وأبغض رؤيتي ... وأنبأني الا يحل كلامي
على الراحتين مرة وعلى العصا ... أنوء ثلاثا بعدهن قيامي
فياليتني قد سخت في الارض قامة ... وليت طعامي كان فيه حمامي

ولكننا نجدهم في أحيان نادرة يتمسكون بفضل من أمل ويعبرون عن بقية من قوة .. ويغلب أن يكون ذلك مواجهة التحدي ، يقول امرؤ القيس[١٧] :

ألا ان بعد العدم للمرء قنوة ... وبعد المشيب طول عمر وملبسا

---

(١٤) طبقات ابن سلام ص ٢٩ .
(١٥) المعمرين ص ٢٤ .
(١٦) المعمرين ص ٨٢ .
(١٧) ديوان امرىء القيس رقم ١٣ ص ١٠٨ .

ويقول النابغة الجعدي [١٨] :

خأبقى الدهر والأيام مني كما أبقى من السيف اليماني
نفلل وهو مأثور جراز اذا جمعت بقائمه اليدان
ألا زعمت بنو كعب بأني ـ ألا كذبوا ـ كبير السن فاني
فمن يحرص على كبرى فاني من الفتيان أزمان الخنان

ويقول عبّاد بن أنف الكلب الصيداوي[١٩] :

عمرت فلما جزت ستين حجّة وستين قال الناس أنت مفنّد
فقلت لهم بالله هل تنكروني وهل عابني الا السخا والتمجد

حتى يقول بعد استعراض سخائه وفتوّته :

وقلت لهم إني حميل بمثل ما رأيتم طوال الدهر لا أتزيد

وهذه النظرة الى الحياة تحمل طابع تفكير الشيوخ وتمتزج بآلامهم وذكرياتهم وقد لاحظ القدماء وفرة شعر الشيخوخة عند العرب .. فروى عن أبي عمرو بن العلاء قوله : « ما بكت العرب شيئاً مثل ما بكت الشباب وما بلغت ما هو أهله »[٢٠] .. وروى مثل ذلك عن يونس بن حبيب[٢١] . ولعل الاحترام للسن وكذلك الشعور المبكر بانتهاء الشباب ـ وما يزال الأمران مشهودين في العرب[٢٢] ـ لعلهما أديا الى أن يبدأ الشاعر بشكوى الشيب وهو ما يزال شابا أو كهلا .. فنحن نجد للاعشى مثلا

(١٨) شعر النابغة الجعدي ١٦٠ . واعتمدت ترتيب الابيات كما جاء في المعمرين ص ٧١ .

(١٩) المعمرين ص ٤٥ ـ ٤٦ . حميل = كفيل .

(٢٠) الشعر والشعراء ٤/٥٠ .

(٢١) وفيات الاعيان ٦/٢٤٤ .

(٢٢) من مظاهر ذلك أن القبائل تسمي سادتها بالشيوخ وان كانوا شبانا . . وكذلك تسمي العالم بالدين .. ويقول الشاب المصري لصاحبه : بابني .. وربما كان أصغر ممن يخاطبه .

خمسا وعشرين قصيدة يزعم فيها أنه شيخ ذهب عنه لهوه وأيام صباه[٢٣] .. هذا وديوانه يضم اثنتين وثمانين قصيدة منها ثلاثون من الارجاز والقصائد غير المقدمة والمقطعات .. ولا نظن أن الاعشى نظم أكثر شعره بعد الخمسين ولا انه كان أخصب شاعرية وهو شيخ منه أيام فتوته ، وأقرب الى التصوّر أنه بدأ في شكوى السن قبل أن يتقدم فيها فعلا .. ولا تذكر الاخبار أن امرأ القيس بلغ سنا كبيرة .. وهي تصوره شابا يفتن ابنة قيصر ثم يلاقي نهايته في طريق العودة .. والقسم المقبول من قصة حياته يصوره فتى عابثا انتزعه مصرع أبيه انتزاعا من حياة اللهو ، ويروى في شعره مع ذلك قوله[٢٤] :

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني كبرت وأن لا يحسن اللهو أمثالي

وقوله :

أغادي الصبوح عند هر وفرتنى وليدا وهل أفنى شبابي غير هر

وقوله :

وقالت بنفسي شباب له ولمته قبل أن يشجبا
واذ هي سوداء مثل الفحيم تغشى المطانب والمنكبا

ليس غريبا اذن أن يبالغ المعمّر في عدد السنين التي عاشها .. وهذه ظاهرة اصيلة بقيت مشاهدة في الاعراب حتّى قال فيها الجاحظ : « وذكروا انهم وجدوا اطول الناس عمرا في ثلاثة مواضع أولها سرو حمير ثمّ فرغانة ثم اليمامة ، وان في الاعراب لأعمارا طوالا على أنّ لهم في ذلك كذبا

(٢٣) ديوان الاعشى (الرقم للقصيدة فالبيت) ١/١ ، ١١/٢ ، ٥/٤ ، ٨/٥ ، ١٠/٦ — ٣٦ ، ١/٧ ، ٢/١٠ ، ٢/١١ ، ٢٤/١٢ — ٢٦ ، ٢/١٢ ، ١/١٤ و ٢؛ ٢٢/١٦ ، ٥/١٧ ، ٢٠/٢٠ ، ٢/٢١ ، ٢٢/٢٢ ، ٦/٢٩ ، ٢/٣٣ ، ٣/٣٤ ، ٢/٣٩ ، ١/٥٢ — ٤ ، ٩/٦٣ ، ٢/٧٩ ، ١٠/٨٠ ، ١/٦٥ .

(٢٤) ديوان امرىء القيس رقم ٢ ص ٢٨ ، رقم ١٤ ص ١١٠ ، رقم ١٨ ص ١٢٩ .

كثيرا .. والهند تربي عليهم في هـــذا المعنى .. هكـــذا يقـــول علماء العرب .. »[٢٥] والحقيقة انه كان من اليسير على الاعراب في الجاهلية ـ أن يحققوا أعمارهم فلم يكن لهم تاريخ ثابت يرجعـــون اليه .. ولم يكونوا يسجلون من أمور معاشهم شيئا كثيرا . وأحسب ان احساس المعمّر هـــو الذي يتحكم في دعواه في سنه . فقد يكون ضـــيّقا بحياته أو متبجحا مفاخرا بطوله ومعاصرته لعظماء الماضين فيزداد من السنين ويعدّها بالعشرات والمئات .. وقد يكون راضيا عن حياته مفتونا بها فهو يقصّر بعمره . أخلص من ذلك الى ان شعر المعمّرين ليس موضوعا منتحلا كله .. وأن لنا أن نقبل منه ما جاءنا في رواية موثّقة وما كان يحمل الروح الجاهلي في لغته وديباجته وفكرته .. وليـــست السنون الطوال التي يتصـــل في حسابها المعمّر ـ برغم بعدها عن الحدّ المقبول ـ علامة على الوضع والانتحال دائما .

الموعظـة :

وقد جاءنا في شعر الجاهلية مواعظ انسانية عامة .. وهي تـــستند الى تلك النظرة المتشائمة الى حياة الانسان في ظل الفناء الذي يتهددها من كـلّ مكان .. هذا هو الانسان يدرك ما يؤدي اليه طول العمر وهو مـــع ذلـك يحبّ أن يعيش .. وهو موقن من أن يومه آت .. ولكنه ينـــشغل عنـــه بكاذب الأمل وزائف العلل .. يقول ابو زبيد[٢٦] :

علّل المـــرء بالرجاء ويضـــحي غرضا للمنون نصب العـــود

ويقول ثوب بن تلدة الأســدي[٢٧] :

وانّ امرأ قد عاش عشرين حجة الى مئتين كلّها وهـــــو دائب
رهين لأحـــــداث المنايـا وانمـا يلهّيه في الدنيا منـــاه الكواذب

---

(٢٥) الحيوان ١/١٥٧

(٢٦) شعر ابي زبيد رقم ٩ ص ٤٢ .

(٢٧) المعمرين ص ٦٧ .

ومن العجيب أن الانسان لا يدرك من هذه الآمال الكاذبة شيئا ولا ييأس منها .. وهو لا ينفك يسعى وراءها حياته حتى يقسم به الموت .. يقول امرؤ القيس[28] :

وما المرء ما دامت حشاشة نفسه ... بمدرك أطراف الخطوب ولا آلي

ويقول لبيد[29] :

اذا المرء أسرى ليلة ظن انه ... قضى عملا والمرء ما عاش عامل

ويقول قيس بن الخطيم في تسليم المؤمن[30] :

يحب المرء أن يلقى مناه ... ويأبى الله الا ما يشاء

ويقول عدي بن زيد من قصيدة تدور حول هذا المعنى[31] :

ماذا ترجي النفوس من طلب الـ ... ـخير وحب الحياة كاذبها

تظن أن لن يصيبها عنت الـ ... ـدهر وريب المنون كاربها

وهذه الآمال التي يحاولها الانسان ولا يبلغها ويشغل بها عن مشاكل وجوده الحقيقية ليست آمالا عريضة خطيرة .. وانما هي في أصلها الطعام والشراب وما اليهما .. أفليس الانسان مسحورا مغطى على بصره حين يهتم بالطعام والشراب وينسى مصيره الفاجع .. يقول لبيد[32] :

وليس الناس بعدك في نقير ... ولا هم غير أصداء وهام

وانا قد يرى ما نحن فيه ... ونسحر بالشراب وبالطعام

كما سحرت به أرم وعاد ... فأضحوا مثل أحلام النيام

---

(28) ديوانه رقم ٢ ص ٣٩ .

(29) ديوان لبيد رقم ٣٦ ص ٢٥٤ .

(30) ديوان قيس بن الخطيم رقم ١١ ص ٥٣ .

(31) ديوان عدي بن زيد رقم ٥ ص ٤٥ .

(32) شرح ديوان لبيد رقم ٢٧ ص ٢٠٦ .

والانسان يسير على خطى اسلافه من الامم البائدة .. ويتشغل بمثل ما انشغلوا به عن مثل مصيرهم .. ولم يكن في آمال أرم وعاد ولا أرباب ناعط وحمير ان تبيد قبائلهم ويرث أوطانهم غيرهم .. ولكن ذلك هو ما تحقق لهم من حياتهم دون ما كانوا يرجون .. وذلك هو عجز الانسان الذي يشبه عجز العصافير والذبّان والدود وان كان الانسان يظهر قوة الذئاب .. يقول لبيد [٣٣] :

وأفنى بنات الدهر أرباب ناعط	بمستمع دون السماء ومنظر

. . . .

فان تسألينا فيم نحن فاننا	عصافير من هذا الانام المسحّر
نحلّ بلادا كلّها حلّ قبلنا	ونرجو الفلاح بعد عاد وحمير

ويقول امرؤ القيس[٣٤] :

أرانا موضعين لأمر غيب	ونسحر بالطعام وبالشراب
عصافير وذبّان ودود	وأجرأ من مجلّحة الذئاب
وكلّ مكارم الاخلاق صارت	اليه همّتي وبه اكتسابي
فبعض اللوم عاذلتي فانّي	ستكفيني التجارب وانتسابي
الى عرق الثرى وشجت عروقي	وهذا الموت يسلبني شبابي
ونفسي سوف يسلبها وجرمي	فيلحقني وشيكا بالتراب
ألم أنض المطيّ بكلّ خرق	أمق الطول لمّاع السراب
وأركب في اللهام المجر حتى	أنال مآكل القحم الرغاب
وقد طوّفت في الآفاق حتى	رضيت من الغنيمة بالاياب
أبعد الحارث الملك بن عمرو	وبعد الخير حجر ذي القباب

---

(٣٣) شرح ديوان لبيد رقم ٨ ص ٥٥ ــ ٥٧ .

(٣٤) ديوان امرىء القيس رقم ١١ ص ٩٧ .
وقد تحدث الجاحظ عن تعبير السحر بالطعام والشراب في البيان والتبيين ١٨٩/١ .

أرجّي من صروف الدهر لينا ... ولم تغفل عن الصم الهضاب
وأعلم أنني عما قريب ... سأنشب في شبا ظفر وناب
كما لاقى ابي حجر وجدي ... ولا أنسى قتيلا بالكلاب

وهذه الوان من المواعظ يقول امرؤ القيس انها كافية لتهديه الى الحق ... فهذا نسبه الطويل في الأموات الى عرق الثرى يذكره .. وهذا الموت يزحف اليه فعلا فيذهب بشبابه ويسلبه اياه .. وهذا طوافه الواسع في الآفاق ينتهي الى غير شيء فيرضى من الغنيمة بالاياب . وهذا مصابه في الملوك من آبائه يؤكد له أن كل شيء باطل .. وهو يشير هذه الاشارة الغامضة الى عاذلته فتظن انه كان بعيد النظر في حياته اللاهية ممّا اعتبره سحرا بالطعام والشراب في اول شعره .. وانه غني بهذه المواعظ عن عذل عاذلته ..

ويشبه اشارة امريء القيس الى موعظة النسب قول متمّم بن نويرة[35] .

فعددت آبائي الى عرق الثرى ... فدعوتهم فعلمت أن لم يسمعوا
ذهبوا فلم أدركهم ودعتهم ... غول أتوها والطريق المهيعُ
لابد من تلف مصيب فانتظر ... أبارض قومك ام بأخرى تصرع

ولا يفلت الشاعر الجاهلي من هذه الدائرة المغلقة التي تحاصره الا حين يفزع الى ما في عقيدته من توحيد .. يقول لبيد[36] :

واكذب النفس اذا حدّثتها ... انّ صدق النفس يزري بالأمل
غير ان لا تكذبنها في التقى ... واخزها بالبر لله الأجل

---

(٣٥) المفضليات رقم ٩ ص ٥٤ .
(٣٦) شرح ديوان لبيد رقم ٢٦ ص ١٨٠ .

ونحن نرى في شعر لبيد هذا حلا وسطا لمشكلة حياة الانسان الدنيا .. وهو يرى ان الكذب على النفس وخداعها ينفع الناس اذا لم يؤد الى تجاوز حدود التدين والعمل على رضا الله .

وللبيد قصيدة نادرة المثال في شعر الجاهلية هي مرثية للنعمان .. فهو ينظر فيرى كل شيء فانيا .. وينطلق من هذه النقطة الى الايمان بالموجود الثابت وهو الله تعالى . وهو يجد سلوك الناس غريبا حين يهتمون بالزائف الفاني لا الثابت الباقي .. فيعظهم بنسبهم الطويل في الأموات وهو النسب الذي يتفاخرون به ويتمايزون على أساسه . ويخلص من هذه النقطة الى أن الانسان يجب أن يتجه الى الله ويتخذ اليه الوسيلة .. يقول لبيد[٣٧] :

ألا تسألان المرء ماذا يحاول … أنحب فيقضى أم ضلال وباطل
حبائله مبثوثة بسبيله … ويفنى اذا ما أخطأته الحبائل
اذا المرء أسرى ليلة ظن أنه … قضى عملا والمرء ما عاش عامل
فقولا له ان كان يقسم أمره … ألمّا يعظك الدهر أمك هابل
فتعلم أن لا أنت مدرك ما مضى … ولا أنت مما تحذر النفس وائل
فان أنت لم تصدقك نفسك فانتسب … لعلك تهديك القرون الأوائل
فان لم تجد من دون عدنان باقيا … ودون معدّ فلتزعك العواذل
أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم … بلى كلّ ذي لب الى الله واسل
ألا كل شيء ما خلا الله باطل … وكلّ نعيم لا محالة زائل
وكل أناس سوف تدخل بينهم … دويهية تصفرّ منها الأنامل

وهذه القصيدة مثال فريد في اكتمال الفكرة وشمول النظرة .. وقريب منها في بعض أفكارها قول عبيد[٣٨] :

من يسأل الناس يحرموه … وسائل الله لا يخيب

---

(٣٧) شرح ديوان لبيد رقم ٣٦ ص ٢٥٤ .

(٣٨) ديوان عبيد رقم ٥ ص ١٥ ؛ شرح القصائد العشر للتبريزي ص ٥٤١ ، جمهرة أشعار العرب ص ١٧٤ ؛ الشعر والشعراء ١٨٩/١ .

بالله يدرك كــــل خير والقــول في بعضــه تلغيب
والله ليس لـــه شـــريك عـــلام ما أخفت القـــلوب
والمرء ما عــاش في تكذيـــب طــول الحيـــاة لــه تعــذيب

ويرجّح د. حسين نصار أن البيت الثالث والرابع ليسا من قول عبيد وانهما متحولان . ولا تجد هذا الشك راجحا لا من الناحية الفكرية ولا من حيث الرواية .. فان التفكير في بطلان الحياة وكذب الآمال أدّى الى ذكـر الايمان بالله عند لبيد كما رأينا ، وأنه تعالى الحقيقة الوحيـــدة الثابتة التي ينبغي أن يتوجه اليها الانسان بآماله .. أما قول عبيــد « ليس له شريك » فقد رأيناه في تلبيات الجاهلية[39] ..

ومن هذا اللون من الموعظة المؤمنة قول زهير أو صرمة بن أبي أنس في رثاء النعمان[40] :

ألا ليت شعري هل يرى النــاس ما أرى
من الأمر أو يبـــدو لهم ما بـدا ليــــا
بدالي أن النــــاس تفنى نفوســـــهم
وأموالهم ولا أرى الدهـــــر فانيــــــا
وأني متى أهبــــط من الارض تلعــــة
أجــــد أثرا قبلي جـديدا وعــاقيـــــا
أراني اذا ما بت بت عـلى هـــــوى
فثمّ اذا أصــــبحت أصبحت غـاديـــا

---

(39) ذكرنا شيئا عن الاصنام ص ٧ والمحبر ص ٣١١ — ٣١٥ .

(40) شرح ديوان زهير ص ٢٨٣ .. وانظر في ترجمة صرمة بن ابي انس الاصابة ٢/٣/٢ والشاعر هم بان يتنصر ثم امسك ولكنه صحـــح حنيفيته كما يفهم من اخباره ، ثم انه اسلم وصحب النبي عليـــه الصلاة والسلام ..

الى حفــرة أهــوى اليهــا مقيــمة
يحثّ اليهــا ســائق من ورائيــا

بدا لي أني عشـــت تـــسعين حجة
تبــاعا وعشــرا عشــتها وثمانيــا

كــأني وقــد جاوزت تــسعين حجة
خلعت بهــا عن منكبيّ ردائيــا

بــدا لي أن الله حـــق فــزادني
الى الحـق تقـوى الله ما قد بدا ليا

بدا لي أني لســت مدرك ما مضــى
ولا سابقي شــيء اذا كان جائيــا

وما ان أرى نفـــسي تقيهــا كريمتي
وما ان تقي نفـــسي كريمة ماليــا

ألا لا أرى على الحــوادث باقيــا
ولا خالــدا الا الجبـــال الرواسيا

والا الســـماء والبــلاد وربنـا
وأيــامنــا معــدودة والليــاليــا

الشاعر يستعرض الفناء في مظاهر عديدة بسيطة .. فهو يشاهد الناس يفنون هم وأموالهم .. وهو يرى آثار الماضين في كل مكان ينزله .. وعمره الطويل ولى بسرعة غريبة حتى ليخال أنه لم يعش الا بقــدر ما يخلع اللابس ثوبا ... فكأن من ورائه سائقا يدفعه دفعا .. وليس من امامه الا حفرة اذا بلغها هوى فيها .. وهو يصل من ذلك كلــه الى الحق وهو الله تعالى .. ويضيف الى ذلك هذا التسليم الراضي بالقدر فيبدو له أنه لا يمكن أن يردّ ما فاته .. ولا أن يفوته ما كان آتيه .. ولعل ذلك هو رأيه في حياة الانسان الدنيا وآماله فيها .

ومن الحق أن نفهم من غض هذه المواعظ من الحياة الدنيا والحث على طلب ما عند الله أن فيها اشارة الى البعث وايمان قائليهـــا به .. وهو معنى نجده صريحا في قول لبيد في مرثية النعمان التي روينا بعضها[41] :

وكـــل امرىء يوما سيعلم سعيه اذا كشفت عند الاله المحاصـــل

وقد يكتفي الشاعر من أهل الكتاب او من المتأثرين بهم بالاشارة الى البعث دون أن يعني بكونه ذروة منطقية يصل اليها بعد اطالة الفكر في حياة الانسان . ومن هذا قول السموأل[42] :

ليت شعري وأشعرن اذا ما قيـل اقرأ عنوانهـــا وقريت
ألي الفضـــل أم عليّ اذا حو سبت اني على الحساب مقيت
ميت دهر قـد كنت ثم حييت وحياتي رهن بأن ســـأموت
وأتتني الانبـــاء أني اذا مـــا متّ أورمّ اعظمي مبعـــوث

وهذا الشاعر اليهودي يتناول البعث ببساطة معتمدا على الخبر والانباء. ويقول أمية بن ابي الصلت[43] :

اقترب الوعد والقلوب الى الـ لهو وحبّ الحياة سائقهـــا

---

(41) الشعر والشعراء ١٩٩/١ يفترض ابن قتيبة ان البيت اسلامي او منحول أو أن لبيدا كان يؤمن بالحساب قبل اسلامه . . لان لفظة المحاصل تذكر عنده بقوله تعالى « وحصل ما في الصدور » العاديات.١٠ . ويلاحظ د . احسان عباس ص ٢٣ من مقدمة ديوانه ان القصيدة في رثاء ملك نصراني مما قد يفسر بعض الافكار الموحدة فيها . . وقد جاء في الصحيح : « اصدق كلمه قالها شاعر كلمة لبيد : الا كل شيء ماخلا الله باطل . » مسلم ، النووي ١٢/١٥ . وهذا الشطر هو ابرز ماقي القصيدة من التوحيد . . لانه يكاد يكون في معنى الشهادة الاولى في الاسلام . . هذا مع ان قول النبي عليه الصلاة والسلام كلمة لبيـد قد يعني القصيدة كلها . . وهذا يعني رضاه عليه الصلاة والسلام عن اهم معاني القصيدة .

(42) الاصمعيات رقم ٢٣ ص ٨٥ .

(43) عيون الاخبار ٣٧٤/٢ ، الحماسة البصرية ٤١٩/٢ والكامل ٦٦/١ ،

ما رغبة النفس في الحياة فـــان تحيا قليـــلا فالمـــوت لاحقهـــا
يقودها قائـــد اليـــه ويحـــدوها حثيثا اليـــه سائقهـــا
قد أنبئت أنهـــا تعود كمـــا كان براها بالامس خالقهـــا
وأن ما جمّعت وأعجبهـــا من عيشـــة مرّة مفارقهـــا
من لم يمت عبطـــة يمت هرما الموت كأس والمرء ذائقهـــا
يوشك من فرّ من منيّتـــه في بعض غرّاتـــه يوافقهـــا

وامية المطلع على الاديان الكتابية يرى من العجب ان يهتم انسان بالحياة الفانية وقد علم بان الله ادّخر له حياة اخرى ..

ومن المواعظ الجاهلية ما هو موجه الى شخص بعينه أو جماعة بعينها .. ويغلب أن تكون الموعظة من هذا اللون وليدة ظرف سـيء او حادثة المّت بالشاعر .. وهو يعظ من يعظ بأنه ليس بنجوة من مثل ما اصابه .. يقول عدي بن زيد[44] :

ألا من مبلغ النعمـــان عنّي علانية فقـــد ذهب الســـرار
بأن المرء لـــم يخلق حـــديدا ولا هضْبـــا توقّـــاه الوبـــار
ولكن كالشـــهاب فثم يخبـــو وحادي الموت عنـــه ما يحار
فهل من خالد إمّا هلكنـــا وهـــل بالموت يالناس عـــار

ويقول[45] :

أيها الشامت المعيِّر بالدهــــر أأنـــت المبـــرّأ الموفور
ام لديك العهد الوثيق من الأيّـــام بل أنـــت جاهـــل مغـــرور

٢٩٧/١ وفيه يذكر الاخفش ان الاصمعي نسب اربعة ابيات منها لرجل خارجي . وجاء في الموشح ص ١١٢ ان الحسن البصري قال : هي لامية .. وفي القصيدة مما لم ينسب للخارجي افكار ادخل في معاني التوحيد .. وانظر ديوان امية ص ٢) .

(٤٤) ديوان عدي بن زيد رقم ٦٠ ص ١٣٢ .

(٤٥) ديوان عدي بن زيد رقم ١٦ ص ٨٧ .

من رأيت المنون خلّدن أم من ... ذا عليه من أن يضام خفير
أين كسرى كسرى الملوك انوشر ... وان أم أين قبله سابور

. . . .

ثم بعد الفلاح والملك والأ ... مة وارتهم هناك القبور
ثمّ أضحوا كأنهم ورق جفّ ... فألوت به الصبا والدبور
ان يصبني بعض الأذاة فلاوا ... ن ضعيف ولا آكبّ عثور
غير أن الايام يغدرن بالمر ... ء وفيها الميسور والمعسور
فاصبر النفس للخطوب فأن الـ ... دهر يدجو حينا وحينا ينير

ونحن نحس أن مواعظ عدي تهدف الى دفع شماتة الشامتين أول ما تهدف .. ذلك أنها تصور انتصار أعداء الشاعر عرضاً زائلا .. وتذكّر هؤلاء الاعداء بما ينتظرهم ممّا يشبه ما اوقعوه بالشاعر .. والى هذا المعنى يذهب فروة بن مسيك المرادي حين يقول(٤٦) :

وما أن طبّنا جبن ولكن ... منايانا ودولة آخرينا
كذاك الدهر دولته سجال ... تكرّ صروفه حينا فحينا
ومن يغرر بريب الدهر يوما ... يجد ريب الزمان له خؤونا

ومثل ذلك قول الخنساء(٤٧) :

قل للذي اضحى به شامتا ... إنك والموت غدا في شعار
هوّن وجدي أن من سره ... مصرعه لاحقه لاتمار
وانما يتهما روحة ... في اثر غاد سار حدُ النهار

---

(٤٦) الحماسة البصرية ٢١٦/٢ . الوحشيات ص ٢٧ - اسد الغابة ١٨٠/٤ . ويذكر انه قال ذلك يوم الردم حين اوقعت همدان بقومه .

(٤٧) انيس الجلساء ص ٤٠ .

وقد يكون معنى الموعظة اظهر من معنى دفع الشماتة عن النفس كما في بعض شعر عبيد بن الابرص .. ومن ذلك قوله[٤٨] :

تمنّى امرؤ القيس موتي وان أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد
لعل الذي يرجو رداي وموتتي ... سفاها وجبنا أن يكون هو الردى
وما عيش من يرجو هلاكي بضائري ... ولا موت من قد فات قبلي مخلدي
وللمرء أيام تعد وقد رعت ... حبال المنايا للفتى كلّ مرصد
منيّته تجري لوقت وقصره ... ملاقاتها يوما على غير مرصد
فمن لم يمت م اليوم لابدّ أنه ... سيطلقه حبل المنية في غد
فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى ... تهيّأ لأخرى مثلها فكأن قد
فـانّا ومن قد باد منّا فكالذي ... يروح وكالقاضي البيات ليغتدي

ومن الواضح أن الفكرة أنضجعند عبيد منها عندعدي بن زيد برغمشهرته بهذا اللون من الموعظة .. فعبيد يفرّع من الفكرة الرئيسية وهي حتمية الموت ألوانا من الافكار .. ومن ذلك أن موت الآخرين قبله أو بعده لن يغير من مصيره شيئا ، لأن لكلّ انسان اياما معدودة لا تزيد ولا تنقص .. ومن ذلك أن الشاعر يقف عند كل الاحتمالات ، فقد يكون حتف امرىء القيس سابقا ، وجدير به أن يتدبر أمر نفسه وقد يؤخر امرؤ القيس .. ولكن عليه أن يتساءل : كم أؤخر ؟ وهو سياق خاسر ليس بذي موضوع أو هو سفر دائم .. يروح له بعض الناس ويغدو آخرون .. ويقول عبيد ايضا[٤٩] :

أبلغ أبا كرب عنّي واسرته ... قولا سيذهب غورا بعد إنجاد
يا عمرو ما راح من قوم ولا بكروا ... الا وللموت في آثارهم حادي
يا عمرو ما طلعت شمس ولا غربت ... الاّ تقرب آجال لميعاد
هل نحن الاّ كأرواح تمر بها ... تحت التراب وأجساد كأجساد

---

(٤٨) ديوان عبيد رقم ١٩ ص ٥٦ .
(٤٩) ديوان عبيد رقم ١٦ ص ٤٨ .

فان رأيت بواد حيّــــة ذكرا	فامض ودعني أمارس حيّة الوادي
لا اعرفنّك بعد الموت تندبني	وفي حياتي ما زوّدتنــــي زادي
فان حييت فلا احسبك في بلدي	وان مرضت فلا احسبك عوّادي
انّ امامك يوما أنت مدركـــه	لا حاضر مفلت منــه ولا بادي
فانظر الى فيء ملك أنت تاركـه	هل ترســــينّ أواخيه بأوتــاد
الخير يبقى وان طـــال الزمان به	والشرّ أخبث ما أوعيت من زاد

وعبيد في هذه الموعظة ايضا يحيط بموضوعه .. فهو يعظ هذا الملك الذي تخلّى عن صديقه خوفا على ملكه بأنه ميّت لا محالة .. وانه خاسر هذا الملك الذي يحرص عليه .. وهو يسخر من ادعاء هذا الملك ودّا ليس له وجه عملي .. وهو يصل اخيرا الى هذه الفكرة النادرة في شعر الجاهلية.. فان يكن كل شيء ذاهبا فان الخير باق وان الشر باق .. على ان من اجل ما في الشعر ما يلمح اليه عبيد من ان الموت الذي يفرّ منه هذا الملك لأنه يحسب الخلاص منه ممكنا هو الذي يزيد من جرأة الشاعر ويهوّن عليه أمر حيّـــة الوادي .. والحقيقة ان هذا الشعر ان صحّ لعبيد فانه به استاذ هذا اللون من الموعظة .. فهو أقدم من عدي بن زيد اولا وهو أجود منه موعظة كذلك .

ومن هذا اللون من الموعظة قول مصاد بن مذعور القيني مسلّيا نفسه حين أغير على ابله[50] :

هو الدهر آس مرّة ثم جـــارح	ســوانحه مبثوثة والبــــوارح
فبينـا الفتى في ظـل نعماء غضّة	تبــاكره أفيــــاؤه وتراوح
الى ان رمته الحادثات بنكبـــة	تضيق به منها الرحاب الفسائح
فاصبح نضوا لا يتوء كأنمــا	بأعظمه ممّا بـــراه الفوادح
فما خلتني من بعد عَرْج عكامس	اقتّــس اذوادا وهـن روازح
حدابيرَ ما ينهضن الاّ تحاملا	شراسف عوج اسأرتها الجوائح

(٥٠) امالي القالي ١/١٤٣ . وتعرف جاهلية الشاعر من اخذه الرباع .

فيا واثقا بالدهـــر كن غير آمن لما تنتضيه الباهظـــات الفوادح
فلـــت على ايامـــــه بمحكم اذا نفرت فاها الخطوب الكوالح
مجيرك منه الصبر ان كنت صابرا والا كما يهوى العدوّ المكاشح

ومن المواعظ الجاهلية الموجهة الى أناس بعينهم ما يذكر بالله تعـــالى ويحذر من عقوبته ويتأسى برحمته وعدله : ومن أشهر اناشيد هذا اللون قول زهيـــر :

فمن مبلغ الاحلاف عني رسالة وذبيان هل أقسمتم كلّ مقسم
فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهمـــا يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدّخر ليوم الحساب أو يعجّل فينقم

ويقول عبد قيس بن خفاف البرجمي في جملة وصاياه لابنه[51] :

الله فاتقـــه وأوف بنـــذره واذا حلفت ممـــاريا فتحلّل

ويقول عدي بن زيد[52] :

ليس شيء على المنون بـبـــاق غير وجـــه المسبّح الخلاّق
ان نكن آمنين فاجأنا شـــرّ معيب ذا الود والاشـــفاق
فبريء صدري من الظلم للر ب وحنث بمعـــقد الميثـــاق
وأذهبي يا أميم ان يشأ الـ له ينفّس من أزم هذا الخناق
او تكن وجهة فتلك سبيل الـ ـناس لا تمنع الحتوف الرواقي

ويقول عدي واصفا نفسه بالتقوى والتديّن وكأنه يخوّف النعمان من ايذائه بان الله تعالى سيساعده ويردّ كيد من يكيد له[53] :

---

(51) المفضليات رقم ١١٦ ص ٣٨٤ .
(52) ديوان عدي بن زيد رقم ٩٢ ص ١٥٠ . من الملحق .. وهي مما صححه ابن سلام من شعر عدي . طبقات فحول الشعراء ص ١١٧ – ١١٨ .
(53) ديوان عدي رقم ٨ ص ٦٠ .

أبلغ النعمان عنّي مالكـــا قولاً من خافة الظنانا فاعتذر
أنّني والله فاقبل حلفي لأبيل" كلّما صلّى جأر
مرعد" احشاؤه في هيكل حسن" لمتّه وافي الشعر
مؤمنٌ الصدر يرجّي عتقه يوم لا يكفر عبد ما ادخر
ما حملنا الغلّ من أعدائكم ولدى الله من العذر المُسَرّ
حولنا الاعداء ما ينصرنا غير عون الله والله نصر
لا تكوننّ كآسي عظمه بأسى حتّى اذا العظم جُبّر
عاد بعد الجبر يبغي وهيه ينحونّ المشي منه فانكسر
واذكر النعمى التي لم أنسها لك في السعي اذا العبد كفر
فاكتنت لاتك عبدا طائرا واحذر الأقتال منّا والثور
إنما قد قدمت مسعاتنا نمما ترفع منّا من عثر
ولنا مجد وربٌّ مفضل بيديه الخيرُ ما شاء أمر
منه فضل ولديه سعة انما يرجى لما فات الغير

القدر والحظ في حكمة الجاهلية :

واغلب المواعظ الجاهلية تخوّف من مصير مظلم ينتظر الانسان .. وذلك واضح فيما مرّ بنا منها .. ومن النادر أن نسمع صوتا يدعو الى غضّ النظر عن هذا المصير ومواجهة الحياة بشجاعة .. ومن هذا النادر قول ابن الذئبة الثقفي(٥٤) :

ان المنية بالفتيان ذاهبة ولو اتقوها بأسياف وادراع
بينا الفتى يبتغي من عيشه سددا اذ حان يوما تنادى باسمهالناعي
لا تجعل الهم غلاّ لا انفراج له ولا تكوننّ سؤوما ضيّق الباع

(٥٤) المؤتلف والمختلف ص ١٢٠ . وفي سمط اللآلي ٢/٧٦٢ انه جاهلي . وفي الاصل سؤوما .

وقول جثامة بن قيس الكناني[٥٥] :

أصبحت آتي الذي آتي وأتركه ... وبات اكثر رأي الناس مرتابا
فان أمت والفتى رهن بمصرعه ... فقد قضيت من الآداب آرابا
وقلما يفجأ المكروه صاحبه ... حتى يرى لوجوه الامن ابوابا

ويتناول الاعشى مسألة القدر ببساطة الجاهلي التي ينبغي الا تخلط بينها وبين السطحية والسذاجة .. فهو يرى تناقضا بين العدل الذي خص به الله تعالى وبين التفاوت البيّن فيما قسمه للناس من حظوظ من الخير والشر . وهو يعجب لهذا الانسان كيف خص بالظلم وهو لا يكون ما يكون بارادة واختيار . يقول الاعشى[٥٦] :

ان محلا وانّ مرتحلا ... وانّ في السفر ما مضى مهلا
استأثر الله بالوفاء وبالعد ... ل وولّى الملامة الرجلا
والارض حمّالة لما حمّل وما ... ان تردّ مما فعلا
أثنا لها الخفّ والبراثن والـ ... ـحافر شتى والأعصم الوعلا
والناس شتى على سجائحهم ... مستوقحا حافيا منتعلا

---

(٥٥) المؤتلف والمختلف ص ١٠٦ . وفي معجم الشعراء أن لجثامة‌انا مخضرما ص ٣٥٦ .

(٥٦) ديوان الاعشى رقم ٣٥ ص ٢٣٢ .. واورد د . محمد حسين شك ابن قتيبة في اصالة القصيدة . . واظن انه يعبر عن عدائه لانكسار الاعتزال بموقفه هذا ... فهو يروى للاعشى بيتا يذكر فيه الملكين الكاتبين ويقول ان ذلك مما بقي من دين اسماعيل عليه السلام ولا يشك فيه . الشعر والشعراء ١٨٦/١ ومما يشير بسر موقفه من اللامية انه روى : استأثر الله بالوفاء وبالحمد بدل العدل ، الشعر والشعراء ١٥/١ . اما قلق التظلم فقد لاحظه ابن قتيبة في شعر آخر للاعشى .. ولاحظه ابن طباطبا العلوي في ثلاث قصائد اخرى من شعره . الموشح ص ٦٧ .

ونسبة العدل والوفاء الى الله تعالى هي اعلى ما وصـــل اليه تفكير الجاهلية في القدر .. ونحن نجد هاتين الصفتين منسوبتين اليه تعالى في قول النابغة[57] :

أبى الله الاّ عدله ووفـــــاءه فلا النكر معروف ولا العرف ضائع

أمّا العدل فصفة مفهومة وتعني ان الله لا يثيب الحسن والمسيء نفس الثواب وذلك يقتضي في الاصل ان يكون عمل الانسان اراديا .. واما الوفاء فيمكن ان نفهم انه التزام الله تعالى بأن يثيب ويعاقب ولا يترك الناس سدى .. فلا النكر معروف ولا العرف ضائع كما يقول النابغة .. ولعلّ الوفاء في اصطلاح الجاهلية يعني الثقة بالله .. ويشـــير الى معنى قوله تعالى : « ومن أوفى بعهده من الله » التوبة ١١١ . ولعل اصل هذه النظرة في نفي القدر غير عربي .. فراوية الاعشى يقول انه أخذها من عباد الحيرة أو نصـــارى نجران[58] .. ويمكن ان نرد الفكرة في شعر النابغة الى الحيرة لصلته الوثيقة بحكامها .. وكذلك يبدو أن الفكرة ليست مما انتشر على نطاق واسع بين العرب .. ولعلّ ذلك راجع الى انها ممّا تأخر وصـــوله اليهم من الافكار الوافدة .. وآية ذلك أنها جاءت في شعر شاعرين من متأخري اهل الجاهلية.

ولعل أصدق ما يقال عن آراء الشعراء في القدر وحريّة الارادة هو قول جامة الذي سبق ايراده .. فقد كان اكثر الناس مرتابا .. وكان هذا الشك يؤدي بهم الى بلبلة وتردّد وحيرة فيما يأتون وما يدعون .. ويجرّهم الى جبريّة متشائمة يفســــرون بها اغلب مشـــاكلهم . وظواهر الحياة التي تستوقفهم .

---

(٥٧) مختار الشعر الجاهلي ص ١٥٩ .

(٥٨) الاغاني ٩/١١٢ ، ١٢/٢ — ٤ .

من ذلك قولهم بأن الانسان مفطور على الشر مجبول على الرذيلة ..
وفي ذلك يقول طرفة[٥٩] :

أسلمني قومي ولم يغضبوا ... لسوءة حلت بهم فادحه
كلّ خليل كنت خاللته ... لا ترك الله له واضحه
كلهم أروغ من ثعلب ... ما أشبه الليلة بالبارحه

ويقول امرؤ القيس[٦٠] :

اذا قلت هذا صاحب قد رضيته ... وقرّت به العينان بدّلت آخرا
كذلك جدّي ما اصاحب صاحبا ... من الناس الاّ خانني وتغيّرا

ويقول زهير[٦١] :

ليتني خلقت للابد ... صخرة صماء في كبد
لا تشكي شرّ جارتها ... خلقت غليظة الكبد

ويقول الافوه الأودي[٦٢] :

بلوت الناس قرنا بعد قرن ... فلم أر غير خلاب وقال

ويقول عبيد بن الابرص[٦٣] :

اني لأخشى الجهول الشكس شيمته ... وأتقي ذا التقى والحلم بالراح

---

(٥٩) ديوان طرفة رقم ٢ ص ٢٥ .
(٦٠) ديوان امرىء القيس رقم ٤ ص ٦٩ .
(٦١) الحيوان ٣٩١/٤ ، وقد ذكر المحقق انهما ليسا في ديوانه .. ولم يذكر لهما مصدرا آخر .
(٦٢) الطرائف الادبية ص ٢٣ من ثلاثة ابيات قال عبد الله بن الزبير انها جامعة لما قالت العرب . انظر معاهد التنصيص ١٥٠/٢ .
(٦٣) ديوان عبيد رقم ١٢ ص ٣٩ .

وعيد لا يأمن الجاهل الشكس ولا الحليم التقي .. وفي تفضيله هذا مهاجمة واضحة للاتقياء واشارة الى ان التقوى لا تغيّر من حقيقة الناس ..

ولم تنج المرأة من هذه الجبرية المتشائمة .. فقد اتهموهـا بالكذب والخيانة وصوّروا ذلك طبعا أصلا فيها .. يقول النمر بن تولب[٦٤] :

كلّ خليـل عليـه الرعـا ث والحبـلات كذوب ملق

ويقول آكل المرار الملك[٦٥] :

كل انثى وان بدالك منهـا آية الحب حبّها خيتعـور

ويقول طفيل الغنوي[٦٦] :

ان النساء كأشجار نبتن معـا من المرار وبعض المر مأكول
ان النساء متى ينهين عن خلق فانــه واجب لابد مفعول
لا ينثنين لرشد ان صرفن له وهنّ بعد ملاويم مخاذيـل

وبهذه الجبرية علّلوا اختلاف الافراد في اخلاقهم .. فمنهم من يزعم أنها طبيعة لا يمكن ان تتبدل ، ومنهم من يردّها الى الارث أو قسمة الله تعالى : يقول قيس بن الخطيم[٦٧] :

وبعض خـلائـق الاقـوام داء كـداء الكشح ليس له دواء

ويقول ذو الاصبع[٦٨] :

كل امرىء راجع يوما لشيمتـه وان تخلّق اخـلاقا الى حـين

---

(٦٤) الاغاني « الساسي » ١٥٨/١٩ . يقول ذلك في امرأته السبية التي ازارها قومها فلم تعد اليه .

(٦٥) البيان والتبيين ٣٢٨/٣ ، وجاء في الاغاني « الدار » ٢٥٣/١٦ ان لحنين الحيري غناء في هذا الشعر .

(٦٦) البيان والتبيين ٣٢٨/٣ ولمالك بن ابي كعب قصيدة شبيهة بها رواها في الاغاني « الدار » ٢٣٦/١٦ .. وفي البيان منها المرار .. وفي الاغاني: منهن مر . وما اثبته يقتضيه المعنى . فالشاعر يريد ان النساء خلق واحد . ولا يستقيم ذلك مع القول بان بعضهن من المرار ..

(٦٧) ديوان قيس بن الخطيم رقم ١١ ص ٥٣ .

(٦٨) المفضليات رقم ٣١ ص ١٦٠ ، ١٦٢ .

ويقول عبيد بن الابرص[69] :

لا ينفع اللب عن تعلّم الا السجيّات والقلوب

ويقول زهير[70] :

فما كان من خير أتوه فانما توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطيّ الا وشيجه وتنبت الا في منابتها النخل

ويقول الافوه الاودي[71] :

ولكل ساع سنة ممّن مضى تنمي به في سعيه أو تبدع

وهم يذهبون الى الوراثة في شعر الفخر والمدح غالبا ، ويقول لبيد[72] :

فاقنع بما قسم المليك فانمّا قسم الخلائق بيننا علاّمها
واذا الامانة قسمت في معشر أوفى بأوفر حظنا قسّامها

ومن أغرب ما تلمح فيه هذه الجبرية المتشائمة بعض شعرهم الذي قالوه في تسفيه الكهانة والزجر والسخرية من الطيرة .. ذلك اننا نتوقع منهم في هذا الشعر تفاؤلا يتمشى مع هذه النظرة المتحررة من الاوهام .. ولكننا نجد عكس ذلك ، يقول أحيحة بن الجلاح في مذهبه[73] :

فهل من كاهن أو ذي اله اذا ما حان من ربّ أفول

---

(69) ديوان عبيد رقم ٥ ص ١٤ .

(70) شرح ديوان زهير ص ١١ .

(71) الطرائف الادبية ص ١٨ .

(72) شرح ديوان لبيد رقم ٤٨ ص ٣٢٠ . وانظر حماسة البحتري : باب غلبة الشيمة والخلق على التخلق ص ٣٥٨ . باب نزوع المرء الى اصله ص ٣٤٨ .

(73) جمهرة اشعار العرب ص ٢٣١ ، وقد روي في البيت قبل الاخير بناشئة منقوطة وفي طبعة الرحمانية ١٩٢٦ بناشئة الا .. والمعنى مستقيم ولكن الا زائدة على الوزن .

يراهنني فيرهنني بنيه وأرهنه بنيّ بما اقول
وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغنّي متى يعيل
وما تدري وان ألقحت شولا أتلقح بعد ذلك أم تحيل
وما تدري اذا ذمّرت سقبا لغيرك أم يكون لك الفصيل
وما تدري وان اجمعت امرا بأيّ الارض يدركك المقيل

وفيها يقول :

وقد أعددت للحدثان حصنا لو ان المرء تنفعه العقول

ويقول في آخرها :

وما من اخوة كثروا وطابوا بناسئة لأمهم الهبول
ستثكل أو يفارقها بنوها سريعا أو يهمّ بهم قبيل

فهذه قصيدة يغلب عليها التشاؤم برغم ما فيها من التشكيك في علم الكهان ويقول لبيد في قصيدة حزينة يرثي بها أربد أخاه[74] :

أعاذل ما يدريك الاّ تظنيا اذا ارتحل الفتيان من هو راجع
تبكي على اثر الشباب الذي مضى ألا انّ اخدان الشباب الرعارع
اتجزع ممّا احدث الدهر بالفتى وأيّ كريم لم تصبه القوارع
لعمرك ما تدري الضوارب بالحصا ولا زاجرات الطير ما الله صانع
سلوهنّ ان كذّبتموني متى الفتى يذوق المنايا أو متى الغيث واقع

ولبيد لا يشك في مصير الانسان المظلم .. ولكنه يجهل ميعاد هذا المصير ، أما خزز بن لوذان فهو يوصي في قصيدة يرثي فيها نفسه بطلب الخير والعمل دون نظر الى اوهام الطيرة .. ولكنه ينهي هذه القصيدة بعبرة حياته

---

(74) شرح ديوان لبيد رقم ٢٤ ص ١٧١ .

فيذكرنا بأن كلّ شيء من الخير والشر ذاهب غير دائم لأحد .. يقول خزز[٧٥] :

طال الثواء بمأرب وظننت أني غير زائم
من مبلغ عمرو بن لأي حيث كان من الاقاوم
فلرب بالك من بني ذهل وقاعدة وقائم
ومشققات للجيوب عليّ كالبقر الحوائم
لا يمنعنّك من بغاء الخير تعقاد التمائم
ولا التشاؤم بالعطاس ولا التيمّن بالمقاسم
ولقد غدوت وكنت لا أغدو على واق وحاتم
فاذا الاشائم كالايامن والايامن كالاشائم
وكذاك لا خير ولا شرّ على أحد بدائم
قد خطّ ذلك في الزبور الاوّليّات القدائم

ويقول الحارث بن حلزة[٧٦] :

يا ايها المزمع ثم انثنى لايثنك الحازي ولا الشاحج
ولا قعيد قرنه أعضب هاج له من مربع هائج
بينا الفتى يسعى ويسعى له تاح له من أمره خالج
يترك ما رقّح من عيشه يعيث فيه همج هامج

---

(٧٥) المؤتلف والمختلف ص ١٠٢ ، عيون الاخبار ١٤٥/١ والوحشيات ص ١٦٦ . والشعر ينسب لمرقم السدوسي او خزز بن لوذان ولعل المرقم لقب خزز . فقد جاء في نوادر القالي ص ١٨٥ : « والنعامة للحارث ابن عباد ، وولدت النعامة النبيط وهو لبني سدوس وكان لخزز بن لوذان .. » وهذا نص على ان خزز سدوسي مما يتفق مع نسب المرقم . وبهذا تعرف جاهلية الشاعر .. فالنعامة وصاحبها الحارث مذكوران في حرب البسوس واشعارها ..

وقد حقق البغدادي في الخزانة جاهلية الشاعر : ٣٢٠/١ .

(٧٦) الحيوان ٤٤٩/٢ .

ويقول علقمة بن عبدة في جملة من خواطره المتشائمة[٧٧] :

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه ... أنى توجّه والمحـــروم محروم
ومن تعرّض للغربان يزجرهـــا ... على ســـلامته لابد مشـــؤوم
وكلّ بيت وان طالت اقامته ... على دعائمـــه لابدّ مهـــدوم

وقد يمازج السخرية بالطيرة روح متفائل ، وأغلب ما يكــون ذلك في الفخر ، ومن ذلك قول زبّان بن سيار الفزاري في تطيّر النابغة بجرادة وقعت عليه ورجوعه عن الغزو[٧٨] :

تخبّر طيـــرة فيهـــا زيـــاد ... لتخبـــره وما فيهـــا خبير
أقـــام كـــأن لقمان بن عـــاد ... أشـــار لـــه بحكمتـــه مشـــير
تعـــــلّم انـــه لا طير الا ... على متطيّر وهـــــــو الثبور
بلى شيء يـــوافق بعض شيء ... أحـــايينـا وباطـــــــله كثير

ويقول عوف بن عطيّة بن الخرع[٧٩] :

نـؤم البـــلاد لحب اللقـــاء ... ولا نتقي طائـــرا حيث طارا
ســـنيحا ولا جاريـــا بارحـــا ... على كل حـــال تلاقي اليســـــارا

العـــــدل :

والعدل مما نكر فيه الشاعر الجاهلي بعيدا عن حيرته المتشـــائمة .. ويبدو ذلك في كون الظالم لا ينجو من عقوبة غيبية تجد أكثرهم لا يصـــرّح بمصدرها . والمثل عندهم في مصير الظالم كليب وائل ، يقـــول درهـــم بن زيـــد[٨٠] :

أرى قومنا والبغي مهلك أهـــله ... يريدون ظلما في العشير ومأثما

---

(٧٧) مختار الشعر الجاهلي ص ٤٢٩ ، المفضليات رقم ١٢٠ ص ٤٠١ .
(٧٨) العمدة ٢٦١/٢ ، عيون الاخبار ١٤٦/١ .
(٧٩) المفضليات رقم ١٢٤ ص ٤١٥ .
وانظر في النصوص السابقة : الحيوان ٤٤٧/٣ ، وحماسة البحتري ص ٢٥٥ في باب ترك الطيرة .
(٨٠) حماسة البحتري ص ١٦٦ .

ويقول المتلمس[81] :

ومن يبغ أو يسعى على الناس ظالما   يقع غير شك لليدين وللفم

ويقول طرفة[82] :

والظلم فرّق بين حيّي وائل   بكر تساقيها المنايا تغلب
قد يورد الظلم المبيّن آجنا   ملحا يخالط بالذعاف ويقشب

ويقول العباس بن مرداس[83] :

أكليب مالك كلّ يوم ظالما   والظلم أنكد وجهه ملعون
قد كان قومك يحسبونك سيدا   وأخال أنك سيد معيون
فاذا رجعت الى نسائك فادّهن   انّ المسالم رأسه مدهون
وافعل بقومك ما أراد بوائل   يوم الغدير سميّك المطعون
وأخال أنك سوف تلقى مثله   في صفحتيك سنانها المسنون
انّ القرية قد تبيّن أمرها   ان كان ينفع عندك التبيين
حيث انطلقت تخطها لي ظالما   وابو يزيد بجوها مدفون

ويقول النابغة الجعدي[84] :

وبلّغ عقالا أن خطة داحس   بكفيك فاستأخر لها أو تقدّم
تجير علينا وائلا في دمائنا   كأنك عمّا ناب أشياعنا عم
كليب لعمري كان أكثر ناصرا   وأيسر جرما منك ضرّج بالدم

---

(81) ديوان المتلمس ص ٢٠٤ .
(82) ديوان طرفة رقم ١ ص ٢٣ .
(83) الوحشيات ص ٢٣٨ ، الحماسة البصرية ١٠/١ ، معاهد التنصيص ١٢/١ .
(84) شعر النابغة الجعدي ص ١٤٢ . ويضاف الى مصادرها النقائض ٢/٦٠٦ .

ويقول عمرو بن الاهتم[٨٥] :

فلله ساع بالظـــالم بعـــد مـــا	يرى كيف يأتي الظالمون ويسمع
سعى لبني عبس بغـدوة داحس	على آل بـدر والرمـــاح تزعزع
ورهط كليب قـد جزاهم بظلمهم	ببطن شبيث اذ ينـــوء ويصرع

وخوّفوا كذلك من الحروب والبـــدء بها على أن ذلك لون من البغي الذي لا تحمد عقباه . ومن أجمل ما جاءنا من ذلك وأكثره تفصيلا قول بلعاء ابن قيس الكناني ذاكرا حرصه على السلم ومعرفته لما تجرّ الحرب من خسارة وأنه ترك عدّوه يبدأ الحرب لان ذلك سيؤدي الى خسارته بغيه[٨٦] :

نهيت أبا عمرو عن الحرب لو يرى	برأي رشـيد أو يؤول الى عـزم
وقلت له دع عنـك بكرا وحربهـــا	ولا تركبن منهـا على مركب وخـم
ومهلا عن الحرب التي لا أديمهـــا	صحيح ولا تنفك تأتي على سُـقْم
فاجر بهـا بـلا عليــكم وان رئي	لكم زمن من فضـل ريّ ومن طعم
فان يظفر الحــرب الذي أنت فيهم	وآبوا بدهم من ســباء ومن غنم
فلابد من قتـل وعلك فيهـــم	والا فجُرْحٌ ليس يكني عن العظم
دعاني يشــب الحرب بيني وبينــه	فقلت له لا بل هلمّ الى الســلم
فلمّا أبى أرســلت فضــلة ثوبه	اليـه فلم يرجع بعزم ولا حـــزم
وأمهلتـه حتى رمـــاني بحرهـا	نلفضــل من غيّ غويّ ومـــن إثم
فلمّا رمانيها رميت ســـــوادة	ولا بدّ أن ترمي سواد الذي يرمي
فبتا على لحم من القـــوم غودرت	أسنتنا فيـــه وباتو على لحـــم
وأصبح يبكي من بنين واخـــوة	حسان الوجوه طيّبي الجسم والنسم
نحن نبكّي اخـــوة وبنيـــــم	وليس سواء قتـل حق على ظـــلم

(٨٥) حماسة البحتري ص ١٦٨ من باب بهذا المعنى فيه مزيد من النصوص . كذلك اورد الجاحظ في الحيوان ١/٣٢١ نصوصا عديدة من الشعر قيلت في كليب .

(٨٦) في المصادر خلاف في نسبة الشعر لبلعاء او اخيه جلحلة او الحارث بن وعله الجرمي . أنظر حماسة البحتري ص ٧٣ ، الحماسة البصرية ١/٦٣ حماسة ابن الشجري ص ٥٣ .

ويقول العباس بن مرداس[٨٧] :

السلم تأخذ منها ما رضيت به … والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

ويقول أبو قيس بن الأسلت[٨٨] :

أنكرته حين توسمته … والحرب غول ذات أوجاع
من يذق الحرب يجد طعمها … مرًا وتحبسه بجعجاع

ويقول عمرو بن معد يكرب[٨٩] :

الحرب أول ما تكون فتية … تسعى بزينتها لكل جهول
حتى اذا حميت وشب ضرامها … عادت عجوزا غير ذات حليل
شمطاء جزّت رأسها وتنكّرت … مكروهة للشم والتقبيل

ولم ينظر الجاهلي الى الظلم الذي يوقعه به غيره على أنه قدر مرسوم، ولذلك فهو يدفع الظلم عن نفسه ولا يقبل به ؛ يقول الشداخ الكناني[٩٠] :

أبينا فلا نعطي مليكا ظلامة … ولا سوقة الا الوشيج المقوّما

ويقول زهير :

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه … يهدّم ومن لا يظلم الناس يظلم

ويقول بن براقة الهمداني[٩١] :

متى تجمع القلب الذكيّ وصارما … وأنفا حميا تجتنبك المظالم

---

(٨٧) خزانة الادب ٨٢/٢ ، والعيني بهامشها ٥٦/٢ .
(٨٨) المفضليات رقم ٧٥ ص ٢٨٤ .
(٨٩) الحماسة البصرية ١٨/١ .
(٩٠) حماسة البحتري ص ٢٣ .
(٩١) امالي القالي ١٢٢/٢ ، الاغاني « الساسي » ١١٣/٢١

ومعنى دفع الظلم بالقوة كثير في شعرهم •• أما اذا كان ردّ الظلم بهذه الوسيلة غير ممكن فان الشاعر الجاهلي لا يجد غير الارتحال عن دار الضيم •• وهو يعتبر الاقامة فيمن أوقع الظلم عجزا من الافراد والقبيلة •• ولا يرى الرضوخ لقوة الناس تسليما للقدر •• والمثل الاعلى في مغادرة دار الظلم عندهم سامة بن لؤي الذي هجر مكة الى عمان من اباته الضيم • يقول المسيب بن علس[٩٢] :

أبلغ ضبيعة أن البلا ... د فيها لذي قوة مهرب
وقد يجلس القوم في أصلهم ... اذا لم يضاموا وإن أجدبوا
فلا تجلسوا غرضا للهوا ... ن خذفا كما تخذف الأرنب
فان لم تكن لكم مسرّة ... يلفهما البلد الأركب
فكونوا عبيدا لأربابكم ... فان ساءكم ذلكم فاغضبوا
وهل يقصد الألف لا يغضبو ... ن كلتهم أمه يضرب
وقد كان سامة في قومه ... له مأكل وله مشرب
فساموه ضيما فلم يرضه ... وفي الأرض من ضيمهم مهرب

ويقول المتلمس[٩٣] :

يا آل بكر الا لله أمكم
طال الثواء وثوب العجز ملبوس
أغنيت شأني فاغنوا اليوم شأنكم
واستحمقوا في مراس الحرب أو كيسوا
انّ علافا ومن باللوذ من حضن
لمّا رأوا أنه دين خلابيس

---

(٩٢) الصبح المنير ص ٢٥٠ .. وانظر في قصة سامة بن لؤي : امالي الزجاجي ص ٨) .

(٩٣) ديوان المتلمس ص ١٧٧ .

شــدّوا الجمال بأكـوار على عجـل
والظلم ينكـره القـوم المكايس
كانوا كسـامة اذ شـعف منـازلـه
ثم اسـتمرّت بـه البزل القناعيس

ويقول في قصيدة أخرى[٩٤] :

ان الهوان حمار الحي يعـرفـه | والحـر ينكره والرسلة الأجد
كونوا كبكر كما قـد كان أوّلكم | ولا تكونوا كعبد القيس اذ قعدوا
يعطون ما سئلوا والخط منزلهـم | كما أكبّ على ذي بطنه الفهـد
ولن يقيم على خسـف يراد بـه | الاّ الاذلان عـير الحيّ والوتـد
هذا على الخسـف مربوط برمّته | وذا يشج فما يرثي له أحـد
كونوا كسامة اذ شعّف منازله | اذ قيل جيش وجيش حافظ رصد
شـدّ المطية بالانسـاع فانحرفت | عرْضَ التنوفة حتى مسها النجد
وفي البـلاد اذا مـا خفت نائرة | مشهورة عن ولاة السوء مبتعـد

ويقول قيس بن الخطيم[٩٥] :

وما بعض الاقامـة في ديار | يكون بها الفتى الاّ عنـاء
ولم أر كامرىء يدنو لخسـف | له في الارض سـير وانتواء

ويقول عبد قيس بن خفاف البرجمي[٩٦] :

واترك محل السـوء لا تحلل به | واذا نبا بـك منـزل فتحوّل
دار الهـوان لمن رآهـا داره | أفراحل عنها كمن لم يرحـل

---

(٩٤) ديوان المتلمس ص ١٩٥ .
(٩٥) ديوان قيس بن الخطيم رقم ١١ ص ٥٣ .
(٩٦) المفضليات رقم ١١٦ ص ٣٨٥ .

ويقول عميرة بن جعل في هجاء قومه[٩٧] :

اذا ارتحلوا عن دار ضيم تعاذلوا عليهم وردوا وفدهم يستقيلهــــا

ويقول امرؤ القيس[٩٨] :

واذا اذيت ببلدة ودّعتهـــا ولا أقيم بغير دار مقـــام

وهذا المعنى مرتبط بالبداوة وكراهة الاستقرار[٩٩] :

وليس ثمة تعارض بين الكثير من شعر الجاهلية الذي يصوّر الاحتكام الى القوّة والفخر بالغلب وبين الشعر الذي يصوّر احساسا واضحا بالفرق بين العدل والظلم . ذلك ان الشعر الذي يمجد القوة هو شعر الصراع الذي يمثل الدفع عن كيان القبائل والافراد ودرء العدوان عنهما . والشعر الذي يمجد العدالة هو سلاح ثانوي في هذا التنازع للبقاء . وقد يكون هذا الشعر محاولة لتفادي اللجوء الى القوّة وقد يكون محاولةلانهاء الصراع الدامي حين يمتد ويتسع دون ان ينتهي الى نصر يحسم النزاع .. ولكنه يصوّر تعلقا واضحا بالحق ويرتبط بقيم الضمير الانساني الســامي .

ونحن نجد في هذا الشعر حديثا عن مفاهيم العدالة المختلفة وجوانبها الشائكة فهو يتناول القضاة والمتخاصمين والاحكام جميعــــا بالكثير من التفصيل .. ومما قالوه في القضاة وصيّة سلمة بن الخرشب الانماري لسبيع الثعلبي الذي وضعت على يديه الرهائن في بداية حرب داحس . وهو يرسم في هذه الوصية صورة تثير الاعجاب لقاض مثاليحريص على الحيـــاد مدقق في التعرّف على الحقيقة جريء في وقوفه الى جانب الحق .. يقول سلمة[١٠٠]:

---

(٩٧) المفضليات رقم ٦٣ ص ٢٥٨ .

(٩٨) ديوان امريء القيس رقم ٥١ ص ١١٨ .

(٩٩) انظر في معنى الفخر بالبداوة وذم الاستقرار : « الرقم للقصـــيدة فالبيت » : ديوان الاعشى ٢٤/٢٣ ، الاصمعيات للاسعر الجعفي ٦/٤٤ ، المفضليات ليزيد بن خذاق ١٢/٧٩ ، مقاس العائذي ٣/٨٥ .

(١٠٠) البيان والتبيين ٢٢٨/١ ، ٣١٤/٣ ، عيون الاخبار ٦٧/١ .

أبلغ سبيعـــا وانت سيّدنا ... قدما وأوفى رجالنا ذممـــا
انّ بغيضــا وانّ اخوتهـا ... ذبيانّ قد صرّموا الذى اضطرما
نبئت ان حكمــــوك بينهم ... فلا يقولنّ بئس ما حكمـــا
انْ كنت ذا خبـــرة بشـــأنهم ... تعرف ذا حقهم ومن ظلمـــا
وتنزل الامـــر فيْ منازلـــه ... حكما وعلما وتحضر الفهمـــا
ولا تبالي من المحق ومن الـ ... ـمبطل لا إلّة ولا ذممـــا
فاحكم فأنت الحكيـم بينهم ... لن يعدموا الحكم ثابتا صتمـا
واصدع أديم الســواء بينهم ... على رضى من رضي ومن رغمـا
ان كان مـــالا فقضّ عدّته ... مالا بمال وان دما فدمـــا
حتّى ترى ظاهر الحكومة مثل الـ ... ـصبح جلّى نهاره الظلمـــا
هـــذا وان لم تطق حكومتهم ... فانبذ اليهم أمورهم سلّمـــا

والمعنى الذي يختفي وراء هذه الوصية هو الخوف من سبّة الجور في الحكومة أن تلحق بهذا الحكم وبقبيلته .. وهو المعنى الذى يشير اليـــه الشاعر بقوله :

نبئت أن حكّموك بينهـــم ... فلا يقولنّ بئس ما حكمـــا

وهذا المعنى واضح في شعر سبرة بن عمرو الفقعسي الذى يقوله لضمرة النهشلي حين ارتشى وقضى عليه ؛ وذلك هو قوله[١٠٦] :

يا ضمر كيف حكمت أمك هابل ... والحكم مسؤول به المتعقّد
أحفظت عهدا أم رعيت امانة ... أم هل سمعت بمثلها لا ينشد
شنعاء فاقرة تجلّل نهشـــلا ... دنسا تغور به الركاب وتنجد
ان الرفاق أمال حكمك جيئهـا ... فلك اللقـــاء وراكب متمرّد

وسبيع من ثعلبة بن سعد بن ذبيان كما جاء في النقائض ١/٩٣ وليس ثعلبيا كما جاء في المصادر مصحفا . ويدل على ذلك ان سلفه ـ هو انماري غطفاني يقول له انت سيدنا . وانمار اخو عبس وذبيان كما جاء في جمهرة ابن حزم ص ٢٥٠ .

(١٠٦) الحيوان ٢/٦٦٢ .

والارجح انه يتحدث عن مسؤولية الحاكم الادبية التي دنّست قومه بني تهتل « مسؤول به » .. وربما كان يقصد مسؤولية مباشرة .. فهو يصدّه بالجرب كما هو ظاهر . ويقول طرفة في قاص من الكهّان متهما اياه بالخداع ممّا أدى الى قتله في اقامة الصلح بين بكر وتغلب[102] :

قسمي الفـــلاّق بينهم سعي خبّ كاذب شيمه
اخذ الازلام مقتسمـــا فاتى اغواهمـــا زلمـــه
عند أنصاب لهـــا زفر في صعيد جمّه أدمــه

حتى يقول :

فعلنـــا ذلكم زمنـــا ثمّ داني بيننا حكمــه

ويقول زهير مادحا[103] :

متى يشتجر قوم تقل سرواتهم هم بيننا فهم رضا وهم عـــدل
هم جدّدوا أحكام كلّ مضلّة من العقم لا يلفى لامثالها فصل
بعزمة مأمور مطيـــع وآمر مطاع فلا يلفى لحزمهم مثل

وهو يمدح سنان بن ابي حارثة وقومه بشهرتهم بالعدالة بين الناس .. ويضيف الى ذلك خبرتهم في الاحكام وقدرتهم على استنباط القاعدة الصالحة العادلة وعلى الحكم فيما يشتبه على غيرهم . وهو يبيّن لنا سرّ هذه القدرة.. وهو حزمهم ونفاذ كلمتهم فيمن يحتكم اليهم .. ولولا هذه الطاعة والشهرة بالعدل لوقفوا عند القواعد المتعارف عليها في احكامهم .

---

(١٠٢) ديوان طرفة رقم ١٨ ص ١٥٢ ، مختار الشعر الجاهلي ص ٢٣٦ . والبيت الاخير مقدم في الحيوان ..

(١٠٣) شرح ديوان زهير ص ١٠٧ .

ومن قولهم في الحكام قول النابغة(١٠٤) :

أحكم كحكم فتاة الحي اذ نظرت ... الى حمام شراع وارد الثمد
يحفه جانبا نيق وتتبعه ... مثل الزجاجة لم تكحل من الرمد
قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا ... الى حمامتنا ونصفه فقد
فحسبوه فألفوه كما حسبت ... تسعا وتسعين لم تنقص ولم تزد
فكملت مائة فيها حمامتها ... وأسرعت حسبة في ذلك العدد

وهو يطلب من النعمان ان يحكم متجردا عن الهوى كما يحسب الحاسب .. وان يكون دقيقا في فهمه للقضية ليكون حكمه عادلا مصيبا .

ومن مظاهر التعلق بالعدل وجود قوانين مقرّرة في المجتمع : هي موضع الاحترام والتوقير : سواء كان ذلك في داخل القبيلة الواحدة أم بين القبائل المختلفة . فكثيرا ما يصور الشعر خصاما حول الدماء وتكافئها وقيمها .. ومن ذلك قول عوف بن الاجرص العامري في خلاف بين بني جعفر وبني أبي بكر وهما جميعا من عامر(١٠٥) :

خذوا دأبا بما أثأيت فيكم ... فليس لكم على دأب علاء
وليس لسوقة فضل علينا ... وفي أشياعكم لكم بواء
فهل لك في بني حُجْر بن عمرو ... فتعلمه وأجهله ولاء
أو العنقاء ثعلبةَ بنِ عمرو ... دماءُ القوم للكلبى شفاء
وما ان خلتكم من آل نصر ... ملوكا والملوك لهم غلاء

وهو يطلب أن يقبلوا ابنه دأبا رهنا لانه بواء لهم ، ويجادلهم بأنهم ليسوا ملوكا دماؤهم أغلى من دم ابنه . ويقول مالك بن العجلان في يوم سمير(١٠٦):

لا نقبل الدهر دون سنتنا ... فينا ولا دون ذاك منصرف
ان لا يؤدوا الذي يقال لهم ... في جارنا يقتلوا ويختطفوا

(١٠٤) مختار الشعر الجاهلي ص ١٥٣ .
(١٠٥) المفضليات رقم ٣٥ ص ١٧٤ .
(١٠٦) في جمهرة اشعار العرب أن القصيدتين هما ملحمتا مالك بن العجلان ←

وهو يزعم ان بجيرا جارهم فينبغي أن يكون دمه كالسنة في دمائهم فيرد عليه عمرو بن امرىء القيس أو درهم بن يزيد بأن بجيرا ليس من صميمهم فدمه أرخص من دمائهم :

لا ترفع العبد فوق سنته ما دام منا ببطنها شرف

ويقول :

ان بجيرا عبد فخذ ثمنا فالحق يوفى به ويعترف

ويفخر كعب بن زهير بأن مزينة قتلت برجل منها خمسين من الخزرج وانهم لم يقفوا عند القاعدة العرفية في الدماء ، يقول كعب[107] :

فما عثر الظباء بحي كعب ولا الخمسون قصّر طالبوها
ولا قلنا لهم نفس بنفس أقيدونا بها ان لم تدوها

وقد تكون عبارة « نفس بنفس » اشارة الى قاعدة شرعية اقتبسها الخزرج من جيرانهم اليهود .. ويكون الشاعر يسخر من الخزرج بذكرها والفخر بالخروج عليها ، ويصوّر الشعر أيضا خصومات حول الاموال ويعتبر اغتصابها عملا غير مشروع ومن ذلك قصيدة طرفة التي أولها[108] :

ما تنظرون بحق وردة فيكم صغر البنون ورهط وردة غيّب

ويقول مرّة بن همام الشيباني[109] :

يا عوف ويحك فيم تأخذ صرمتي ولكنت أسرحها أمامك عزّبا

ص ٢٢٥ وعمرو بن امرىء القيس ص ٢٢٧ . وفي الاغاني ان القصيدة الثانية لدرهم بن يزيد أخي سمير الذي كانت الحرب بسببه . الاغاني « الدار » ٢١/٣ .

(١٠٧) شرح ديوان كعب ص ٢٠٩ .
(١٠٨) ديوان طرفة رقم ١ ص ٢٢ .
(١٠٩) المفضليات رقم ٨٢ ص ٣٠٣ .

تا لله لو لا أن تساى أهلها ... ولشر ما قال امرؤ أن يكذبا
لبعثت في عرض الصراخ مفاضة ... وعلوت أجرد كالسيب مشذبا

ونحن نفهم من هذا الشعر أن عوفا من قوم الشاعر .. ومن هنا تخوّفه من أن يسترجع صرمته بالقوة مما يؤدي الى فرقة القبيلة ، ويقول أوس بن حجر لقوم من شيبان أخذوا معزاه واقتسموها[110] :

ألا تتقون الله اذ تلفونها ... رضيع النوى والمنض حولا مجرما

ومن الغريب أن يتحدث أوس عن حرمة دينية للمال .. ولكننا نجد مثل ذلك في شعره وهو قوله[111] :

تركت الخبيث لم أشارك ولم أذق ... ولكن أعفّ الله مالي ومطعمي
خثومي وأعدائي يظنّون انني ... متى يحدثوا أمثالها أتكلم

ومن ذلك شعر زهير في عبده يسار وهمزيته في آل حصن[112] :

والجاهلي لا يضيق بتحمّل تبعة الجماعة التي ينتمي اليها في العادة .. وهذه المسؤولية الجماعية هي روح الحياة القبلية .. ولكننا نجد في الشعر أحيانا دعوة الى تحديد المسؤول عن الجرم ورفع العقوبة عن غيره من الابرياء .. وقد يكون المجرم والبريء المؤاخذ بجرم غيره من قبيلة واحدة أو من قبيلتين مختلفتين .. ولعلّ هذه القاعدة مما بقي في العرب من ملّة ابراهيم صلى الله عليه وسلم .. فقد جاء في سورة النجم قوله تعالى : « أم لم ينبأ بما في صحف موسى ، وابراهيم الذي وفى ، ألا تزر وازرة وزر أخرى ، » وهذا المعنى هو أحد أركان معلقة الحارث بن حلزة .. التي يتساءل فيها عما اذا كان من الحق أن يؤخذ قومه بما فعلت تميم وكندة

---

(110) ديوان اوس بن حجر رقم ٤٤ ص ١١٢

(111) ديوان أوس بن حجر رقم ٤٨ ص ١٢٢ .

(112) شرح ديوان زهير ص ٢٦٤ ، ص ٥٦ .

وغيرهم .. وجاء فيها أيضا التفريق بين المذنب والبريء من القبيلة نفسها وهو قوله[113] :

وأتانا من الحوادث والانبا ء خطب نعنى بـه ونساء
انّ اخواننا الأراقم يغلو ن علينا في قيلهم أحفاء
يخلطون البريء منا بذي الذنـ ـب ولا ينفع الخليّ الخلاء

ويقول الاعشى[114] :

واني وان كلفتموني – وربكم – ليعلم من أمسى أعق وأحوبا
لكالثور والجني يضرب ظهره وما ذنبه أن عافت الماء مشربا
وما ذنبه أن عافت الماء باقر وما ان تعاف الماء الاّ ليضربا

ويقول النابغة[115] :

لكلفتني ذنب امرىء وتركته كذى العرّ يكوى غيره وهو راتع
فان كنتُ لاذو الضغن عني مكذب ولا حلفي على البراءة نافع
ولا أنا مأمون بشيىء أقوله وأنت بأمر لا محالة واقع
فانك كالليل الذي هو مدركي وان خلت أنّ المنتأى عنك واسع

وهو يضيف الى معنى البراءة من ذنب غيره الطعن في عدالة الشاهد عليه وحلفه على البراءة واحتجاجه لها .. فهو يكاد يجمع ما ذكره زهير في همزته من طرق الحكم وهو قوله[116] :

وان الحكم مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

---

(113) المعلقات السبع للزوزني ص ٣١٠ – ٣١١ ، وهو يذهب الى هذا المعنى صراحة اذ يقول : « يقول يخلطون برآنا بمذنبينا . . »

(114) ديوان الاعشى رقم ١٤ ص ١١٥ .

(115) مختار الشعر الجاهلي ص ١٥٨ . وانظر بابا فيمن اخذ بذنب غيره في حماسة البحتري ص ٢٥٣ .

(116) في هذه القصيدة من مصطلح القضاء : الشهداء ، والكفالة والعقد والقسم وغيرها . فهي تمثل القضاء الجاهلي تمثيلا جيدا .

ومن مظاهر هذا التعلق بالعدل أنه لا يغيب عن ذهن المحارب أحيانا فهو يزعم أنّ حربه كانت عادلة وانه أخذ بهـا حقا من حقوقـه .. يقـول التميذر الحارثي[١١٧] :

بني عمنا لا تذكروا الشعر بعدما دفنتم بصحراء الغميم القوافيا
فلسنا كما كنتم تصيبون سلّة فنقبل ضيما أو نحكّم قاضيا
ولكن حكم السيف فينا مسلّط فنرضى اذا ما أصبح السيف راضيا
وقد ساءني ما جرّت الحرب بيننا بني عمّنا لو كان أمرا مدانيا
فان قلتم انّا ظلمنا فلم نكن ظلمنا ولكنّا اسأنا التقاضيا

ويقول عمرو بن برّاقة الهمداني[١١٨] :

وكنت اذا قـوم غزوني غزوتهم فهل انا في ذا يال همدان ظالـم

وبعد : فان ما وقفنا عليه من افكار الجاهلي في شؤون حياته لا يصوّر فلسفة ناضجة تفسر هذه الحياة له .. ولكنّه لا يصـوّر الجاهلي ساذجا يعيش بالغريزة والاستجابة المباشرة للظروف والاحداث ، فقد رأينا في الشعر الجاهلي أصداء متنوعة للضمير الديني ، ورأينا فيه موقفا من الحياة يرسم لها خطة لاهية أو خلقية مثالية ، ورأينا فيه آراء في الناس وتأملات في الاخلاق وتفكيرا في القدر ومفاهيم عالية من العدالة والحق والخير .. ولا نستطيع أن نزعم بعد أننا تعرضنا لكلّ فكر الجاهلية .. فبعض ذلك داثر نسيه الرواة أو اغفلوه لانه فكر وثني .. وبعضه يقع خارج نطاق بحثنا .. فما نقوله في تفكير الجاهلي مقيّد بهذه الحدود ، وليس حكما نهائيا عاما .

---

(١١٧) شرح الحماسة للمرزوقي ١/١٢٤ ؛ المؤتلف والمختلف ص ١٤٠ .
(١١٨) امالي القالي ١٢٢/٢ .



الباب الثالث

دراسة فنية



الفصل الأول

استخدام القصة

قصص الحيوان والقصص التاريخي والحوار

لاحظ ابن رشيق القيرواني ان القدماء من شعراء العرب كانوا يتأسون في رثائهم بقصص الملوك والامم البائدة والحيوان المعروف بالمنعة أو القوة، يقول ابن رشيق في ذلك : « ومن عادة القدماء ان يضربوا الامثال في المراثي بالملوك الاعزة والامم السالفة والوعول الممتنعة في قلل الجبال والاسود الخادرة في الغياض وبحمر الوحش المتصرفة بين القفار والنسور والعقبان والحيات لبأسها وطول اعمارها وذلك في اشعارهم كثير موجود ولا يكاد يخلو منه شعر .. »[1]

وملاحظة ابن رشيق دقيقة صادقة ، ولكن هذا الاستخدام للامثال لم ينحصر في الرثاء الخالص ، فهو شائع في الموعظة وشعر الكرم الحماسي ونحو ذلك من الشعر الذي يرتبط بمراقبة الموت . كما ان هذه الامثال قد تكون قصصا يتوفر فيه عنصر الحوادث والحوار والشخوص .. وقد تكون اشارة الى قصص يفترض الشاعر اننا نعرفه فيعفي نفسه من سرد حوادثه ..

---

(١) العمدة ٢/١٥٠ ويذكر بعد ذلك تغير اسلوب الرثاء عند المحدثين « بالنسبة لعصره » .

ويبدأ الشاعر قصة الحيوان الذي يختاره في المرثية بأن يقول : لو كان أحد ناجيا من الدهر لكان الوعل أو النسر أو حمار الوحش الذي يصفه .. أو يقول مباشرة : ان الدهر لا ينجو منه ولا يبقى على حدثانه الحيوان الموصوف وقد يكتفي الشاعر بهذه الاشارة دون أن يسرد اى حدث جرى للحيوان . يقول عمرو بن قمينة[2] :

فزعت تُكْتُمُ وقالت عجيبـا ... ان رأتني تغيّر اليوم حالي
يا ابنة الخير انما نحن رهن ... لصروف الايّام بعد الليالي
جلّلَ الدهر وانتحى لـي وقدما ... كان ينحي القوى على امثالي
أقصدتني سهامه اذرمتني ... وتولّت عنه سليمى نبالي
لاعجيب نيا رأيت ولكن ... عجب من تفرّط الآجال
تدرك التمسح المولّع في اللجة والعُصم في رؤوس الجبال
والفريدُ والمسفع الوجه ذا الجُدّ ... ة يختار آمنات الرمال
وتصدى لتصرع البطل الار ... وع بين الكلثهاء والسربال

والشاعر يكتفي هنا بذكر الحيوان ومكانه الآمن كما هو واضح . ويقول الافوه[3] :

والدهر لا يبقى عليه لِقَوّة ... في رأس فاعلة نمتها أربع

ويقول[4] :

والدهر لا يبقى على حـرفه ... مُقْتفرة في حالق مرمريس

---

(2) ديوان عمرو بن قمينة ص ٢١ رقم ٦ .
(3) الطرائف الادبية ص ١٨ .
(4) الطرائف الادبية ص ١٦ .

ويقول رجل من ثقيف[٥] :

الا تلك المسرة لا تدوم ولا يبقى على الدهر النعيم
ولا يبقى على الحدثان غفْر له أمّ بشاهقة رؤوم

ويقول لبيد[٦] :

لو كان شيء خالدا لتواءلت عصماء مؤلفة ضواحي مأسل
بظلوفها ورق البشام ودونها صعب تزل سراته بالاجدل
فأصابه ريب الزمان فاصبحت أنيابه مثل الزجاج النصّل

ويقول امية بن ابي الصلت[٧] :

فاجعل الموت نصب عينيك واحذر غولة الدهر ان للدهر غولا
نائلا ظرفها القساور والصقـ ـعان والطفل في المنار الشكيلا
وبغاث النياق والجحش الـ قر والسوحج التؤام الضئيلا

ونحن في هذه النماذج كلها نفتقد الحوادث والشاعر يكتفي بالقول بأن الدهر ينال الحيوان ، وفي أحيان اخرى يذكر الشاعر جماعة من الحيوان ولكنه يقف عند واحد منها ليسرد قصته ويفصل في اصابة الدهر اياه ...

يقول المتنخل الهذلي[٨] :

فاذهب فأي فتى في الناس أحرزه من حتفه ظلَم دعج ولا جبل
ولا الساكان إن يتمل بينهما يطر بخطة يوم شره أصل
ولا نعام بجو يستريد به ولا حمار ولا ظبي ولا وعل

أوفى ببيت على ....

---

(٥) نوادر القالي ص ٥١ . وهو يذكر ان امرأة تمثلت به في ظروف هدم خالد بن الوليد لود

(٦) شرح ديوان لبيد ص ٢٧٢ رقم ٣٩ .

(٧) ديوان امية ص ٤٥ .

(٨) ديوان الهذليين ٣٥/٢

فهو يذكر أربعة اصناف من الحيوان ولا يتوقف الا" الوعل ليروى قصته .. ومثله قوله(٩) :

اری الايـــام لا تبقي عزيزا   ولا المنصم الأوابد والنعاما
اتيح لها أقيدر ذو خشيف   اذا سامت على الملقات ساما

وقد يذكر حيوانا واحدا يسرد قصة عنه أو يذكر اكثر من حيوان ولكنه يفرد كلا" منهم بالذكر ليروى قصته ، يقول ساعدة بن جؤية(١٠) :

تالله يبقى على الايام ذو حيد   أدفى صلود من الأوعال ذو خدم

. . . .

ولا صوار مذرّاة مناســجها   مثل' الفريد الذى يجرى من النظم

ويقول صخر الغي(١١) :

فعيني" لا يبقى عــلى الدهر فادر   بتيهورة تحت الطخاف العصائب

. . . .

وله فتخاء" الجناحــين لقــوة   توسد فرخيها لحــوم الارانب

ويقول ابو ذؤيب(١٢) :

والدهر لا يبقى عــلى حدثانه   جون السراة له جدائد اربــع

. . . .

والدهر لا يبقى عــلى حدثانه   شبب" أفــزته الكلاب مروّع

---

(٩) ديوان الهذليين ٦٣/٢
(١٠) ديوان الهذليين ١٩٣/١ ، ١٩٧
(١١) ديوان الهذليين ٥٢/٢ ، ٥٥
(١٢) ديوان الهذليين ٤/١ ، ١٠

وكثيرا ما يختار الشاعر الجاهلي اللقوة دون النسر ، وقصته عنها تصورها ذات أفراخ تضمها في ذروة جبل باذخ .. وقد باتت الليل تقاسي البرد ويتجمد الندى على جناحيها .. فاذا طلع الصباح نفضت الثلج عن ريشها وانقضت على صيد رأته من بعيد ثم يبصرها الصيد فيحاول أن ينجو منها بأن يلجأ الى الشجر أو احجار الجبل ... وما وصلنا من هذا القصص محدود والشعراء يختلفون في كيفية انهائهم لهذا الصراع ..

يقول أبو خراش يصف صقرا[13] :

أرى الدهر لا يبقى على حدثانه ... أقبّ تباريه جدائد حول

. . . .

ولا امعر الساقين ظلّ كأنه ... على مُحزَئِلّاتِ الاكام نَصيل

رأى ارنبا من دونها غَوْلُ أشرُجٍ ... بعيدٌ عليهن السراب يزول

فضم جناحيه ومن دون ما يرى ... بلادٌ وحوشٌ أمرُعٌ ومحول

توائل منه بالضراء كأنها ... سفاة لها فوق التراب زَليل

يقرّبه النهض النجيح لما يرى ... ومنه بدوّ مرّة ومثول

فأهوى لها في الجو فاختل قلبها ... صيود لحبّات القلوب قتول

والشاعر يكتفي بأن هذا الصقر لن يبقى على حدثان الدهر .. فقصته تنتهي بصيده للارنب وانتصاره ، ويقول صخر الغيّ في رثاء أخيه[14] :

ولله فتخاءُ الجناحين لِقْوة ... توسّد فرخيها لحوم الارانب

كأن قلوبَ الطير في جوف وكرها ... نوى القسب يلقى عند بعض المآدب

فخاتت غزالا جاثما بصُرت به ... لدى سَمُرات عند أدماء سارب

فمرت على ريْد فأعنت بعضها ... فخرّت على الرجلين أخيب خائب

---

(١٣) ديوان الهذليين ١٢٢/٢ .

(١٤) ديوان الهذليين ٥٥/٢ .

تصيح وقد بان الجنــــاح كأنه	اذا نهضت في الجو مخراق لاعب
وقد ترك الفرخان في جوف وكرها	ببلدة لامولى ولا عنــد كاسب
فريخان ينضاعان في الفجر كلمـــا	أحسّا دويّ الريح أو صوت ناعب
فلم يرها الفرخان عند مسائهـــا	ولم يهدآ في عشها من تجــــاوب
فذلك ممـــا يحــدث الدهر انه	له كل مطــــلوب حثيث وطالب

هذه قصة بطل انتهى نهاية فاجعة .. فهذه اللقوة التي يتوسد فرخاها لحوم الارانب وتنثر قلوب الطير حول وكرها تواجه القدر المرسوم الذى لا يفلت منه أحد فينكسر بعضها .. وتعجز عن الصيد ... وعن العودة الى وكرها ... ويظل فرخاهـا العاجزان في انتظارهـا وهما ضحية اخرى للقــدر المجهول المعلوم وهذه القصة الفريدة هي النموذج الذي احتذاه الحطيئة حين استعطف الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد صور ابناءه في صــورة أفراخ زغب الحواصل ضعاف تحتد في طعامها وشـرابهـا على كاسبها الذي ابعد عنها .

والاصل في قصص النسر والصقر وما الى ذلك من الجوارح هو انهـا مما تشبه به الخيل في شعرهم .. ثم يستطرد الشاعر الى قصة هــذا الطير المشبه به على النحو المعروف في الشعر الجاهلي .. يقول امرؤ القيس[15] :

كأني بفتخاء الجناحين لـقــوة	صيود من العقبان طأطأتُ شملال
تخطّفُ خزّانَ الشَّربة بالضحى	وقد حجرت منها ثعالبُ أورال
كأن قلوب الطير رطبا ويابســـا	لدى وكرها العنّاب والحشف البالي

ويقول[16] :

كأن غلامي اذ علا حال متنــــه	على ظهر بـــاز في السماء محلّق
رأى أرنبا فانقض يهوي أمامـــه	اليهـــا وجلّاهــا بطرف ملقلق

---

(15) ديوان امرىء القيس رقم ٢ ص ٣٨ .

(16) ديوان امرىء القيس رقم ٣٠ ص ١٧٢ .

ويقول عبيد[١٧] :

فذاك عصر وقد أراني ... تحملني نهدة سرحوب
مضبر خلقها تضبيرا ... ينشق عن وجهها السبيب
زيتية ناعم عروقها ... ولين أسرها رحيب
كأنها لقوة طلوب ... تحن في وكرها القلوب
باتت على إرم رابئة ... كأنها شيخة رقوب
فأصبحت في غداة قرة ... يسقط عن ريشها الضريب
فأبصرت ثعلبا من ساعة ... ودونه سبسب جديب
فنفضت ريشها وانتفضت ... وهي من نهضة قريب
فاشتال وارتاع من حسيسها ... وفعله يفعل المذؤوب
فنهضت نحوه حثيثة ... وحردت حرده تسيب
فدب من رأيها دبيبا ... والعين حملاقها مقلوب
فأدركته فطرحته ... والصيد من تحتها مكروب
فرنحته فوضعته ... فكدحت وجهه الجبوب
فعاودته فرفعته ... فأرسلته وهو مكروب
يضغو ومخلبها في دفه ... لابد حيزومه منقوب

وقد يكون تعاطف الشاعر مع الصيد الذي يهوى اليه الجارح وهو في هذه الحالة يشبه حصانه بالصيد لا الجارح .. يقول امرؤ القيس[١٨] :

وغيث كألوان الفنا قد هبطته ... تعاون فيه كل اوطف حنان
على هيكل يعطيك قبل سؤاله ... أفانين جرى غير كز ولا وان
كتيس الظباء الاعفر انضرجت له ... عقاب تدلت من شماريخ ثهلان

---

(١٧) ديوان عبيد رقم ٥ ص ١٧ .
(١٨) ديوانه رقم ٦ ص ٩١ .

ويقول زهير[19] :

وقد أروح أمام الحي مقتنصا	قمرا مراتعها القيعان والنبك
وصاحبي وردة نهد مراكلها	جرداء لا فحج فيها ولا صكك
مرا كفاتا اذا ما الماء أسهلها	حتى اذا ضربت بالسوط تبترك
كأنها من قطا الأجباب حلأها	ورد وأفرد عنها اختها الشرك
جونية كحصاة القسم مرتعها	بالسي ما تنبت القفعاء والحسك
أهوى لها أسفع الخدين مطرق	ريش القوادم لم ينصب له الشبك
لا شيء أسرع منها وهي طيبة	نفسا بما سوف ينجيها وتترك
دون السماء وفوق الارض قدرهما	عند الذنابي فلا فوت ولا درك
عند الذنابي لها صوت وأزملة	يكاد يخطفها طورا وتهتلك
حتى اذا ما هوت كف الغلام لها	طارت وفي كفه من ريشها بتك
ثم استمرت الى الوادي فألجأها	منه وقد طمع الاظفار والحنك
حتى استغاثت بماء لا رشاء له	من الاباطح في حافاته البرك
مكلل بأصول النبت تنسجه	ريح خريق لضاحي مائه حبك
كما استغاث بسيء فز غيطلة	خاف العيون فلم ينظر به الحشك
فزل عنها واوفى رأس مرقبة	كمنصب العتر دمى رأسه النسك

والتلوين الظاهر في قصة الجوارح ـ فيما اظن لا يدل على جدة هذا اللون من القصص في شعرهم ، فهو تلوين في التفاصيل ولا يتناول عمود القصة[20] على ان يراد هذا القصص في الرثاء دونما تشبيه للخيل به يـدل

---

(19) مختار الشعر الجاهلي ص ٢٥١ .

(20) استدل د . محمد حسين من ثبات اسلوب الشعراء صورهم في وصف الناقة على ان الشعر العربي كان قد بلغ حدا من النضج واضحا . اساليب الصناعة ص ٥٢ ، ٩٥ فانا في الحقيقة اجري على نفس المقياس،

أن الخيل ليست مما يوحي باليأس او التشاؤم .. ويؤيد ما ذكرناه في كلامنا على الحماسة من أن الحصان يمثل الانتشاء بالطبيعة واشتهاء الحياة .. ويؤيد ذلك هذا الشعر الذي يقوله دريد في رثاء صديقه معاوية بن عمرو بن الشريد، فهو يصف الشمّاء فرسه متعللا بهـــا متاسيـــا بها مصابه فيه .. يقول دريد[21] :

تعللت بالشماء اذ بان صـــاحبي	وكلّ امرىء قد بان اذ بان صاحبه
كأني وبزّي فوق فتخـــاء لِقوةٍ	لها ناهض في وكرها لاتجانبـــه
فباتت عليه ينفض الطلّ ريشَها	تراقب ليـــلا ما تغور كواكبـــه
فلما تجلّى الليل عنها واسفرت	تنفّض حسرى عن أحصّ مناكبه
رأت ثعلبا من حرّة فهوت لـــه	الى حرّة والموت عجـــلان كاربه
فخر قتيلا واستمر بمســـحَرِه	وبالقلب يدمى أنفه وترائبـــه

وهو يصور هذه اللقوة منتصرة ولا يلمح الى ترصد القدر لها لأنه يريد ان يتعلل بها وكأنه يتفاءل بالثأر لمعاوية .. يؤيد ذلك ان ذكره لفرس القاتل في رثاء المقتول فيه من الوعيد ما هو واضح .. وكذلك فان موقف القوى اقرب الى شخصية الفارس دريد من موقف الحزين المتشائم .

---

(21) العيوان ٦/٣٣٧ . وفيه تعللت بالشطاء . وقد اجتهدت هذا التوجيه لاسباب

ا ــ ذكر المحقق انه لم يرلدريد فرسا بهذا الاسم في المراجع .

ب ــ كان دريد صديقا لمعاوية وقد رثاه بشعر آخر روينا قسما منه. انظر الاغاني « الدار » ١٥/٩٧ .

حـ ــ الشماء فرس هاشم بن حرملة استولى عليها بنو سليم يوم حوزة الاول عند مقتل معاوية .. وغزاهم عليها صخر أخوه يوم حوزة الثاني .. ايام العرب في الجاهلية ص ٢٨٥ ــ ٢٨٦ ، ٢٨٩ .

د ــ ان تحريف الشماء الى الشطاء محتمل لقرب رسميهما .

الوعــل :

وصورة الوعل في رثائهم تصوره متحصنا بأعالي الجبال الوعرة التي لا يستطيع ان يرتقيها احد ولا ان يهتدي اليها .. وهو آمن منعم لديه من النبت ما يشاء .. ولكنه يصادف صائدا يرميه فيلاقي حتفه على حذره وأمنه في حماه ، يقول عمرو بن قميئة أو ربيعة بن توبة العبدي[٢٢] :

لـو كان شيء فائت الموت أحرزت   عصـــاية اذ راح الاغـــر الموقف
سما طرفـــه وابيض حتى كأنه   خصيٌ جفت عنه الرحائل اكلف
برود بارض ماؤها في قلاتهـــا   يصيف بها بعد الربيع ويخرف
اذا شاء طلح أو أراك وســـخبر   لديه وذو ظـــل من الغار اجرف
يكسّر اطراف الشـــام بروقـــه   ومن دونه هضب منيف وتعنف
فما زال عنه الحين حتى اســـتاله   أبو صبية طـــاو من الزاد أعجف
يمالجـــه عـــن نفســـه ويكفـــه   مذرّبـــة زرق وفـــرع معطّف

ويقول النمر بن تولب[٢٣] :

ولو أن من حتفـــه ناجيـــــا   لكان هو الصدع الاعصمــــا
باســـبيل القـــت بـــه امـــه   علـى رأس ذي حبـك أيهمـا
اذا شـــاء طالـــع مسجورة   ترى حولها النبع والساســـما
تكون لاعـــدائه مجهـــــلا   مضلا وكانت لـــــه معلمـــا
سقته الرواعـــــد من صيّف   وان من خريف فلن يعدمـــا

---

(٢٢) البيتان الاولان في المعاني الكبير لعمرو بن قميئة ، وذكر المحقـــق انهما ليسا في ديوانه ولم يذكر لهما مصدرا آخر :٢/٦٩٤، والقطعة مدا الثاني في حماسة البحتري لربيعة بن توبة العبدي : ص ١٤٣ .

(٢٣) مختارات ابن الشجري ص ١٧ . وهي في منتهى الطلب ١/٥٠ ، ومنها ابيات في الاغاني « الساسي » ١٦١/١٩ والبيان والتبيين ١٨١/١ . والقصيدة جاءت في مجموعة خطية حديثة في دار الكتب ادب ١٧٣٦ . الورقة ١٥٦ ولعلها منقولة من شرح ابن حبيب الذي ذكره في الخزانة ١/١٥٥ ـ والمخطوطة تضم شعرا لكاظم الازري من شعراء القرن التاسع عشر في العراق . فهي حديثة كما ذكرت .

فساق له الدهر ذا وفضة يقلب في كفه أسهما
فراقبه وهو في قترة وما كان يرهب أن يكلما
فأرسل سهما له أمزعا فتسلك نواهقه والفما
فظل يشب كأن الولو ع كان بصحبه مغرما
وأدركه ما أتى تبعا وابرهة الملك الاعظما

ويقول ساعدة بن جؤية[24] :

تالله يبقى على الايام ذو حيد أدفى صلود من الأوعال ذو خدم
يأوى الى مشمخرات مصعدة شم بهن فروع القان والنشم
من فوقه شعف قر وأسفله جيئ تنطق بالظيان والعتم
موكل بشدوف الصوم ينظرها من المغارب مخطوف الحشا وزم
حتى أتى له رام بمحشد رلة جش، ويبض نواحيهن كالسجم
فظل يرقبه حتى اذا دمت ذات العشاء بأسداف من القتم
ثم ينوش اذا آد النهار له بعد الترقب من نيم ومن كتم
دلى يديه له سيرا فألزمه نفاحة غير إنباء ولا شرم
فراغ منه بجنب الريد ثم كبا على نضي خلال الصدر منحطم

والوعل الذي يتأسون بانه لا ينجو من الدهر هو المثل في الامن والمنعة في كلامهم .. يقول امرؤ القيس[25] :

تبيت لبوني بالقرية آمنا وأسرحها غبا بأكناف حائل
بنو ثعل جيرانها وحماتها وتمنع من رماة سعد ونائل
تلاعب أولاد الوعول رباعها دوين السماء في رؤوس الجنادل

---

(24) ديوان الهذليين ١٩٢/١ وانظر فيه ايضا لساعدة ٢٠/١ ؛ المتنخل ٣٦/٢ صخر الغي ٥٢/٢ مالك بن خالد الخناعي ٣/٣ .

(25) ديوانه ص ٩٥ رقم ١٠

ويقول عدي بن زيد[٢٦] :

وأرى الشاهقَ المدلَّ به الأر   وى دوينَ السحاب وعرَّ المراقي
ودلالَ العزيزَ بالجمع ذي الأر   كان كلاًّ معاذُه غيـــرُ واقي

ويقول النابغة[٢٧] :

وحلت لبوتي في يفاع ممنــــع   تخال به راعي الحمولة طـــائرا
تزل الوعول العصـــم عن قذفاته   وتضحي ذراه بالسـحاب كوافرا
حــذارا على الا تنـــال مقادتي   ولا نسـوتي حتـى يمتن حرائرا

والشاعر حين يذكر الوعل في غير الرثاء ليس محتاجا الى ان يروي عنه قصصا ويكفيه ان يذكر مقامه بأعلى الجبال ومن هنا يكثر قصص الوعل في اللون المتشائم المحزن من شعرهم .

الحيوانات الاخرى :

وقد تأسوا كذلك بالاسد وهو مثال واضح للقوة والهيبة . فأدراك الدهر له قول يبعث القوة في مواجهة القدر .. وانه أقوى من كل قوي .. يقول مالك بن خالد الخزاعي[٢٨] :

يا ميَّ لا يعجز الأيـام مجترئ   في حومة الموت رزّام و فرّاس
ليث هزبر مدل عند خيســـته   بالرقمتـين له أجر وأعــراس
احمى الصريمةَ احدانُ الرجال له   صيد ومستمع بالليـــل هجّاس
صعب البديهة مشبوب اظـافره   مواثب اهرت الشـدقين هرماس

---

(٢٦) ديوان عدي رقم ٩ص ١٥٤ .

(٢٧) المختار من الشعر الجاهلي ص ١٧٣ .

(٢٨) ديوان الهذليين ص ٢/٣ . ولمالك شعر جاهلي يقوله ردا على مالك بن عوف النصري رئيس هوازن يوم حنين . انظر ٣/٧ – ٨ وما بعدها .

ويقول جندل بن أشمط العنزي[٢٩] :

لا ينفع الهارب الفرار من الموت اذا ما تقارب الأجل
تعدو المنايا على أسامة في الخيس عليه الطرفاء والأسل

ولكن حديثهم عن الاسد لا يبلغ الى ان تكون قصصا .. فهو وصف لا يحتوي على حوادث .. ولم اجد في النعامة الا قطعة لصخر الغي[٣٠] : وهو لا يأتي فيها بجديد .. فقد اتيح لسرب من النعام رام اصابها فلاقت مصير الاحياء المحتوم اما الحيات التي جاء في كلام ابن رشيق انهم كانوا يتأسون بها فقد بذلت الوسع فلم أعثر على نماذج لها من شعرهم .

بقر الوحش وحمار الوحش :

وقصص بقر الوحش وحمار الوحش كثير في الشعر العربي .. ولكن بين ما اتى منه على سبيل تشبيه الناقة به وما جاء قائما بنفسه في الرثاء فروق من اوضحها أن الحيوان ينجو من الصائد في غير الرثاء . ويقع فريسة للكلاب ونصيبه الرماح والسهام في الرثاء .. وهذا مفهوم في الرثاء .. اذ ان هم الشاعر فيه ان يعبّر عن اليأس وعن الاستسلام للقدر المحتوم .. فهو يخلع تشاؤمه على الطبيعة من حوله .. كذلك فان الحيوان اذا كان مما تشبه به الناقة ينبغي ان يكون سريعاً .. ومن هنا كان انصراف الشاعر الى اصطناع ما يصور سرعة الحيوان فيصور الصائد والكلاب تلاحق البقر .. ويصور الحمار يطرد الاتنين ويحرص على ان يوجهها كما رغب[٣١] .. وليست السرعة مما يهتم به الشاعر في الرثاء .. فهو أقل عناية بدواعيها في صفته للحيوان .. وهمه ان يصور الحيوان خائفاً حريصاً على الحياة فهو يرد المياه حذراً من الصائد ..

---

(٢٩) حماسة البحتري ص ١٤٤ واسمه عنده جندل بن اشمط العبدي . وانظر صحة اسمه محققة في الوحشيات ص ١٦٢ .

(٣٠) الهذليين ٣/٤ .

(٣١) اساليب الصناعة ص ٥٣ وما بعدها .

ولكن ذلك لا يمكن ان يستقيم له فهو مضطر الى الورود ، فيستسلم لقدره ويرد .. ويلقى الصائد وقد ينجو من صائد ثم يصيبه آخر .. وقد ينجو من الكلاب ويقتل عددا منها ولكن الصياد يلحق به فيصيبه بسلاحه .. ولابد أن يدركه القدر ، يقول ابو خراش[٣٢] :

أرى الدهر لا يبقى على حدثانه — أقب تباريه جدائد حول
أبن عقاقا ثم يرمحن ظلمه — اباء وفيه صولة وذميل
يظل على البرز اليفاع كأنه — من الغار والخوف المحم وبيل
وظل لها يوم كأن أواره — ذكا النار من فيح الفروغ طويل
فلما رأين الشمس صارت كأنها — فويق البضيع في الشعاع خميل
فهيجها وانشام نقعا كأنه — اذا لفتها ثم استمر سحيل
منيا وقد أمسى تقدم وردها — أقيدر محموز القطاع نذيل
فلما دنت بعد استماع رهفنه — بنقب الحجاب وقمهن رجيل
يفجين بالايدي على ظهر آجن — له عرمض متأسد ونجيل
فلما رأى أن لا نجاء وضمه — الى الموت لصب حافظ وقتيل
وكان هو الادنى فخل فؤاده — من النبل مفتوق الغرار بجيل
كأن النضي بعد ما طاش مارقا — وراء يديه بالخلاء طبيل

ويقول ابو ذؤيب في الثور[٣٣] :

والدهر لا يبقى على حدثانه — شبب أفزته الكلاب مروع
شعف الكلاب الضاريات فؤاده — فاذا يرى الصبح المصدق يفزع
ويعوذ بالارطى اذا ما شفه — مطر وراحته بليل زعزع
يرمي بعينه الغيوب وطرفه — مغض يصدق طرفه ما يسمع
فغدا يشرق متنه فبداله — أولى سوابقها قريبا توزع
فاهتاج من فزع وسد فروجه — غبر ضوار : وافيان وأجدع

---

(٣٢) ديوان الهذليين ١١٧/٢ . وانظر هامش الصفحة السابقة حيث يذكر المحققون ان المرثي هو عروة اخوه . . وان امرأته لامته لترك الثار لزوجها .

(٣٣) ديوان الهذليين ١٠/١

ينهشنه ويذبهن ويحتمي ... عبل الشوى بالطرتين مولع

فنحالها بمذلقين كأنما ... بهما من النضح المجدع ايدع

فبدا يشرّق متنه فبداله ... اولى سوابقها قريبا توزع

فكأن سفودين لما يقترا ... عجلا له بشواء شرب ينزع

فصرعنه تحت الغبار وجنبه ... متترب ولكل جنب مصرع

حتى اذا ارتدت وأقصد عصبة ... منها وقام شريدها يتضرّع

فبدا له رب الكلاب بكفه ... بيض رهاف ريشهن مقزع

فرمى لينقذ فرّها فهدى له ... سهم فانفذ طرّتيه المنزع

فكبا كما يكبو فنيق تارز ... بالخبت إلا انه هو أبرع

الثور مسن وقد أحس بالكلاب فهو خائف طول الليل .. ثم هي تفاجئه في الصباح فتنهشه وتصرعه كما يصرع كل جنب .. وهو يقاوم ويقتل بعضها .. ولكن الصياد يلحق به فيرميه بسهم يصيبه .. والشاعر كما هو واضح لم يعن بتصوير عدو هذا الثور وسرعته ..

ويختار الشاعر أحيانا أن يروي قصته عن عانة أو صوار فهو غير مضطر الى مراعاة الطرف الآخر من التشبيه كما يفعل حين يصف ناقته .. وربما كان بذلك يتناول كل حي يصير الى القدر الواحد .

يقول ساعدة بن جؤية(٣٤) :

ولا صوارٌ مذرّاةٌ مناسجها

مثلُ الفريد الذي يجري من النظْم

ظلت صوافن بالأرزان صادية

في ماحق من نهار الصيف محتدم

قد أوبيت كلُّ ماء فهي طاوية

مهما تصب أفقا من بارق تشم

(٣٤) الهذليين ١/١٩٧ .

حتى تــــاها كليـــــل متوهنـــا عتـيل
باتت طرابا وبات الليـــــل لـــم ينـم
كـــان ما يتجـــــلى عـــن غواربـــه
بعـد الهـدوء تمشي النار في الشرم
حيران يركب اعـــلاه أســــــــافله
يخفي جـديدا تراب الأرض منهـزم
فاسـادت دالجـا تخشي لمـوقعـــه
لم تنتشب بوعوث الأرض والقشـم
حتى اذا ما تجلّى ليلهـــا فزعت
من فـارس وحليف الغـــــرب ملتم
فافتها في فضـــاء الأرض بأفرعـــا
واصحرت عن ثقاف ذاب معتصـــم
آنحى عليهـــا شراعيّـا فغـــادرهـــا
لدى المزاحف تلّى في نضــــوح دم
فكـان حتفـا بمقـــدار وأدركهـا
طول النهار وليل غــير منصــــــرم

وبقول قيس بن عيزارة[35] :

والله لا يبقى على حدثانــــــه	بقـر بناصـــفة الجواء ركود
ظلت بلقعة وخبت ستملّق	فيـه يكـون مبيتهـا وترود
يومـا كـان مشاوذا ربعيّة	أو ريط كتّـان لهـن جـلـود
كتب البياض لها وبورك لونها	فعيونها حتى الحواجب سـود
حتى أتيـح لها اغير نابـل	يفري ضـــوار خلفها ويصيد
في كل معترك تغـــادر خلفهــا	زرقاء داميـة اليدين تميد
يوما أراد لها المليك نفــادهـا	وتفادها بعـد السـلام يريد

---

(35) الهذليين ٧٤/٣ . وتعرف جاهليته بعلاقته مع تأبط شرا .. انظر ٧٦/٣ .

ونحن نرى مما استعرضنا من نماذج قصص الحيوان في الرثاء أن له قيمة كمثل يضرب لمصير الاحياء الى الفناء وعجزهم عن النجاة من الدهر .. كذلك رأينا أنه في الرثاء يساق قائما بنفسه ولا يكون طرفا في تشبيه .. وهذا ينبغي أن يوجهنا الى هذا النوع من القصص في غير الرثاء . لمحاولة فهمه والتعرف على الهدف من سرده .. وأول ذلك أن وصف الناقة الذي لانجده في الرثاء[٣٦] ينبغي أن يكون مرتبطاً في الذهن الجاهلي بالحياة والتفاؤل بها والقوة والقدرة على مواجهة التحديات .. والواقع اننا نجدهم يعبرون عن كل هذه المعاني حين يأخذون في وصف الناقة وذكر ارتحالها .. ووصف قوة الناقة ومرتحلها على مواجهة أهوال الصحراء ومشاق السفر .. وفي استعراض د. محمد حسين[٣٧] لأساليبهم في التخلص من الغزل الى وصف الناقة لاحظ أن أكثر مذاهبهم شيوعا في ذلك أن الشاعر يسلي بالناقة همه ويتناسى ما كان بينه وبين صاحبته من مودة .. وما ضرب به المثل من ذلك قول الاعشى .

وقد أسلّي الهمّ حين اعتري بجسرة دوسرة عاقر

وقوله :

فدعها وسلّ الهم عنك بجسرة تزيّد في فضل الزمام وتغتلي

وقول امرىء القيس :

فدعها وسلّ الهم عنك بجسرة ذمول اذا صام النهار وهجّرا

وقول طرفة :

واني لأمضي الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدي

---

(٣٦) للنابغة قصيدة في رثاء النعمان بن الحارث الغساني يصف فيها الناقة ويشبهها بحمار الوحش .. ولكنه مثال فريد .. مختار الشعر الجاهلي ص ١٩٥ .

(٣٧) اساليب الصناعة ص ٧٤ ــ ٧٨ . والنصوص بعض ما أورده من مثال.

ومن أساليبهم في ذلك انهم يرتحلون عليها قطعا لحبال من يقطع الحبل، أو يتمنون ان يلحقوا عليها من ارتحل من أحبابهم .. أو يرتحلون الناقة حين تعجز الديار عن الاجابة على لهفتهم وتساؤلهم .. وفي كل هذه الاساليب يعبّر الشاعر عن القوة على مواجهة آلامه ولا يرتحل هذه الناقة أبدا تعبيرا عن الضعف أو الاستسلام للحزن أو القدر . والناقة بهذا رمز للحياة وحبها والحرص على التمتع بها .. وهو أمر يتفق تماما مع القيمة الحقيقية للناقة في حياة الصحراء .. وكذلك ينبغي أن نفهم أيضا ما تشبه به الناقة من حيوان فحمار الوحش او ثور الوحش أو الناقة أمثلة للحياة والتفاؤل بها يعبر عنه بنجاة هذا الحيوان من الكلاب والرماة واليأس منها ينتهي بهذا الحيوان الى ملاقاة حتفه على يد الصائد .. وفهم امتدادا لهذا المنطق أن الصائد والكلاب هي رمز للقدر أو الدهر .. ينجو منه الحيوان اذا كان الشاعر متفائلا ويكون فريسة له اذا كان متشائما حزينا . والحقيقة أن تصوير الدهر بالرامي أو الصائد الذي يوجه سهامه الى الانسان صورة شائعة في شعرهم . يقول عمرو بن قميئة[38] :

رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى ... وكيف بمن يرمي وليس برام

فلو انها نبل اذا لاتقيتها ... ولكنني أرمى بغير سهام

ويقول أيضا[39] :

جلح الدهر وانتحى لي وقد ما ... كان ينحي القوي على أمثالي

أقصدتني سهامه اذ رمتني ... وتولت عنه سليمي نبالي

ويقول أبو زبيد الطائي[40] :

عل المرء بالرجاء ويضحي ... غرضا للمنون نصب العود

كل يوم ترميه منها برشق ... فمصيب أوصاف غير بعيد

---

(38) ديوانه ص ٢٢ رقم ٣

(39) ديوانه ص ٣١ رقم ٦

(40) شعر ابي زبيد ص ٤٢ رقم ٩

ويقول النمر بن تولب[41] :

وقد تثلم أنيابي وأدركني ... قرن عليَّ شديد فاحش الغلبه
وقد رمى بسراه اليوم معتمدا ... في المنكبين وفي الساقين والرقبه

ويقول القند الزماني[42] :

ولولا نبل عوض في ... خفتاتي وأوصالي
لطاعنت صدور الخيل ... طعنا ليس بالآلي

ويقول عدي بن زيد[43] :

فوق الدهر الينا نبله ... علا يقصدنا بعد نهل
فهو يرمينا فلا نبصره ... فصل رام رامَ صيدا فختل
رزق الصيد ولاقى غرّة ... فرمى مشكنا ثم قتل
فلذاك الدهر مأمور بما ... فهو لا يغفل ان شيء غفل

ويذكر الاصمعي أن وصف امرىء القيس للرامي من بني ثعل هو من نوحه على أبيه[44] .. وقد يكون الاصمعي معتمدا في قوله على خبر بلغه أو على فهم دقيق لهذا الرمز الجاهلي .. ويمكن على كل حال أن نقبل ما قاله الأصمعي في ضوء ما قدّمنا من النصوص .. يقول امرؤ القيس[45] :

رب رامٍ من بني ثعل ... متلج كفّيه في قُتَره
عارضٍ زوراءَ من نَشَمٍ ... غيرِ باناةٍ على وتره
قد أتته الوحش واردةً ... فتنحّى النزعَ في يَسَره

---

(41) امالي القالي ١/٢٢٣ .
(42) شرح الحماسة للمرزوقي ٢/٥٣٧ .
(43) ديوان عدي بن زيد رقم ٢١ ص ٩٦ .
(44) الموشح ص ٢٧ .
(45) ديوان امرىء القيس رقم ١٧ ص ١٢٣ .

فرماهـا في فرائصـهـا بـأزاء الحـوض أو عقـره
برهيش مـن كنـانتـه كتلظي الجمر في شـرره
راشـه من ريش ناهضـةٍ ثم أمهـاه على حجـره
فهـو لا تنمي رميّتـه مالـه لا عـدّ من نفـره
مطعم للصـيد ليس لـه غيرهـا كسب على كبـره
وخليـل قـد أفـارقـه ثمّ لا أبكي عـلى أثـره
وابن عـم قـد تركت لـه صفو ماء الحوض عن كـدره
وحديثُ الركبِ يومَ هنـا وحديثٌ ما عـلى قصـره

وليس تعيين قبيلة الرامي مبهما في فهم هذا الشعر لاننا نراهم يذكرون مثل ذلك في قصص الحيوان .. فمن ذلك قول ساعدة بن جؤية في قصيدة رثاء(46) :

أرى الدهـر لا يبقى على حدثانـه
أبـودٌ بـأطـرافِ المناعـةِ جلعـد

حتى يقول :

رأى شخص (مسعود بن سعد) بكفـه
حـديـد حديث بالوقيـعـةِ معتـد

ويقول الأعشى يصف حمارا ورد عينا عندها وكر لصياد(47) :

بنـاهنّ (من ذلاّن) رام أعـدهـا
لقتـل الهـوادي داجن بالنوقـم

---

(46) ديوان الهذليين ١/٢٤٠ ـ ٢٤١ .

(47) ديوان الاعشى رقم ١٥ ص ١٢١ .

ويقول في بقرة وحشيــة[٤٨] :

حتى اذا ذرّ قرن الشمس صبّحها
(ذؤالُ نبهان) يبغي صحبه المتعا

ويقول أيضا[٤٩] :

فصبّحه عند الشروق غديّة
كلاب (الفتى البكريّ عوف بن أرقما)

ويقول ربيعة بن مقروم الضبي في الصائد[٥٠] :

وبالماء (قيس أبو عامر) يؤمّلها ساعة أن تصوما

ويقـول :

فصبّح من بني جـلان صلّا عطيفته وأسهمه المتاع

ويقول سويد بن أبي كاهل[٥١] :

راعه من طيّ ذو أسهم وضراء كنّ يبلين الشرع

والراجح انهم يذهبون الى الشهرة في ذلك ولا يريدون خصوص ما يذكرون ، ويشبه هذا اختيارهم أن يشبهوا بسفين بن يامن ودكان البادي وخمر هذا المكان أو ذاك .. وفعلهم هذا لا يحوّل شعرهم من القصص العام الذي يعبّرون به عن مشاعر التفاؤل والتشاؤم الى قصص حقيقي واقع . يروي حادثة بعينها .

---

(٤٨) ديوان الاعشى رقم ١٣ ص ١٠٥ .
(٤٩) ديوان الاعشى رقم ٥٥ ص ٢٩٥ .
(٥٠) المفضليات رقم ٣٨ ص ١٨٢ ، رقم ٣٩ ص ١٨٦ .
(٥١) المفضليات رقم ٤٠ ص ١٩٦ .

لا تبلغ أكثر اشارات الشعراء الجاهليين الى حوادث التاريخ وشخوصه الى أن تكون رواية لقصة .. فالحادثة اذا كانت شهيرة معروفة اكتسبت في كلامهم صفة المثل الوجيز واكتفى الشاعر بالالماح الى حوادثها وأبطالها .. ومن هذا اللون أكثر قصص ملوك العرب وقبائلهم القديمة والبائدة..ويتحكم ميل الشاعر وشخصيته الفنية كذلك في افاضته أو ايجازه في السرد ، فلبيد مثلا قصير النفس في رواية احداث التاريخ .. وهو يكاد يقف عند الاسماء ويقدمها متراكمة وجيزة دون حدث الا في النادر .. يقول لبيد بعد ان يذكر جماعة من أهله وسادة قومه[52] :

وشطَّ بني ماء السماءِ ومرَّهم
فهل بعدهم من خالد أو معمّر

ومن فاد من اخوانهم وبنيهم
كهولٌ وشبانٌ كجِنّة عبقر

مضوا سلفا قصدُ السبيل عليهم
بهيٌّ من السلافِ ليس بحيدر

فكائن رأيت من بهاء ومنظر
ومفتح قيد للاسير المكفّر

وكائن رأيت من ملوكٍ وسوقةٍ
وراحلةٍ شُدَّت برحل محبّر

وأفنى بنات الدهر اربابَ ناعطٍ
بمستمعٍ دون السماء بمنظر

وبالحارثِ الحرّابِ فجّعن قومه
ولو هاجهم جاءوا بنصر مؤزر

(٥٢) شرح ديوانه رقم ٨ ص ٥٤ .

وأهلكن يوماً ربَّ كندةَ وابنَه
وربَّ معدٍّ بين خبت وعرعر

وأعوصن بالدّوميِّ من رأس حصنه
وأنزلن بالأسباب ربَّ المشقّر

وأخلفن قسّاً ليتني ولعلّني
وأعيا على لقمانَ حكمُ التدبّر

فإن تسألينا فيم نحن فإننا
عصافير من هذا الانام المسحّر

نحلّ بلاداً كلّها حلّ قبلنا
ونرجو الفلاح بعد عاد وحمير

ومثل ذلك قول لبيد ايضا .. وهو أكثر تفصيلا في هذه القصيدة[٥٣] :

ولقد رأى صبحٌ سوادَ خليله
من بين قائم سيفه والمحمل

صبّحن صبحاً حين حقّتْ حذارهُ
فأصاب صبحاً قائفٌ لم يغفل

فالتفّ صفقهما وصبح تحته
بين التراب وبين حنو الكلكل

ولقد جرى لبد فأدرك جريَه
ريبُ الزمان وكان غير مثقّل

لما رأى لبد النسور تطايرت
رفع القوادم كالفقير الاعزل

(٥٣) شرح ديوانه رقم ٣٩ ص ٢٧٣ .

من تحته لقمان يرجو نهضه
ولقد رأى لقمان ألا يأتلي
غلب الليالي خلف آل محرّق
وكما فعلن بتبع وبهرقل
وغلبن إبرهة الذي الفينه
قد كان خلد فوق غرفة موكل
والحارث الحرّاب خلى عاقلا
دارا أقام بها ولم يتنقل
تجري خزائنه على من نابه
مجرى الفرات على فراض الجدول
حتى تحمل أهله وقطينه
وأقام سيدهم ولم يتحمل
والشاعرون الناطقون أراهم
سلكوا سبيل مرقش ومهلهل

ومما أوجزوا فيه من القصص ما يتعلق بالروم .. وذلك ـ على العكس من قصص العرب ـ يرجع فيما أرى الى جهلهم بتاريخ الروم وملوكهم وبعد عاصمتهم القسطنطينية عن العرب . ومن هذه الاشارات اليهم ما مر في لامية لبيد .. وقول عدي بن زيد[54] :

وبنو الاصفر الملوك ملوك الروم لم يبق منهم مذكور

ويبدو ان بعض الشعراء يميلون الى الاسلوب القصصي .. وانما يختارون مواضيعهم من التاريخ الذي لا يعرفه الا القلة المحدودة .. ويختارون منه كذلك ما يحتوي على شيء غير مألوف مما يتيح لهم جانبا من

(54) ديوانه رقم 16 ص 87 . ويشير اليه مرة اخرى ويسميهم بني الناصور . رقم 41 ص 125 .

المتعة الفنية .. فمن أكثر ما فصلوا القول فيه قصة الحضر .. وهو حصن حاصره الفرس واستعانوا بابنة صاحبه على افتتاحه .. ثم لقيت الخائنة حتفها على يد الفاتح لأنه لم يأمن امرأة خانت أباها .. يقول عدي بن زيد في هـذه القصـة(٥٥) :

والحَضْرُ صابت عليه آسية	من تَنْعُرةٍ أيّد مناكبهـا
ربية لم تُوَقّ والدهـا	لحبّهـا اذ يضـاع راقبهـا
أجشـمها حبّها لما فعلت	اذ نام عنهـا للغي صـاحبها
اذ غبقتـه حمراءَ صافية	والخمر وهـل يهيم شاربها
وأسلمت ربّهـا بليلتهـا	تظن أن الرئيس خاطبهـا
فكان حظ العروس اذ برق الـ	ـصبح دماء تجري سبائبهـا
وحوّر الحضر واستبيح وقـد	أُحْرِق في خدرهـا مشاجبها
لـم يبق فيـه الاّ مـراوحُ طا	يات وبـور تضـفو ثعالبها

ويقول الاعشى في الحضر : ومن البيّن ان عدي بن زيد باقامته بالحيرة وصلته بالفرس أكثر معرفة وأدق في الرواية(٥٦) :

ألم ترى الحَضْرَ إذ اهلـه	بنعمى وهـل خالد من نعم
أقام به شاهبور الجنـو	د حولين تضرب فيه القـدم
فمـا زاده ربـه قـوة	ومثـل مجـاوره لم يقم
فلمـا رأى ربـه فعـله	أتاه طَروقـا فلم ينتقـم
وكان دعـا رهطـه دعوة	هلمّ الى أمركـم قد صـرم
فموتوا كرامـا باسـيافكم	وَللموتُ يجشـمه من جَشِم

(٥٥) ديوانه رقم ٥ ص ٧٧ .

(٥٦) ديوانه الاعشى ص ٤٣ رقم ٤ وانظر فيه قصيدة نونية لابي دواد : دراسات في الادب العربي ص ٣٤٥ رقم ٦٥ .

واقاضوا كذلك في قصص ملوك اليمن وحصونه .. ومنـــه قول أبي الطمحان القيني في مارب[٥٧] :

ألم تروا ماربا ما كان أحصنه	وما حواليه من ســور وبنيان
ظل العبادي، يسقى فوق قلته	ولم يهب ريب دهر جدّ خوان
حتى تناوله من بعد ما هجعوا	يرقى اليه على أسباب كتان

ويقول فيه الاعشى[٥٨] :

ففي ذاك للمؤتسي اســـوة	ومأرب قفّى عليهـــا العرم
رخــام" بنتــه لهم حمير	اذا جاءه ماؤهم لــم يرم
فأروى الزروعَ واعنابَهـــا	على سعةٍ ماؤهم اذ قسم
فعاشـــوا بذلك في غبطـة	فجــار بهم جــارف منهزم
فطار القيـــول وقيلاتهـــا	بيهماء فيهـــا ســراب يطم
فطاروا ســـراعا وما يقــدرو	ن منــه لشـرب صبي فُطِم

ويقول عدي بن زيد في صنعاء واستيلاء الفرس عليهـــا وذهاب ملك الحبشة[٥٩] :

مـــا بعــد صنعاء كان يعمرهـــا	ســادات ملك جزل" مواهبهـــا
يرفعها من بني لدى قزَعِ الـ	ـمزنِ وتندى مسكا محاربها
محفوفة" بالجبال دون عرى الـ	ـكيد فيهـــا ترقـــى غواربها
يأنس فيها صــوت النهام اذا	جاوبهـــا بالعشيّ قاصبهـــا
ساقت اليهـــا الاسبابَ جنديني الاحرار فرســـانها مواكبهـــا
وفوّزت بالبغــالِ توسق بالـ	ـحتف وتسعى بها توالبهـــا
حتى رآها الاقوال من طرف الـ	ـمنقل مخضرّة" كتائبهـــا

---

(٥٧) مروج الذهب ٢/٩٢ .
(٥٨) ديوانه رقم ١ ص ٣ .
(٥٩) ديوان عدي رقم ٥ ص ٤٦ .

يوم يقولون يـال بربر والـ ـيكـرمَ لايفلتنّ هاربهـا
وكان يوما باقي الحديث وزا لت أمّتـه ثابت مراتبهـا
وبدّل الفيج بالزرافة والـ أيام خون جم عجائبهـا
بعد بني تبّـع نخـاورةٍ قد اطمأنت بهـم مرازبهـا

وقصص ملوك الحيرة مما اكثروا وفصلوا فيه .. فهو لـم يبلغ من الشهرة ما يجعله معروفا عند الاكثرية .. ولم يكن بعيدا عن علم الشـعراء والمضمين بشيء من الاحداث العامة .. يقول الاسود بن يعفر فيهم[٦٠] :

ماذا أؤمـل بعـد آل محـرّق
تركوا منازلهـم وبعـد ايـاد
أهـل الخورنق والسـدير وبارق
والقصـر ذي الشرفات من سنداد
أرضـا تخيّرهـا لدار ابيهـم
كعب بن مامـة وابـن أمّ دواد
جرت الرياح على مكـان ديارهـم
فكانمـا كانوا عـلى ميعـاد
ولقد غنوا فيهـا بأنعم عيشـة
فـي ظـلّ ملك ثابت الاوتـاد
نزلوا بانقـرة يسـيل عليهـم
مـاء الفـرات يجيء من أطـواد
أين الذين بنـوا فطـال بنـاؤهم
وتمتعـوا بالاهـل والاولاد
فاذا النعيم وكـل مـا يلهى بـه
يومـا يصير الى بـلى ونفـاد

(٦٠) المفضليات رقم ٤٤ ص ٢١٧ .

ويقول الاعشى[٦١] :

ولا الملك النعمان يوم لقيته
بامته يعطي القطوط ويأفق

ويجبى اليه السيلحون ودونها
صريفون في أنهارها والخورنق

ويقسم امر الناس يوما وليلة
وهم ساكتون والمنية تنطق

ويأمر لليحموم كل عشية
بقت وتعليق وقد كان يسنق

يعالى عليه الجل كل عشية
ويرفع نقلا بالضحى ويعرق

فذاك وما أنجى من الموت ربه
بساباط حتى مات وهو محزرق

ويقول عدي بن زيد في ملك الحيرة الذي يقال انه سمع موعظة فترهب[٦٢] :

وتأمل رب الخورنق اذا اشرف يوما وللهدى تفكير
سره ماله وكثرة ما يملك والبحر معرضا والسدير
فارعوى قلبه وقال ما غبطة حي الى الممات يصير

ولا يخرج قصص الغساسنة على هذا النمط .. ومثلها ما رووه عن حكام الحصون واصحابها كحصن المشقر وحصن السموأل .. فهؤلاء جميعا كانوا أقوياء ممتنعين بالحصون او الجيوش ولم ينجهم شيء من ذلك من الدهر ..

---

(٦١) ديوان الاعشى رقم ٢٣ ص ٢١٩ .

ومعلوماتهم عن الفرس اوفر منها بالنسبة للروم .. فهم يذكرون ملوك الفرس باسمائهم ويشيرون الى شيء من قصص هؤلاء الملوك بدقة لاحظناها فيما رويناه عن احتلال احدهم للحضر ، ويقول عدي بن زيد[٦٣] :

قتــلوا كســـرى بليـــل محرما
فتــولـــى لـــم يمتع بكفـــن

ويقول[٦٤] :

اين كسرى كسرى الملوك انوشروان أم اين قبله سـابور

وقد رأيناه يذكر احتلال الفرس لليمن وطردهم للاحباش ..

وهو يذكر كذلك قباذ[٦٥] :

صرعن قبـــاذا رب فارس كلهـــا
وحشـــت بأيديهـــا بوارق آمـــد

أما قصص العرب من الدول القديمة والقبائل البائدة والتابعة الاوائل ، فالاشارة اليه كثيرة ولكن التفصيل فيه نادر .. واكثر الاشارة اليهم تستخدمهم أمثالا في القوة والكثرة والامن الذي لم يدم لهم .. وامثلة في الاندثار وذهاب الريح . وما الى ذلك .. وتفهم كذلك من التناقض الذي يشيع في اخبارهم في الشعر أن قصصهم لم يكن واحدا بين أهل الجاهلية .. يقول سويد بن ابي كاهل[٦٦] :

ان اذق حتفـــي فقبـــلي ذاقـــه
طســـم عـــاد وجديس ذو الســـبع

---

(٦٢) ديوان عدي رقم ١٦ ص ٨٩ .

(٦٣) ديوان عدي رقم ١٣٠ ص ١٧٨ .

(٦٤) ديوان عدي رقم ١٦ ص ٨٧ .

(٦٥) ديوان عدي رقم ٤١ ص ١٢٤

(٦٦) مروج الذهب ٢/١٦

فهذه الاشارة غير مفهومة بالنسبة للقصة المروية . ويقـــول النمر بن تولب[٦٧] :

علا' ســـالت بعـــادياء وبيتـــه
والخـــل' والخمر التي لـــم تمنـــع

وقتـــاتهـم عنـز عشـــية أبصـــرت
من بعـــد مرأى فـــي الفضاء ومسمع

ويقول ابن حبيب أنه اراد أبا السموال .. أو اراد عادا لأن كل قديم عند العرب عادي . ولكن كلا التفسيرين غير مقنع .. والشاعر يروى ما لـم يعرف الرواة والمفسرون.. فعادياء الذي يذكره من ابطال قصة جديس وطسم ولاصلة له بعاد أو السموال .

واختلفوا كذلك في نسبة قدار الى عاد في معلقـــة زهير .. فزعموا انه أخطأ .. أو ان ثمودا هم عاد الثانية[٦٨] ولكن احتمال خطأ زهـير غــير كبير .. والارجح منه ان القصص العربي يربط بين القبيلتين البائدتين نوعا من الربط لم يعرفه الرواة ..

ومن شخوص هذا القصص العربي لقمان .. وهو مثل في طول العمر ونسوره ومنها لبد استخدمت رمزا اسطوريا في هذا الصدد ومن ذلك قول عمرو بن حممة الدوسي المعمر[٦٩] :

وأصبحت مثل النســر طارت فراخه
اذا رام تطيـــارا يقلن لـــه قـــع

---

(٦٧) خزانة الادب ١/١٥٥ .
(٦٨) شرح القصائد السبع لابن الانباري ص ٢٧٠ ، شرح القصائد العشر للتبريزي ص ٢٢٥
(٦٩) كتاب المعمرين ص ٢٢ .

ويقول مـاقع بن عبد العزى الضمري[70]:

كأنـا مفـرحيـات برضـوى
يثؤن اذا يـؤن بـلا جنـاح

ويقول سلمي بن غوية بن ربيعة الضبي[71]:

أولم ترى لقمان أهلكـه ما اقتـات من سنة ومن شهر
وبقاء نسر كلما انقرضت أيـامه عـادت الـى نسر
ما طال من أبد على لبـد رجعت محورته الى قصـر

وضربوا المثل به في النباهة والحكمة ، يقول النمر بن تولب[72]:

لقيـم بن لقمـان مـن أختـه
فكـان ابن أخت لـه وابنمـا
ليـالي حمـق فاستحصنت
اليـه فغـر بهـا مظلمـا
فأحبلهـا رجـل نابـه
فجـاءت بـه رجـلا محكمـا

ويقول لبيد في تسلط بنات الدهر[73]:

وأخلفن قسـا ليتني ولـو أنني
واعيـا على لقمـان حكم التـدبر

---

(70) كتاب المعمرين ص ٢٤ .
(71) مجالس ثعلب ١/٥(٢ . وانظر في قولهم في نسر لقمان كتاب المعمرين ص ٢ ـ ٣ حيث جاء بأبيات للبيد والاعشى وأبيات الضبي الرائية .
(72) مختارات ابن الشجري ص ١٧ ، البيان والتبيين ١/١٨٤ .
(73) شرح ديوان لبيد رقم ٨ ص ٤٦ .

ويقول زبّان بن سيار في تطيّر النابغة ورجوعه عن الغزو[74] :

اقـــام كأن لقمـــان بـــن عـــاد
أشـــار لـــه بحكمتـــه مشـــير

وضربوا المثل بقدار في الشؤم كما جاء في معلقة زهير ، وقول علباء بن ارقم الذي ذبح كبشا حماه النعمان[75] :

وقال صحابي انـك اليـوم كائن
علينا كمـــا قفّى قدار عـــلى ارم

وهـــذه الاشارة التاريخية تربط بين قدار وعـــاد مثل اشارة زهير في المعلقة .. لأن ارم ذات صلة واضحة بعاد .. يقول تعالى في سورة الفجر : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد . ارم ذات العماد . »

وضرب قدار مثلا في طول العمـــر ، تقول الخنســـاء اخت زهير في رثائه[76] :

ولاقـــاه مـــــن الايـــام يـــوم
كمـــا من قبـــل لم يخلـــد قدار

وأهتموا بقصة زرقاء اليمامة .. فجعلها النابغة مثلا في الفراسة في معلقته الدالية ، وروى النمر بن تولب قصتها ورؤيتها الاسطورية لجيش الملك اليماني الذي أفنى قومها بجوّ فقال[77] :

هـــلاّ ســـألت بعـــادياء وبيتـــه
والخلّ والخمـــر التـــي لـــم تمنع

---

(٧٤) الحيوان ٤٤٧/٢ ، العمدة ٢٦١/٢ .
(٧٥) الاصمعيات رقم ٥٥ ص ١٧٩ .
(٧٦) معاهد التنصيص ١١٠/١ ، المؤتلف والمختلف ص ١١٠ . ولم يرد فيها هذا البيت .
(٧٧) خزانة الادب ١٥٥/١ .

وتــــاتهم عنز عشـــيةً أبصرت
من بعدِ مرأى في الفضاء ومسمع
قالت أرى رجـــلا يقــلّب نعــله
أصـــلا وجوٌ آمن لـــم يفـــزع
فكـــان صـــالح أهـــل جو غدوة
صبحوا بذيفـــان السّمام المُنْقع
كانوا كأنعمِ من رأيتِ فأصـــبحوا
يلـــوون زاد الراكـــب المتمتـــع
كانت مقدّمـــة الخميس وخلفهـــا
رَقَصُ الركابِ الى الصباحِ بتبّع

ورواها الاعشى أيضا في قوله مخاطبا ابنته طالبا اليها ان تتفاءل برجوعه من سفره ولا تتطيّر كما فعلت فتاة اليمامة[78] :

كوني كمثل التي اذغاب وافدهـــا
أهدت له من بعيـــد نظرة جزعـــا
ولا تكوني كمـــن لا يرتجي أوبـــة
لذي اغتراب ولا يرجو له رجَعـــا
ما نظرت ذات أشـــفار كنظرتهـــا
حقا كمـــا صدق الذئبي اذ سجعا
اذ نظرت نظرة ليـــــت بكاذبـــة
اذ يرفع الآل رأسَ الكلبِ فارتفعا
وقلّبت مقلـــة ليـــت بمقـــرفة
انســـانَ عينِ وموقاً لم يكن قمَعا

(78) ديوان الاعشى رقم ١٣ ص ١٠١ .

قالت أرى رجلا في كفه كتف
أو يخصف النعل لهفي أية صنعا
فكذبوها بما قالت فصبحهم
ذو آل حسان يزجي الموت والشرعا
فاستنزلوا أهل جو من مساكنهم
وهدّموا شاخص البنيان فاتضعا

ويشير القرآن الكريم الى معرفة العرب لبعض قصص الانبياء وأقوامهم مما جاءهم من المصادر الكتابية ، يقول تعالى : « ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم واصحاب مدين والمؤتفكات اتتهم رسلهم بالبينات . » التوبة ٧٠ ويقول تعالى في قوم لوط عليه السلام : « وانكم لتمرّون عليهم مصبحين . وبالليل افلا تعقلون . » الصافات ١٣٧ . ويقول تعالى : « ولقد أتوا على القرية التي مطرت مطر السوء افلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا » . الفرقان ٤٠ . وينقل الطبري عن قتادة أن اوائل الامة نظرت الى سفينة نوح بالجزيرة[٧٩] : وهي من مواطن اياد ووجود سفينة نوح عليه السلام او ما يقال انه هي يحتّم ان تكون قصة الطوفان معروفة عندهم في الجاهلية وعند من يخالطهم من العرب . ولابد ان وجود اليهود والنصارى بين العرب نشر بينهم كثيرا من هذا القصص لانه مادة قريبة من الفهم مفيدة للتبشير والعظة . وكان اتصال العرب بالعالم حولهم يتيح لهم شيئا من هذه المعرفة . جاء أن قيس بن نشبة السلمي قال لقومه يدعوهم الى الاسلام : « قد سمعت ترجمة الروم وفارس واشعار العرب والكهانة ومقاول حمير وما كلام محمد يشبه شيئا .. الخ[٨٠] وينقل الجاحظ أن مسيلمة الكذاب

---

(٧٩) تفسير الطبري « بولاق » ٥٦/٢٧ في تفسير قوله تعالى من سورة القمر : «ولقد تركناها آية فهل من مدكر » . و ٣٦/٢٩ « بولاق » في تفسير قوله تعالى من سورة الحاقة : « لنجعلها لكم تذكرة » .

(٨٠) اسد الغابة ٢٢٨/٤ .

طاف قبل أن يتنبأ في الاسواق التي كانت بين دور العجم والعرب كسوق الابلة والانبار والحيرة وتعلّم اصنافا من حيل الحواة والسحرة والكهان وغيرهم[٨١] ويصف الاعشى تطوافه في دائرة واسعة من أجل المال فيقول[٨٢] :

وقد طفت للمال آفاقه عمان فحمص فاوريشلم
أتيت النجاشي في ارضه وأرضَ النبيط وارضَ العجم
فنجرانَ فالسروَ من حمير فايَّ مرام لـه لـم أرم
ومن بعد ذاك الى حضرموتَ فأوفيت حينا وحينا أهم

فالاعشى وامثاله من الشعراء ومثلهم التجار من الحجاز واليمن كان يتاح لهم الكثير من فرص التعرّف على القصص الاجنبي والكتابي .

الشك في القصص الكتابي اذن ليس سببه استحالة معرفته على أهل الجاهلية .. وانما يرد الشك في هذا القصص لأنه يساق في كثير من الاحيان دون هدف ولأنه كذلك تقليد غث بارد للقرآن الكريم .. وقد رأينا فيما مر بنا من قصص عاد وثمود ونحوه ان الشاعر الجاهلي لا ينظم القصص لذاته ولمتعته الفنية ؛ وانما يسوقه ليخلص الى العبرة منه . وكذلك فان ما يثير انتباهه في هذا القصص ليس هو الجانب الذي يهتم القرآن الكريم بابرازه . أما تقليد القرآن الكريم اللفظي أحيانا فهو سذاجة غريبة لا يقع فيها الرواة الكبار الذين اتهموا بالانتحال كحماد وخلف .. ولئن قبلنا بعض ما تقوله هؤلاء لأنه تقليد دقيق للاصول فان شعر أمية بن أبي الصلت لا يرتفع في القيمة الى هذا المستوى .. وانه لمن الغريب كذلك ان لا يروى لامية شعر في المناذرة والغساسنة والحضر والفرس والروم وهم من المواضيع المفضلة للقصص

---

(٨١) الحيوان ٦/٣٦٩ .
(٨٢) ديوان الاعشى رقم ٤ ص ٤١ .

الجاهلي .. ولكن وضاع الشعر على امية اهملوا ذلك لإنه ليس موضوعا للقصص القرآني ، وهو هدفهم او انموذجهم الذي يقلدون[83] .

ويمكن ان نقبل من القصص الكتابي ما يبدو معرّبا ، كقول لبيد في داود عليه السلام[84] :

وتزعن من داود أحسن صنعه
ولقد يكون بقوّة ونعيم
صنع الحديد لحفظه أسراده
لينال طول العيش غير مروم
وكانما صادفنه بتضيعة
متلثما لمنّ بواجب مغروم

---

(83) انظر مثلا الدالية المنسوبة اليه في ديوانه ص ٢٢ وهي خليط من الاصيل والمنحول وفيها :

تعلم فان الله ليس كصنعه
صنيع ولا يخفي على الله ملحد

من قوله تعالى : « ان الذين يلحدون في آياتنا لايخفون علينا . » فصلت

ملك على عرش السماء مهيمن
تعنو لعزته الوجوه وتجسد

من قوله تعالى : « وعنت الوجوه للحي القيوم . » طه ١١١ .

والشهر بين هلاله ومحاقه
اجل لعلم الناس كيف يعدد

من قوله تعالى : « ولتعلموا عدد السنين والحساب » الاسراء ١٢ .

لواعد تجرى النجوم امامه
ومعمم بحذالهن مسود

من قوله تعالى : « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . » يس وانظر قصة ذي القرنين ص ٢٦ وفرعون ص ٣٤ وثمود ص ٣٥ وفداء اسماعيل ص ٥٠ وكلها تقليد القرآن الكريم

(84) حماسة البحتري ص ١١٩ من باب حافل بالقصص التاريخي مخصص لاقبل في غلبة الزمان .

فليد يحب أن صناعة داود للدروع كانت بقصد الاحتماء بها . . ومثل هذا نستهم الحصون القوية التي يعجبون لبنائها الوثيق الى سليمان عليه السلام . وفي ذلك يقول الاعشى[٨٥] :

ولا عاديا لم يمنع الموتَ ماله
وحصنٌ بتيماءِ اليهودي أبلقِ

بناه سليمانُ بنُ داودَ حقبةً
له أزَجٌ عالٍ وطيٌّ موثّق

يوازي كبيداء السماء ودونه
بَلاط ودارات وكلس وخندق

ويقول النابغة مشيرا الى حكمة سليمان وعدله واصابته[٨٦] :

فتلك تبلغني النعمان أن له
فضلا على الناس في الادنى وفي البعد

ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه
ولا أحاشي من الاقوام من أحد

الاّ سليمان اذ قال الاله له
قم في البرية فاحددها عن الفند

وخيّس الجن اني قد أذنت لهم
يبنون تدمر بالصفّاح والعمد

فمن أطاعك فانفعه بطاعته
كما اطاعك وادلله على الرشد

ومن عصاك فعاقبه معاقبة
تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمد

---

(٨٥) ديوان الاعشى رقم ٣٣ ص ٢١٧ .
(٨٦) مختار الشعر الجاهلي ص ١٥١ .

والنابغة يطابق بين غرضه في القصيدة وبين ما يرويه عن سليمان ، فهو يزعم أنه لم يخرج على طاعة الملك فهو جدير أن يتمتع بهذه الطاعة .. وقد أمر الله سليمان أن يخيّس الجن لبناء تدمر فمن أطاع فهو جدير بالثواب .. ومن عصى فهو مستحق لعقوبة يتعظ بها الظلوم .. ففي هذه القصة نسبة بناء تدمر للجن بأمر سليمان ، وفيها تصوّر العدل شرعة الهيّة وهو ما يشير اليه النابغة في العينية بقوله : « أبى الله الا عدله ووفاءه » وفيها اتساق بين مغزى القصة وسياق سردها ، وذلك كله يزيد الثقة بأصالة هذه القصة[٨٧] .

ومن القصص الذي يدور حول الانسان لون يختار امثلة من عامة الناس ليسوا مقصودين لذاتهم بل لتمثيل الانسان بعامة ، وهذا القصص ـ مع انه يدور حول الانسان ـ قريب الشبه من حيث المحتوى والمغزى من قصص الحيوان ، فبعض هذا القصص يساق في الرثاء وما يقرب منه مع قصص الحيوان ويقدم بالتقديم نفسه وتستخلص منه العبرة ذاتها .. ومنه قول ساعدة بن جؤية[٨٨] :

تالله يبقى على الايام ذو حيد
أدفى صلود من الأوعال ذو خدم

. . . .

ولا صوار مذراة مناسجها
مثل الفريد الذي يجرى من النظم

. . . .

---

(٨٧) لعدى بن زيد قصيدة يروي فيها قصة الخلق كما جاءت في التوراة ص ١٥٨ من ديوانه ، ومن مصادرها التي اوردها المحقق الحيوان ١٦٨/٤ وغيره ، ويحتمل أن تكون اصيلة لنصرانية عدى .

(٨٨) ديوان الهذليين ١٩٣/١ ، ١٩٧ : ٢٠٠ والقصيدة من بكائه لبنيه ، وللشاعر قصة مماثلة يبدأها بقوله :

فاليوم اما تمس فات مزارها — منا وتصبح ليس فيها مآرب
فالدهر لا يبقى على حدثانه — انس لفيف ذو طوائف حوشب

١٨٣/١

هل اقتنى حدثان الدهر من أنس
كانوا بمَنعَيْطَ لا وَخْش ولا قَزَم
كيدا وجمعا بأناس كانهم
أغاد كبكب ذات الشث والخزم
يهدي ابن جنثم الابناء نحوهم
لا منتا عن حياض الموت والحشم
يخشى عليهم من الأملاك بائجة
من البوائج مثل الخادر الرزم
ذا جرأة تسقط الاحبال رهبته
مهما يكن من مسام مكره يسم
يدعون حشا ولم يرتع لهم فزع
حتى رأوهم خلال السبي والنعم
بمقربات بأيديهم أعنتها
خوص اذا فزعوا أدعمن في اللجم
بوشنونهن اذا ما نابهم فزع
تحت السنور بالأعقاب والجذم
فاشرعوا بزنيات محربة
مثل الكواكب يسقون بالشيم
كانما يقع البصرى بينهم
من الطوائف والاعناق بالوذم
يعدلون ملوكا في طوائفهم
ضربا خراديل كالتشقيق في الادم
ماذا هنالك من أسوان مكتئب
وساهف ثمل في صعدة حطم

وخضرم زاخـــر أعراقــــه تلف
يؤوى اليتيم اذا مـــا ضنّ بالدمـــم
وشرجَبٍ نحرُه شدام وصفحتـه
يصيح مثل صياح النسر منتحيـــم
مُطّرِقٍ وســط أول الخيل معتكر
كالفحل قرقر وسط الهجمـــة القطم
وحـــرّة من وراء الكـــور واركـــة
في مركب الكثره أو تمشي على قـدم
يذرين دمعـــا على الاشفار منحـــدرا
يرفلن بعـــد ثياب الخـــال في الردم
فاســـتدبروهم فباضـــوهم كأنهـــم
أرجـاء هـــار زفـاء اليـم منثـلم
فجلـــزوا بأســـارى فـــي زمامهم
وجامل كحـــريم الطـــود منقســـم

هذه صورة حية لما كان يحدث في الغزو حين يفجأ الحي بالغارة في الصباح الباكر ويهبّون للدفاع عن انفسهم وعيالهم ومالهم .. ولكنهم يقتلـون ويؤسرون ويرجع الفازون بالاسرى والمال والسبي من النساء وبعضهن مردفات وبعضهن راجلات .. وهن جميعا يبكين ذويهن .. والشاعر يسوق هذه القصة ليدلل على المصير الذي يخضع له كل شيء من شباب أو وعل او بقرة او انسان .

ويروى أبو ذؤيب قصة اخرى في السياق نفسه .. فهو يقول في مرثيته العينية[86] :

---

(٨٩) ديوان الهذليين ١/٤ ، ١٠ ، ١٥ .

فالدهر لا يبقى على حدثانه
جون السراة له جدائد اربع

. . . .

والدهر لا يبقى على حدثانه
شبب أفزته الكلاب مروع

. . . .

والدهر لا يبقى على حدثانه
مستشعر حلق الحديد مقنع
حميت عليه الدرع حتى وجهه
من حرها يوم الكريهة أسفع
تعدو به خوصاء يفصم جريها
حلق الرحالة فهي رخو تمزع
قصر الصبوح لها فشرج لحمها
بالني فهي تثوخ فيها الاصبع
متفلق أنساؤها عن قاني
كالقرط صاو غبره لا يرضع
تأبى بدرتها اذا ما استكرهت
الا الحميم فانه يتبضع
بينا تعنقه الكماة وروغه
يوما أتيح له جريء سلفع
يعدو به نهش المشاش كأنه
صدع سليم رجعه لا يظلع
فتناديا وتواقفت خيلاهما
وكلاهما بطل اللقاء مخدع

متحامين المجد، كل" واثق"
بـبلائه و اليوم يـوم أشنع
وعليهما مسرودتان قضاهما
داود أو صنع السوابغ تبع
وكلاهما في كفه يزنيـة
فيها سنان كالمنارة اصلع
وكلاهما متوشح ذا رونق
عضبا اذا مس" القصرية يقطع
فتخالسا نفسيهما بنوافذ
كنوافذ العُبُط التي لا ترقع
وكلاهما قد عاش عيشة ماجد
وجنى العلاء لـو أن شـيئا ينفع

المجد والبطولة الانسانية ذاهبة زائلة مثل الاشياء كلها . وهذان البطلان سارا الى مصيرهما كما يسير الاعمى الى هاوية لايراها .. وهما آلة تنفذ حكم الدهر في نفسيهما مخدوعين بحلم المجد .. وهما في النهاية لا يختلفان عن حمار الوحش أو عن الثور .

ومن القصص الذي يختار الانسان بطلا ما يأتون به على سبيل تقريب عاطفتهم ووجدهم .. فهو تشبيه ضمني ولكنه تشبيه طويل النفس يمتد حتى يرسم صورة قصصية رائعة للامومة .. وهذه الصورة تشبه ما يروونه عن المسبوعة أو الخاذلة من الظباء والبقر .. الأم عجوز زهد فيها زوجها .. أو هي أرملة .. وهي ذات وحيد تتعلق به حياتها وآمالها .. وهو يخرج مع أصحابه غازيا ثم انهم يرجعون دونه وينعون لها وحيدها فتبكيه أحر" بكاء وتعبّر عن لوعتها كما تفعل الأم من الحيوان حين تغفل عن ابنها فتأكله السباع فهي تعود الى حيث تركته وتدور هنالك تناديه وتدعوه .. ويزداد

وجدها حين يحتفل ضرعها بلبنه .. فالقصة من حيث السياق والخطوط العامة واحدة .. ولكن يميزها في قصص الانسان فهمه وحواره وأساليبه في التعبير عن عواطفه المختلفة ، يقول ساعدة بن جؤية[90] :

وتالله ما ان شـــهلة أم واحدٍ ... بأوجدَ مني أن يهان صغيرها
رأته على يأسٍ وقد شابَ رأسُها ... وحين تصدّى للهوان عشيرها
فشبّ لها مثلَ السنانِ مبرّأً ... امامٌ لنادي دارها وأميرها
عناشٌ عدوٌ لا يزال مشمّرا ... برجْلٍ اذا ما الحربُ شبَّ سعيرها
تقـدّم يوما في ثلاثة فتية ... بجرداء نصب للغوازي نحورها
فبيناهم يتتابعون ليتهوا ... بقذْفٍ تياف مستقل صخورها
رأوا في قدي الكفين قدام عدوة ... محيطا به من كلّ أوب حضورها
فوركَ لينا أخلص القينُ أثره ... وحاشكةً يخشى الشمالَ نذيرها
يزحزحهم عنه بنبل متينة ... يفرّ بجبات القلوب حشورها
فلما رآهم يركبون صدورهم ... كبنْدٍ إياد حين تجتث نحورها
تملّز من تحت القلبات كأنه ... رداة اذا تعلو الخبار تدورها
بساقٍ اذا أولى العدوّ تبددوا ... يخفّض ريعان السعاة غزيرها
وجاء خليلاه اليها كلاهما ... يفيض دموعا لا يريث هملورها
ينيلان باقه المجيد لقد ثوى ... لدى حيث لاقى زنتها ونصيرها
فقامت ببيت يلمع الجلدَ مارنٌ ... وعزّ عليها حلكه وغبورها
فبينا تنوح استبشروها بحبّها ... صحيحا وقد فت الظلام فتورها
فخرّت وألقت كلَّ تعل شراذماً ... بلوح بضاحي الجلد حدورها

ويروي أبو ذؤيب القصة نفسها ولكنه ينهيها كما انهى قصة البطلين في مرثيته الميمية .. فالابن يقتل بعد أن يقتل بعض اعدائه .. يقول أبو ذؤيب[91] :

وما إنْ وجدُ معولةٍ رَقوبٍ ... بواحدها اذا يغزو تضيف

---

(90) ديوان الهذليين ٢/٢١٤ .

(91) ديوان الهذليين ١/٩٨ .

تنفّض مهدَه وتذبّ عنه وما تغني التمائمُ والعكوف

تقول له كفيتك كل شيء أهمّك ما تخطّتني الحتوف

أتيح له من الفتيان خِرْق أخو ثقة وخِرّيق خشوف

فيا بشيان جرت عُقاب من العِقبان خائتةٌ دَفوف

فقال له وقد أوحت اليه ألا لله أمّك ما تعيف

بأرضٍ لا أنيس بها يبابٍ وأمثلةٍ مداقيها خليف

فقال له أرى طيرا ثقالا تبشّر بالغنيمة أو تخيف

فألفى القومَ قد شربوا فضمّوا أمام الماء منطقهم نسيف

فلم ير غير عاديةٍ لزاما كما يتهدم الحوضُ اللقيف

فراغ وزودوه ذات فرغٍ لها نفذ كما قدّ الحشيف

وغادر في رئيس القوم أخرى مشلشلةً كما قدّ النصيف

فلمّا خرّ عند الحوض طافوا به وأبانه منهم عريف

فقال أما خشيت وللمنايا مصارع أن تخرّقك السيوف

فقال لقد خشيت وأنبأتني به العقبان لو أني أعيف

وقال بعهده في القوم اني شفيت النفس لو يشفى اللهيف

والقصتان تصوّران الابن صعلوكا يغزو مع العدد القليل من أمثاله ، وهو لا يتخذ فرسا لأنه عداء يغزو على رجليه .. ونهايته نهاية الصعاليك .. فقد أحاط بـه العدوّ من كل ناحية .. وهو ينجو نجاء الصعاليك في القصة الاولى .. ويقتل قاتلهم في القصة الاخرى بعد أن يقتل رئيس اعدائـه .. ومثل هذا الولد جدير بأن يستخرج ما تكنّ الأم من حب ولهفة بتعرّضـه الدائم للاخطار .. وذلك هو ما يرمي اليه الشاعر .. فهو قد ساق القصة كلها ليثبّته عاطفته بعاطفة هذه الأم .

ان أهم ميّزة وأظهرها في قصص الشعراء الجاهليين كما يبدو لي أنـه لا يساق لذاته ، بل على سبيل المثال ، ومن هنا كان في هذا القصص كثير من خصائص الأمثال .

وأول ذلك مراقبة الشاعر للتطابق بين مورد المثل ومضربه أو بين المتمثل له والمتمثل به ، ويتجلى ذلك في قصص الحيوان فيما لاحظناه من أنه ينهي قصته بنجاة الحيوان فيما عدا الرثاء ونحوه مما يعبر به عن ألم أو حزن أو تخاذل أمام القدر ، وقد تصل المطابقة بين القصة وسياقها الى مستوى أعلى من الدقة .. وذلك بعض السبب في الفروق التي لحظناها بين الروايات المختلفة للقصة الواحدة ، يقول المرقش الاكبر في قصة الوعل ، وهو يوردها في الرثاء[٩٢] :

لم يَشْجُ قلبي ملحوادث الا ... صاحبي المتروكُ في تَغْلَمْ
لطبُ ضرّاب القوانس بالسيف وهادي القوم ان أظلم
فاذهب فدى لك ابن عمك لا ... يخلد الا شابة وأدم
لو كان حيٌّ ناجيا لنجا ... من يومه المزلّم الأعصم
في باذخات من عَمايةَ أو ... يرفعه دون السماء خَيْثَم
من دونه بيض الانوق وفو ... قه طويل المنكبين أشم
يرقاه حيث شاء منه وإمّا ... تنسه منيّة يهرم
فغاله ريب الحوادث حتى ... زلّ عن أريادِه فحُطِّم
ليس على طول الحياة ندم ... ومن وراء المرء ما يعلم
والوالدات يستفدن غنى ... ثمّ على المقدار من يَعْقَم

ولو اخذنا قوله في القصة عن الوعل :

يرقاه حيث شاء منه واما ... تنسه منيّة يهرم

وقوله معلّقا على دلالتها :

ليس على طول الحياة ندم ... ومن وراء المرء ما يعلم

(٩٢) المفضليات رقم ٥٤ ص ٢٢٨ .

لوجدناه واحدا .. فالقصة إذن يراد بها التسلي عن موت رجل شاب لم يمهل حتى يتمتع بالحياة .. والشاعر يزعم ان هذه الميتة أفضل من طول البقاء المفضي الى الهرم . وهو يستغني عن الصائد في قصته لأنه يريد أن الفناء طبيعة الاشياء .. فهو لا يحتاج الى عنصر المفاجأة المتمثل في الصائد ويكتفي بأن يزلّ الوعل زلة فيها نهايته .. ولو أنه لم يزل لهرم ولم ينج من هذه النهاية ..

ويذكر أمية بن ابي عائذ زوجه أم الصبي ويشير الى رزء أصابه في نفوس اهله ونقص لحق ماله .. ثم يصف ناقته ويشبهها بحمار وحشي يصيب الصياد أتنه وينجو هو .. فهذا الحمار الذي شبهت به الناقة قريب في الحقيقة من الشاعر في اصابتهما في الاهل دون النفس .. يقول امية بن ابي عائذ(٩٢) :

قفد هاجني ذكر أم الصبيّ من بعد سقم طويل المطال
ومرد المتون بامرٍ يقوّلُ من رُزء نفس ومن نقص مال

حتى يقول :

كأني ورحلي اذا رعتها على جَمَزَى جازىء بالرمال

الى قوله :

فعنّا قليل سقاها معاً بمُزْعِفِ ذيفان قِشْبٍ ثمال
سوى العلج أخطأه رائفاً بنجراءَ ذاتِ غرارٍ مُمال
فجال عليهنّ في نفره ليفتنهنّ زوالَ الزوال
فلمّا رآهنّ بالجلهتيـ ـن يكبون في مطحرات الآلال
رمى بالجراميز عُرْضَ الوجيـ ـن وأرمدَ في الجري بعد انفتال

(٩٢) ديوان الهذليين ١٧٣/٢ . ويذكر محققو الديوان ان الشاعر اسلامي اموي ١٧٢/٢ . ويذكر حجر في الاصابة ١١٧/١ انه مخضرم عن المرزباني وقد تجوزت في الاستشهاد بشعره لوضوح المطابقة .

ويقول ساعدة بن جؤية في بعض قصص الانسان[94] :

فان تلك قد شطّت وفات مزارها ... فاني بها ـ الا العزاء ـ سقيم

فهو يملك العزاء ويتعلل بالامل برغم ما شط من مزار صاحبته ولذلك فهو ينهي قصة الأم التي يشبّه وجده بوجدها بعودة الابن اليها بعد ان يبلغها صاحباه بان الاعداء حاصروه وانه مقتول لا محالة ، وبعد أن تبكيه أحر البكاء ، أما أبو ذؤيب في ما أنشدناه من قائيته فهو يائس من موافاة صاحبته لموعد ضربته له ، ومن هنا فهو ينهي قصة المرأة التي يشبه بوجدها بأن يقتل ابنها .. وهو يقول تمهيدا لهذه القصة[95] :

تواعدنا عكاظ لننزلنه ... ولم تعلم اذا أني خليف

فسوف تقول اذ هي لم تجدني ... أخان العهد أم أثم الحليف

ويقول عروة بن الورد في اصحاب الكنيف الذين لم يرض فعلهم لما استغنوا وهو يتهمهم بخيانة ما أسلف اليهم من الحسنى[96] :

فاني واياكم كذى الأم أرهنت ... له ماء عينيها تفدّى وتحمل

فلمّا ترجّت نفعه وشبابه ... أتت دونها اخرى حديدا تكحل

فباتت لحدّ المرفقين كليهما ... توحوح مما نابها وتولول

تخيّر من أمرين ليسا بغبطة ... هو الثكل الا أنها قد تجمّل

عروة فيما خاب من ظنه بصحبه مثل هذه الأم التي سرقت الزوج منها ابنها .. والمطابقة بين القصة وبين سياقها واضحة .

وكون القصة في شعرهم مثلا يسوقونه لأغراضهم المختلفة يجعل هذه القصة في كثير من الاحيان تشبيها يمضي فيه الشاعر اكثر مما اعتاد .. أو

(94) ديوان الهذليين ٢/٢٢٨ .

(95) ديوان الهذليين ١/٩٩ .

(96) ديوان عروة ص ٢٧ .

ممّا تتوقع بتعبير أدق وهذا هو الذي نسميه عادة الاستطراد .. والاستطراد الى القصة مقبول عند نقاد الشعر الجاهلي اذا كان قصصا من قصص الحيوان، ولكنهم يبدون شكوكا كثيرة في الاستطراد الى القصة التاريخية . واحسب انهما يحملان الروح نفسه .. فالشاعر الذي يذكر ناقته وينصرف عن وصفها الى قصة ما يشبهها من حيوان .. يستطرد الى القصة التاريخية التي يذكر أحد ابطالها عرضا في حديثه .. وهو في اللونين من القصص غير ملزم بهذا الاستطراد وهو قادر على ان يقطعه في أية مرحلة .. فقد يكتفي بتسمية الحيوان او البطل التاريخي كما مرّ بنا .. وقد يستطرد الى قصة مختلفة الطول .. يقول أبو ذؤيب[٩٧] :

والدهر لا يبقى على حدثانه   في رأس شاهقة أعز ممنّع
والدهر لا يبقى على حدثانه   جون السراة له جدائد اربع

هذان حيوانان .. اكتفى الشاعر بالاشارة الى أحدهما ومضى في قصة الآخر وذلك دون أن يكون في القصيدة ما يوجب ذلك عليه أو يبرره غير المزاج الفني للشاعر ويقول المتنخل الهذلي[٩٨] :

فاذهب فأيّ فتى في الناس أحرزه   من حتفه ظلم دعج ولا جبل
ولا السماكان ان يستحل بينهما   يطر بخطه يوم شرّه أصل
ولا نعام بجو يستريد به   ولا حمار ولا ظبي ولا وعل

فهو يذكر فتى ونعاما وحمارا وظبيا في اشارة عابرة .. ويمضي في قصة الوعل . وليس هنا ايضا ما يبرر هذا الصنيع غير رغبة الشاعر .

وليس الامر مقصورا على قصص الحيوان في الرثاء ونحوه .. فهذه الظاهرة موجودة فيما وصفوا فيه الناقة في الاغراض الاخرى . هذا زهير

---

(٩٧) ديوان الهذليين ١/٥ .
(٩٨) ديوان الهذليين ٢/٣٥ .

في همزيته يذكر الظليم ثم ينصرف عنه ويذكر بعده ثورا يستطرد الى قصته . يقول زهير[99] :

كأن الرحل منها فوق صعل من الظلمان جؤجؤه هواء
أصك مصلّم الاذنين أجنى له بالسيّ تنّوم وآء
أذلك أم شتيم الوجه جأب عليه من عقيقته عفاء

ويعكس ذلك علقمة بن عبدة .. فهو يشير اشارة وجيزة الى الثور ويستطرد الى قصة مفصلة عن الظليم .. يقول علقمة في ناقته[100] :

تلاحظ السوط شزرا وهي ضامزة كما توجس طاوي الكشح موشوم
كأنها خاضب زعر قوائمه أجنى له باللوى شرى وتنوم

ولست أجد هذه الظاهرة نفسها غريبة في القصص التاريخي ، مهما بدت القصة ملحقة غير محكمة الارتباط بالقصيدة .. فذلك مقيس على الاستطراد الذي يشيع في الشعر الجاهلي بعامة والقصص بخاصة . واذا اتخذنا معلقة النابغة الدالية مثلا لنا فاننا نجد فيها ثلاث مناسبات يخرج فيها الشاعر عن سياقه .. فيستطرد في الاولى الى قصة الثور ويستطرد في الثانية الى بعض ما يعرفه من تاريخ سليمان عليه السلام .. وينصرف في الثالثة الى تصوير قطنة «فتاة الحي» ولست أجد مبررا للشك في بعض ذلك دون بعض فكلّه يحمل روحا واحدا ..

ومن الملاحظ ان بعض الشعراء المائلين الى القصة كالاعشى وعدي بن زيد يستغلون اسلوب الاستطراد لاشباع هذا الميل الفني .. والاعشى مثلا ممن يظهر في غزله لون قصصي يعتبر به من اساتذة عمر بن أبي ربيعة ..

---

(99) شرح ديوانه ص ٦٢ ، مختار الشعر الجاهلي ص ٢٦٨ والنص منه .
(100) المفضليات رقم ١٢٠ ص ٣٩٩ .

ويظهر في خمرياته احيانا طابع قصصي وحوار يديره مع الخمار والندامى والعواذل له على الفتوة .. وهو من المكثرين من قصص الحيوان[١-١] وهذا جدير بأن يصحح قصة السموال وغيرها من قصصه التاريخي .. ولقد يبدو في قصة السموال ضعف واضح في الصياغة .. وذلك أثر التعجيل في النظم أولا .. وهو كذلك من أثر الحوار الذي لم يستطع أهل الجاهلية تطويع شعرهم له يقول الاعشى في قصة السموال راويا الحديث الذي دار بينه وبين الهمام[١-٢] :

اذ سامه خطتي خسف فقال له مهما تقله فأني سامع حار

فقال ثكل وغدر أنت بينهما فاختر وما فيهما حظ لمختار

فشك غير قليل ثم قال له اذبح هديك اني مانع جاري

وفي هذه الابيات من آثار الحوار هذه التعابير .. فقال له ، مهما تقله.. فقال ثكل ، ثم قال له .. ولا شك في أن هذه الالفاظ التي لا جمال فيها من تبعات الحوار التي اربكت الشاعر .. يضاف الى ذلك ان الشاعر ينساق بالسليقة الى أن يدير بين ابطال القصة حديثا مما يمكن ان يتحدث به الناس مما ينخفض بالمستوى الفني للشعر .. فهذه الابيات الثلاثة تخلو أو تكاد من الصور البيانية وتعتمد على التعبير المباشر الذي يشيع في كلام الناس المعتاد .. ويمكن ملاحظة كل ذلك في قول النابغة الجعدي راويا قصة كليب

---

(١٠١) ديوان الاعشى المقدمة ص ب م ، ص ٢٥٠ القصيدة رقم ٣٩ ص ٢٨٤ ، القصيدة رقم ٥٤ .. وذلك حيث يتحدث د . محمد حسين عن قصص الاعشى الغزلي والخمري والتاريخي .

(١٠٢) ديوان الاعشى رقم ٢٥ ص ١٧٩ .

وائل ـ ومن الملاحظ أنه يستطرد الى هذه القصة دون قصة داحس التي يلمح اليها ..[103] :

وبلغ عقالا أن خطة داحس ... بكفيك فاستأخر لها او تقدم
تجير علينا وائلا في دمائنا ... كأنك عما ناب أشياعنا عم
كليب لعمري كان اكثر ناصرا ... وأيسر جرما منك ضرج بالدم
رمى ضرع ناب فاستمر بطعنة ... كحاشية البرد اليماني المسهم
وما يشتمر الرمح الاصم كعوبه ... بثروة رهط الأبلخ المتظلم
فقال لجساس اغثني بشربة ... تمن بها فضلا علي وتنعم
فقال تجاوزت الأحص وماءه ... وبطن شبيث وهوذ ومترسم

ويقول المسيب بن علس ضاربا المثل بسامة بن لؤي في اباله الضيم وارتحاله عن قومه حين ظلموه[104] :

وقد كان سامة في قومه ... له مأكل وله مشرب
فساموه خسفا فلم يرضه ... وفي الارض عن خسفهم مذهب
فقال لسامة احدى النسا ... ء ما لك يا سام لا تركب
أكل البلاد بها حارس ... مدل وضرغامه أغلب
فقال بلى انني راكب ... واني لقومي مستعتب
فشد أمونا بانساعها ... بنخلة اذ دونها كبكب
فجنبها المقضب تردي به ... كما شجر القارب الاحقب
فلما أتى بلدا سره ... به مرتع وبه مشرب
وحصن حصين لأبنائهم ... وريف لأهلهم مخصب

---

(103) شعر النابغة الجعدي ص 142 .

(104) شعراء النصرانية 3/352 وهي اطول مما اوردناه .

ان الحوار في هاتين القصتين اوجد فيهما طابعا نثريا واضحا .. يبدو في عبارة : فقال لجاس .. فقال تجاوزت الاخص .. فقالت لسامة احدى النساء .. فقال بلى .. ويبدو في انخفاض مستوى الجمال الفني في مثل قول المسيب على لسان احدى النساء : مالك يا سام لا تركب .. وتلك فطنة فطرية الى أن الحوار الذي يدور بين شخوص القصص ينبغي أن يكون طبيعيا قريباً مما يجري في الواقع ، وهو يضعف القصة من حيث هي شعر قبل كل شيء .. على أن أثر الحوار في تفكيك القصيدة يضعف حين لا يضطر الشاعر الى ذكر الاعلام كثيرا .. مقتصرا على : فقلت وقالت واجبتها ونحو ذلك .. أما شعرهم في وصف الحيوان وقصصه فهو يخلو في الغالب من الحوار .. وهو لذلك أمتن ديباجة واشد تماسكا وأقرب الى روح الشعر .

الفصل الثاني

العناصر الفنية الأخرى

الصورة

رأينا ان الشاعر الجاهلي متشائم في الغالب .. وهو لا يتأمل الحياة ولا يبدي رأيه فيها الا حين يدفعه الى ذلك ما يصادفه من ألم وحزن . ومن هنا تعرّضوا لجوانب الحياة غير البهيجة دون غيرها .. وانعكس ذلك على صورهم وتعبيراتهم ..

الحياة عندهم متاع نافد .. وهي عارية تردّ لاصحابها ومثلها المال والشباب والاهل .. يقول لبيد(1) :

هل النفس الا متعة مستعارة　　تعار فتأتي ربهـا فرط اشهر

ويقول ايضا :

وما المال والاهلون الاّ ودائع　　ولابدّ يوما أن ترد الودائع

ويقول المثقب العبدي او ثعلبة بن يزيد السلمي(2) :

عمرَك هل تدرين أن الفتى　　شبابه ثوب عليه معار

ويقول الافوه الاودي(3) :

انما نعمة قوم متعة　　وحياة المرء ثوب مستعارْ

---

(1) شرح ديوان لبيد رقم ٨ ص ٥٧ ، رقم ٢٤ ص ١٧٠ .

(2) الحماسة البصرية ٢١/١ والقطعة في المعمرين لعمر بن ثعلبة . وذكران الليث في قوله من زيادة خلف ص ٣٤ .

(3) الطرائف الادبية ص ١١ .

ويقول عدى بن زيد[4] :

فقضينـــا حاجـــة من لذة وحياة المـــرء كالثوب المعار

ويقول دريد بن الصمة[5] :

أعاذلتي كل امرىء وابن امه متـــاع كزاد الراكب المتزود

ويقول بشر بن ابي خازم[6] :

وكل غضارة لك من حبيب لها بك أو لهوت به متـــاع

قليلا والشباب سحاب ريح اذا ولّى فليس لـــه ارتجاع

ويقول الاخنس بن شهاب[7] :

فأديت عنّي ما استعرت من الصبا والمال عندى اليوم راع وكاسب

والانسان في قصر بقائه وعفاء أثره مثل الشهاب يتألق ثم يخبو وهو كالغصن يذوى بعد خضرته .. وليس هو كالحجر أو الحديد .. يقول امرؤ القيس[8] :

بينمـــا المرء شـــهاب ثاقب ضرب الدهر سناه فخمـــد

ويقول لبيد[9] :

وما المرء الاّ كالشهاب وضـــوئه يحور رمادا بعد اذ هو ساطع

---

(4) ديوان عدى بن زيد رقم ١٧ ص ٩٥ .
(5) الاغاني ط الدار ٩ : ٧٠/١٠ .
(6) ديوان بشر رقم ٢٣ ص ١١٢ .
(7) المفضليات رقم ٤١ ص ٢٠٤ .
(8) ديوان امرىء القيس رقم ٤٧ ص ٢١٧ .
(9) شرح ديوان لبيد رقم ٢٤ ص ١٦٩ .

ويقول عدي بن زيد[١٠] :

الا من مبلغ النعمان عني	علانية فقد ذهب السرار
بان المرء لم يخلق حديدا	ولا هضبا توقاه الوبار
ولكن كالشهاب فثم يخبو	وحادي الموت عنه ما يحار

ويقول عمرو بن قميئة[١١] :

وما عيش الفتى في الناس الا	كما اشعلت في ريح شهابا
فيسطع تارة حسنا تراه	ذكيّ اللون ثمّ يصير هابا

ويقول امرؤ القيس[١٢] :

الا أبلغ بني حجر بن عمرو	وأبلغ ذلك الحيّ الحريدا
باني قد بقيت بقاء نفس	ولم اخلق سلاما أو حديدا

ويقول زبان بن سيار الفزاري[١٣] :

خلقنا أنفسا وبني نفوس	ولم نخلق سلاما أو حديدا

ويقول عمرو بن قميئة[١٤] :

فيادهر قدك فاسجح بنا	فلسنا سلاما ولسنا حديدا

ويقول النابغة الجعدي[١٥] :

وما البغي الا على أهله	وما الناس الا كهذا الشجر
ترى الغصن في عنفوان الشبا	ب يهتز في بهجة قد نضر
زمانا من الدهر حتى التوى	فعاد الى صفوه فانكسر

---

(١٠) ديوان عدي بن زيد رقم ٦٠ ص ١٣٢ .

(١١) ديوان عمرو بن قميئة ص٦٢ القطعة رقم ١ .

(١٢) ديوان امرىء القيس رقم ٤٦ ص ٢١٣ .

(١٣) ذيل امالي القالي ص ٥١ .

(١٤) ديوان عمرو بن قميئة ص ٦٢ رقم ٢ من المقطعات .

(١٥) شعر النابغة الجعدي ص ٢١٩ ، الحماسة البصرية ٢ /١١٢ .. وهي اكمل هنا .

ويقول كعب بن زهير[16] :

والمرء والمال ينمى ثم يذهبه | مرّ الدهور ويفنيه فينسحق
كالغصن بينا تراه ناعما جذلا | اذ هاج وانحتّ عن أفنانه الورق

ويقول عدي بن زيد[17] :

ثم أضحوا كأنهم ورق جفـ | ـف فألوت به الصبا والدبور

والحياة رحلة والناس بين غاد ورائح .. والنهاية اقامة لاسفر بعدها.. تقول الخنساء[18] :

هوّن وجدي أن من سرّه | مصرعه لاحقه لاتمار
وانما ينهما روحة | في اثر غاد سار حدّ النهار

ويقول عبيد بن الابرص[19] :

فانا ومن قد باد منا فكالذي | يروح وكالقاضي البيات ليغتدي

ويقول[20] :

يا عمرو ما راح من قوم ولا ابتكروا | الا وللموت في آثرهم حادي

ويقول لبيد[21] :

وانا واخواننا لنا قد تتابعوا | لكالمغتدى والرائح المتهجّر

---

(16) شرح ديوان كعب ص ٢٢٨ .

(17) ديوان عدي رقم ١٦ ص ٩٠ .

(18) انيس الجلساء ص ٤٠ .

(19) ديوان عبيد رقم ١٩ ص ٥٧ .

(20) ديوان عبيد رقم ١٦ ص ٤٨ .

(21) شرح ديوان لبيد رقم ٨ ص ٥٧ .

ويقول شعر جاهلي ينسب لجذيمة الابرش[٢٢] :

ربمـــا اوفيت في عـــلم   ترفعـــن ثوبي شـــمالات
في فتوٱنـــــا وابتهـــم   مـــن كـــلال غزوة ماتـــوا
ليت شـــعري مـــا أماتهم   نحن أدلجنـــــاهم بـــاتوا

ويقول صخر بن عمرو بن الشريد[٢٣] :

اجارتنا لـــست الغداة بظاعن   ولكن مقيم ما اقـــام عسيب

ويقول متمم[٢٤] :

فيا لعبيد حلفة ان خيـــركم   بجزرة بين الوعشـــتين مقيم

ويقول عدى بن زيد[٢٥] :

أيهـــا الركب المخبّون   على الارض المجـــدّون
فكمـــا انتم كنّـــا   وكمـــا نحـــن تكونون

ومن هذه الاقامة سمّوا القبر بيتا .. يقول الافوه الاودي[٢٦] :

فرّموا لـــــه أثوابه وتفجّعوا   ورنّ مرنات وثار بـــــه النفـــر
الى حفرة يأوى اليهـــا بسعيه   فذلك بيت الحق لا الصوف والشعر

ويقول بشر بن ابي خازم[٢٧] :

فمن يك سائلا عن بيت بشـــر   فان لـــــه بجنب الرده بابـــا

---

(٢٢) طبقات ابن سلام ص ٢٢ وهو مما صحح كونه من اقدم الشـــعر الجاهلي . . ونســـبته الى جذيمة مما يشك فيه .
(٢٣) الاغاني « الدار » ١٥/١٠٢ .
(٢٤) معجم البلدان ٢/٨٤ .
(٢٥) ديوان عدى بن زيد رقم ١٣٥ ص ١٨٠ .
(٢٦) الطرائف الادبية ص ١٥ .
(٢٧) ديوان بشر رقم ٥ ص ٢٤ .

ويقول دويد بن نهد[٢٨] :

اليوم يبنى لدويد بيته

ومن هذه الاقامة كان للاموات بلد مثل الاحياء .. يقول خفاف بن ندبة[٢٩] :

كلّ امرىء فاقد أحبته ومسلم وجهه الى البلد

ويقول عدي بن زيد[٣٠] :

واذا ذكرت نفسي ماخلا عاد في العين كتهيد الرمد
من اناس كنت أرجو نفعهم اصبحوا قد خمدوا تحت البلد

ويقول النابغة الذبياني[٣١] :

لا يهنىء الناس ما يرعون من كلا وما يسوقون من اهل ومن مال
بعد ابن عاتكة الثاوى على ابدى أمسى ببلدة لا عمّ ولا خال

والانسان رهن الدهر ليس له فكاك .. أو هو مدين للدهر وان كان لم يبع شيئا ولم يشتر .. يقول الاعشى[٣٢] :

أليس أخو الدهر مستوثقا عليّ وان قلت قد أنسأن
عليّ رقيب له حافظ فقل في امرىء غلق مرتهن

ويقول المتلمس[٣٣] :

أعاذل ان المرء رهن مصيبة صريع لعافي الطير او سوف يرمس

---

(٢٨) طبقات ابن سلام ص ٢٧ .
(٢٩) منتهى الطلب ١/١٥٠ .
(٣٠) ديوان عدى رقم) ص ٤٣ .
(٣١) شرح الحماسة للمرزوقي ٩٠١/٢ .
(٣٢) ديوان الاعشى رقم ٢ ص ١٥ .
(٣٣) ديوان المتلمس ص ١٨٢ .

ويقول ربيعة بن غزالة السكوني[٣٤] :

كذلك الدهر لا يرعى على أحـــد   والمرء رهن لريب الدهر مذ خلقا

ويقول عبيد بن الابرص[٣٥] :

كأن الشباب يلهّينا فيعجبنـــا   فمـا وهبنا ولا بعنـا بأرباح

ويقول النمر بن تولب[٣٦] :

كانما كان شبابي قرضا

ومن صورهم المتعلقة بقصر الحياة وتبدّدها قولهم انها تبدو كالحلم أو الذكرى أو الحركة العابرة من اليد .. يقول لبيد[٣٧] :

وأمسى كأحلام النيـام نعيمهم   وأيّ نعيم خلتـــه لا يزايل

ويقول عدى بن زيد[٣٨] :

فخال ذلك احلاما أذكرهــــا   بعد النعيم وكان العيش أطوارا

ويقول حسّان[٣٩] :

فلبثت ازمانا طـــوالا فيهـــم   ثم ادّكرت كانني لم أفعــل

ويقول أبو كبير الهذلي[٤٠] :

فاذا وذلك ليس الا حينــــه   واذا مضى شيء كأن لم يفعل

---

(٣٤) حماسة البحتري ص ١٣١ .

(٣٥) ديوان عبيد رقم ١١ ص ٢٤ .

(٣٦) ديوان المعاني ٢/٢٢٩ .

(٣٧) شرح ديوان لبيد رقم ٣٦ ص ٢٦٦ .

(٣٨) ديوان عدى رقم ٦ ص ٥٢ .

(٣٩) شرح ديوان حسان ص ٣١٠ .

(٤٠) ديوان الهذليين ٢/١٠٠ .

ويقول جندل بن أشمط العنزي[41] :

فكأن ذلك لم يكن إلا التذكر حين بادا

ويقول لبيد[42] :

كأني وقد جاوزت تسعين حجة خلعت بها عن منكبيّ ردائيا

ويقول عمرو بن قميئة[43] :

كأني وقد جاوزت تسعين حجّة خلعت بها يوما عنان لجامي

ويقول امرؤ القيس[44] :

كأن الفتى لم يغن في الناس ساعة إذا اختلف اللحيان عند الجريض

ومن ذلك كله عبّروا عن ضآلة الفرق بين الحي والميت .. يقول عبيد[45] :

هل نحن إلا كأرواح تمر بها تحت التراب وأجساد كأجساد

ويقول مالك بن حطان التميمي[46] :

فما بين من هاب المنية منكم وما بيننا إلا ليال قلائل

ويقول لبيد[47] :

فلا يبعد ان المنية موعد عليك فدان للطلوع وطالع

---

(41) الوحشيات ص ١٦٢ .

(42) شرح القصائد السبع لابن الانباري ص ٥١٢ .

(43) ديوان عمرو بن قميئة رقم ٣ ص ٢٢

(44) ديوان امرىء القيس رقم ٥ ص ٧٧ .

(45) ديوان عبيد رقم ١٥ ص ٢٦ ، رقم ١٦ ص ٨) ، رقم ١٢ ص ٤١ .

(46) المؤتلف والمختلف ص ٩٠ .

(47) شرح ديوان لبيد رقم ٢٤ ص ١٧١ .

ويقول حسّان في تعبير مجرد[48] :

ان الحياة وان الموت مثلان

ومثله قول سلمي بن ربيعة الضبي[49] :

والعسر كاليسر والغنى كالفقر والحيّ للمنون

وأبعد تجريدا قول ذي الاصبع[50] :

فانها والاتام من تلف مساحمٌ امر غية وقعا

وقول موسى بن جابر الحنفي[51] :

وما للملك في الدنيا بقاء وكيف بقاء ملك فيه موت

وقول أبي قلابة الهذلي[52] :

ان المنايا بجنبي كلّ انسان

فهؤلاء لا يرون ان الفناء طبيعة في الاشياء وليس شيئا داخلا عليها ..

ومن صور المعمرين أنهم يشبهون انفسهم بالسيف الذي رث جفنه وما يزال قاطعا .. وهم يعبترون بذلك عن فضل من قوة يجدونها ورغبة يحسّونها في الحياة . يقول لبيد[53] :

فاصبحت مثل السيف غيّر جفنه تقادم عهد القين والنصل لامع

---

(48) شرح ديوان حسان ص ٤١٢ .

(49) شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٨٣/٣ .

(50) منتهى الطلب ١٩٥/١ ، شعراء النصرانية ٦٢٩/١ وفيه ما ان بها والامور من تلف ، ونص منتهى الطلب أوضح ..

(51) معجم الشعراء ص ٣٧٦ .

(52) ديوان الهذليين ٣٩/٢ . وفي الاصابة ٩٤/٦ نسب الشعر لسويد بن عامر المصطلقي .

(53) شرح ديوان لبيد رقم ٢٤ ص ١٧١ .

ويقول النابغة الجعدي[54] :

مضت مائة لعام ولدت فيـــه ... وعشر بعد ذاك وحجتـــــان
فقد أبقت صروف الدهر مني ... كما أبقت من السيف اليماني
تفلـــل وهـــو مأثور جراز ... اذا جمعت بقائمـــه اليـــدان

ويقول النمر بن تولب[55] :

أبقى الحوادث والايام من نمر ... أسباد سيف كريم اثره بادى
تظل تحفر عنه ان ضـربت به ... بعد الذراعين والساقين والهادى

ويقول شعبة بن قمير الطهوى[56] :

وعدت كنصل السيف رثت جفونه ... وأبدانه والنصـــل غيـــر كليل

ويقول يزيد بن مخرم الحارثي[57] :

وقد أبقت الايام مني بقيـــة ... كخير حسام لم تخنه مضاربه

ويشبه المعمر نفسه بفرخ الطير المرتعش ويصف اقامته مع النساء في قعر البيت وحمله مثلهن في ظعن قومه ، واستغناء الناس عن رأيه واستخفافهم به ونحو ذلك .. يقول دريد بن الصمة واصفا حاله حين تقدمت سنه[58] :

في منزل نازح مالحي منتبـــذ ... كمربط العنز لا أدعى الى خبر
كأنني قارب قصت قوادمـــه ... أو جنة من بغاث في يدى غمر

---

(54) شعر النابغة الجعدي ص ١٦١ .
(55) الوشح ص ١١٣ ، ديوان المعاني ٢/٥١ .
(56) المؤتلف والمختلف ص ١٢٣ .
(57) معجم الشعراء ص ٤٩٤ .
(58) الاغاني ، الدار ، ١٠/٢٥ .

ويقول[٥٩] :

ان يك رأسي كالثغامة نسله يطيف بي الولدان أحدب كالقرد
رهينة قعر البيت كل عشية كأني أراد ي أو أصوّب في مهد
فمن بعد فضل من شباب وقوة ورأس أثيث حالك اللون مسوّد

ويقول المستّال الاسدي[٦٠] :

وعاد كفرخ النسر اعمى عن التي يريد طوال الدهر يهذي ويهذر

ويقول عوف بن سبيع القضاعي[٦١] :

وعـــاد كفرخ النسر يهتز جيده يرىدون شخص المرءشخصا اذا رأى

ويقول زهير بن جناب الكلبي[٦٢] :

ألا يالقومي لا أرى النجم طالعا ولا الشمس الا حاجبي بيميني
مُعَزّبَتي عند القفا بعمودها فاقصى نكيرى أن اقول ذريني
أمين على اسرارهن وقد أرى أكون على الاســــرار غير أمين
فللموت خير من حداج موطأ على الظعن لا يأتي المحل لحين

ويقول حاطب بن مالك النهشلي[٦٣] :

ومــاذا ترجّى من حيــاة ذليلة تمرّهــا بــين الطـارفة المرد
وأنت لتقيّ في البيت كالرأل مدنف وقد كنت سباقا الى غاية المجـد
وللموت خير لامرىء من حياته يدبّ دبيبا في المحلة كالقـــرد

---

(٥٩) منتهى الطلب ٢٧٧/١ ، كتاب المعمرين ص ٢٠ .
(٦٠) كتاب المعمرين ٥٤ .
(٦١) كتاب المعمرين ص ٦٢ .
(٦٢) الاغاني « الساسي » ٩٦/٢١ .
(٦٣) المعمرين ص ٢٠ .

ويقول ابو الطمحان القيني[٦٤] :

حنتني حانيات الدهـــر حتى كأني خاتل يدنو لصـــيد
قريب الخطو يحسب من رآني ولـــت مقيّـــدا اني بقيـــد

ويقول سلمي بن غوية الضبي[٦٥] :

هزئت زنيبـــة أن رأت ثرمي وان انحنى لتقـــادم ظهري
من بعد ما عهـــد فأدلفـــني يـــوم يجيء وليلـــة تسري
حتى كأني خاتـــل قنصـــا والمـــرء بعـــد تمامه يحري

واكثر صور الموت شيوعا في الشعر الجاهلي تخيله في صورة المـــاء وما يتعلق به ، فهو كأس تشرب او حوض مشرع للواردين أو غمرة تخاض أو سحابة تمطر .. ونحو ذلك تقول الخنساء[٦٦] :

ووافوا ظمء خامسة فأمســـوا مع الماضين قد تبعوا ثمودا

ويقول ابو الذيال البلوي[٦٧] :

هل نحن الا كمن تقدّمنا منّـــا ومن تمّ ظمـــؤه يرد

ويقول عمرو بن معد يكرب[٦٨] :

وقرّب للنطاح الكبش يمشي وطاب الموت من شرع وورد

وتقول الخنســـاء[٦٩] :

فاليوم أمسـيت لا يرجوك ذو أمل لمّا هلكت وحوض الموت مورود

---

(٦٤) الاغاني ، الدار ، ٢/٣٥٢ ، ١٢/٣٤٧ ، الاصابة ٢/٦٦ ، ذيل ديوان عدي بن زيد ص ١٩٨ .
(٦٥) مجالس ثعلب ١/٢٤٥ .
(٦٦) انيس الجلساء ص ١٦ .
(٦٧) طبقات ابن سلام ص ٢٤٦ .
(٦٨) حماسة البحتري ص ٤٧ .
(٦٩) انيس الجلساء ص ٢١ .

ويقول الاعشى[70] :

قد نال أهل شبام فضل سـؤدده الى المدائن خاض الموت وادّرعا

ويقول عنترة[71] :

فأجبتها ان المنية منهل لابد ان أسقى بكاس المنهل

ويقول النابغة[72] :

فهم يتساقون المنية بينهم بأيديهم بيض رقاق المضارب

ويقول طرفة[73] :

والظلم فرّق بين حييّ وائل بكر تساقيها المنايا تغلب

ويقول الاعشى[74] :

ثم أسقاهم على تعـ ـذ العيـ ـش فاروى ذنوب رفد محال

ويقول في هذه القصيدة :

ربّ حيّ أشقاهم آخر الدهر وحيّ سقاهم بسجال

ويقول[75] :

فجادت على الهامرز وسط بيوتهم شآبيب موت أسبلت واستهلت

ويقول عنترة[76] :

وما ندروا حتّى غشينا بيوتهم بغبية موت مسبل الودق مزعف

---

(70) ديوان الاعشى رقم ١٣ ص ١١١ .
(71) مختار الشعر الجاهلي ص ٣٨٩ .
(72) مختار الشعر الجاهلي ص ١٦١ .
(73) ديوان طرفة رقم ١ ص ٢٣ .
(74) ديوان الاعشى رقم ١ ص ١١ ــ ١٢ .
(75) ديوان الاعشى رقم ٤٠ ص ٢٦١ .
(76) مختار الشعر الجاهلي ص ٣٨٣ .

ويقول النابغة[77] :

ولا تلاقي كما لاقت بنو أسد   فقد أصابتهم منها بشؤبوب

ويقول علقمة الفحل[78] :

كأنهم صابت عليهم سحابة   صواعقها لطيرهن دبيب

كذلك عبروا عن الموت بأكل السباع للانسان .. وقد رأينا في الرثاء أن ذلك مما يخيف الجاهلي .. ولذلك فهو يذكرها متألما حين يتحدث عمن يحب ويوردها شامتا أو متهددا اذا تحدث عن عدوله .. يقول امرؤ القيس في رثاء جماعة من قومه[79] :

فلو في يوم معركة أصيبوا   ولكن في ديار بني مَرينا

فلم تغسل جماجمهم بغسل   ولكن بالدماء مرملينا

تظلّ الطير عاكفة عليهم   وتنتزع الحواجب والعيونا

ويقول ابو زبيد في غلامه الذي قتلته تغلب حين أعان عليهم المغيرين[80]:

تذبّ عنه كف بهارمق   طيرا عكوفا كزور العرس

عمّا قليل صبحن مهجته   فهن من والغ ومنتهس

ويقول عروة[81] :

فاتركه بالقاع رهنا ببلدة   تعاوره فيها الضباع الخوامع

---

(77) مختار الشعر الجاهلي ص ١٦٤ .

(78) مختار الشعر الجاهلي ص ٤٢٢ .

(79) ديوان امرئ القيس رقم ٣٧ ص ٢٠٠ .

(80) شعر ابي زبيد رقم ٣٥ ص ١٠٦ .

(81) ديوان عروة ص ٢١ .

ويقول دريد بن الصمة[٨٢] :

فـــان تقتلوا فتيـــة أفردوا   أصابهـــم الحـــين أو تظفروا
فان حزاما لـــدى معـــرك   واخوته حولهـــم أنســـر

ويقول فيها :

تجرّ الضـــباع بأوصـــالهم   ويلقحن منهم ولـــم يقبروا

ويقول[٨٣] :

فان تنج يدمى عارضاك فاننا   تركنـــا بنيك للضباع وللرخم

ويقول[٨٤] :

وقـــد ترك ابن كعب في مكرّ   حبيبـــا بـــين ضبعان وذيب

ويقول جندل بن اشمط العنزى[٨٥] :

قمدك الله الـــا تخبـــرى   يا ابنة العمرىّ عن اهل قطر
تركـــوا جارهـــم تأكلـــه   ضبع الوادى وترميه الشجر

ويقول محرز بن مكعبر الضبي[٨٦] :

ظلت ضباع مجيرات يعدنهم   وألحموهن منهم أىّ الحـام

ويقول عنترة[٨٧] :

ان يفعلا فلقد تركت أباهما   جزر السباع وكل نسر قشعم

---

(٨٢) الاغاني « الدار » ١٢/١٠ .
(٨٣) الاغاني « الدار » ٢٠/١٠ .
(٨٤) الاغاني « الدار » ٢٧/١٠ .
(٨٥) الوحشيات ص ٢٢١ .
(٨٦) الاغاني « الدار » ٢٣٧/١٦ .
(٨٧) مختار الشعر الجاهلي ص ٢٧٧ ، ٢٨٠ .

ويقــول :

وتركه جزر السـباع ينشـنه ما بين قلة رأسه والمعصم

ويقول عباس بن مرداس[88] :

أبا خراشـة أمـا أنت ذا نفر فان قومي لم تأكلهم الضبع

ومن صورهم ذات الاصل التاريخي الاسطوري قول علقمة[89] :

رغا فوقهم سقب السماء فداحض بشـــكته لـم يـتلب وسـليب

وقول أبي كبير الهذلي[90] :

ورغا بهم سَقْبُ السماء وحُنّقت مهـجُ النفوس بكارب متزلّف

وقول مالك بن خالد الخناعي :

كأن بذي دَوّان والجِزْعِ حوله الى طرَفِ المِقْراة أرغيةُ السَقْب

فهذه الصورة مأخوذة من قصة ناقة صالح عليه السلام وسقبها الذي رغا حين عقرت أمه فهلكت ثمود ..

ومن الصـــور التاريخية اشارة زهــير الى عطر منشم وقد اختلفوا في تفسـيرها[91] :

---

(88) الخزانة ٨٢/٢ ، شرح العيني بهامشها ٥٥/٢ . الشعر والشعراء ١٥٨/١ .

(89) مختار الشعر الجاهلي ص ٤٢٢

(90) ديوان الهذليين ١٠٨/٢ ، ١٧/٣ .

(91) شرح القصائد السبع لابن الانباري ص ٢٦١ . وقد ذكر ان (منشم) عطارة تشاءموا بها .. او ان التعبير من التنشيم في الشر وهو قول ابي عمرو بن العلاء أو انه للحرب وهو قول ابي عبيدة .

ومن الصور التي لانفهمها جيدا قول امرىء القيس[٩٢] :

وأفلتهنّ علبـــاء جريضـــا ولو أدركنه صفر الوطـــاب

وقول تابط شرا[٩٣] :

أقول للحيـان وقد صفرت لهـــم وطابي ويومي ضيّق الحجْر مُعْور

لكم خصـــلة أما اســـار" ومنّة" واما دم والقتل بالحر اجـــدر

ولعل اصل هذه الصورة مأخوذ من السنة والمجاعة حين يقلّ اللبن ..

ومن الصور الغامضة اضلال الميت بمعنى دفنه .. ومنه قول النابغة[٩٤] :

فآب مضـــلّوه بعين جليّـة وغودر بالجولان حـزم ونـائل

وقول زهير :

ان الرزيـة لا رزيّـة مثلهـــا ما تبتغي غطفان يوم أضـــلّت

وقول المخبل السعدي :

أضلّت بنو قيس بن سـعد عميدها وفارسها في الدهر قيس بن عاصـم

وقول أبي الحارث بن نهيك[٩٥] :

فتى ما أضـــلّت بـه أمّـــه من القـوم ليـلة لا مـدّعم

ولا وجه لاعتبار اضاعة المرثين بهذا الشعر لونا من التأنيب .. لأنهم لم يقتلوا .. والبيت الاخير ينسب الاضلال الى الأم وليست ممن يسأل عن

---

(٩٢) ديوان امرىء القيس رقم ٢٢ ص ١٨٣ .

(٩٣) الاغاني « الساسي » ٢١٥/١٨ .

(٩٤) الحيوان ٨٩/٣) . ويقول الجاحظ أن الاضلال الدفن ويورد الامثلة الثلاثة التالية . .

(٩٥) النقائض ٣١٠/١ .

حماية الرجل ، ويمكن ان تفهم الصورة على انها تعبير عن الخسارة وفقد ما لا سبيل الى استعادته .. ويمكن كذلك ان تكون اشارة الى عالم آخر يضيع فيه الانسان وتيه .

وبعض صور الحياة والموت مأخوذة مباشرة من الطبيعة والواقع، مثل صورة بطش الحيوان بالموتى .. وتصوّر الدهر راميا يصيد الانسان ويختله .. ومثل تشبيه حياة الانسان العابرة بتألق الشهاب .. وبعض هذه الصور من صنع الخيال وتقريبه بين الاشياء .. ومن ذلك تصور الانسان رهينة للدهر .. وتصور الحياة والشباب والنعمة في صورة الشيء المستعار الذي ينبغي أن يعاد الى صاحبه . ومن ذلك أيضا تصوير الموت على أنه ماء ، لانّ الطبيعة الصحراوية لا تجود بالماء في كميّة تسبب الخراب والفناء المباشر ، وينبغي ان تكون هذه الصورة من نتاج تفسير معين لدور الماء في الحياة ونحن بدون هذا التفسير لانجد وجها من التشابه أو الصلة بين الماء والفناء .. ويلاحظ في صور الحياة والموت بعامة أنها صور أساسية شديدة الصلة بموضوعها وليست من صور الزينة التي يمكن الاستغناء عنها .. فتصور الحياة عارية تعبير عن قلّة حيلة الانسان فيها .. وتصور الانسان رهينة للدهر يتضمن جبرية مطلقة وهي فكرة أساسية من أفكارهم، وتصور الدهر صيادا للاحياء صورة أساسية هي عمود كثير من الرثاء الذي يستخدم قصص الحيوان .. والاستغناء عنها يعني الغاء هذا القصص .. وصورة بطش الحيوان بالموتى صورة راعبة وليست من الترف الفني في شيء .. ويمكن أن يلاحظ مثل ذلك في أكثر الصور الاخرى .

---

(٩٦) النعمان بن الحارث الغساني مرثي النابغة مات كما يبدو في خروجه الى بعض متنزهاته . وذكر ذلك الاصمعي في كلامه على بعض شعر النابغة نفسه .

انظر مختار الشعر الجاهلي ص ١٩٨ ، ١٩١ . واما سنان بن ابي حارثة مرثي زهير فموته غامض . والجاحظ يرفض رواية هيامه في الصحراء . . الحيوان ٣/٤٨٩ . واما قيس بن عاصم فله وصية معروفة في وفاته مما يدل على ميتة طبيعية اسد الغابة ٤/٢١٩ .

اللغـة :

من الصعب أن تجد سمات عامة لغوية لما استعرضنا من الشعر ، فهـو ـ وان كان في موضوع واحد ـ ينتمي الى اغراض بعيد ما بينها .. ويمكن ان نلحظ بصفة عامة أن الحكمة والوعظ والرثاء المباشر تمتاز بلغـة ما تزال حيّة في اللسان العربي ، وان الحماسة والصور والرموز القصصية تتخـذ لغة أجزل وابعد في الغرابة الزمنية والبيئية ، فهي تمثل الجاهلية وتمثل كذلك البيئة البدوية الصحراوية ولكن ذلك كما قلنا حكم عام غير دقيق ..

ومما يهمنا أن نقف عنده ـ ونحن نتبين جوانب أصـيلة في العقل العربي ـ ان هذه اللغة التي رأيناها في ما استعرضنا من النصوص وأمثالها لغة عربية نقية الى أبعد الحدود ، وقد ذكر بعض الباحثين ألفاظا غريبة دخلت العربية فذكروا من ألفاظ الفارسية : الابريق والسندس والزنجبيل والعنبر والكافور ، ومن اليونانية واللاتينية مما يفترض أنه دخل عن طريق الروم ألفاظ الفردوس ، والقسطاس والقنطار ، ومن أخطر ما ذكروه ألفاظ الكاهن العبرية ، والنفاق والبرهان والحواري والمصـحف والمنبر الحبشية والنبي الهيروغليفية التي دخلت عن طريق العبرية[٩٧] .. وخطورة هـذه الألفـاظ العبرية والحبشية آتية من صلتها بالفكر الديني والنشاط العقلي للامة كمـا هو واضح ..

---

(٩٧) تاريخ اللغة العربية ٦ ـ ٨ ، ١١ ـ ١٢ ، تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ١/٤٤ ـ ٦٠ ، تاريخ الادب العربي لبلاشير ص ٦٢ ، النصرانية وآدابها ١/٦٥ ، ٢/١٥٤ وما بعدها .. ويغلو شيخو غلوا شديدا ، ومن ذلك أنه اعتبر الاعلام : بشير ، بعيث ، توبة ، ثابت ، جابر ، حبيب ، حكيم ، خالد ، الخليل ، سعد ، صالح ، مالك وغيرها مثلها غربية ٢/٢٤٧ وما بعدها . واعتبر المسجد والكعبة والمحراب ، والقبلة ، والمنارة ، والمصباح ونحوها غريبة ايضا . ٢/١٧٤ وما بعدها .

ولنا على هذا التأثير اللغوي ملاحظة أولية هي ضعفه ، ويتجلى هـــذا الضعف في قلة هذه الالفاظ الى جانب ثراء اللغة العربية وغزارة مادتهـا .. وهذه الالفاظ ليست مما كثر استعماله في الشعر الجاهلي فهي ليـــست مما يمكن اعتباره مصطلحات أساسية في التفكير الجاهلي[٩٨] . ويضاف الى ذلك أن العربي لم يكن متلقيا سلبيا دائما .. فقد كان اللفظ يتخذ على لسـانه الشكل المناسب لنطق العربية .. وكان ــ وهو الاخطر ــ يزاد ثراء ويغنى بمعان ليست في أصله القريب ، فالبرهان في الحبشية النور والايضاح وهو في العربية أبعد في التجريد العقلي .. والنفاق في أصله البدعة وهو أرقى في عربيته ، والفردوس في الأصل البستان او الروضة وهو في عربيته مصطلح ديني خاص ، والقسطاس في الاصل الميزان وهو على صلة ظاهرة بالعدالة عند العرب منذ الجاهلية ، يقول عدي بن زيد[٩٩] :

في حديد القسطاس يرقبني الحا   رس والمرء كل شيء يلاقي

وقد ذكرنا من الالفاظ العربية الاصيلة المستعملة في الجاهلية ما هـو قريب من المصطلح الفكري المحدد ومن ذلك الحق والعدل والوفاء والنصف والسوية والباطل والظلم والبغي والخير والشر وغيرها .. وذلك يحـدد مرحلة عقلية بلغتها الجاهلية .. يساعدها في ذلك الفطرة البشرية وما عرفتـه

---

(٩٨) اكثر هذه الالفاظ قرآني كما هو واضح . . وهو نادر في الشعر . فالحواري مثلا لم يجد شيخو شاهدا لها الا بيتا لضابيء البرجمي الذي مات في سجن عثمان رضي الله عنه . وبينا للسموال توحي ركته بانتحاله ، ولعل ضابئا أخذ اللفظ من القرآن الكريم . النصرانية وآدابها ٢/١٨٩ ، ولامر بعد ذلك من محاولات غير المسلمين ايجاد صلات بين الاسلام وغيره من الاديان . وهي الصلة التي لا ينكرها القرآن الكريم ، لان الاسلام شريعة الله الذي شرع الاديان الاخرى : « سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا » . الإسراء ٧٧ « ما يقال لك الا ماقد قيل للرسل من قبلك ان ربك لذو مغفرة وذو عقاب اليم » . فصلت ٣٤ فهذه موافقات المصدر الواحد .

(٩٩) ديوان عدي رقم ٩٢ ص ١٥١ .

من الأديان الكتابية وما ورثته من الحنيفية .. وقد جاءنا في الشعر الجاهلي مصطلحان متقابلان هما أوضح دلالة على المستوى العقلي لأهل الجاهلية وهما مصطلحا الفساد والصلاح بمعنى العدم والفناء ونحوهما والوجود والحياة وما في معناهما .. ومن استعمال اللفظين على وجه المقابلة قول الاعشى[١٠٠] :

انما نحن كشيء فاسد فاذا أصلحه الله صلح

وقوله[١٠١] :

فالدهر غيّر ذلك يا ابنة مالك والدهر يعقب صالحا بفساد

وقوله[١٠٢] :

ولكن أرى الدهر الذي هو خاتر اذا أصلحت كفّاي عاد فأفسدا

وقول الاسود بن يعفر[١٠٣] :

فاذا وذلك لا مهاه لذكره والدهر يعقب صالحا بفساد

وقول دويد بن نهد[١٠٤] :

والدهر ما أصلح يوما أفسدا يصلحه اليوم يفسده غدا

وقول جندل بن أشمط العنزي[١٠٥] :

فنى لهم والدهر يحدث بعد صالحة فسادا

---

(١٠٠) البيت مما شكك د . شوقي ضيف في القصيدة كلها . تاريخ الادب العربي « الجاهلية » ص ٣٤٥ . مما يدل على تقديره لخطر اللفظين والمستوى الذي يوحيان به .

(١٠١) ديوان الاعشى رقم ١٦ ص ١٣١ .

(١٠٢) ديوان الاعشى رقم ١٧ ص ١٣٥

(١٠٣) المفضليات رقم ٤٤ ص ٢٢٠ .

(١٠٤) طبقات ابن سلام ص ٢٨ .

(١٠٥) الوحشيات ص ١٦٢ .

وقول الافوه الاودي[١٠٦] :

والمرء ما تصـــلح لـــه ليـــله بالـــسعد تفـــده ليـالي النحوس

وقول عدي بن زيد[١٠٧] :

وأبدت لي الايام والدهر أنــــه فأرّخت من لا يصلح الامر يفسد

واللفظان يستعملان في كلامهم بمعنى ابقاء المال ونمائه أو انفـــاقـه ، واتلافه ، يقول المتلمس[١٠٨] :

واصـــلاح القليل يزيد فيـــه ولا يبقى الكثير على الفســـاد

ويقول عبيد أو أوس بن حجر[١٠٩] :

قالتها الله تلحـــاني وقد علمت أن لنفســي افســادي واصلاحي

ويقول عدي بن زيد[١١٠] :

فللوارث الباقي من المال فاتركي عتابي فأني مصـــلح غير مفسد

والمال عندهم في غالب الامر من الحيوان كالابل والغنم .. فافســاده يكون بنحره للضيف وعقره واصلاحه بحفظ حياته وزيادة انساله .. فهــذا الاستعمال قريب من المعنى العام ، ويؤيد ذلك أنهم عبّروا عن انفاق المــال بالفاظ الهلاك والفناء والتلف وهي ألفاظ صريحة .. ومن استخدامها قــول الاسـود بن يعفر[١١١] :

وقالت لا أراك تليـق شــــيئا أتهلك ما جمعت وتســـتفيد

---

(١٠٦) الطرائف الادبية ص ١٦ .

(١٠٧) ديوان عدي رقم ٢٣ ص ١٠٨ .

(١٠٨) الاغاني « الساسي » ٢١/١٣٦ .

(١٠٩) ديوان عبيد رقم ١١ ص ٢٦ .

(١١٠) ديوان عدي رقم ٢٣ ص ١٠٣ .

(١١١) الصبح المنير ٢٨٠ .

ويقول النمر بن تولب[112] :

يلوم أخي على اهـــلاك مالي   وما ان غـــالـــه ظهري وبطني

ويقول تأبط شرا[113] :

يقول أهلكت مالا لو قنعت بـــه   من ثوب صدق ومن بزّ وأعلاق

ويقول أبو ذؤيب[114] :

أعاذل لا اهـــلاك مالي ضرّني   ولا وارثي ان ثمّر المال حامدي

ويقول أوس بن حجر[115] :

والمخلـــف المتـلف المرزّ ألـم   يـتـع بضـعف ولـم يمت طبعـا

ويقول حاتم الطائي[116] :

تلومان لمّـا غوّر النجـم ضلّة   فتى لايرى الاتلاف في الحمد مغرما

ويقول بشر بن أبي خازم[117] :

وعشت وقد أفنى طريفي وتالدي   قتيـل ثلاث بينهن أصـــرّع

وتجدهم أحيانا يقابلون بين أحد المصطلحين وبين ما يرادف الاخر ، فمن استخدام الصلاح على هذا النحو قول تأبط شرا[118] :

ثـمّ انقضى عصرها منّي وأعقبه   عصر المشيب فقل في صـالح بادا

---

(112) منتهى الطلب ١/٨٤ .
(113) المفضليات رقم ١ ص ٣٠ .
(114) ديوان الهذليين ١/١٢٣ .
(115) ديوان أوس رقم ٢٦ ص ٥٣ .
(116) ديوان حاتم ص ٢٤ .
(117) ديوان بشر رقم ٢٥ ص ١١٦ .
(118) رسالة الغفران ص ٢٨٠ .

وقول أوس بن حجر[119] :

أودى ربيع الصعاليك الأُلى انتجعوا وكلٌّ ما فوقها من صالح مودى

وقول النمر بن تولب[120] :

فكأن صالح اهل جوّ غدوة صبحوا بذيفان السمام المنقع

وفي هذه المواضع لا يمكن حمل الصلاح على المعنى السلوكي لان الصالح وغير الصالح مود ..

ومن استخدام الصلاح في المال قول عبيد[121] :

اني وجدّك لو اصلحت ما بيدي لم يحمد الناس بعد الموت اصلاحي

ومن استعمال الفساد بمعنى القتل والفناء ونحوه قول الاعشى في رفض بكر ان تعطي كسرى رهائن من أبنائها[122] :

آليت لا نعطيه من أبنائنا رهنا فيفسدهم كمن قد أفسدا

وقول الحارث بن وعلة الجرمي يصف خيلا[123] :

تكرّ عليهم وتعود فيهم فسادا بل أجلّ من الفساد

وقول أبي جندب الهذلي[124] :

وقلت لهم قد ادركتكم كتيبة مفسّدة الأدبار ما لم تخفّر

---

(119) ديوان اوس رقم ١١ ص ٢٥ .
(120) خزانة الادب ١/١٥٥ .
(121) ديوان عبيد رقم ١٢ ص ٤١ .
(122) ديوان الاعشى رقم ٣١ ص ٢٢٩ .
(123) معجم البلدان ١/٣١٦ .
(124) ديوان الهذليين ٣/٩٤ .

ويقول كعب الغنوي[١٢٥] :

لقد أفسد الموت الحياة وقد أتى　　على يومه علق اليَّ حبيب

وقول الخنساء[١٢٦] :

ان الجديدين في طول اختلافهما　　لا يفسدان ولكن يفسد الناس

ومن استخدام الفساد في المال قول طرفة

كقبر غويٍّ في البطالة مفسد

وقول امرىء القيس[١٢٧] :

ولبينا المرء يهوى قدماً　　أفسد الدهر غناه فسد

ولعل الصلح جاء من أن المتصالحين يبقي بعضهم على حياة بعض .. كما أن اسم الفساد الذي أطلق على حرب طيء يمكن أن يفهم على أنه اشارة الى تفاني أبناء القبيلة[١٢٨] .

وهذان المصطلحان كما هو ظاهر عربيان من حيث مادتهما اللفظية ، وهما كذلك عربيان من حيث نباتهما في اللغة العربية وتولدهما من حاجة أهلها . يشهد على ذلك تنوّع استخدامها في المال والابقاء على الحياة والقتل والفناء والعدم والوجود .. ولو افترضنا أنهما مترجمان من لغة أخرى فان

---

(١٢٥)　الاصمعيات رقم ٢٦ ص ١٠٢ .

(١٢٦)　انيس الجلساء ص ٥١ .

(١٢٧)　ديوان امرىء القيس رقم ٤٧ ص ٢١٩ .

(١٢٨)　من استعمال اللفظين في القرآن الكريم قوله تعالى : « واذا قيل لهم لا تفسدوا في الارض قالوا انما نحن مصلحون . » البقرة ١١ ، « ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها . » الاعراف ٥٦ ، « ان الله لا يصلح عمل المفسدين » يونس ٨١ ، « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض » البقرة : ٢٥١ ، « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » الانبياء ٢٢ « ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها . » النمل ٣٤ . وغير ذلك من الآي الكريم .

ذلك لا ينفي خطر وجودهما في لغة الجاهلية بل يثبت شعورهم بالحاجة اليهما .. وهي حاجة عقلية خالصة لا يقتضيها أمر مباشر من حياتهم .

والحق أن طبيعة الموضوع الذي أبحثه هي التي لفتت النظر الى هاتين الكلمتين ، ولقد يكون لهما أمثلة أخرى في لغتهم ، كذلك فان الحكم على لغة الجاهلية بشعرها وحده هو صعوبة أخرى تواجهنا ، لأن النثر ولغة الخطاب تتسع لما لا يتسع له الشعر من الالفاظ ذات الطابع العقلي المجرد ، ويمكن ان نقول في هذه الحدود ان اللغة العربية بلغت مرحلة من النضج مكنتها من تحمل ألوان التفكير الذي يرتفع عن الحاجات المباشرة للحياة الجاهلية واكتسبت صلاحية ومرونة كافية لايجاد المصطلحات المختلفة كانت بذلك قادرة على أن تصبح لغة القرآن الكريم وحضارة الاسلام .

التعبير بالبيت والقصيدة

تأتي أفكار الشاعر في الحياة مفاجأة لنا أحيانا في قصيدة ليست في جملتها مخصصة للتأمل . ولو حاولنا أن نعرف علة بروز هذه الفكرة أو الخاطرة في هذا الموضع من القصيدة ما استطعنا أن نجزم بشيء .. وغاية ما يمكن أن يقال هو أن الفكرة مما يشغل الشاعر فهي تخطر له على غير انتظار ، فيثبتها حيث طفت في وعيه . ومن ذلك قول طرفة في قصيدة يفخر فيها بقومه وبكرمهم[129] :

ان التبالي في الحياة ولا تغني نوائب ما جد عقره

وهي عبارة تشبه قول المسلم إن العمل ينقطع بالموت وان على الانسان أن يقدم لنفسه قبل ذلك ، وهذا البيت في القصيدة أشبه بالتعقيب الذي يصدر عن نفس الشاعر لا من حاجة القصيدة اليه . ولو أننا اسقطناه ما اختل شيء في القصيدة ككل ، ويشبه ذلك قول عمرو بن كلثوم في معلقته .

وأنا سوف تدركنا المنايا مقدرة لنا ومقدرينا

---

(129) ديوان طرفة رقم ٨ ص ٩٩ .

وقول امريء القيس في الضادية[١٣٠] :

أرى المرء ذا الأذواد يصـــبح محرضـــا
كاحـــراض بكـــر في الديـــار مريض

كـــأن الفتى لم يغن في الناس ســـاعة
اذا اختلف اللحيـــان عنـــد الجريض

وقول الاعشى في المعلقة :

في فتيـــة كسيوف الهنـــد قـــد علموا
أن ليس يدفـــع عن ذي الحيلة الحيـــل

وقول طرفة في البائية التي يطالب فيها بحق وردة[١٣١] :

ولقـــد بدا لي أنـــه ســـيغولني ما غـــال عادا والقـــرون فاشعبوا

وليـــت مثل هذه الافكار التي تفاجئنا في الشـعر الجاهلي أحيانا منقطعة عن أفكار القصـيدة التي ترد فيها .. ولكنها تعليقات موجزة على ما تقولـــه القصـيدة مما يجعل البيـت الذي يتضـمنها يقف وحيدا لافتا النظر .

وبعض تأملات الشـعراء الجاهليين في الحياة تـستغرق القصـيدة كاملة وتجعلها ظاهرة الوحـــــدة موثقة الترابط .. فغالب الرثاء والموعظة يرد في قصـيدة كاملة ، ومثله بعض شعر الفتوة وتذكرها .. ومن أوضـح أمثلة هذا النمط من الشعر دالية الاسود بن يعفر المفضلية[١٣٢] .. فالشـاعر فيهـــا يتحدث عن ثلاثة أقسـام من حياته : هو في حاضره أعمى يشكو من شيخوخته وضعفه .. وهو يلقي بنظره الى امام فيجد اليقين الذي صار اليه من قبـــل آل محرق ، ثم يلقي نظرة الى وراء ليتذكر ألوانـا من فتوته الذاهبـــة ..

(١٣٠) ديوان امريء القيس رقم ٥ ص ٧٧ .
(١٣١) ديوان طرفة رقم ١ ص ٢٥ .
(١٣٢) المفضليات رقم ٤٤ ص ٢١٦ .

والقصيدة متينة الوحدة لا ثغرة فيها ومثلها بائيـــة امـــريء القيـس التي أولهــا[١٢٣] :

أرانا موضـــعين لأمر غيب وتـــسحر بالطعـام وبالشراب

وبائية عدي بن زيد التي أولها[١٢٤] :

لـم أر كالفتيـــان في غبن الايــــام ينســـون ما عواقبهـــــا

ومثلها مراثي لبيد التي مطالعها[١٢٥] :

الا ذهب المحـافظ والمحـامي ومانـع ضـيمنا يوم الخصام

. . . .

و :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالـع وتبقى البـلاد بعدنا والمصانع

و :

الا تسـالان المرء ماذا يحــاول أنحب فيقضي أم ضلال وباطـــل

الى غير ذلك من شعر الجاهلية . ولعل مواجهة الشاعر عن قرب لمـآسي حياته هي التي تركز اهتمامه بموضـوع واحد لا يخرج عنه .

والضرب الآخر من القصائد هي التي يفرغ الشـاعر في قسم منها للتأمـل ويتصرف في أقسـامها الباقية في مواضـع أخرى ومعاني مختلفـة . ومن أمثـلة هذا النمط معلقة طرفة ، تحتوي على مقدمة في الاطلال والنسيب . ينتقـل بعدها الى وصف رحلته على ناقة يصفها ثم يفرغ لحيـــاته يبيّن خطته فيهـــا وينساق بعد ذلك الى تبيان رأيه في الناس والقدر .

---

(١٢٣) ديوان امريء القيس رقم ١١ ص ٩٧ .

(١٢٤) ديوان عدي بن زيد رقم ٥ ص ٤٥ .

(١٢٥) شرح ديوان لبيد رقم ٢٧ ص ٢٠١ ، رقم ٢٤ ص ١٦٨ ، رقم ٣٦ ص ٢٥٤ .

ولقد رأينا في مواضع متفرقة من هذا البحث أن لبعض هذه الاقسام قيمة نفسية خاصة أو لونا نفسيا معينا ، فالمقدمة الطللية قريبة من الرثاء من حيث هي تعبير عن الحزن لتفرق الجماعة أو فقدان الحبيب بفعل الدهر ، ورأينا ان الناقة والفرس ووصفهما تحمل معنى القوة والمقاومة والفرح وانها لذلك لا تلائم الرثاء ، وانما يذكر الشاعر الناقة والفرس لينسى ما أثاره الطلل وظعن الحبيبة من همّ . ورأينا أن قصص الحيوان يعبر عن الحالة النفسية للشاعر ويحمل آثارها .. فالحيوان ينجو من الصائد اذا شبهت به الناقة في شعر الفخر والمدح ونحوه ، ويكون فريسة للكلاب وتصيبه السهام اذا كان الشعر رثاء ، وهو في هذه الحالة لا يقارن بالناقة ولا تشبه به .. وكل هذه التوجيهات أو بعضها اذا اجتمعت تكشف عن جوّ نفسي عام .. ينتظم الاقسام المتميزة للقصيدة الواحدة .

ونبدأ بمثل من الرثاء لأنه أبسط توجيها وأيسر ، ففي قصيدة لساعدة ابن جؤية يتذمر فيها من حياة الشيخوخة نجد هذه البداية المباشرة التي يقول فيها[136] :

ياليت شعري الا منجى من الهرم	أم هل على العيش بعد الشيب من ندم
والشيب داء نجيس لادواء له	للمرء كان صحيحا صائب القحم
وسنان ليس بقاض نومه أبدا	لولا غداة مسير الناس لم يقم
في منكبيه وفي الاصلاب واهنة	وفي مفاصله غمز من العسم
ان تاته في نهار الصيف لاتره	الا" يجمّع ما يصلى من الجحم
حتى يقال وراء البيت منتبذا	قم لا أبا لك سار الناس فاحتزم
فقام ترعد كفاه بمحجنه	قد عاد رهبا رذيا طائش القدم

(١٣٦) ديوان الهذليين ١/١٩١ .

هذه الحياة ليس فيها ما يعجب الشاعر ، والشيب لادواء منه ولا برء الا الموت .. وهو يقبله بلا ندم لأنه سيأتي بعد الشيب .. وهو يروى بعد هذه المقدمة المباشرة ثلاث قصص لوعل وصوار وجماعة من الناس وتنتهي كلها بموت أبطالها وتبدأ بقوله ان الدهر لا يبقي على بطل القصة ..

ويبدأ أبو ذؤيب بعض مراثيه بمقدمة في الطلل ويشبه الاثافي بثلاث اينق يعطفن على ولد ، ثم يشبه هذه الاينق بنوح الكريم المجتمعات لبكائه .. ثم ينتقل الى رثاء صريح يقول أبو ذؤيب [(١٣٧)] :

عرفت الديار كرقم الدوا	ة يزبرها الكاتب الحميري
برقم ووشي كما زخرفت	بميشمها المزدهاة الهدي
أدان وأنبأه الأولو	ن أن المدان الملي الوفي
فنظر في صحف كالريا	ط فيهن ارث كتاب محي
على أطرقا باليات الخيا	م الا الثمام والا العصي
فلم يبق منها سوى هامد	وسفع الخدود معا والنؤي
وأشعث في الدار ذي لمة	لدى إرث حوض نفاه الأتي
كموف المعطف أحرى لها	بمصيدة الماء رأم رذي
فهن عكوف كنوح الكريـ	ـم قد لاح اكبادهن الهوي
وأني نشيبة والجاهل الـ	ـمغتر يحسب أني نسي

فهذه القصيدة من قسمين واضحين ، ولكن الحزن عام فيها يعبّر عنه القسمان كلاهما ..

---

(١٣٧) ديوان الهذليين ٦٤/١

واذا عدنا الى معلقة طرفة وجدنا ان بلى الاطلال وذكريات الحبيبة توحي له بالمقاومة والجلد ، فهو يقول بعدها[١٣٨] :

واني لأمضي الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدي

. . . .

على مثلها أمضي اذا قال صاحبي ألا ليتني أفديك منها وأفتدي

وجاشت اليه النفس خوفا وخاله مصابا ولو أمسى على غير مرصد

اذا القوم قالوا من فتى خلت أنني عنيت فلم اكسل ولم اتبلد

أحلت عليها بالقطيع فاجذمت وقد خبّ آل الامعز المتوقد

فذالت كما ذالت وليدة مجلس تري ربها اذيال سحل ممدّد

طرفة اذن في مقدمته الطللية ووصفه للناقة بعدهـا يعبّر عن القوة في الهم ، وعن عدم الاستسلام للحزن . وهذا هو روح فتوته التي يتحدث عنها بعد ذلك . وهو الشعور العام الذي يكون جوّ معلّقة لبيد أيضا ، فهو يقف على الطلل ثم يذكر أنه يقطع لبانة من تعرّض وصله بناقة يصفها وهو لا يتبع النوار التي حلت بفيد وجاورت أهل الحجاز بل يعاملها بالمثل فيرتحل هو أيضا ، وناقته تشبه حمارا وحشيا مقتدرا على اتانه يوجهها كما يشاء عنيفا بها حتى ينتهي الى عين مسجورة محفوفة بالنبات ، وتشبه بقرة فقدت الفرير فلم تضعف بل قتلت الكلاب ونجت من الصياد، فهو اذن رجل قوي يقطع حبل النوار على ناقة قوية ، وهو يعود الى النوار ليقول لها انه لا يزال يقطع حبلا ويصل حبلا ، وانه يشرب الخمر الغالية ويسمع الغناء والسمر ويحمي الحيّ ويربأ لهم ويدافع عنهم ويأخذ بحقهم ويقامر بسخاء ، وانه من بيت الرآسة والسيادة في قومه .فلبيد يعبر عن القوة في كل اقسام القصيدة ، وليس في حديث فتوّته وحده ، أو حين يعنف في خطاب نوار ..

---

(١٣٨) اخترت رواية الاصمعي كما جاءت في مختار الشعر الجاهلي ص ٣١٠ ، ٣١١ .

والقول بوجود جوّ نفسي عام في بعض المطوّلات الجاهلية لا يعني انكار وجود اقسامها المتميزة ، فهي أظهر من ان تنكر ، وكل قسم منها له موضوع خاص وميزات فنية معينة ، وما نريد ان نصل اليه هو أن الشاعر لا يقفز من قسم من قصيدته الى قسم آخر مستأنفا شعورا جديدا لاصلة له بما مضى وما يأتي من كلامه ، وهذا الجو النفسي العام اظهر ما يكون حين يتأمل الشاعر حياته مثقلا بالحزن مستسلما للقدر أو متمردا عنيفا في مواجهة الدهر .

الخاتمة

ليس كل ما سأستعرضه من نتائج البحث مما استقل به ، فبعضه مستند الى آراء سبقني اليها الباحثون كما يرى في هوامش الرسالة ولي منه جهد جمعه والتأليف بينه وعلي تبعة موافقة أصحابه ..

وقد عرض الفصل الاول من الباب الاول لعقائد الجاهلية ، وخرج بأن الحنيفية كانت علما على الشرك الجاهلي .. وان عقائدها كانت خليطا من الايمان بالله ومن الوثنية ، وان عبادتها تأثرت بذلك الخلط فمنها ما هو موجه الى الله تعالى ومنها ما يراد به الشركاء من الجن والاصنام ، وان الوثنية في نجد والحجاز ليست هي وثنية الجنوب العربي أو الوثنية السامية عامة كما انها ليست مقطوعة عنها ، وكانت المجوسية قليلة الانتشار بين العرب وتكاد تكون محصورة في الفرس الذين خالطوهم في مناطق النفوذ الفارسي ، وكان في قريش خاصة نفر من الذين يفكرون تفكيرا ماديا كالذى اصطلح على تسميته في عصور الاسلام بالزندقة ونسبته الى مصادر فارسية .

ومن الاديان الكتابية التي عرض لها البحث اليهودية وكانت متأثرة بالشرك العربي مؤثرة فيه .. وقد اتخذ انتشار اليهودية بين العرب شكل التهود وهو في الحجاز ظاهرة قبلية قبل ان تكون دينية ، أما في اليمن فقد رجح الاثر الديني، ومن الاديان الكتابية النصرانية التي انتشرت بالتبشير بين عرب الشام والعراق وشرق الجزيرة وبعض القبائل مثل تغلب .. وانتشرت في اليمن بالتبشير والقوة العسكرية ، ولم يكن تنصر هذه المواضع والقبائل كاملا بدلالة اخبارها التي تذكر بقاء الشرك فيها ، ومذهب النصارى العرب كان اليعقوبية والنسطورية في الغالب .. وقد جاء في آثار الجنوب ذكر جماعة

موحدة هم عبدة الرحمن وهم جماعة عرفها العرب بدليل كرههم لاسم الرحمن من بين اسماء الله الحسنى ، وذكر القرآن الكريم الصابئة مع اهل الكتاب مما يرجح كونهم منهم ، ويحتمل ان تكون تسمية المشركين للمسلمين بالصابئين اشارة الى هؤلاء .

والفصل الثاني من الباب يظهر آثار هذه العقائد في القيم الاجتماعية والخلقية ولم تمكن الافادة كثيرا من تصور الجاهلية للخلق الاول والبعث لان هذا التصور لم يصلنا كاملا . وكان المدخل الى فهم اثر الدين بدلا من ذلك اعتبار التحريم والتحليل . وبواسطته كشف البحث عن تفاوت في المنزلة الاجتماعية من أصل ديني وذلك هو معنى تقسيم القبائل العربية الى حمس وطلس وحلة . وكشف البحث ايضا عن الشرعية التي أضفاها الدين على حياة الغزو والحرب ويدل على ذلك تقسيم الشهور الى حرام وحلال .. كذلك شارك الدين في انكار الحرب داخل القبيلة الواحدة . وكان كل ذلك مدخلا لدراسة قضاء الجاهلية الديني والعرفي .. وفي هذا الفصل دراسة للدهر وهو رمز القدر الغالب الجائر في وهمهم والخير والشر بالمعنى المباشر والاخلاقي وهما يتأثران بجبريتهم المتشائمة ، والحق والعدل والنصف وهي امثلة عليا متأثرة بمعرفة العرب لله في شركهم وأديانهم الكتابية .

والفصل الاول من الباب الثاني يستعرض افكار الشعراء في الرثاء .. وفيه وقفة عند البكاء على الاطلال كلون من رثاء الجماعة أو بكاء الماضي بدليل وجود بعض المعاني في الرثاء وبكاء الاطلال معا . ويميز البحث بين موقف الشاعر مؤبنا مدفوعا بحزنه وواجبه الاجتماعي وبين موقفه مفتشا عن العزاء ومن افكارهم في موقف التأبين زعمهم انهم وجدوا راحة اليأس بعد الميت ، وان الميت افضل من الباقين في الاحياء فهم يشكون من العيش في الباقين او يشكون من جور الدهر . وزعمهم ان الحياة صارت بعد الميت بلا طعم . ويعبر الشعراء في موقف التأبين عن مخاوفهم مما يحل بالانسان بموته، ويهزأون مما يصطنع للميت من تكريم . وموقف العزاء يستند الى ان الموت

جامع للناس . ويعبّر الشعراء عن ذلك بان كل اخ يفارق اخـــاه ، وانهم لاحقون بالميت ، وان الميت سلك سبيلا كان لابد سالكها .. ويتأسون بالامثال من الســادة والملوك أو يعبّرون عن رؤية الفناء محيطا بكل شيء .

والفصل الثاني في شعر الحماسة ، وفيه تميز بين الشاب الذى يزعم أنه يفتش عن المنة لأنه موقن من الموت خائف من مفاجآته . وبين موقف الشيخ الذي يأسف لذهاب حياة الفتوة ويفخر بان حياته كانت عريضة غنية بالمتعة. ويلاحظ أن خمر الفتيان صبوح في اغلب الاحيان وذلك أثر من فخرهم بالتفرغ للهو والمبادرة الى المتعة خوف المفاجأة . وان المرأة تظل شابة في شعر الشيوخ الذين يبكون فتوتهم فهي ترمز في شعرهم الى التوق الى الحيـــاة واللهو والشـباب وتكشف رحلة الصيد في شعر الفتيان عن التداعي بين وصف الفرس والطر وتكشف رحلتهم على الناقة عن ان وصفها والرحلة عليها شعر حماسي حتى اذا كان ذلك صلة للمديح . ومن شعر الحماسة المتأثر بافكار الشعراء في الحياة والموت شعر الكرم ..

ويرى ان انفاق المال خير من تركه للدهر يفنيه في حياة صاحبه أو بعد موته ، وشعر الفروسية وهو يذهب الى ان الجبن لا يطيل حياة الانسان ولا يخلده ، وشعر الرحلة وهو يقول بان الموت يدرك الانسان أقام ام ارتحل .

وشعر الحكمة موضوع الفصل الثالث من الباب ، ويلاحظ في الشكوى ـ وهي من الوان حكمتهم ـ انها تصور الانسان محاصـــرا بين الموت المبكر والحرمان من بهجة العيش وبين الشيخوخة والضعف .. ومن الشكوى ـ بناء على هذا التصور ـ ما يشكو من مفاجأة الدهر وما يشكو من عمله غير المنظور ومن هذا شعر المعمرين والشيوخ وهو كثير في العربية . اما الموعظة فالعام منها اساسه السخرية من انشغال الانسان بمصالحه اليومية عن مشاكل وجوده وبعض هذه المواعظ العامة يحث على الثقة بما عنـــد الله ويلمح الى الآخرة . وبعض المواعظ يوجه الى جماعة او شخص بعينه ، وهي تخوف الظالم والمغتر من مثل مصير المظلوم والضعيف لان الدهر لا يبقي على أحد .. او تحذر من

عقوبة الله وغالب الحكمة يعبّر عن جبرية الجاهلية المتشـائمة التي ترى ان الانسان شر بطبعه وان المرأة فطرت على الخيانة وان خلق الانسان ارث من آبائه او فطرة طبع عليها ولا حيلة له في صفاته وخلقه ولا يخرج على هـذه الجبرية المتشائمة غير الثقة بعدالة غيبية لا تسمح بانتصار الظالم او نجاته .. وقد ادى ذلك الى تنصل الشعراء من الظلم وزعمهم انهم لا يحاربون ابتداء الا في حق .. وادى ذلك ايضا الى وضوح في مفاهيم العدالة فجاء الشعر بصفة الحاكم العادل والقضاء المستقيم وجاء يحمل مصطلحات قضائية دقيقة . ويبدو تقديس الجاهلية للقوة قبل كل قيمة في رفض الناس الاقرار للظلم .. فهم اما ان يردوه بالقوة أو بالارتحال عن دار الضيم .

والباب الثالث دراسة فنية ويستقل فصله الاول بدراسة القصة .. ومن قصص الحيوان التي يدرسها قصة الوعل الآمن في ذرى الجبال وهو لا ينجو من الدهر ، وقصة الجوارح التي تتخذ اوكارا في القمم وتنقض بعد ليلة باردة على صيد تراه فاما ان تصيده او تخفق ، والجوارح مما تشبه به الخيل في غير الرثاء مما يدل على ان الخيل رمز مفرح . وقصة حمار الوحش وبقر الوحش الـذي تصيده الكـلاب ويرميه الصياد في الرثاء وينجـو منهمـا في غيره وهما مما تشبه به الناقة في غير الرثاء مما يرجح كونها رمزا مفرحا ويجعل الصياد رمزا للقدر وهو يصور في شعرهم غير القصصي راميا للانسان بسهامه. ومن قصص الانسان القصص التاريخي ويلاحظ ميل بعض الشعراء له .. وهم يختارون قصصهم من التاريخ المعروف غير المنتشر ويميـلون الى الطرافة في اختيارهم .. اما القصص الشائع فيشار اليه . ومن الانسان ما يختار الانسان الاعتيادي ، وهو يشبه قصص الحيوان لان بعضه يرد في سياق قصص الحيوان في الرثاء ، فهو انسان منيع يصيبه الدهر ، وبعضه الآخر يشبه قصة الام من الحيوان التي تفقد ولدها ، والشاعر يشبه عاطفته بعاطفة هذه الام كما يفعل بقصة الام من الحيوان . والقصة في الغالب تستخدم استخدام المثل ولذلك تأتي مطابقة للـمثل له مما يلون القصة المعادة ، ولذلك أيضاً كانت القصـة استطرادا تتحكم في امتداده رغبة الشاعر لا حاجة القصيدة .. وهذا يجعـل

القصة التاريخية خاصة تبدو كأنها قد زيد فيها .. اما الحوار فهو عنصر يضعف الشعر لانه يدخل فيه الفاظا وتعابير نثرية ضرورية لنقل اي حوار .

والفصل الاخير دراسة للجوانب الفنية الاخرى ومنها الصورة الفنية. ويلاحظ عليها التشاؤم غالبا فهي تصور الحياة عارية مردودة أو حلما ذاهبا أو متاعا زهيدا وتشبه الانسان في ضعفه بالغصن يكسر وفي قصر بقائه بالشهاب يتألق لحظة وتصور المعمر كالفرخ الضعيف يحيا حياة النساء في البيت وتصوره كلا على غيره ، ومن هذه الصور ما هو من البيئة مباشرة كصورة أكل الحيوان للميت ، ومنها التاريخي كالرمز للموت بسحابة ثمود، ومنها التي تستند الى تأويل خاص مثل الكناية عن الموت بالماء والوطب الفارغ وعن الدفن باضلال الميت ، ومعظم هذه الصور نابع من الافكار الجادة وليس من صور الزينة التي يمكن اسقاطها . ولغة الشعر مدار البحث عربية خالصة ليس فيها من الدخيل ما يذكر . وهي لغة تحمل من الالفاظ ما يعتبر شاهدا على قدرتها على الارتفاع عن مستوى الحاجة اليومية والخطاب المعتاد . ومن هذه الالفاظ الحق والباطل والخير والشر والعدل والظلم ومنها الصلاح والفساد بمعنى البقاء والفناء وهما شائعان في شعر الجاهلية ثم انهما استعملا في القرآن الكريم . وقد جاءت افكار الشعراء في الحياة والموت احيانا في صورة تعقيب يحمله بيت أو بيتان على افكار القصيدة . وجاء احيانا اخرى في قصائد كاملة موحدة الغرض كما جاء في الرثاء والموعظة ، وجاءت بعض أفكارهم في المطولات المتعددة المواضيع .. وهي تعبر عن شعور واحد في مجموعها كالقوة امام القدر أو التخاذل امام الاحداث . وهذا الفهم لبعض المطولات مستند الى نتائج البحث التي سبق الوصول اليها كفهم ما يرمز اليه قصص الحيوان ومعرفة ما يوحي به وصف المطر والتداعي بين بعض مواضيع الوصف ..

وبعد .. فاني ارجو ان لا أكون اسأت الى موضوع البحث ، وان لا يكون ما بلغ اليه جهدي أوهاما احملها تاريخ الجاهلية وشعرها .. وهو شاهد اصالة الامة الذي حاطته بالامانة والعناية ووجهت اليه في رسالة الله تعالى اليها وفهمها . فان أكن واهما في بعض ما ذهبت اليه فما كان ذلك عن رغبة في معاندة الحقيقة أو ميل الى الرأي الطريف .. واستغفر الله مما أدري وما اجهل من شر النفس واصلي وأسلم على محمد رسول الله وآله وصحبه.

المصـادر

- الآثار الباقية : البيروني - تحقيق س . ادورد سخاو - ليزك ١٩٢٣
- اخبار فطاركة كرسي المشرق : عمرو بن متي - تصوير مكتبة المثنى ببغداد عن طبعة روما ١٨٩٦
- اخبار المراقشة واشعارهم : السندوبي - الاستقامة بمصر ١٩٣٩
- اخبار مكة : الازرقي وستفيلد - ليزك ١٨٥٨
- اساليب الصناعة في شعر الخمر والناقة : د . محمد حسين - منشأة المعارف ١٩٦٠
- اسباب النزول : الواحدي - الباب الحلبي بمصر ١٩٥٩
- الاستيعاب : ابن عبدالبر - الهند ١٢٨٠
- اسد الغابة : ابن الاثير - تصوير ايران عن طبعة الهند ١٩١٣
- الاشتقاق : ابن دريد - تحقيق - عبدالسلام هارون - السنة المحمدية بمصر ١٩٥٨
- الاصابة : ابن حجر - الشرقية بمصر ١٩٠٧
- الاصمعيات : الاصمعي - تحقيق - احمد محمد شاكر - دار المعارف ١٩٥٥ وعبدالسلام هارون بمصر .
- الاصنام : ابن الكلبي - تحقيق - احمد زكي باشا - الاميرية بمصر ١٩١٤
- الاغاني : الاصفهاني - مصور عن طبعة دار الكتب المؤسسة المصرية ١٩٦٣
- الاغاني : الاصفهاني - الساسي - التقدم بمصر ١٣٢٣
- الاكليل : الهمداني - تحقيق الكرملي - بغداد ١٩٣١
- امالي القالي وذيل الامالي : القالي - دار الكتب بمصر ١٩٢٦ والنوادر
- انساب الاشراف : البلاذري - تحقيق د . محمد حميدالله - دار المعارف بمصر ١٩٥٩ .
- انساب الخيل : ابن الكلبي - تحقيق احمد زكي باشا - دار الكتب بمصر ١٩٤٦ .
- انيس الجلساء : احد الاباء اليسوعيين الكاثوليكية بلبنان ١٨٨٨
- ديوان الخنساء :

- ايام العرب في الجاهلية : احمد محمد جاد المولى وآخرون – البابي الحلبي بمصر ١٩٥٢
- البدء والتاريخ : مطهر بن طاهر المقدسي – كليمان هوار اوربا ١٨٩٩ - ١٩١٩ .
- البداية والنهاية : ابن كثير – السعادة بمصر ١٩٣٢
- بلوغ الارب : الآلوسي – اشراف الاثري – دار الكتاب العربي بمصر « الطبعة الثالثة » .
- البيان والتبين : الجاحظ – تحقيق عبدالسلام هارون – لجنة التاليف والترجمة والنشر . مصر ١٩٤٨ .
- تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان – اشراف د . شوقي ضيف – الهلال بمصر ١٩٥٧ .
- تاريخ ابن الاثير « الكامل » : ابن الاثير – المنيرية بمصر ١٣٤٨
- تاريخ الادب العربي « الجاهلية » : د . شوقي ضيف – دار المعارف بمصر ١٩٦١ .
- تاريخ امراء غسان : نولدكه – ترجمه قسطنطين زريق وبندلي جوزي – بيروت ١٩٣٣ –
- تاريخ الادب العربي : بلاشير – ترجمه د . ابراهيم كيلاني – دمشق ١٩٥٦
- تاريخ الطبري جـ١ – ٢ : الطبري – محمد ابو الفضل ابراهيم – دار المعارف بمصر ١٩٦٠
- تاريخ العرب قبل الاسلام : د . جواد علي – بغداد ١٩٥٥ جـ٤ – ٨
- التاريخ العربي القديم : رودكاناكيس . جرومان ، نلسن ، هومل – ترجمة واضافه د . فؤاد حنين – النهضة بمصر ١٩٥٨ .
- تاريخ اللغة العربية : جرجي زيدان – الهلال بمصر ١٩٠٤
- تاريخ اليعقوبي . اليعقوبي – النجف بالعراق ١٩٥٨ .
- تاريخ اليهود : ولفنسون – نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر – الاعتماد بمصر ١٩٢٧ .
- تفسير الرازي : الرازي – البهية بمصر ١٩٣٧
- تفسير الزمخشري « الكشاف » : الزمخشري – الاميرية بمصر ١٣١٨
- تفسير الطبري « جامع « البيان : الطبري – احمد محمد شاكر – دار المعارف بمصر ١٩٦٠ .
- تفسير الطبري : الطبري – الاميرية بمصر ١٣٢٩

ـ تفسير القرطبي « جامع الاحكام » القرطبي ـ دار الكتب بمصر
ـ تفسير ابن كثير : ابن كثير ـ المنار ١٣٤٣هـ
ـ التشبيه : البكري ـ تحقيق الاب صالحاني ـ دار الكتب بمصر ١٩٢٦
ـ جمهرة اشعار العرب : القرشي ـ بيروت ١٩٦٣
ـ جمهرة انساب العرب : ابن حزم ـ تحقيق عبدالسلام هارون ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٢ .
ـ جمهرة نسب قريش : الزبير بن بكار ـ تحقيق احمد محمد شاكر ـ المدني بمصر ١٣٨١هـ .
ـ حماسة البحتري : البحتري ـ تحقيق كمال مصطفى ـ الرحمانية بمصر ١٩٢٩ .
ـ الحماسة البصرية : ابن ابي الفرج البصري ـ تحقيق د . مختارالدين احمد ـ الهند ١٩٦٢ .
ـ حماسة ابن الشجري : ابن الشجري ـ تحقيق دائرة المعارف العثمانية ـ الهند ١٣٤٥ .
ـ الحماسة : شرح المرزوقي ـ تحقيق احمد امين وعبدالسلام هارون ـ لجنة التاليف والترجمة والنشر ـ ١٩٥١ .
ـ الحماسة : شرح التبريزي ـ بولاق ١٢٩٦
ـ الحيوان : الجاحظ ـ تحقيق عبدالسلام هارون ـ لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٣٨
ـ خزانة الادب : البغدادي ـ الاميرية بمصر ١٢٩٩
ـ دراسات في الادب العربي « شعر ابي داود الايادي » : غرنباوم ـ ترجمة د . احسان عباس وآخرون ـ بيروت ١٩٥٩ .
ـ ديوان الاعشى الكبير : رواية ثعلب ـ شرح د . محمد حسين ـ النموذجية بمصر ١٩٥٠ .
ـ ديوان امرىء القيس : رواية الاصمعي والمفضل وغيرهما ـ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٤ .
ـ ديوان امية بن ابي الصلت : جمع بشير يموت ـ بيروت ١٩٣٤
ـ ديوان اوس بن حجر : جمع وتحقيق دكتور محمد يوسف نجم ـ بيروت ١٩٦٤ .
ـ ديوان بشر بن ابي خازم : تحقيق دكتور عزة حسن ـ دمشق ١٩٦٠
ـ ديوان تميم بن ابي بن مقبل : تحقيق دكتور عزة حسن ـ دمشق ١٩٦٢
ـ ديوان حاتم الطائي : تحقيق ر . حسون ـ لندن ١٨٧٢

– ديوان الحطيئة : رواية السكري والسجستاني وابن السكيت – تحقيق نعمان امين طـه – البابي الحلبي بمصر ١٩٥٨
– ديوان حميد بن ثور : مصور من طبعة دار الكتب جمع وتحقيق عبدالعزيز الميمني – الدار القومية بمصـــر ١٩٦٥ .
– ديوان الخرنق : الاباء اليسوعيين – الكاثوليكية ببيروت
– ديوان سـلامة بن جندل : هوارث – باريس ١٩١٠
– ديوان طرفـه : تحقيق د . علي الجندي – الرسالة بمصر ١٩٥٧
– ديوان طفيل الغنوي : تحقيق كرنكو – لنـــدن ١٩٢٧
– ديوان عبيد بن الابرص : تحقيق د . حسين نصار – البابي الحلبي بمصر ١٩٥٧ .
– ديوان عدي بن زيد : تحقيق عبدالجبار المعيد – بغـداد ١٩٦٥
– ديوان عروة بن الورد : الاهليـة بيروت
– ديوان عمرو بن قميئة : تحقيق شارلس ليال – كمبرج ١٩١٩
– ديوان قيس بن الخطيم : تحقيق د . ابراهيم السامرائي واحمد مطلوب – بغـــداد ١٩٦٢
– ديوان المتلمس : تحقيق فولرس – ليبـزك ١٩٠٣
– ديوان المعاني : العسكري – تحقيق كرنكو – القدسي بمصـــر ١٣٥٢
– ديوان النابغة الزبياني : رواية السكري وابن السكيت وغيرهما – نشر علي مكي – بيروت ١٩٥٨
– ديوان الهذليين : «مصور عن طبعة دار الكتب» – الدار القومية بمصر ١٩٦٥
– رســائل الجاحظ : الجاحظ – تحقيق عبدالسلام هارون – السنة المحمدية بمصـــر ١٩٦٤–١٩٦٥
رســالة الغفران : المعري – تحقيق دكتورة بنت الشاطيء – دار المعارف بمصـــر ١٩٥٠
– الروض الانف : السهيلي – الجمالية بمصـــر ١٩١٤
– شرح ديوان حسـان : البرقوقي – السعادة بمصـــر ١٩٢٩
– شرح ديوان زهير : ثعلب – « مصور عن طبعة دار الكتب» – الدار القومية ١٩٦٤ .
– شرح ديوان كعب بن زهير : السكري « مصور عن طبعة دار الكتب » الدار القومية ١٩٦٥
– شرح ديوان لبيد : الطوسي – تحقيق د . احسان عباس – الكويت ١٩٦٢

- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات : ابو بكر بن الانباري - تحقيق عبدالسلام هارون - دار المعارف بمصر ١٩٦٣ .
- شرح القصائد العشر : التبريزي - تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد - السعادة بمصر ١٩٦٤ .
- شرح المعلقات السبع : الزوزني - تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد - السعادة بمصر ١٩٦٤ .
- شعراء النصرانية : جمع لويس شيخو - الكاثوليكية بلبنان ١٨٩٠
- شعر ابي زبيد الطائي : جمع وتحقيق دكتور نوري القيسي - بغداد ١٩٦٧
- شعر المثقب العبدي : تحقيق الشيخ محمد حسين آل ياسين - بغداد ١٩٥٦
- شعر النابغة الجعدي : جمع وتحقيق عبدالعزيز رباح - دمشق ١٩٦٢
- الشعر والشعراء : ابن قتيبة - « اضافة دكتور احسان عباس ومحمد يوسف نجم على نشرة دي غوي » - بيروت ١٩٦٤
- الصابئون في حاضرهم وماضيهم - السيد عبدالرزاق الحسني - صيدا - لبنان ١٩٦٣ .
- صحيح مسلم : شرح النووي - المصرية بمصر ١٩٢٩
- صبح الاعشى : القلقشندي - الاميرية بمصر ١٩١٣
- الصبح المنير في شعر ابي بصير - جاير - فينا ١٩٢٧
- الصناعتين : العسكري - تحقيق البجاوي وابو الفضل ابراهيم - البابي الحلبي بمصر ١٩٥٢
- طبقات فحول الشعراء : ابن سلام الجمحي - تحقيق احمد محمد شاكر - المعارف بمصر ١٩٥٢ .
- الطبقات الكبرى : ابن سعد - تحقيق ادورد سخاو - ليدن ١٩٢٥
- الطرائف الادبية : جمع وتحقيق عبدالعزيز الميمني - لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٣٧
- «شعر الافوه الاودي والشنفري »
- العقد الفريد : ابن عبد ربه - تحقيق احمد امين وآخرين - لجنة التاليف والنشر ١٩٥٦ .
- العمدة : ابن رشيق القيرواني - محمد محيي الدين عبدالحميد - السعادة بمصر ١٩٥٥ .
- عيار الشعر : ابن طباطبا العلوي - تحقيق د . الحاجري ود . محمد زغلول سلام - التجارية بمصر ١٩٥٦ .

- عيون الاخبار : ابن قتيبة - « مصور عن طبعة دار الكتب » - المؤسسة المصرية العامة ١٩٦٢ .
- الفائق في غريب الحديث : الزمخشري - تحقيق البجاوي وابو الفضل ابراهيم - البابي الحلبي بمصر ١٩٥٥ .
- فجر الاسلام : احمد امين - لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٥٥
- الفصل : ابن حزم : الادبية بمصر ١٣١٧
- الفهرست : ابن النديم - الاستقامة بمصر ١٣١٧
- قلائد الجمان : القلقشندي - تحقيق ابراهيم الابياري - دار الكتب الحديثة بمصر ١٩٦٢
- الكامل في الادب : المبرد - تحقيق زكي مبارك وآخرين - البابي الحلبي بمصر ١٩٣٦
- كتاب الخراج : ابن آدم القرشي - تحقيق احمد محمد شاكر - السلفية بمصر ١٣٤٧
- كتاب المعمرين : السجستاني - تحقيق جولد زيهر - ليدن ١٨٩٩
- كتاب الفحول : السيوطي - « هامش الجلالين » - دمشق ١٢٧٩
- اللآلي : البكري - تحقيق عبدالعزيز الميمني - لجنة التاليف والترجمة والنشر - ١٩٣٦ .
- المؤتلف والمختلف : الامدي - تحقيق كرنكو - القدسي بمصر ١٣٥٤
- المبهج في تفسير اسماء شعراء الحماسة ابن جني - دمشق ١٣٤٨ . شعراء الحماسة
- مجاز القرآن : ابو عبيدة - تحقيق د . فؤاد سزكين - السعادة بمصر ١٩٥٤
- مجالس ثعلب : ثعلب - تحقيق عبدالسلام هارون - دار المعارف بمصر ١٩٤٩ .
- مجالس العلماء : الزجاجي - تحقيق عبدالسلام هارون - الكويت ١٩٦٢
- مجمع الامثال : الميداني - البهية بمصر ١٣٥٢
- مجموعة الامثال : مؤلف مجهول - الجوائب بتركيا ١٣٠١
- المحبر : ابن حبيب - « تصوير المكتب التجاري ببيروت » - تحقيق دكتورة ايلزه ليختن شتيتر ونشر دار المعارف العثمانية - الهند - ١٣٦١
- مختارات ابن الشجري : ابن الشجري - تحقيق محمود حسن زناتي - الاعتماد بمصر ١٩٢٦
- مختار الشعر الجاهلي : رواية الاعلم الشنتمري - تحقيق مصطفى السقا - البابي الحلبي بمصر ١٩٤٨ .

- مروج الذهب : المسعودي ـ تحقيق محمد محيي‌الدين عبدالحميد ـ الرجاء بمصر ١٩٤٨ .
- مسند احمد : الامام احمد بن حنبل ـ الميمنية بمصر ١٣١٣
- المعارف : ابن قتيبة ـ تحقيق . ثروت عكاشه ـ دار الكتب بمصر ١٩٦٠ .
- المعاني الكبير : ابن قتيبة ـ تحقيق دائرة المعارف العثمانية ـ الهند ١٩٤٩
- معاهد التنصيص : العباسي ـ البهية بمصر ١٣١٦
- معجم البلدان : ياقوت ـ السعادة بمصر ١٩٠٦
- معجم الشعراء : المرزباني ـ تحقيق كرنكو ـ القدسي بمصر ١٣٥٤
- معجم ما استعجم : البكري ـ تحقيق مصطفى السقا ـ لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٤٥ .
- المفردات في غريب القرآن : الراغب الاصفهاني ـ تحقيق محمد سيد كيلاني ـ البابي الحلبي بمصر ١٩٦١
- المفضليات : المفضل الضبي ـ تحقيق احمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون ـ دار المعارف بمصر ١٩٥٢
- الملل والنحل : الشهرستاني ـ تحقيق محمد سيد كيلاني ـ البابي الحلبي بمصر ١٩٦١ .
- منتهى الطلب : محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون ـ مخطوط دار الكتب ـ ادب ١٢٦٣١
- الموشح : المرزباني ـ تحقيق البجاوي ـ نهضة مصر ١٩٦٥
- النزاع والتخاصم : المقريزي ـ الابراهيمية بمصر ١٩٣٧
- نسب عدنان وقحطان : المبرد ـ تحقيق عبدالعزيز الميمني ـ لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٣٦
- النصرانية وآدابها : لويس شيخو ـ الكاثوليكية بلبنان ١٩١٢ .
- نقائض جرير والفرزدق : ابو عبيده ـ تحقيق بيفان ـ ليدن ١٩٠٧ « تصوير المثنى ببغداد » .
- نهاية الارب : النويري ـ دار الكتب بمصر ١٩٣٠
- نهاية الارب : القلقشندي ـ تحقيق ابراهيم الابياري ـ الشركة العربية بمصر ١٩٥٩ .
- النهاية في غريب الحديث : ابن الاثير ـ العثمانية بمصر ١٣١٠
- النوادر : ابو زيد الانصاري ـ تحقيق سعيد الخوري الشرتوني ـ الكاثوليكية لبنان ١٩٤

- الهجاء والهجاؤون : دكتور محمد حسين - الاداب بمصر
- الوحشيات : ابو تمام - تحقيق عبدالعزيز الميمني واحمد محمد شاكر - دار المعارف بمصر ١٩٦٣ .
- وفيات الاعيان : ابن خلكان - تحقيق محمد محيي‌الدين عبدالحميد - النهضة المصرية ١٩٤٨ .
- دائرة المعارف الاسلامية - « الانكليزية والعربية »
- لسان العرب - طبعة صادر وبولاق
- تاج العروس - طبعة الخيرية بمصر ١٣٠٦ هـ
- المقتطف السنة (١٩) - مقالة في اساطير العرب لمحمد المويلحي
- المجلة البطريركية السنة الرابعة - الشهداء الحميريون العرب في الوثائق السريانية » تصدر في دمشق » البطريرك مار اغناطيوس يعقوب الثالث .



الفهرست

تصميم الغلاف : راجحة القدسي

الخطوط : رضا الخطاط

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
١٠٢٩ لسنة ١٩٧٧

دار الحرية للطباعة ـ بغداد

١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م

الجمهورية العراقية
وزارة الاعلام
بغداد

دار الحرية للطباعة
١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م

توزيع الدار الوطنية للنشر والتوزيع والاعلان

السعر ٣٥٠ فلساً